سلسلة

"النوابغ"

5

أَنا

الأُخت إِيمّانويل

أَشهد ...

أَديب مصلح

مقدّمة

" كلّ الموادّ مجتمعة لا تستطيع إنتاج فكرة واحدة ، و جميع الأفكار مجتمعة
لا تقوى على إنتاج فعل محبّة واحد ، فهو من مستوى آخر "

باسكال

واحد و تسعون ربيعاً عمرها ، و هي ما برحت شابّة، بقلبها المشرع على الله و البشر ، بعينيها اللتين تحاكيان سماء الربيع زُرقةً و صفاءً ؛ بنظرتها التي لا تحطّ إلاّ على أكثر ما في الوجود سنًى و إشراقاً ؛ بصوتها الذي ما انفكّ نديّاً ، عذب الجرس ، رنّاناً ؛ بضحكتها المعبّرة عن فرحٍ عميق الغور ، و سكون نفسٍ ذائبة في الله ، بثورتها التي ما فتئت متأجّجة على كلّ ظلمٍ يحطّ من كرامة بشرٍ منبوذين ، ترى فيهم أبناء الله الأثيرين ، و على كلّ ما ينتقص من شريعة المحبّة ، أو يحدّ من اندفاعها ؛ و بتوثّب نفسها نحو كلّ ما من شأنه إسعاد المحرومين ، و إعتاق المسحوقين من أغلال الفاقة و البؤس .

وجهها المغضَّن الذي حفرت فيه سنوات الجهد ، و مقارعة بؤس الآخرين ، أخاديدَ لزيزة ، يروي قصّة حبّ رائعة و فريدة ، لم تنتهِ ، و لن تنتهي .

وُلدت عام 1908 بين أحضان أُسرة موسرة يغمرها الفرح و الحبّ ؛ و لكنّها فُجعت ، و هي في السادسة من عمرها ، بفقدان والدها الذي أطاحت به أمواج البحر العاتية ، فيما هي كانت تعبث على رمال الشاطئ . و مذّاك واكبها شعور عميق بهشاشة السعادة الأرضيّة ، و

قابليّتها للزوال الخاطف ؛ و أَطلقت المأساة ، في نفسها، براكين تمرّدها الفطريّ ؛ و قد تميّزت ، منذ طرواة عودها ، بطبعٍ جيّاش ، ثائر ، صعب المراس .

غير أنّ فترة تأهّبها للمناولة الأولى ، و هي في العاشرة ، قد أَماطت أَمام عينيها اللثام عن عالَم قشيب ، و عن حبٍّ إِلهيّ لا يطاله الزوال و لا الوهن ، وأَلهبت خيالَها صُوَرُ المرسلين الذين استشهدوا في مجاهل أَفريقيا ، في سبيل التعريف بحبّ يسوع للبشر ؛ و فتنتها قصّة "الأَب داميان " الذي اختار العيش بين البرص ، لكي ينفث في نفوسهم الأَمل و مُني ، هو نفسه ، بعدوى البَرَص ، فقضي شهيد حبّه للمنبوذين .

و نشب بنفسها جاذب المطلق ، و اتّقدت لديها الرغبة في أَن تصبح مرسلةً وشهيدة ، و قدّيسة ، و كان عليها ، في سبيل ذلك ، أَن تشنّ على ذاتها حرباً لا هوادة فيها ، حرباً على طبعها الحادّ المتمرّد ، وحرباً على طبيعتها الجيّاشة التي كانت تدفعها دفعاً تعسُر مقاومته نحو اقتناص مفاتن الحياة .

كانت تتنازعها دوافع متنابذة ، و لمّا أَعلنت عن اعتزامها اعتناق الحياة الرهبانيّة ، سخر منها الجميع ، غير أَنّ حبّ الله كان هو الأَقوى ، و في سبيله وقفت ذاتها إِلى الأَبد ، عندما أَبرزت نذورها الرهبانيّة ، و هي في ربيعها الثالث والعشرين؛ و مُذّاك عاشت مع الربّ و الفقراء قصّة حبّ لا أَسمى و لا أَروع .

و حسبُنا المقارنة بين صورتين لها ، صورتها و هي في العشرين من العمر تزدهي بأَناقتها ، و جمالها ، و استقلاليّتها ، و صورتها و هي في خريف العمر ، بين جامعي النفايات ، و قد حفرت الغصون في محيّاها أَخاديد ، و نطق زيّها الرثّ بالفقر و التجرّد ، كي نتبيّن ما يمكن للحبّ الفاعل ، و للإِرادة البشريّة التي تساندها النعمة الإِلهيّة ، من تطوّر و تصعيد .

و انضمّت إِلى جميعيّة رهبانيّة مهمّتها الرئيسة التدريس ، و توسَّمت في التدريس رسالةً و خدمة ، فآثرت أَبداً تدريس الفقراء الصغار الذين كانت تساندهم على تجاوز لعنة الفقر ، و ترسّخ فيهم الثقة بذواتهم ، و تقودهم برفق و حزم ، وبحبٍّ جمّ ، نحو مستقبل أَفضل .

و عندما كانت تؤمر بتدريس فتيات غنيّات كانت تجهد في إِشراع أَذهانهنّ وقلوبهنّ على مآسي شعبهنّ ، و حملهنّ على المشاركة المحبّة ؛ و قد أَثمرت جهودها تلك في استنبول حيث قضت جلّ فترة مسيرتها التدريسيّة ، فسعدت ، و أَشاعت السعادة . و لكنّها فشلت في تونس ، ثمّ في الإِسكندريّة ، فأبت أَن تكون مجرّد معلّمة تلقّن موادّ برامج ثقافيّة لفتيات غير

مباليات بمحيطهنّ البائس ، و هدّدت بهجر جمعيّتها ما لم تكلّف بتدريس الفتيات الفقيرات حيث يتسنّى لها بذل كنوز حبّها ، وتحقيق رسالتها .

فمع التزامها بنذر الطاعة ، لم يمُت روح التمرّد فيها ، فرفضت مسايرة التقاليد الخاطئة ، و الاستكانة إلى العادات السائدة إن هي وجدت فيها انتقاصاً لشريعة المحبّة ، و تعاليم الإنجيل . و من ثمّ لم تتحرّج من إثارة الفضائح ، في استنبول، باصطحابها تلميذاتها البورجوازيّات إلى الأحياء البائسة ، و حملهنّ على اختبار مشقّة العمل في المصانع على غرار العمّال الكادحين ، ثمّ بتولّيها الدفاع عن فوتيوس ، واختلافها ، مع بعض تلميذاتها ، إلى الكنائس الأورثوذكسيّة ، و التقائها البطريرك أثيناغوراس ، سنوات قبل هبوب ريح المسكونيّة ، و انعقاد المجمع المسكونيّ .

و أثارت فضيحة أخرى في الإسكندريّة عندما آثرت على ديرها الهانئ الآمن كوخاً في حيٍّ مدقع الفقر كي تستطيع إغاثة إخوتها الفقراء ، و إقامة الدليل على أنّها تحبّهم، حقّاً ، بمشاطرتهم حياتهم بكلّ ما تنطوي عليه من بؤس و حرمان ؛ و عندما بلغت سنّ التقاعد ، في الثانية و الستّين من عمرها ، قرّرت أن تحقّق تحقيقاً كاملاً حلم صباها بالعيش مع أفقر الفقراء ، و أشدّ المحرومين بؤساً ، فأقامت مع " زبّالي القاهرة " ، و عاشت مثل عيشتهم الزريّة ، شاهدةً على حبّ الله لهم،و بتؤدة، أعادت لهم ثقتهم بذواتهم ، و طوّرت أوضاعهم المعيشيّة و الثقافيّة و الإجتماعيّة و جعلت منهم بشراً واقفين على أرجلهم ، فخورين بكرامتهم .

اُتّهمت بالتهوّر ، و لكنّه تهوّر الحبّ ، و بمنجزاتها المذهلة أثبتت أنّ نهجها كان هو القويم . و عُدّت " هامشيّة ثوريّة " و " منحرفة خطيرة " ، حتّى في نظر جمعيّتها و كنيستها ؛ أمّا الآن ، وفي أعقاب المجمع الفاتيكاني الثاني ، فقد باتت تجسّد خير ما في الكنيسة . و بات ما عاشته ، و شهدت له ، هو ما يجتذب الشباب نحو الكنيسة ؛ و من المحقّق أن ليست هي التي تغيّرت ، بل الكنيسة هي التي عادت إلى الجذور ، إلى رسالة يسوع الأصيلة . و ميزة الأُخت إيمّانويل أنّها استبقت الكنيسة ثلاثين عاماً ، لأنّها قرأت بتمعّن تلك الرسالة التي أشعّت على الكون منذ ألفي عام ، و حرصت على تنفيذها بحذافيرها .

سرّها أنّها عاشت ، منذ صغرها ، حلماً ، و آمنت بهذا الحلم ، و تشبّثت به ، و بعد أربعين سنة من التدريس ، و بما واكبه من نجاح و فشل ، و من تحفّز و جهد، لم يبارحها حلمها . و في السنّ التي يفزع فيها عموم الناس إلى التقاعد و التواني ، خاضت مخاطرة يتهيّبها اندفاع الشباب ، و هي تردّد مع القدّيس بولس : سأقوى على كلّ شيء بمن يقوّيني .

مخاطرة بدت للجميع مغامرة مستحيلة ، غير مضمونة العواقب ، و محفوفة بالمهالك ، بل انتحاريّة . و لكنّ حلمها بتخفيف معاناة المحرومين ، و مشاركتهم مصيرهم كان دافعاً لا يُقاوَم ، فانطلقت في إثره ، و فازت به ، و أَثبتت " أَنّ السعادة إِن هي إِلاّ حلم شباب تحقّق في الكهولة " . و أَقامت الدليل على أَنّ المستحيل ، إِن كان متعذّر التحقيق ، غير أَنّ الحرص على تحقيقه ، عندما يصبح هو النبراس الهادي ، و الدافع الملحاح ، يولّد طاقةً خارقة يتعذّر تخمين قدراتها ، و يُحدث من المنجزات ما يُذهل .

أَو لم يقل الشاعر ر . شار : " لا يجيد المرء الكفاح إِلاّ في سبيل الأَهداف التي يصوغها بنفسه ، و التي بها يلتهب ؟ "

و كان عوناً لها على إِصابة مراميها تفاؤلٌ راسخ لا يستصغر أَيّ إِنجاز مهما ضؤل ، على حدّ تصريحها :" أَحمد الله إِذ إِنّني ، بفطرتي، لا أَنظر إِلاّ إِلى الإِيجابيّ، و لو كان قطرة ماء ... فحتّى لو لم أُفلح في إِنقاذ إِلا ولد واحد ، فلن يثبّطني عجزي عن إِنقاذ التسع مئة الآخرين . فلو قضيت وقتي في التحسُّر على كلّ ما يجري في العالم و في قريتي ، و لا أَستطيع علاجه ، إِذن لأُصبت بالشلَل . و لكنّني إِذ أُحدّق في القطرة الصغيرة و أَشكر الله من أَجلها ، و أَمضي قُدُماً في سعيي إِلى مضاعفة طاقات مساعدتي " .

و قد صرّحت في مكان آخر : " يحملني طبعي على نبذ السلبيّ ، فأنا لا أَرى الحياة مجلّلة بالسواد ، بل أَراها زاهية باللون الزهريّ و غارقة في النور . و هذا ما أَتاح لي ، أَثناء عبوري ببشريّة مثقلة بالوهن ، و مسؤولة ، أَحياناً ، عن أَفعالٍ مريعة، أَن أَكتشف ، في سماءٍ قاتمة ، ركناً صغيراً مضيئاً يوحي بالأَمل . و هكذا أَحتفظ بكلّ حيويّتي للصراع ، مستمدّة زخماً من كلّ مولّدات الحياة ، و هي كثيرة . "

و قد شهد من عايشوها أَنّها "***تنضح الرجاء*** " ؛ و الذين زاروها في قرى الصفيح ، و في حين كانت روائح التفسّخ ناشبة بحلوقهم و آنافهم ، كانت تأخذ الرقّة بقلوبهم حيال قوّة الحبّ المنبعثة منها . فهي تنضح فرح الحياة ، و تجعل محاوريها الأَكثر تحسُّساً بالتـــقزّز ، يشعرون بالسعادة ، وسط الأَقذار و المنفّرات ، و يؤمنون بصدقها عندما تردّد : " الحياة جميلة " و " الحياة أَقوى من الموت " . فهي، التي رأت الصليب يُفضي إِلى القيامة، آمنت بعمق أَنّ الحياة هي المنتصرة أَبداً ، مع كلّ ما يعتورها من أَوهان ، و كبوات ، و سقوط .

مذ أَفاقت على البؤس الناشب بفئات عريضة من البشر ، و قرعت سمعَها صيحات المحرومين ، اهتاجت في نفسها الرغبة في أَن تصيح " لا " في وجه البؤس، و الأَلم ، و الظلم ؛ و صيحة الرفض عندها إِنّما هي تحفّز للانقضاض ، و للقضاء على أَسباب ما تثور عليه . رفضها هو عمل دؤوب عنيد ، لا يخشى الخطوة الصغيرة ، و لكنّه يأبى التوقّف ، و

التلكّؤ ، و التهالك . و قد ظلّت تدأب بلا هوادة حتّى بعد أَن تخطّت الخامسة و الثمانين ، و لم تتوقّف عن الدأب إلاّ بعد أَن أُكرهت على التقاعد إِكراهاً .

و قد وصفت اندفاعَها في العمل رفيقةُ جهادها و خليفتها ، الأُخت ساره،بقولها:

" إِنّها قاطرة تجرّ قطاراً ، و لا بدّ من كبح سرعتها ، و أَنا ، غالباً ، هذا الكابح الذي يحدّ من اندفاعها ، فأُذكرّها بأَنّه يتعذّر الاضطلاع بكلّ شيء ، و يتعذّر أَكثر الاضطلاع بكلّ شيءٍ في آنٍ واحد ، و إِلاّ أَخفق كلّ شيء . إِنّها تندفع ، و قد تغالي في الاندفاع ، و ربّما في معزلٍ عن كلّ حيطة . إِنّها تجيش لأَنّها تعيش على أَعصابها . و لكن لا بدّ من فهمها ، فقد ناضلت وحيدة ، حقبةً طويلة من عمرها ، دفاعاً عن أَفكار كانت تبدو رعناء . و الآن و قد اتّضح أَنّها كانت على صواب ، فهي تمضي مسرعةً إِلى الأَمام ولا حدود لاندفاعها. " و رفضها تعلنه ، بلا وَجَل ولا موارَبة ، في وجه كلّ من يقف عثرة في وجه نصب موازين العدل ، و كلّ من يتخاذل في معركة المحبّة ، أو يتخلّف في موكب التضحية ؛ و هذا ما شهد به أسقف الإسكندريّة ، بمناسبة الاحتفال بالذكرى الستّين لترهّب الأُخت إِيمّانويل ، إِذ اعترف بأَنّ الأُخت قد جاءت لكي تزعج الكنيسة المقدّسة، و ردّد ، في هذه المناسبة بعضاً من أَقوالها له : " أَيّها الأَب الأُسقف ، هل سيّارتك المرسيدس هي ، حقّاً ، ضروريّة لممارسة مهمّتك الرعويّة ؟ ... أَيّها الأَب الأُسقف ، علينا أَن ندعو القدّيس فرنسيس ، فبوسع هذا الفقير الصغير مساعدتنا على أَن نكون ، حقيقة ، " كنيسة خادمة و فقيرة " ... لا تصغوا لمن يريدون منعكم من اقتسام مقرّكم الأُسقفيّ مع شبّان في محنة ... "

لم تخشَ يوماً الجهر بآرائها هذه ، في حين كان من الشائع الإحتماء وراء حصون الصمت ، فوُصِفت بالمحرّضة . بيد أَنّ ما كان من أَقوالها ، آنذاك ، يُعتبَر مثاراً للشكوك ، بات اليوم ، يردّده الجميع على الملأ .

و لم يكن بوسع الأُخت أَن تدلي بمثل هذه الأَقوال ، لو لم تكن قد عاشت ، بعمقٍ و صدق ، ما دعت إِليه الآخرين . ففي شبابها ، كانت ابنة عصرها ، كَلِفة بالترّهات و المظاهر ، و كلّ حديثٍ مُبتكَر ، و تستشفّ في كلّ شيء مدعاةً للعبَث والضحك ؛ تبتغي متعة الساعة الحاضرة ، و تتذوّق كلّ مترف ، و تنشد كلّ ممعن في البذخ ؛ تسعد باستثارة إِعجاب الشبّان ، و غيرة رفيقاتها ، و لا تتهيّب شيئاً ، بل هي ، أَبداً ، متأَهّبة لكلّ الحماقات ، باسم المتعة التي تستدعيها من كلّ صوب .

و كانت ، أَيضاً ، كَلِفةً بالعلم ، تعاني جوعاً لا يرتوي إِلى المعرفة ، تلتهم المكتبات ، و في سبيل التأهّل للتدريس ، واصلت الدراسة الجامعيّة حتّى بعد أَن تجاوزت الخامسة و الخمسين من العمر .

بيد أَنّها عندما حقّقت حلم صباها ، أَقامت بين أَفقر الفقراء ، في حرمان تامّ وتجرّدت عن كلّ شيء ، عن دفاترها التي أَحرقتها ، و كتبها التي وزّعتها ، و لم تحتفظ إِلاّ بكتاب الحياة ، بالإِنجيل منبع الحبّ ، فخدمة الفقراء لا تحتاج إِلاّ إِلى الحبّ، و إِزر الربّ . و لكي تثبت لإخوتها ، جامعي النفايات ، صدق حبّها ، تمثّلت بهم ، بل بذّتهم حرماناً ، و زهدت في كلّ شيء كان يدفعها إِليه نَهَمُها الفطريّ إِلى العيش ، من لبسٍ أَنيق ، و طعام فاخر ، و مسكن وثير ، و عاشت في كوخٍ يعجّ بجميع أَصناف الفاقة و المنغّصات ، فوق القذارة المقزّزة ، ووسط كلّ ما تنبو عنه النفس و ينفر منه الجسد ، و اكتفت من الطعام بالفول ، قوت الفقراء ، أو بحساء قوامه الماء و الخبز و شيء من الملح و الزيت ، أو بكوب من الشاي يواكب الخبز الجافّ .

و لم تقتصر على تخطّي تخوم اللارفاه ، بل تخطّت أَيضاً تخوم المقاومة الجسديّة ، فهي رغم تعبها ووهنها و عمرها ، لم تكفّ عن المضيّ إِلى أَبعد فأبعد ، لا إِلى نهاية الشوط بل إِلى ما وراء نهايته .

و هي عندما تنكبّ على العناية بالمحتاجين و المرضى ، تغفل نفسها ، و لا تخشى إِرهاقاً أو اعتلالاً ، و تفقد مفهوم الوقت ، فلا تستعجل ، و لا تعدّ الوقت الذي تمضيه إِلى جانبهم وقتاً مهدوراً ، إِذ إِنّه مكرّس للإِصغاء ، و الاهتمام ، و التحدّث ، و التشجيع ، و الشرح . إِنّه وقت ثمين لتوثيق علاقات صداقة إِنسانيّة ، و غوصٍ في رحاب الله .

و في قاع هوّة الحرمان التامّ ، في ليلة صيفٍ قائظة ، افتقرت فيها إِلى كلّ شيء ، حتّى إِلى قطرة ماء ، عرفت الفرح الكامل الذي لا يتذوّقه إِلاّ من تردّى إِلى أَقصى دركات الزهد ، على نحو مافعل و علّم القدّيس فرنسيس الأَسيزيّ .

لقد قرّرت التخلّي عن " الامتلاك " لكي تمتلئ " بالكيان " فاغتنت غنىً وفيراً، وكلّما توغّلت في وهاد البؤس و شعابه ، باتت أَلصق بيسوع الذي به ، و معه ، ومن أَجله فعلت كلّ ما فعلت . و تحقّقت المفارقة ، ففي أَسحق أَغوار الزهد و الفقر ، عثرت على كنوز الغنى و الفرح و السلام .

لم تكن دائماً كاملة ، و لا دائماً قويّة ، بل عرفت اضطراب الإِيمان ، وغزوات الشكّ المريرة ، و تعرّضت لوهن الجسد ، و فترات التلاشي القاتلة ، غير أَنّها تشبّثت بمن كانت تؤنس ، في قرارة نفسها ، أَنّه ، وحده ، مرسى ثباتها ، ومعين منعتها ، و نسغ حياتها ، فبلغت السلام و السكينة و الفرح .

لقد سارت بهدي اسم " إِيمّانويل " الذي جعلت منه رمزاً لحياتها الرهبانيّة ، وقد اعترفت : " الله معي . كلّما اصطدمت بحاجزٍ مدّلي يده : " يلّه " ، اقفزي . إِنّه لأَمر سهل ،

و في متناول الجميع . أَمسكي يد الله الممتدّة ، و اقفزي ، أَيّتها النفس المسكينة ، المثقلة بأَخطائك ، و المتعثّرة بأوهانك . ثِبي نحو يد الحبّ المدودة ، وانفتحي للرجاء . "

و لئن ذاعت شهرتها ، في غروب حياتها ، إِلاّ أَنّها خبرت ، على مدى مسيرتها ، مرارة الفشل ، و جدْب الصحراء ، و كثيراً من المقاومة ، بل التشهير أَحياناً ، و لكنّها اعتصَمت ، أَبداً ، بحبل الربّ ، فنجت و انتصرت .

و لم تخشَ إِعلان أَنّها ليست خيراً من أَيّة امرأة أُخرى ، فروَت ، بلا حرج، ما تعرّضت له من تجارب ، و حيرة ، و قلق ، و اضطراب ، و من خطر الانزلاق إِلى الخطيئة ؛ و في جميع تلك الحالات ، تركها الله حرَّة ، و لكنّه وقاها ، و أَرسل لها ، على غير علمٍ منها ، ملاكاً يقيل عِثارها ، و يسدّد خطاها

شكّها ، و وهنها، و فشلها تجعلها أَقرب إِلى قلوبنا ، و ظهورها عليها جميعاً يبعث فينا الرجاء ، و يرقى بها إِلى مستوى القدوة و المثَل .

لقد كانت حياتها نسيج حبٍّ مزدوج ، حبّ للربّ ، و حبّ لأَصدقائه من البشر حاملي الصلبان الباهظة .

منذ صباها ، اختارت الربّ ، و يوم ترهّبت ، في ميعان شبابها، عقدت معه قراناً قائماً على الحبّ ، فعاشا قصّة حبٍّ مدهشة ؛ أَحبّ أَحدهما الآخر ، حبّاً جمّاً لا نهائيّاً ، و كان لهما أولاد كُثُر ، على مدى العالم .

و قد دأبت على إِنماء ذلك الحبّ ، فاعترفت : " جهود كلّ حياتي ، استهدفت تعلّم الحبّ : فهو علم لا يفرغ المرء أَبداً من تعلّمه . "

لقد آثرت يسوع على جميع الرجال ، الذين ما كان حبّ أَحدهم كافياً لملء قلبها . و نهضت حياتها كلّها دليلاً ملموساً على هذا الاختيار . يوم اقترنت به كان أَبهى يوم في حياتها ؛ و قد عبدته و خدمته ، و ابتغت دائماً إِسعاده فرعت أَبناءه ، وتوفّقت إِلى فهمه ، فأدركت أَنّه يؤثر الفرح ، و قُيّض لها أَن تحتفل ، في الفرح ، بيوبيل زواجها الذهبيّ ، ثمّ بيوبيل زواجها الماسيّ بيسوع .

و هي لا تني تردّد ، و كأَنّها تتكلّم عن زوجٍ حبيب : " إِنّه يحبّني حبّاً جمّاً ، و أَنا أُحبّه فوق كلّ شيء ... لقد سعدنا معاً ... و قد وفّر لي أَبناؤه الكثير من الفرح... إِنّه شديد الاقتضاء ، و لكن ما أَكرمه ! "

ارتمت بين ذراعيه ارتماء زوجة متيّمة : للأَفضل ، في مواجهة الأَسوأ ، وللحياة في مواجهة الموت .

و لم يكن حبّها مشاعر و أَلفاظاً ، بل كان تضحية متّصلة ، وعملاً دؤوباً على خدمة من شاء هو التمثّل بهم ، فكان بذل حياتها في سبيلهم الدليل الأَصدق على حبّها له .

إِنّها لا تتحدّث إِلاّ عن الحبّ ، و لكنّ الحبّ في مفهومها هو الله . فمذ اتّضح لها " أَنّ الحبّ ليس محبوباً " جعلت من مكافحة خطيئة عدم الحبّ قضيّتها ، واكتشفت يسوع ، الأَخ المحبّ ، في وجه كلّ إِنسان متألّم محروم من الحبّ ، و راحت تبحث عن هذا الذهب في ثنايا حمأة الشقاء ، وتحمله مرذولاً و متأَلّقاً ، و تجأر باسمه في وجه الإِنسانيّة السعيدة التي حوّلت ذلك الذهب إِلى رصاص ، وانطلقت توقظ بعنف ذلك العالم المحظيّ ، المتخوم ، الذي غفِل عن معاناة الآخرين .

لقد واجهت البؤس العارم عزلاء إِلاّ من الحبّ و الإِيمان . و حبّها لم يكن ، قطّ ، إِحساناً ، فهي تمقت أَيّة مساعدة لا يشترك فيها القلب قبل اليد و الجيب .

حبّها تعاطف و مشاركة و احترام . فهي تخترق من المحتاج رداء فاقته فتنفذ إِلى ابن الله الكامن في أَعماقه ، و حينئذٍ تعكف على خدمته بلا حدود ، في خشوع وتجلّة . و من يحبّ على هذا النحو ، يحطّ على الآخرين نظرة مختلفة عن نظرة عابر السبيل . لقد طالما شاهدت السائحين إِلى الأَهرام يهتمّون بالجمل و يتوقون إِلى التصوّر على متنه ، و عندما يلقون في يد صاحبه قطعة نقود يكادون لا يلقون على وجهه نظرة . أَمّا الأُخت إِيمّانويل فلم تُعِر الجمل ، يوماً ، بالاً ، بل كان كلّ هاجسها ينصبّ على الجمّال ، و أَبنائه المحرومين .

حبّها كان مشاركة حقّة ، و تبنّياً لمعاناة الآخرين ، و محاولة مخلصة لإِزاحتها و افتدائها . و قد ملكت عليها تلك المعاناة عقلها ، و قلبها ، و كلّ طاقاتها ، مذ ترهَّبت ، بحيث أَخذت عليها أخواتها " هَوَسها بالفقراء " ؛ و حبّها لهم كان عملاً دؤوباً ، مركَّزاً ، موجّهاً لقهر قدَر البؤس ، و تحويل مسار المصائر المبتلاة ، ظلماً ، بالحرمان .

لهذه المهمّة الجسيمة تصدَّت بقليل من الوسائل ، و بحبّ جمّ ؛ و بقوّتها الساكنة التي لا يصمد شيءٌ في مواجهتها طويلاً ، و بخطواتها التي بدأت صغيرة ، و لكن واثقة مصمّمة ، مضت تبتسم للفقراء ، و تنعشهم بندى حبّها ، و تقوّض ، بتؤدة ، دعائم البؤس الماسك بخناقهم . و شيئاً فشيئاً أَخذت مصائرهم ترتدي وجهاً أوفر إِشراقاً .

و هزّتها بعض مآسيهم ، ففاضت نفسها مرارة ، و اشتعلت غضباً مقدَّساً ، فزأرت زئير لبؤة أَحدقت بصغارها المهالك ، و انطلقت تجوب أَرجاء العالم الغربيّ ، و هي تجأر بأعلى صوتها، مذكّرة المحظيّين بمسؤوليّاتهم تجاه إِخوة تجاهلوهم ، وخاضّةً طمأنينة

ضمائرهم الغافية ، ففتحت الصناديق المترعة الموصدة ، و فجّرت ينابيع السخاء و الحميّة ؛ ووفّرت للمحتاجين إخوتها بعض ما حُرِموه ، افتئاتاً ، وأَعادت لهم بعض حقوقهم المسلوبة بالكرامة و الاحترام ، و بالحدّ الأَدنى من السكن اللائق ، و الصحّة و النظافة و التعليم .

و تجاوزت الاستجابة لصيحاتها كلّ ما توقّعت ، و تضافرت مع جهودها سواعد شباب من مختلف أَرجاء العالم أَلهب مشاعرهم مثالُها ، و حيكت في سبيل معاضدتها شبكة تعاون ما انفكّت تتّسع ، و تتشعَّب ، و تكتسب خبرة و اتّساعاً ، وتضمن لمشاريعها الديمومة و النّماء .

و بفضل الحبّ العامل المصمّم ، و العمل الدؤوب ، الذي استهلّته وحيدة، وبفضل سيل الكرم الذي استفزّه مثالها و نداؤها ، و بفضل حميّة شبيبة سخيّة معطاء، حقّقت الأُخت إِيمّانويل من المنجزات ما يدهش ، و كان المحرومون هم المستفيدين منه .

و ذاع للأُخت إِيمّانويل صيت " صانعة العجائب للمحرومين "، فتواترت استغاثاتهم تستدعيها إلى السودان ، و لبنان ، و الفيليبين ، و السينيغال ، و هاييتي ، ومطارح بؤس عديدة أُخرى ، و قد هرعت إلى جميعها ، لا يثنيها كَلَل و لا شيخوخة، و في كلّ مكان أَمطرت غيثها ، و خلّفت بُؤَراً خيّرة تواصل جهود الإِنقاذ .

و حيث يرى البعض " عجائب " ، لا يوجد ، في الواقع ، سوى درس إِنسانيّ رفيع في العمل الجَلود ، الجرئ ، الذي ينيره الحبّ . و حيث يظنّ الناس أَنّها تنقل الجبال ، تكتفي هي بتخطّيها ، على حدّ اعترافها :

– لقد جريت ، و قفزت ، ووثبت دائماً .... و تعرّضت أَحياناً للتعثّر

إِنّه لمدهش ما حقّقته مبادرة امرأة وحيدة ، في خريف عمرها ، و بعد أَن تخطّت الثانية و الستّين من العمر ، و لكأَنّه نبعٌ حُبس سنوات طويلة ، و تدفّق بغتةً فغمر بعطائه الدنيا . نبعٌ تغذّى بالحبّ الصّرف ، و الإِرادة المصمّمة ، و النعمة التي تخصب كلّ جهد صادق في سبيل الخدمة السمحاء .

هذا ما عناه جاك ديلور بقوله : " أَيّة عبرة في تفجّر الحياة الدائم الذي يجعلها تكافح حتّى بعد أَن تخطّت الثمانين من العمر ... لقد توخّت أَن تكون فقيرة وسط الفقراء ؛ و هي لا تكتفي بالشهادة ، بل تشعّ باسم الحبّ ، و فضلاً عن ذلك تعمل ، فتجعل الشقاء يتراجع ، و قَبَس الرجاء يتأَلّق . "

و هي لم تخصّ بحبّها أَبناء جلدتها و وطنها ، و دينها ، و لم تستثنِ منه أَحداً فحبّها ، على غرار حبّ الله ، لا يفرّق بين أَبناء الله إِلاّ بمقدار حاجتهم و حرمانهم .

لقد غمرت الجميع بحبّها بلا تمييز ، و احترمت الجميع على أنّهم إخوة وأبناء الله ، و حمل مثالها الجميع على التحابّ و الاحترام المتبادل ؛ فلم تكتفِ بأن " تنضح الرجاء " بل كانت " صانعة إخاء " و " صانعة سلام " و قد صرّحت هي نفسها أنّها لو لم تفعل سوى غرس الإيمان في قلوب الجميع بأنّ " الله محبّة " لكفاها إنجازاً .

هذا ما اعترفت به جيهان السادات عندما وصفتها بأنّها " تلك التي تحبّ فعل الخير ، و تفعله في أيِّ مكان ، فوطنها هو حيث الخير و الحبّ و هذا ما أكّده بطرس بطرس غالي بقوله :

" لا تقيم الأُخت إيمّانويل أيّ تمييز بين الكاثوليك و الأقباط و المسلمين ، فما يعنيها هو فعل الخير من أجل الخير فحسب . و لا دخل لدين الأفراد في حساب عملها . ففي نظرها ، الأفراد الذين تمدّ لهم يد العون ، قبل كونهم مسلمين أو أقباطاً أو كاثوليكيّين هم رجال و نساء في حاجة إلى العون و الاحترام في كرامتهم البشريّة. إنّ عمل الأُخت إيمّانويل مسكونيّ حقاً ، فهو يتخطّى الديانات ، و في حين يتصارع الكثيرون ، كلٌّ باسم إلهه ، ينهض عمل الأُخت إيمّانويل رسالة حقّة للحبّ ، و الأمل، و السلام . "

إنّها ، مع الأمّ تيريزا و الأب بيير ، مثالٌ للرجاء و الشجاعة في عصرنا وهي من أبرز الرموز الحيّة للمحبّة المسيحيّة في غروب قرننا .

و من حسن الطالع أنّ الأُخت إيمّانويل تتميّز ، فضلاً عن كلّ ما سبق ، بكونها كاتبة متمكّنة ، ذات اسلوب متدفّق حيويّة و طلاوة؛ و أنّها في سبيل التعريف بإخوتها جامعي النفايات ، و بالجماعات المتعاونة معها عبر العالم ، قد وضعت عدَّة كتب ، تناولت فيها معظم نواحي حياتها و نشاطاتها ، و ثمار خبرتها ، و زبدة تأمّلاتها . فلم أجد ، و الحالة هذه ، أفضل من أن أدعها تتكلّم بنفسها ، و تبوح بما يفيض من قلبها بألفاظها ، هي ، بعد أن نقلتُها إلى اللغة العربيّة التي أحبَّتْها . و قد اقتصرتُ على التمهيد لكلّ قسم من الكتاب، المؤلَّف من فصول قصيرة ، نابضة ، عذبة ، بلمحة موجزة تُجمل محتوى القسم و تورد بعض طُرَف و أحداث أغفلتها هي و جاء على ذكرها كاتبو سيرتها .

و قد يتّفق أن تتحدّث الأُخت إيمّانويل عن حَدَث واحد في مواضع مختلفة من كتبها فتضيف في بعضها تفاصيل أغفلتها من قبل ، و أن تدلي لكاتبي سيرتها ، ردّاً على أسئلتهم ، بما ينير و يكمل ما أوردته مقتضباً حول بعض الأحداث ، فحاولتُ جمع شتات ما كتبت و قالت حول الموضوع الواحد ، و دمجه في نصّ موحّد متكامل يكتنز كلّ فكر الأُخت إيمّانويل ، و لا ينبض إلاّ بأسلوبها الممتع و حيويّتها الجيّاشة ، و لا يلهج إلاّ بنبرتها النضرة العذبة .

فلنستمع إِليها .

القسم الأَوّل

نشأة مضطربة ، و نداء المطلق

<u>موجز</u>

رأت" مادلين سانكان" النور في بروكسيل ببلجيكا ، في 16 تشرين الثاني 1908 ، من أَبٍ فرنسيّ ، و أُمٍّ بلجيكيّة . قبلها كانت قد ولدت أُختها الكبرى ، وبعدها رزق أبواها صبيّاً .

كانت أُسرة والدها تملك في " كاليه " ، بفرنسا مصنعاً للألبسة الداخليّة النسائيّة الفاخرة ، مُني بالإفلاس إثر هزّات اقتصاديّة متعاقبة ، ففزعت الأُسرة إلى بلجيكا هرباً من الفضيحة الاجتماعيّة ، و أسّست مصنعاً آخر في بروكسيل كُتب له الازدهار .

لم يكن أبوها مؤمناً ، في حين كانت والدتها عميقة التديّن ، و لكنّهما كانا زوجين متفاهمين ، متحابّين ، فغمرت السعادة بيتهما ، و منهما استمدّت مادلين الفرح العميق الغور الذي جعلها تقفز فوق كلّ عقبة .

بيد أنّها عهدت ، منذ السادسة من عمرها ، هشاشة السعادة البشريّة ، وقابليّتها للزوال المباغت ، عندما أطاحت أمواج عاتية بأبيها الذي كان يسبح في البحر وحيداً ، فيما هي كانت تعبث ، مع أخيها ، على رمال الشاطئ .

و انتقلت الأُسرة المفجوعة إلى لندن ، هرباً من زحف النازيّين ، ثمّ إلى باريس ، حيث كان لمادلين جدّةٌ و عمّات ، قبل أن تعود إلى بلجيكا ، عام 1918، بعد أن خرست أصوات مدافع الحرب .

و منذ حداثتها ، تميّزت مادلين بحيويّة متدفّقة ، و نَهَم إلى الحياة مسنون ، وفضول يَقِظ ، و بطبع جيّاش متمرّد ، صعب الانقياد ، ربّما توخّت منه إثبات شخصيّتها ، و قد ساورها الشعور بالإهمال بين الأُخت الكبرى الطيّعة ، و الأخ الأصغر المدلّل ، بحيث كانت تجرّع أُسرتها و مربّياتها المتعاقبات غُصَص نزواتها ، و سورات غضبها، و انفجار براكين ثوراتها الصاخبة . غير أنّ أمّها كانت تقابل عنادها ونزواتها بحزم لا تراخي فيه و لا مساومة .

و لكن مذ شرعت تتأهّب لمناولتها الأولى ، في العاشرة من عمرها ، انقشعت لناظريها آفاقٌ جديدة ، و افتُتنت بيسوع المتجسّد الذي ارتضى أن يموت حبّاً بالبشر ، و أدركت أنّ حبّه ، وحده ، حبٌّ باقٍ يتحدّى الموت ، و أنّ السعادة التي يقطّرها حبّهُ، وحدها ، راسخة ، دائمة ، تزري بالحدثان و غدر الزمان . و كانت المناولة اليوميّة التي دأبت عليها ، منذ حداثتها ، تؤجّج فيها هذا الحبّ ، و تدفعها إلى لجم نزواتها ، و محاولة الإمساك عن إغضاب الآخرين ، تمثّلاً بحبّ يسوع للبشر ، و إن هي لم تفلح دائماً في محاولاتها هذه .

في الثانية عشرة من عمرها ، منحتها مدرسة راهبات بلجيكيّات ، بمثابة جائزة نهاية السنة الدراسيّة ، كتاباً يروي ملاحم المرسلين في مجاهل أفريقيا ، وطالعت كتاباً آخر عن ملحمة الأب داميان مع البرص ، فزلزل الكتابان كيانها ، وأخذت ، مذّاك ، تحلم بأن تصبح

مرسلةً و قدّيسة ، و شهيدة . و عندما باحت بحلمها هذا ، سخر منها ذووها ، إذ إنّها لم تتخلّ ، دفعةً واحدة ، عن طبعها الحادّ المشاكس، و لا عن طيشها . و لكنّها ، مذّاك ، باشرت صراعاً مع ذاتها لم يتوقّف ، من بعد ، يوماً . و قد احتدم هذا الصراع ، بعد أن بلغت سنّ المراهقة و الشباب ، و اشتدّ فيها هوى الحياة ، و الرغبة في اقتناص مفاتنها و أفراحها ، في حين ما انفكّ هوى المطلق آسراً مهيمناً ، و ما برح النداء إلى خدمة المحرومين مجلجلاً ملحاحاً .

نفس الاندفاع الذي كان يحملها نحو الله و المعرفة ، كان يدفعها ، أيضاً ، نحو جميع المتَع . فمقتضيات الروح و الجسد ، تتماشى معاً ، ممتزجة في طبيعة فتاة في الثانية عشرة تودّ الاستعاضة عن حرمانها الجوهريّ الذي مُنيتْ به في مطلع صباها ، بالغبّ من كلّ متاح . غير أنّ المتعة المنشودة لا تلبث أن تنقلب خيبة أَمل مريرة ، حالما تُنال ، و تجعلها هشاشة السعادة السريعة الزوال ، التي خبرتها و هي ما زالت في السادسة ، تستشفّ بطلان المتع الأَرضيّة ، كلّما فتنتها ببريقها ، واستدعتها بندائها الساحر . و في تلك الأَثناء كان الربّ يسهر ، سرّاً ، على تلك التي دعاها و هي في الثانية عشرة ، و يدعها تنضج قرارها بتؤدة عبر التجارب والعثرات، و تعاقب الاندفاع و الخيبة ، فتنتهي إلى التأكّد بأنَّ الرغبة المتّجهة نحو الله وحدها هي في نجوة من اللعنة الناشبة بالمُتَع الأَرضيّة ، لأَنّها تجمع بين المغامرة و الفرح ، بين المطلق و الطريق الوعر المؤدّي إليه ، بين السكينة و النضال ، فهي الرغبة الوحيدة المنزّهة من كلّ وهم ، و التي تستأهل أن يندفع المرء في تيّارها .

خيارها المطلق خيار ثابت ، و لئن هي لم تلمّ بكلّ معناه ، فالمطلق لا يحيط به الإدراك دفعة واحدة . و لكنّها ما انفكّت نهباً بين نزعتين متنابذتين متناقضتين ، وما برحت مغناجاً ، كلِفةً بالثياب الجميلة ، و العناية بمظهرها للفت الأَنظار ، هاوية للعبث و المرح ، مندفعة إلى اقتناص كلّ ما يروق لها ، و إلى جسّ كلّ التجارب ، والى خوض كلّ مغامرة ، و لو أَفضى بها ذلك إلى الغرق ، مثل أَبيها ، في زَبَد الأَيّام . و في آنٍ واحد ، تصارع كلّ هذه النزاعات ، و تتهيّب النزوات التي تدفعها إلى ارتكاب كلّ ضروب الحماقات ، و تجهد في تغليب العقل عليها .

غير أَنّ جاذب المطلق ، و نداء المحرومين كانا الأَقويَيْن ، و قد أَفضيا بها إلى وقف وجودها للربّ ، في حياةٍ مكرّسة موقوفة على الخدمة . و قد اكتشفت التعبير الأَمثل عمّا كان يعتمل في أَعماق كيانها ، في قول القدّيس أوغوسطينوس : "بريتَنا ، يا ربّ ، من أَجلك ، و لن يعهد قلبنا الراحة حتّى يستريح فيك "

و في حين لم يرَ المقرَّبون منها في ذلك القرار سوى نزوة من نزواتها ، وتحدٍّ صبيانيّ ، لا واعٍ ، كانت هي موقنة بأنّها إنّما تختار المخاطرة الوحيدة التي تلائمها ، و تكتشف فيها حرّيّتها الحقّة ؛ و على غرار فرنسيس الأسيزي ، بعد أن أنفقت عشرين سنة في الترف و العبث ، ارتمت طائعة بين ذراعيّ الربّ و قد أبدت أشدّ معارضة لها والدتها ، من جرّاء شكّها في قدرة ابنتها على احتمال الحياة الرهبانيّة، و هي المتمرّدة ، المتقلّبة الأطوار . و لكن ، حيال إصرارها ، أوكلتها إلى ابنة عمٍّ لها كانت رئيسة على ديرٍ للراهبات في إحدى ضواحي لندن الفقيرة . و كانت غايتها المعلنة إتاحة الفرصة لمادلين كي تتقن اللغة الإنكليزيّة ، في حين كانت غايتها المبيَّتة سبر نواياها الحقيقيّة ، و محاولة ردّها إلى رشدها . غير أنّ ذلك الامتحان كان حاسماً لقرار مادلين التي وطّدت العزم على ترويض طبعها بإخضاعه لخدمة الربّ . و تبيّنت قريبتها ، رئيسة الدير ، صدق دوافعها ، فأيّدت عزمها ، و دعتها إلى المضيّ في إنضاج قرارها .

و في تلك الحقبة برهنت مادلين ، و هي في العشرين من العمر ، عن تمتّعها بروح المبادرة ، و الاندفاع، و الواقعيّة النشطة ، عندما هبّت لمساندة مجلّة مسيحيّة كانت تعاني من أزمة ماليّة ، فتعاقدت مع فريق من الممثّلين على تقديم مسرحيّة شهيرة ، عسى أن يسهم ريع الحفلة في إتاحة الفرصة للمجلّة بالتغلّب على عسرها ، ومواصلة الصدور .

و كان نداء المحرومين لا يني يلاحق مادلين ، و لا سيّما و أنّ الألم الظالم الذي ألمّ بها منذ صغرها قد جعلها أختاً لجميع ضحايا آلام الوجود . و لئن كان الألم شاملاً ، غير أنّ البون شاسع بين معاناته في انكفاءٍ على الذات ، و تبنّي ألم الآخرين. و هي كانت واثقة أنّ دعوتها مزدوجة لا ينفصل فيها تكريس الذات عن خدمة المحرومين ، بل كلاهما واحد .

لقد أمست ترى في الدعوة الرهبانيّة رهاناً مثيراً يتجدّد كلّ يوم ، بالاستسلام بين ذراعي الربّ ، و مع أنّ نذور الفقر و العفّة و الطاعة كانت تبدو للجميع و كأنّها على نقيض طباعها ، غير أنّها اختارتها ببساطة و تلقائيّة ، في مثل اندفاع الفرح الذي يقذف الولد بين ذراعي أبيه ، الأب الذي لا يبتعد لكيلا يدع ابنه المتوثّب نحوه يهوي . و ما عادت قيود الرهبنة تبهظها و لا تنفّرها لأنّها باتت متساوقةً مع تطلّعاتها الجوهريّة .

و في 10 أيّار 1931 ، تدافع الأهل و الأصدقاء تحدوهم الرغبة في رؤية حدَثٍ ما زالوا لا يصدّقونه ، رؤية مادلين سانكان ترتدي الثوب الرهبانيّ و تعلن عن نذورها في فرح اليقين الذي يقطن أولئك الذين اكتشفوا مبرّراً لوجودهم و لحياتهم وقد دلّلت على يقينها هذا باختيارها ، لحياتها الجديدة ، اسم " إيمّانويل " أي الله معنـــــــا .

عن تلك المرحلة الأساسيّة من حياتها كتبت الأُخت إيمّانويل ما يلي :

الحدث الذي كان له أعمق أَثر في وسم وجودي ، جرى يوم أَحدٍ صباحاً،على أَحد شوطئ بحر الشمال في بلجيكا . حدث ذلك في شهر أيلول من عام 1914 ، ولم أَكن قد بلغت السادسة .

الموت في سنّ السادسة

كنّا نقطن ، آنذاك ، في بروكسيل ، حيث كان والدي " جول سانكان " –وهو الفرنسيّ الجنسيّة – قد ورث من أمّه مصنعاً صغيراً للملابس الداخليّة . و كان ضابطاً في الاحتياط ، متّقد الشعور الوطنيّ ، فشَخَص إلى مكتب التجنيد في " كالي "، حيث أُبلغ أنّ دفعته لم تُستدعَ بعد . و لكي يفيدا من أيّام الصيف الأخيرة الجميلة ، قبل الفراق الكبير ، استأجر والداي فيلاّ عند شاطئ البحر ، في محلّة " بلا كنبرج " ، قرب أوستندا .

يوم الأَحد ذاك ، كانت أُمّي – و هي بلجيكيّة المولد – و أُختي الكبرى ، ماري لويز ، قد مثلتا إلى الكنيسة لحضور القدّاس ، فيما اصطحبنا والدي ، شقيقي الأَصغر و أنا ، إلى الشاطئ ، تواكبنا ، كما كان مألوفاً دائماً ، مربّيتنا ،الآنسة لوسي. كان الشاطئ شبه مقفر ، و كما هي غالباً الحال في تلك المنطقة ، كان البحر هائجاً . وقبل أن يقذف بنفسه في اليمّ ، كان والدي قد ساعدنا على التخبّط في الماء ، و أَمسك لي رأسي كي يعلّمني السباحة . و خلّف ذلك فيّ ذكرى بهجة و سعادة .

كان يجمع بين أبي و أمّي حبّ جمّ . في المساء قبل أن أُخلد إلى النوم ، كنت أَجلس على ركبتي أَبي ، مخبّئة نصف جسمي في ثنايا مبذله ، و تجلس أُمّي إلى البيانو و تعزف لنا أنشودة " إلى النوم ، يا ملاكي الجميل " . كان الفرح يسكن بيتنا ، و والداي هما اللذان بثّا فيّ هذا الفرح الذي يساعدني على تخطّي العقبات . و ما زلت أَذكر بيتنا الكبير في بروكسيل المبنيّ بالآجر الأحمر ، و بوّابته المطليّة باللون الأَخضر ... كنّا ثلاثة أَطفال ، فقبلي وُلدت أُختي ماري لويز ، و بعدي جاء أَخي دانييل .

كنّا ننتمي إلى ما يدعى البورجوازيّة الميسورة ، و كنّا نضحك ، و نغنّي، ونلهو كثيراً ، في أسرتنا .

غير أنّ كارثة مباغتة اغتالت تلك السعادة ؛ ففي يوم الأَحد ذاك ، و فيما كنّا، أَخي دانييل و أَنا، نعبث بالرمل تحت أَنظار الآنسة لوسي اليقظة ، اقتربت منّا نسوة ، و صحنَ : " أيّها الأولاد ، نادوا أباكم ، فهو يتوغّل في العمق ، و ما من منقذٍ هنا " ، فقد كان المنقذ قد التحق بقطعته في الجيش . و لم نُقِم للأمر وزناً ، فتابعنا عبثنا . وإِذ بصوت يعلو ، و ما زلت ، حتّى الآن ، أتخيّل سماعه يقول : " يا للأطفال المساكين ، لقد اختفى والدهم " . و كان البحر من الهيجان بحيث لم يجرؤ أَحدٌ على مواجهته . وما برحتُ أَذكر رؤيتي للآنسة لوسي تنهض ، و تحدّق ، للتثبّت من اختفائه . ثمّ أَمسكت بيدينا ، و انطلقت بنا على عجل . و رحت أَجأر : " بابا ، بابا " و لكن لم يعُد لي أَبٌ ؛ لقد انهار كلّ شيءٍ في ثوانٍ .

إثر وفاة والدي ، بتُّ أَبكي بلا انقطاع ، فقد كنتُ رأَيتُ ذراع أَبي تتوارى وسط الزبد ؛ و انحفرت فيّ هذه الصورة ، و جعلتني أُدرك ، منذ حداثتي ، أَنّ الملذّات ليست سوى زبد ، لا يبقى منه إلاّ ماء مالح .

الحدث الآخر الذي انحفر عميقاً في خَلَدي ، جرى ، أيّاماً قليلة إثر ذلك ، عندما استقللنا السفينة الأَخيرة المتّجهة إلى إنكلترا . فقد كان الألمان يتقدّمون ، ويُشاع أَنّ بروكسيل موشكة على السقوط . و إذ كانت والدتي قد تولّت أعمال والدي ، فقد قرَّرت الإشراف على مخزن الألبسة الداخليّة الفاخرة الذي كان والدي قد أسّسه في لندن بغية التصدير إلى أميركا و أوستراليا .

و كنّا جميعنا على ظهر الباخرة ، أمّي ، و جدّتي ، و الآنسة لوسي ، و نحن الأطفال الثلاثة ، عندما أَعلن القبطان فجأة : " إنّكم مرجوّون بارتداء أَحزمة النجاة "، فساد الرعب ؛ و أَدركتُ حينئذٍ وجود ألغام عائمة ؛ و شاع البلبال على متن السفينة ، و شرع الركّاب يجرون يمنةً و شمالاً و قد استولى عليهم الذعر . و إنّني ما زلت أَشهد ، بالذاكرة ، والدتي و المربّية و قد التقطتا جميع ثيابنا لكي تدوّنا عليها بأيدٍ مرتجفة – و لم أَعد أذكر بما كانتا تكتبان – أَسماءنا و عنوان جدّتنا لوالدنا سانكان في باريس ، لكي نقاد إليها إذا افترقنا ؛ فمن المعروف أَنّه ، في حالة غرق ، يُشرع بنقل الصغار إلى قوارب النجاة . و كنت أَنا ، هناك ، أُراقب من غير أن أَفهم جيّداً .

و كنت أحدّث نفسي : " ربّما سنضمحلّ ، و ستغيب أمّي . لمَ هي على كلّ تلك العجلة من أَمرها ؟ و ما الذي يحدث حقّاً ؟ " . نوبة أخرى ، كان الموت ينذر .

من هذين الحدثين استخلصتُ أنّ السعادة و الفرح سريعا الزوال ، و قد يتبخّران في ثانية .

و ترسّخ لديّ هذا اليقين في شبابي ؛ فقد كنت كَلِفة باللهو ، في السنوات التي سبقت دخولي الدير عام 1929 . كنت كَلِفة بالرقص و الغَزَل البرئ ، و مؤمنة بوجوب اقتناص متعة اللحظة الحاضرة . و لكن في اللحظة أو الساعة التالية ، كان كلّ شيء ، يتلاشى ، مثل زبدٍ جميل لا يخلّف في الفم سوى بعض ماءٍ مالح . وأَيقنتُ أَنّه من الحمق التشبّث بمثل هذه الأَشياء السريعة الزوال ، و لكن بما أَنّني كنت نَهِمةً إلى اللهو كنت أُعيد الكرّة ، فأرقص من جديد ، و أتزلّج ، و أُدخّن ، و ألهو ما وسعني اللهو ، مثل رقّاص ساعة يتأرجح بين أقصيين

إن استهدف عملنا مجرّد المتعة ، فنتيجته تبدو لي دائماً مخيّبة للأَمل . وعلى نقيض ذلك ، إن توخّينا أن نعيش ، و نفسح للآخرين من حولنا مجالاً للعيش ، و أن نهبهم الفرح ، حينئذٍ ستصبح متعتنا أَغنى و مؤهّلةً للدوام .

قال فيلسوف إِغريقيّ : " كلّ شيءٍ ينساب " . في النهر ثمّة أَشياء تظهر ثمّ تختفي و يستمرّ التدفّق . و حيال تدفّق الأَشياء هذا ، استولت عليّ ، منذ حداثتي ، الرغبة في التشبّث بممسكٍ صلب ، لا يتغيّر ، أَي بمطلق . و بما أَنّ كلّ متعة أَرضيَّة كنت أَتذوّقها كانت تؤول دائماً إِلى نهاية ، ابتغيتُ المضيّ إلى ما هو أَبعد ، و مزيداً من البحث . أَجل ، أومن حقّاً أنّ موت أَبي هو الذي وضعني على هذا الدرب .

مسبحة أُمّي

يوم أَنهيتُ دراستي الثانويّة ، كنتُ أَحلم بمتابعة التعلّم الجامعّي . و لكن أُمّي رفضت ، قائلة : "إنّك مفرطة الغنج و الطيش ، و لم أَشهدك ، يوماً ، تدرسين دراسة جدّيّة، و ستنفقين وقتك في الجامعة تغازلين الشبّان " . كنت أَجيش ، في ذاتي ، غضباً، و لكن ، بصراحة ، ما الذي كان يشدّني ، أكثر ، إلى الجامعة ، أَهي الكتب أَم الشوارب ؟

(لم أَحصل على إجازتي الجامعيّة إلاّ لاحقاً ، و أَنا في الدير)

و لكي أُثبت للآخرين ولنفسي أَنّني أَتمتّع بمؤهّلات فكريّة، اشتركت بأَفضل مكتبة ، و ملأت البيت بمؤلّفات عديدة ، و بتّ أُتابع دروساً مسائيّة في الفلسفة ، فضلاً عن انصرافي إلى أَلعاب التنس ، و التزلّج على الجليد ، و الرقص ...

و سأذكر ، ما دمت حيّة ، مساءً مشهوداً ، عندما قلت لوالدتي : " أُمّاه ، إنّها الثامنة إلاّ ربع ، و إنّني ماضية ". كانت والدتي يومها مرهقة ، و خلافاً لعادتها ، كانت حينذاك قد أوت إلى فراشها ، و مسبحتها في يدها ، فأجابت :

– " مساءً سعيداً يا عزيزتي ، هل أَخذت المفتاح ؟

– أجل " . و قبّلتها و انصرفت .

و سرتُ في الشارع ، و لكن لسببٍ مجهول لم تقدني قدماي إلى المعهد حيث تلقى الدروس . إبليسٌ ما كان يقطنني ، و مخاطرة مبهمة كانت تجتذبني . كنت أسير الهوينى ، مرهقة النفس ، و دنا منّي رجلٌ ، فلم يبدر منّي أيّ ردّ فعل ، و أخذ بذراعي فتركته يفعل ؛ لم أعد أذكر ما روى ، غير أنّه بغتةً قال لي : " تبدين فتاة جدّيّة ، فعلام تسيرين ، هكذا ، بخطوات وئيدة ، في الليل ؟ " و أَحسست نفسي ، فجأة، في قعر هوّة ، لا أقوى على الخروج منها ، و قد خانتني بغتةً إرادتي ، و في الحال اخترعت هذا الادّعاء : " لقد هجرني خطيبي "

– " هجرك خطيبك؟ يا لها من مشكلة!... جميع الخاطبين يتخاصمون و يتصالحون . هيّا هيّا ، عودي إلى منزلك يا صغيرتي " .

و ها ءَنذا أمام باب المعهد . كانت الدروس قد بدأت ، و الأستاذ يبسط نظريّات متحذلقة عن فلسفة " كانط " ، لم تلقَ منّي أيّ اهتمام . و قفزت إلى الترام ، عائدة إلى المنزل حيث كانت والدتي قد استسلمت للكرى ، و مسبحتها مسدلة بين أَناملها .

لطالما أَجلت الفكر في تلك الليلة العكرة . و إنّني لأومن إيماناً راسخاً أنّ حبّات مسبحة أمّي كانت تنساب سرّياً بين ذلك الرجل و بيني . لقد كان صوت يتمتم : "صلّي لأجلنا ، نحن الخطأة الآن ... " ، و من غير أن يدري أنّه كان يردّ على ذلك الدعاء ، قال لي الرجل : " عودي إلى منزلك ، يا صغيرتي " . غالباً ما صلّيت من أَجل ذاك الرجل الذي أدين له بالجميل ، وسأبحث عنه في العالم الآخر كي أُعبّر له عن امتناني .

كيف يمكن تفسير بقاء شجرتي الهزيلة صامدة ، في حين اقتلعت الرياح العاصفة أرزات عاتية؟ أَنا أَعرف السبب . فقد كانت جذوري متينة ، إذ حرصت والدتي على المثول كلّ يوم إلى الكنيسة ، حيث كانت تتناول عن نيّة أَبنائها ، طالما كان لها على ذلك طاقة . و كانت قد قالت لي : " هل تودّين ، حقّاً ، دخول الدير ؟ إِذن ، كوني راهبة جيّدة . " و في كلّ صباح كانت تزوّدني بالقوّة على ذلك .

كم كانت ستحبّ جامعي النفايات هؤلاء ، أو بالحريّ ، كم هي تحبّهم ! إنّني أعرف أَنّها حاضرة ، في بسمتي التي تحاكي بسمتها و هي ميمّمة شطر الآخر ...

شكراً ، اللهمّ ، لأنّك أَعطيتنيها أُمّاً .

ما تعلّمت من أُمّي

أَعتقد أنّ أُمّي هي التي ورّثتني قوّتها ، لا بل إنّني مدينة لها بأَفضل ما لديّ. فقد كانت امرأة شديدة المراس و مكافحة ، و إِثر ترمّلها قرنت حزم الأب بحنان الأمّ. لا ريب أنّها اجتازت فترات عصيبة ، و لكنّني لم أَشهدها ، يوماً ، منهارة ، ما عدا في يوم الأَحد ذاك

من أيلول ، بعد أَن عدنا من الشاطئ ، أَخي و أَنا ، بصحبة الآنسة لوسي . و عندما لمحتني أَبكي استوضحت : " ما بك تذرفين الدموع يا مادلين، هل تشاجرت مرَّة أُخرى ؟ " فأَجبت : " كلاّ ، يا أمّاه ، بل إِنّ أَبي قد غرق ." و في الحال، حدّقت في المربيّة مستطلعة إِن كنت أَتفوّه بتخرّصات ، و عندما غضّت المربيّة الطرف بمثابة تأكيد ، شحب لونها ، و استندت إِلى الحائط ؛ ثمّ ما لبثت أَن تمالكت نفسها ، و هرعت إلى الشاطئ علّها تستطيع فعل أيِّ شيء و هي تتمتم : "السلام عليك يا مريم ، يا ممتلئة نعمة " .

تلك هي المرَّة الوحيدة التي رأيتها فيها تنهار . و لكنّها فيما بعد ، تولّت متابعة أَعمال أَبي بيد حازمة ؛ و قد مكثنا بضع سنوات في لندن ، ثمّ ، قبيل انتهاء الحرب ، استقررنا عند جدّتنا " سانكان " في باريس حيث، إلى جانب جدّتي، كانت لنا ثلاث عمّات ، باستثناء أَيِّ رجل .

و لم تكن الحياة سهلة ، و مع ذلك أَذكر أنَّ أُمّي كانت دائماً فرحة ، وقد تولّت بنفسها تربيتنا ، و تربيتي بنوعٍ خاصّ. لم أَكن سهلة العريكة ، بل غالباً ما كنت أُعارضها ، و " أمتحنها " . فذات يوم بعد أَن تمنّعتُ ، مرّات و مرّات ، عن تناول ملعقة زيت كبد السمك ، قالت لي : " بئس ما أَنت فاعلة إِن لم تتناوليها فلن ترافقينا إلى المسرح " . و كنت واثقة أَنّها في آخر المطاف ستتراخى . و لكن خاب ظنّي ، وتغلّبت أُمّي عليّ . فقد أصررت ، أَنا ، على رفض تناول زيت السمك ، وذهب الجميع إلى المسرح ما عداي .

كنت صعبة المراس ، متمرّدة ، مثيرةً للصخب ؛ و ذات يوم استشطتُ غضباً في أَحد أَرقى شوارع لندن ، و رحت أَدقّ الأَرض بقدميّ ، و أَجأر ، فسجتني جدّتي من يدي ، و أَرتني في واجهة أَحد المخازن دميةً رائعة ، مازلت حتّى اليوم أَتخيّلها ، و قالت لي : " أَترين هذه الدمية ؟ إِن لم تثوري طيلة شهر ، و تصرَّفت تصرُّفاً لائقاً، قدّمتها لك ". و كانت شهوتي لاقتناء تلك الدمية من الحدّة ، بحيث بذلت الكثير من الجهد ، و حاولت أَن أَكون رقيقة المعشر ، و أَقسمت أَن أَظلّ عاقلة . و لكنّني لم استطع أَن أَلجم نفسي ، دائماً ، عن سوارت غضب صاخبة . و بعد مضيّ شهر اصطحبتني جدّتي إِلى المخزن ، و ابتاعت لي دمية جميلة ، و لكنّها لا تساوي ، في جمالها ، تلك التي كنّا قد شاهدناها من قبلُ .

كنتُ فتاةً لا تطاق ، و مع ذلك داخلني دائماً الشعور بأنّ أُسرتي تحبّني حبّاً عميق الغور .

هذه المحبّة الطيّبة ، الصريحة ،الرقيقة التي وفّرها لي أَبي و أُمّي ، قد واكبتني فوائدها طيلة عمري . أَظنّ أَنّني لو لم أُحبّ على نحو ما أُحببت – فوالدتي قد شخصت حتّى إلى استنبول كي تعالجني عندما أصبت بالتيفوئيد و أَنا في الخامسة و العشرين من عمري –

لربّما كنتُ ارتكبت حماقات مثل الكثيرين من الشبّان الذين يراسلونني اليوم ، و لربّما تردّيت إلى استخدام المخدّرات ؛ و من يدري ؟ لربّما كنت انتهيت إلى الانتحار .

كانت أُمّي طيّبة جدّاً ، و أَفهمتني أَنّ الدين هو الحبّ ، و الفرح ، و الشمس وأَنّ جوهر المسيحيّة هو ، في المقام الأَوّل ، الرغبة في إِرضاء يسوع ، و أَنّ الحبّ هو الرغبة في إِسعاد الآخرين ، و أَنّ أَجمل ما تقدّمه الحياة من فرح هو إِسعاد الآخرين ، و إِرضاء يسوع بإِسعادهم ، و حينئذٍ يعيد يسوع هذه السعادة مئة ضعف .

كانت امرأةً شديدة المراس ، على كلّ صعيد . فيوم أَعلن والدي عن حاجته إِلى مصمّمة أَزياء أَكّدتْ قدرتها على الاضطلاع بتلك المهمّة ، و قد نهضت بها على أَكمل وجه . و شيئاً فشيئاً أَصبحت ذراع والدي اليُمنى ، و تمكّنت من الظفر بمؤهّلات راسخة ، من غير أَن يجول في خلدها أَنّ ظروفاً مأساويّة ستضعها على رأس مؤسَّسة صناعيّة .

و في ممارستها لهذه المهمّة لم تتميّز بسلطةٍ هادئة و مبتسمة فحسب ، بل برهنت عن حسٍّ إِجتماعيّ رفيع . فقد كانت طيّبة و كريمة جدّاً ، و مع أَنّ القوانين الاجتماعيّة لم تكن قد صدرت بعد ، كانت ، كلّما اعتلّت إِحدى العاملات ، تعودها وتقدّم لها الفواكه و الحلوى ، و قبل مغادرتها كانت تدسّ ورقةً نقديّة تحت وسادتها . و يوم اعتزلت كبرى العاملات العمل ، قالت أُمّي : " لا يسعنا أَن ندعها تمضي هكذا، فقد خدمتنا خيرَ خدمة ، و من الطبيعيّ أَن نؤمّن لها أَيّام شيخوختها " . و قد أَجرت لها تعويضاً دائماً .كان الجميع يحبّونها ، و لا سيّما و أَنّها كانت تعمل كلّ ما تعمله في كتمانٍ تامّ .

و كان لديها ، عن الواجب ، مفهومٌ شديد الاقتضاء . و كان حسبها أَن تقول: " هذا هو واجبي " كي لا يقوى أَحدٌ أو شيء على ثنيها عن قرارها .

أَظنّ أن كوني ترعرت في حضور تلك المرأة التي كانت تحسن العيش قد أولاني الحيويّة ، وولعاً بالحياة منقطع النظير . إنّ الحياة لمغامرة رائعة ، انطلاقاً من الطفل ، تلك البذرة التي توضع في الوجود و يتعهّدها والدوها بالحنوّ كي تقوى تلك النبتة الصغيرة على النموّ و تصبح رجلاً أو إمرأة يُمسكان بزمام مصيرهما . هذه هي الحياة : أَن يأخذ المرء بزمام مصيره ، و يترقّب دربه بتبصّر ، و يدرك حدوده و قدراته ، و يلمّ بالتيّار الذي يجتاز جسمه من رأسه إلى أَخمص قدميه ، عبر يديه وكلّ جسمه .

الحياة تحاكي سورة ، و رغبة عارمة في التقدّم ، و السير ، و الصعود ، والنضال ، و الربح و الخسارة .

الحياة هي التقدّم في ارتباط مع الآخرين ، و يداً بيد معهم ، فإذا ما تعثّر فرد أنهضه آخر . إلى الأمام " يلّه " ! ، و قد بتّ ، اليوم ، أَعلم أنّني في منجى من تعرّض عملي للزوال

. فمذ كنت شابّة كان يلازمني انطباع بأنّ كائناً أكبر منّي ، وأقوى منّي ، كان يمسكني من يدي . و الآن أعلم أنّ الله حاضر في حياتي . و في ذلك دافع كافٍ لكي أجري و أساعد الآخرين . و أُحدّث نفسي : " هيّي ، يا ايمانويل ، أركضي ، إِمضي "

أَبتغي المطلق

لقد أَلف القدّيس توما الأَكويني ، الذي كان خبيراً بأسرار النفس البشريّة ، القول بأَنّ شخصيّة الولد تتّخذ ، في سنّ الحادية عشرة و الثانية عشرة ، الصيغةَ التي ستسمها بطابعها بقيّة حياته ... فهو ، حينئذ ، إمّا يشرع بالالتفات نحو الآخرين ، ويقتسم معهم ، أَو إنّه يتأهّب للعيش من أَجل نفسه فحسب . و لطالما تحقّقت من صحّة هذا الرأي ، بمراقبة ما يجري بجواري ، و على أيّة حال قد انطبق عليَّ هذا الرأي تماماً . و قد كانت مناولتي الأولى و ما سبقها من تأهّب لها منطلق تحوّلي ... كنت قد بلغت العاشرة ، و كنتُ ، حتَّئذٍ ، فتاةً لا تطاق ، لا أَحفل إلاّ بذاتي ، و أقاوم أُمّي ، و أتشاجر مع أخي الأَصغر .

و ما زلت أَستذكر المقعد الأَبيض حيث كنّا نجلس في مواجهة الكاهن الشابّ الذي كان يعلّمنا مبادئ الدين المسيحيّ . ذلك الرجل – الذي لم أَرَه من بعد ، و الذي أَرجو أَن أَلتقيه في

السماء – كان يحدّثنا عن يسوع بلهجة فيها من الحيويّة ما يشيع فينا الانطباع بأنّ يسوع كان حاضراً فيما بيننا ، واقفاً إلى جانبنا ، يرنو إلينا ، ويبتسم لنا و يحبّنا . و كان الكاهن يقول لنا : " لقد ترك لنا المسيح هذه الأقوال : " أَحبّوا بعضكم بعضاً مثلما أَحببتكم " . أنتم لا تستطيعون أَن تفعلوا له شيئاً ، فهو الآن في السماء ، و لكنّكم تستطيعون عمل الكثير لجميع الذين يحيطون بكم " . هذا الحديث قد أَثار ، إِثارة عنيفة ، الفتاة الصغيرة التي كنتُها ، و هاج مخيّلتي ، و مخيّلتي كانت خصبة .

كان ذلك الكاهن قد شرح لنا هوى يسوع ، و قد وقع منّي وقعاً بليغاً أَنّه أَحبّنا حتّى الموت من أَجلنا . و بتُّ أَتساءل إِلى أَيّ مصير سأنتهي إِن أَنا استسلمت للغضب ، و سعيت إِلى الظفر بكلّ ما أَتمنّى . كان وجه يسوع يفتنني ، و منذ تلك الحقبة شرعت أَسمع نداءه . و كان كلٌّ منّا قد تلقّى دفتراً صغيراً لكي نسجّل فيه جهودنا و تضحياتنا الصغيرة الكفيلة بإِعداد قلبنا لاستقبال يسوع . و لئن كنت بذلت جهوداً في سبيل الظفر بدمية ، أَفلا أَفعل شيئاً إِكراماً ليسوع ؟

كنت أَشعر أَنّني باستلامي للغضب أُسيء إِلى الآخرين ، في حين أَنّ يسوع قد قال : " أَحبّوا بعضكم بعضاً مثلما أَحببتكم أَنا . " هذه الأَقوال كانت تأخذ بلبّي . وفي تلك الفترة بدأ صراعي مع ذاتي ، تحدوني الرغبة في العيش في الحبّ ، مثل يسوع . في الواقع كنتُ ، غالباً ، مقيتةً و صعبة المراس ، و لكنّني كنت أَندم ، وأستأنف جهادي .

ذلك التعليم الديني قد سدّد ، حقّاً ، نهج حياتي ، و لا سيّما و أَنّ الله – الحبّ الذي حدَّثنا عنه الكاهن كان يتلاقى تلاقياً محكماً مع الله الذي كانوا يحدّثونا عنه في البيت . و كان الكاهن يشرح لنا الأمور بعبارات بسيطة في متناول إِدراكنا مثل هذه : " السماء و الأَرض واحد . و بالتالي إِن أحسنتم السلوك ، و لم تتشاجروا ، و إِن أَحببتم الآخرين ، وتقاسمتم معهم ، سكن يسوع في قلبكم . قد لا ترونه و لكنّه حاضر" . إِنّ اندفاع ذلك الكاهن و دعوته المضطرمة كانا يؤثّران فينا تأثيراً بليغاً . وقد شرعت ، أَنا ، أدرك أَنّه لا يحقّ لي أَلاّ أُفكّر إِلاّ بنفسي ، و أن أُزعج الآخرين ، لأَنّني بذلك كنت أَخطئ بحقّ المحبّة . و لا يعني ذلك أَنّني ، مذّاك ، أَصبحت على قدرٍ أوفر من الخضوع و الطاعة ، و لكن اتّضح لي ، للمرّة الأولى ، أنّ الحياة هي أَن نحبّ كائناً لا يتغيّر أَبداً ، و أَن يحبّنا ، هو ، حبّاً أَبديّاً . و بدا لي ذلك مدهشاً . كان وجه يسوع يفتنني ، و تسحرني دعوته إِلى حبّ بعضنا بعضاً ، و مذّاك عقدت العزم على عيش الحبّ على غرار حبّه هو .

و أَذكر أَنّني ، بضعة أَيّام عقبَ مناولتي الأولى ، و حبّاً بذاك الذي أَعطى البشر كلّ شيء حتّى ذاته ، قرّرت إِعطاء " ماربيت الصغيرة " ، و هي فتاة فقيرة كانت تقطن في حيّنا ، دميتي الجميلة .

هناك ، على مقعد التعليم الدينيّ ، شرعت أَعلم ما هو المطلق . و يتّضح لي الآن أَنّ فكرة علاقة صداقة تدوم مدى الحياة ، بل تتخطّاه ، قد عوّضتني عن الصدمة التي انتابتني و أنا في السادسة ، و خلّفت لديّ شعوراً مريراً بأن لا سعادة في هذا العالم ، و في أَشيائه الأَرضيّة ، شعوراً لم أَستطع الإِفلات منه إِفلاتاً كاملاً . فذات يوم ، أَثناء مراهقتي ، وجدت نفسي أَمام نافذة ، أَقول : " لا معنى للحياة ، و الأَرض ليست بشيء . فإِن أَنا قذفت بنفسي من هذه النافذة لقُضي الأَمر و انتهى كلّ شيء "

و لكنّني لم أَقفز . لماذا ؟ أَظنّ أَنّ إِيمان ذلك الكاهن الصادق و النابض بالحيويّة ، و الذي نشب بكلّ كياني ، قد أَنقذني بتذكيري بمعنى الحياة . و مع كرّ السنين ، لم أَكفّ عن تعميق علاقتي بالمسيح ؛ و لكنّني أُسارع إلى الإِيضاح أَنّ صداقتي مع يسوع المسيح قد باتت أَعمق ، بيد أَنّني لم أُصبح أكثر شعوراً بها . أَسمع أَحياناً من يقولون : " عندما أُصلّي ، ينتابني إِحساسٌ بإِثارة شديدة " . أَمّا أَنا فلست كذلك . إِنّني عقلانيّة إلى حدّ بعيد ، و متحرّزة إِزاء كلّ أَلوان الحساسيّة المفرطة . و تقواي قائمة على استنتاج أَنّ الحياة تمرّ ، مثل نهر يتدفّق ، فإِن لم أَمتلك الله الذي يوصيني بالمحبّة ، لما بقي لي شيء ، سوى طعم ماء مالح .

في العشرينات كان الكهنة يتحدّثون عن الخطيئة ، و جهنّم و المطهر أكثر من تحدّثهم عن الله الحبّ ، غير أَنّ الكاهن الذي أعدّنا للمناولة حدّثنا عن " تضحية " يسوع ، الذي مات ، من أجلنا ، على الصليب . و كان لا يزال للفظة " تضحية " معنى ، في تلك الحقبة .و لكنّه لم يأتِ يوماً على ذكر جهنّم ، و إله لا يرحم . ولست أدري بأيّ ردّ فعلٍ كنت سأواجه مثل هذا الحديث ، و لكنّه ردّ فعل سلبيّ بالتأكيد ... مع كاهننا كان كلّ شيء مندرج في الفرح ، حتّى الاعتراف الذي كان يقول لنا عنه : " يا أَبنائي ، إن كانت نفسكم سوداء كالفحم ، فبوسعكم أَن تعترفوا قائلين : " يا يسوع، لقد أسأت السلوك ، فلم أَقم بهذا أو ذاك ممّا كان يتعيّن عليّ القيام به ، و اقترفت الذنب الفلانيّ " . و ستعود نفوسكم ناصعة البياض كالثلج .

و أَنا كنت أَعرف أَنّني لم أحسن السلوك ، و أَنّني كنت أَنانيّة ، و كان يفعمني فرحاً اليقين أَنّني ، باعترافي ، سأعود ناصعة البياض . و إذا ما وقعنا في الخطأ من جديد ، كان الكاهن يقول : " مردّ ذلك أَنّنا ، جميعنا ، هشّون واهنون . وليس هذا بالأمر الخطير ، فالمهمّ أَنّ يسوع يحبّكم جدّاً ، فاستصفحوه " . لقد كان يقدّم كلّ شيءٍ في نبرةٍ تغنّي .

بوسع فتاة صغيرة في العاشرة من عمرها أن تفهم الكثير ، و لا سيّما و أنّني، في حضن عائلتي ، كنت أسبح في مناخٍ من الحبّ . و كانت عبارة المسيح " مثلما أحببتكم " تعني لي أيضاً " مثلما أنا محبوبة في أُسرتي " . و قد شرعت أُحسّ ، إحساساً مبهماً ، أنّ عليّ أن أردّ كلّ الحبّ الذي مُنحته ، في حين أنّني ، حتّئذٍ ، كنت قد اقتصرت على الأخذ . و يخيّل إليّ أنّ ولداً لم يخبر الحبّ في صغره يجد مشقّة في الانفتاح على الآخرين . فكيف لمن لم يُحَبّ هو نفسه أن يُحِبّ ؟

و قد يستهجن البعض أن أكون قد اخترت نذر العفّة ، و حياة الوحدة ، في معزل عن الأبناء ، مع كلّ ما وفّرته لي أسرتي من حنان و سعادة .

كان هوى الحياة يقطنني ؛ و مع ذلك كنت في الثامنة عشرة عندما تزوّجتْ شقيقتي الكبرى ، فتولاّني شعور واضح بأنّ حبّ رجل واحد عاجز عن إرضائي ، وأنّني ، لو تزوّجت لحرقت حياتي ، و فقدت روحي . فعزمت على الاختلاء في رياضة روحيّة ، و أثناء أيّام التأمّل تلك ، أثّر فيّ قول القدّيس أوغوسطينوس تأثيراً بليغاً : " لقد برأتنا من أجلك ، يا ربّ ، و لن يعهد قلبنا الراحة حتّى يرتاح فيك "

هذه العبارة عبّرت لي ، فجأة ، عن شعور عميق واكبني منذ مراهقتي . إذ لم يكن شيءٌ قادراً على إرواء قلبي الذي كانت ملذّات الوجود تدعه ظمآن . كنت أتذوّق شيئاً منها لأنّني كنت متلهّفة إلى العيش ، و لكن بعدئذٍ كان ينتابني شعور بالفراغ . كان كلّ شيءٍ يبدو كالزبد ؛ جميل هو الزبد ، و لكنّك تدنيه من فمك ، و بغتةً لا تجد في راحتك سوى ماء مالح . هذا الشعور كان يتفاقم ، فيّ ، باطّراد .

للعفّة معنى سلبيّ يعني العزوف عن العلاقة ، و هذا ما آباه . و أنا لم أختر هذا اللون من العفّة ،بل اخترت حياة أوفر خصباً على اعتبار أنّني، إن ابتغيت محبّة جميع البشر ، و جميع النساء و الأولاد ، فلا يسوغ لي أن أتفرّد بشخصٍ ما . والواقع أنّني ، حتّى عندما اندفعت إلى اللهو في بروكسيل ، لم يكن لي أيّ عشيق محدّد . وكنت أشعر أنّ ما من رجل قادر على ملء قلبي . إنّ الرجل شيء صغير ، يتعرّض للمرض ، و قد يخيّب أملك ، و قد يموت ، و أنا كنت مفرطة الاضطرام ، متقّدة الهوى ، موغلة في نشدان المطلق . و لست واثقة من أنّني كنت سأقوى ، مع كرّ السنين ، على الاكتفاء برجل واحد . و بعد أن شهدت موت السعادة ، كنت أتطلّع إلى سعادة بلا حدود ، و بدا لي أن الخيار الكفيل بملئي سعادة، حتّى موتي بل في ما وراء الموت ، يكمن في أن أحبّ الإنسانيّة في المسيح ، أو ، بعبارة أُخرى ، أن أُحبّ المسيح في إنسانيّته .

و من ثمّ اخترت الحبّ الشامل . و النذر الذي ارتبطت به يفترض أنّني ، بعزوفي عن أيّة علاقة جسديّة مع رجل واحد ، أُعلن استعدادي لبذل جسدي وروحي لجميع من ، في العالم ، يحتاجون إلى حبّي ، و طاقاتي ، و يديّ ، و رجليّ ، وعينيّ، و كلّ كياني .

و لم يداخلني ، قطّ ، الشعور بأنّني امرأة وحيدة . أمّا الأولاد فقد أفعم حبّهم نفسي . و عندما كُلّفت، في استنبول ، و أنا راهبة شابّة في العشرين من عمري ، بتدريس صفّ يضمّ نحو ثلاثين طفلاً تتراوح أعمارهم بين الرابعة و الخامسة ، كان لي ذلك التكليف سعادة حقّة .

أولئك الأطفال الذين كنت ألاطفهم و أدلّلهم ، كانوا شبه أبنائي . و عندما أستذكرهم يفيض قلبي فرحاً . إنّني أؤمن أنّ المهمّ ، لي ، ليس أن أعيش بقدر ما هو أن أفسح للآخرين فرصة العيش . و ينتابني أحياناً الشعور بأنّ لي ألوفاً من الأبناء . و بفضل أصدقائي الكُثُر في مؤسّستي و المحسنين إليها ، قد أفلحت في إنقاذ من لا أستطيع إحصاء أعدادهم من الأطفال المصريّين و الفيليبينيّين ، و اللبنانيّين ، والسودانيّين ، من براثن الموت الفكري ، بإنشاء المدارس ، و الموت الجسدي ، ومن الجوع ، و الكزاز و من طائفة عريضة من الأمراض .

ما يغنيني هو الهوى ، و الرغبة الجامحة في الحياة، اللذان أودّ بثّهما في الآخرين . فليفِض من كياني فرح الحياة الذي يقطنني ، و لتفْض من دماغي المعارف التي اكتسبتها . ففي ذلك عمليّة وضع . لا ريب أن وضع امرأة طفلاً شيء رائع ، فهو جسد جسدها . ولكن أن يلد المرء روح روحه ، و قلب قلبه ، و إرادة إرادته ، وفعل فعله ، فتلك ولادة عجيبة خارقة . و يستحوذ عليّ ، أحياناً ، شعور طاغٍ بأنّني أتمتّع بخصب جسديّ .

إنّ قلبي يطفح ، و السعادة تغمرني . لماذا ؟ لأنّني أعيش حبّاً بلا حدود . إنّ الدين الذي لُقّنته هو دين يخرجني من ذاتي ، و يلتفت نحو الآخرين ، مثلما ، في إيقونة " روبليف " يلتفت كلٌّ من أقانيم الثالوث إلى جاره ؛ و مثل الأب بيير ، أثناء زيارته لنا في القاهرة ، فإذ لم يكن يفقه من اللغة العربيّة لفظة واحدة ، اكتفى بمصافحة جامعي النفايات ، واحداً فواحداً ، مصافحة طويلة ، و هو يحدّق في عيونهم . لم يكن في حاجةٍ إلى كلام ، فكان يشعّ منه شيء شعر به الجميع .

إنّني أعرف ، اليوم ، على نحوٍ أفضل ممّا عرفت و أنا فتاة صغيرة ، أنّ اختيار المطلق هو اختيار ينبغي تجديده كلّ يوم ، بل كلّ لحظة ، و أنّ هذا الخيار يتغذّى بالصلاة . و أُدرك اليوم أنّني لم أُصبح القدّيسة ذات الهالة التي حلمت بها في صباي . فمنذ ستّة و ستّين عاماً ما زلت أنشد المطلق ، و مع ذلك يتّفق لي أن أوثر متابعة مطالعة كتابٍ شيّق على الانقطاع للصلاة .

رسولة و شهيدة

عام 1918 ، في أعقاب الحرب ، عادت أسرتنا بأكملها ، فاستقرَّت في بروكسيل ، و سجّلتني أمّي في مدرسة راهبات مريم الابتدائيّة . و كنت ، آنذاك ، فتاة طائشة ، و لكن مجتهدة . وهناك ، في الحادية عشرة من عمري، عرفت الومضة الثانية التي حدّدت مجرى حياتي .

فقد أعطيتُ ، في نهاية السنة المدرسيّة ، جائزة ، و كانت كتاباً ضخماً ، يساوي في ثخانته ، ثلاثة من الكتب العاديّة ، مليئاً بالرسوم الجميلة ، يروي ملحمة المرسلين الأوائل في أَفريقيا ، بأسلوب تلك الحقبة ، الحافل بالتضخيم ، والمصطلحات المبسّطة . كان الكتاب يضفي على جميع المرسلين صورة القدّيسين ، و على جميع الزنوج ، في بادئ الأمر ، صورة الأَشرار الذين يقتلون البيض المساكين لكي يشووهم .

ثمّ جاءت " ملحمة " الارتدادات ، إذ شرع السود ، شيئاً فشيئاً ، يقلعون عن أَكل بعضهم بعضاً ، و عن قتل المرسلين ، و فتحت المدارس ، و أَمسى الأولاد طيّبين ، يُقبلون على المعموديّة ، و ارتدّت أُسرٌ بأكملها . لقد التهمتُ ذلك الكتاب الرائع ، التهاماً . و أَلهب خيالي ما طالعته عن حياة الأَدغال المغلّفة بالأَسرار ، وشتّى صنوف المضايقات و المهالك ، و فقر الفلاّحين ، و العبيد المحرّرين ، ومخاطر الأَوبئة ، و فُرَص الاستشهاد .

و ذات يوم ، فيما الأسرة كلّها تتناول الغداء ، صرّحت : " أَنا ، فيما بعد ، سأصبح راهبة ، و مرسلة ، و شهيدة ! " فأغرق الجميع في الضحك ، و سخر منّي أخي وأُختي قائلين : " حسن ، ستبدئين بالنهوض بكلّ سُخَر المنزل . و إذا ما ضربناك ، لزمت الصمت " . و أخذا يقرصانني قائلين : " يحسن بك أَن تعتادي " . وكنت أَحتمل صامتة ، و لكن في أَعماق قلبي كان صوت يهمس : " تعالي " . كان صوت البرص ، و المرضى ، و الفقراء ، و جميع المفتقرين إلى الحبّ ؛ و كان صوت المسيح ووجهه ؛ أوَ ليس وجههم الوجيع هو وجهه ؟

من المؤكّد أَنّ ذلك الموقف حدّ من حماسي، خشية تعرّضي للسخرية من جديد ؛ و أَقلعت عن العودة إلى التحدّث في ذلك الموضوع ، حتّى بلغت العشرين من عمري . غير أَنّني ، في قرارة نفسي ، كنت قد حزمت أَمري على أن أصبح راهبة ، لا راهبة متأمّلة متوارية في ديرها ، بل راهبة ناشطة ، و مرسلة ، وعلى الشخوص إلى أَفريقيا ، حيث سأتعرّض لتعذيب الزنوج الذين قد يأكلونني . و على نحو ما هومدوّن في كتابي ، سأجتاز الأنهر ، معرّضة نفسي للغرق ، و سأقتحم الغابات الغاصّة بالوحوش ، و ستكون لي حياة الرسالة مخاطرة رائعة . وكنت قد اكتشفت في كنيسة رعيّتي ، رسماً زجاجيّاً جميلاً ، يظهر قدّيسة لم أعد أَذكر اسمها ، و كنت أُحدّث نفسي : " فيما بعد ، أَنا أَيضاً سيكون لي رسمي الزجاجيّ ، و سأصبح قدّيسة!"

في تلك الحقبة كنت أَحلم بالاستشهاد ، و أَتطلّع بتوق إِلى أَن أُقطّع إِرباً ، ذات يوم ، في مجاهل أَفريقيا . كنت رومانسيّة ، حينذاك ، و ما زلت حتّى اليوم على شيءٍ من الرومانسيّة ، و لكنّني بتّ أومن أَنّه من الأَفضل بذل المرء حياته قطرةً قطرة ، في سبيل إِسعاد قلوب الآخرين .

و قد أَمسيت أعتقد أَنّ الراهبات اللواتي قدّمنَ لي ذلك الكتاب هديَّة في نهاية العام الدراسي 1919– 1920 ، قد خلقنَ ، من حيث لم يدرينَ ، " الأُخت إِيمّانويل ".

و لا بدّ من الإِيضاح أنّ تلك الحقبة لم تكن توفّر لنا ، نحن الفتيات ، سوى النزر من المخاطرة ، فالجامعة لم تفتح أبوابها للنساء حتّى عام 1928 ، و كان انصرافنا للعمل غير وارد ، و كان الزواج هو النهج الطبيعيّ لفتيات محيطي ، و لا وجه للمقارنة بين وضعهنّ آنذاك ووضعهنّ اليوم . فقد كان مصيرنا محميّاً بأكمله من أوّله حتّى آخره . و ما كان علينا سوى أَن ننقاد بلين ، كما كانت تفعل أختي و جميع صديقاتي ، بانتظار مجيء الأمير الساحر . و كانت الأسر تنظّم ، بين حينٍ و آخر ، حفلات رقص حيث يتسنّى للفتيات استلطاف شبّان " راقين " تحت أَنظار الأمّهات الساهرة . و كان كلّ شيء جدّيّاً ، مندرجاً ضمن أُطر محكمة

؛ فعندما مضت أختي إِلى حفلة الرقص التمستُ مرافقتها ، و لكنّ أمّي أَوضحت لي أَنّني لن أتمكّن من ذلك حتّى إنهاء فترة دراستي الثانويّة ، فثارت ثائرة غضبي .

وعندما بلغت السنّ المحدّدة ، و إذ كنت ، في تلك الأَثناء ، قد قرأت كتابي الرائع عن المرسلين ، قلت لنفسي : " يا عزيزتي الصغيرة ، ينبغي أَن تحدّدي موقفك، فإمّا أن تصبحي راهبة ، أو ان تغشي مربع الرقص و تؤخذي بأجوائه ، وأنت تعلمين مدى انجذابك نحو الشبّان .و إِن أَنت اختلفت إِليه ، و أَنتِ كما أَعرفك ، لتردّيتِ إِلى الغَزَل ، ووداعاً للحياة الداخليّة ، و سيأخذك الدوار ، و ستخنقين صوت محرومي الحبّ ، و لن تسمعي ، بعدُ ، نداءَهم . "

و من ثمّ مزّقت باطّراد كلّ الدعوات التي كان تردني ، و رفضت المشاركة في حفلات الرقص ، ممّا أَدهش والدتي . و لم يحدث سوى استثناء واحد ، عندما تبيّن لي أن خير صديقاتي ، و اسمها مادلين ، مثلي ، قد لا تتزوّج أبداً لأنّها كانت على جانبٍ من الخجل يمنعها من الاختلاف إلى حفلات الرقص . فنظَّمتُ لها، مع أَصدقاء مشترَكين، دروس رقص ، بين الخامسة و السابعة مساءً ، و قد وفّرت لي تلك الدروس كثيراً من اللهو.

لقد ذكّرتني مؤخّراً ابنة عمّ لي كم كنت ، في تلك الحقبة ، طائشة ، لا بل كَلِفةً بالمظهر الأَنيق ، و الثياب الجميلة ، و بلفت أَنظار الشبّان ؛ كنت واعية لما أُنعم به من جمال ، و كان كثيرون من الشبّان يرغبون في خطب ودّي . و لكن في فترة لاحقة ، كنت أتساءل " ما الذي بقي لي الآن من كلّ ذلك ؟ " و كنت ، أَحياناً ، ممزّقة بين السرّ الكامن في صدري ، و هذه الرغبة في اللهو و التظاهر ، التي أَجدها حمقاء، و بعيدة عن الحقيقة التي أَنشدها .

كنت أَستصغر الحبّ البشريّ و دوافعه ، و لا أَجد في من يتزوّجون ، من حولي ، مثل أُختي و مربيّتنا ، ما يجتذبني ، بل كنت أَتطلّع إلى حبّ أشدّ صلابة ورسوخاً ، و أوفر إِثارة و ديمومة ، على غرار حبّ ذاك الذي بذل حياته ، و احتمل أَمرّ الآلام في سبيل من أَحبّ .

فيوم تزوّجت شقيقتي لم أَحسدها على ذلك المصير ، إِذ لم أَكن لأَكتفي بمثل هذا النزر اليسير من الحياة ، و أَتطلَّع إِلى ما يتخطّى ذلك شأواً بعيداً . ففي الواقع لم أَكن أَرضى بدون الله .

غير أَنّي ، فيما بعد ، عرفت أزواجاً استطاعوا ، خلال أَربعين أو خمسين سنة من الزواج ، الاستمرار في الحبّ ، و بتُّ أَكثر إِدراكاً لقيمة مغامرة ثنائيَّة تقوى على الصمود في مواجهة مِحَن الزمن .

و مع ذلك ظلّت مخاطرة المرسلين الأوائل الذي جابهوا ألوف المخاطر التي أودت ببعضهم إلى الموت ، تمثّل لي صورة بذل الذات على غرار بذل المسيح نفسه. أعتقد ، بعمق ، أنّ دعوة المسيحيّ ، بل دعوة كلّ إنسان ، و لو كان ملحداً ، هي أن يحبّ حتى الموت ، فالحبّ الحقّ يرتضي بالموت ، لأنّه أقوى من الموت .

أمّا صورة القدّيسة التي تخيّلت أنّني سأصيرها فهي ما زالت مِزَقاً مبعثرة .

دعوة

كتاب آخر أثّر فيّ تاثيراً بالغاً و هو : " الأَب داميان لدى البرص " ، الذي يروي قصّة كاهن بلجيكيّ فلامنديّ بذل حياته في سبيل خدمة البرص في إحدى جزر المحيط الهادئ .

و في هذا الكتاب تعرَّفت المطلق الذي كان يجتذبني : كنت راغبة في تكريس ذاتي للأشدّ بؤساً و للفقراء . و لذلك رغبت ، أوّلاً ، في الانضواء إلى جمعيّة أخوات المحبّة ، التي أسّسها القدّيس منصور دي بول ، اللواتي يضطلعنَ برسالة لدى الفقراء. و لكن عندما اتّضح لي أنّ نشاطهنَّ يندرج ، على نحوٍ رئيسيّ في الشارع ، بدا لي أنّني ، مع ما فطرت عليه ، لم يكن مستحسناً أن أتعرَّض كثيراً للاتّصال بالرجال و الشبّان .

ربّما لو لم أُطالع ذلك الكتاب عن الأَب داميان ، لكانت حياتي على غير ما هي عليه الآن . فمنه أدركت أمراً جوهريّاً ، و تعلّمت أنّ نداء الله يكمن في أن أُحبّ البؤساء ، و أن أُساعدهم بقدر استطاعتي . ذلك هو كان معنى حياتي الحقّ ، و قد بتّ أومن أنّ أجمل ما في الوجود هو العيش عيشة القدّيسين ، و الموت ميتة الشهداء.

و ممّا وطّد فيّ هذه القناعة التقائي ، في معهد القدّيس لويس حيث كنت أُتابع دروساً ليليّة في الفلسفة ، كاهنَيْن خلّفا فيّ أثراً بليغاً . فالأَب " ريكمانس " حدَّثني عن قضايا السود و مسحوقي العالم الثالث ، و هي قضايا لم يكن رائجاً التحدّث عنها آنذاك ؛ و الأَب " همليه " الذي كان يقرن إلى علمه الغزير قداسةً راهنة ، أطلعني على المآسي الاجتماعيّة .

في تلك الحقبة كان المسيح يجتذبني ، و في نفس الآن كانت المتعة ، والأَسفار ، و كلّ شيء يجتذبني أَيضاً ... و كان لا بدّ لي من الاختيار ، و لست أَظنّ أَنّني أَنا اخترت ، بل هو الذي اختار ؛ فأنا كنت متأهّبة لارتكاب الحماقات ، بل كنت راغبة في ارتكابها ، و في تذوّق كلّ شيء ، و لكنّه سدّ في وجهي كلّ السبل .

و هكذا قرّرت أَن أضطلع " بخلوة اختيار " ، في " هولوي " بضواحي لندن ، لكي أُحدّد الجمعيّة الرهبانيّة التي سأنتمي إِليها ؛ ففي تلك السنوات لم تكن متاحةً الاستجابة لسحر المسيح إلاّ عبر حياة مكرّسة ، و الحياة المكرّسة كانت غير ممكنة،آنذاك ، إلاّ في دير . و قد تحدّيت كلّ عواطف طبعي الجيّاش ، و آراء ذويّ ، و أصدقائي ، و مرشديّ الروحيّين المتطابقة ... لكي أُلبّي نداء المفتقرين إِلى الحبّ الذي ما انفكّ يصرخ : " تعالي " ؛ نداء على قدرٍ مدهش من الشدّة ، نداء وجه يسوع المتألّم .

ثمّ اخترت جمعيّتي بسبب العلاقات التي كانت تربطني بها ، فشقيقتي كانت قد درست في إِحدى مدارسها ، و ابنة عمّ لي كانت رئيسة لفرع تلك الجمعيّة في لندن ، و إِليها أوفدتني أمّي . ذلك الفرع كان معهداً لفتيات فقيرات ، يموّله معهد آخر للجمعيّة عينها يقع في أحد الأحياء الغنيّة . و عندما أصف أولئك الفتيات بالفقيرات فلأنّهنّ فقيرات حقّاً . و قد أَثارني أمر تثقيف فتيات صغيرات التقطن من الشارع . وبما أنّ راهبات تلك الجمعيّة كنّ نصف حبيسات ، فقد وفّرتُ لمرشدي الروحيّ ، بذلك ، ضمانة بألاّ أُخالط شبّاناً .

في تلك الجمعيّة كان يتدفّق نسغٌ روحيٌّ يغذّي ، في آنٍ واحد ، حبّاً لله عظيماً، و حبّاً للانسان عظيماً ؛ و كنت أشهد فيها حسّاً اجتماعيّاً لصالح المحرومين . و أَيقنت بأَنّ أَعمق و أفضل ما فيّ سيلقى فيها ازدهاره . كنت أريد أَن أَصبح راهبة لكي أَتحرّر من ذاتي ، و لكي أنعتق من الأهواء التي كانت تلتهمني ، و التي كنت أَشعر بعجزي عن مواجهتها .

دخلت ، إِذن ، الدير في سنّ الواحدة و العشرين ، بمثابة طالبة رهبنة . و ما زلت أَذكر و كأنّ الأَمر حدث أَمس ، لحظة خلعت ثوب الفتاة ، و ارتديت ثوب طالبة الرهبنة الطويل ، و قبّعة أسطوانيّة متّصلة برباط تحت الذقن . كان الزيّ بأكمله مثيراً للضحك . و مع ذلك غمرني شعور رائع بالانعتاق و التحرّر ، تحرّر من حبّ التظاهر ، تحرّر من الذَّكَر ، و تحرّر من نير المال . كنت أدرك أنّ كلّ ما كنت أعاني من مشاكل و من تردّد سينتهي إلى الزوال ، و ستنتهي أَيضاً خلافاتي مع والدتي ، و سيكون لحياتي ، أخيراً معنى ، إذ إنّني منذ الآن سأصبح في خدمة المطلق . شعور التحرّر هذا أَزاح كلّ عائق يحول دون تكيّفي مع وضعي الجديد ، فلم يشق عليّ لا الاستيقاظ في الخامسة صباحاً ، ولا الرقاد في قاعة نوم جماعيّة ، ولا إِطاعة مرشدة الابتداء . و لكنت صمت بطيب خاطر لو طلب منّي ذلك...

غير أَنّني لم أَكن قد اكتسبت المعركة بأكملها . فقد كانت والدتي ، قبل وصولي ، أشاعت أَنّني مثيرة للشغب ، فقابلتني مرشدة الابتداء ، الأمّ ماري ألفونس ، بالريبة . و منذ وصولي اصطدمت بها صداماً اعترفتْ هي ، فيما بعد ، أَنَّها افتعلته آملةً أَن تثبّط عزيمتي و تدفعني إلى العودة من حيث أَتيت ، في أسرع فرصة ، وقبل أَن تصبح العودة أَليمة . و عندما سمعتني أَستنكر، علناً، عدم السماح لطالبات الرهبنة بمطالعة الكتاب المقدّس بأكمله ، أَجبرتني على مسيرة درب الصليب ، على أَن أكرّر في كلّ مرحلة : " يا ربّ ، إنّني صفر " . و لكنَّني كنت من السعادة بحيث لم يستطع ذلك التنكيد الفتّ من عضدي .

أَوّل الأَمر لم يأَخذ أَحدٌ دعوتي الرهبانيّة على محمل الجدّ ، فقد كنت دائمة الضحك ، مغرقة في الطيش . و سرعان ما فقدت صالة الطعام ، بغتةً ، طابعها الجدّيّ ، من جرّاء رواياتي فيها طُرَفاً تستفزّ ضحكات مجنونة ، لم تكن تنجو منها سبيعينيّات و قورات . و من ثمّ عارضت معلّمة الابتداء ، الأُمّ ماري أَلفونس ، قبولي في الدير ، و أَعلنت ، في إِحدى جلسات المجمع ، أَنّ من شأن بقائي زرع البلبال في الابتداء ، و بثّ ريح الخفّة و الطيش في جنباته . غير أَنّني أَكّدت عزمي على البقاء، بعناد ، و تدخّلت الرئيسة العامّة ، فأجرت معي حديثاً مستفيضاً ، و استشفّت ، من وراء مظهر الخفّة ، صبوّاً محقّقاً نحو المطلق . و هي التي كانت تبتسم لمهازلي ، رجّحت كفّة قبولي بقولها :

– " صحيح أَنّ هذه الفتاة تضجّ بالحيويّة ، و أَنّها تريد الجري في كلّ اتّجاه ، و مع ذلك أَشعر أَنّ نداءً لا يُقاوم نحو الله يستأثر بها ، و هذا هو الأَهمّ . و ربّما استطعنا استنباط شيءٍ جدّيّ من هذه الحِمَم الجيّاشة . فلنحاول .... "

فتلك الرئيسة التي كانت تراني ضاجّة أَثناء الفسحة ، كانت تشهدني خاشعة مأخوذة ، أَمام الهيكل .

و فجأة استحوذ عليّ شعور بسعادة غامرة . فقد عثرت على ضالّتي ، إِذ كانوا ، في الدير يمنحوننا ثقافة المحبّة . و تعلُّم المحبّة يعني أن يفكّر الإنسان بالآخر أكثر من تفكيره بنفسه . فالتماس مجد الله و تقديس اسمه يعنيان الانعتاق من كلّ ما يتّسم بالأنانيّة ، و الزوال ، و النسبيّة ، من أَجل التمكّن من الانطلاق ، في كلّ لحظة، لخدمة الآخرين .

لقد خبرتُ ، منذ اليوم الأَوّل الذي دخلت فيه الدير ، و ما زلت أخبر اليوم ، و أَنا واثقة من أَنّني سأستمرّ في هذا الاختبار حتّى يومي الأَخير ، مغزى قول القدّيس بولس : " أستطيع كلّ شيء في من يقوّيني " . أَجل ، كلّ شيء ؛ و إِنّه لاختبار مثيرٌ حقّاً .

بادئ الأَمر عارض الجميع دعوتي ، بيد أَنّني لم أعبأ بمعارضتهم ، و لقد اتّخذت بعض القرارات الهامّة ، في حياتي ، مخالفةً آراء الجميع ؛ و قد فعلتُ ذلك ، دائماً ، و أَنا

متّكئة على المسيح . و لم تكن فترة الابتداء سهلة ، غير أَنّني كنتُ متأهّبة لتحمّل كلّ شيء ، بمساعدة المسيح ، طبعاً . فعندما نكون اثنين ، يرتدي كلّ شيء وجهاً آخر .

إِنّ اسم " إِيمّانويل " ، الذي اخترته ، يعني " اللّه معنا " . و هو لي ضمان ضدّ الأَخطار . الحياة الرهبانيّة كانت هي الردّ ، و مازالت كذلك ، أَكثر فأَكثر ، على حاجتين جوهريَّتين لديَّ : الاتّحاد باللّه ، و خدمة إِخوتي . إِنّ الدعوة توفّر للمدعوّ مسيرة رشيقة و جادّة ، أو ، بعبارة أُخرى ، العمق ، و أَجنحة ، في آنٍ واحد . إِنّها لخبرة رائعة أَن نسير في إِثر المسيح ؛ بيد أَنّ هذه المسيرة تجعلنا نعقد علاقات حبٍّ أَخويّ مع طوائف عريضة من البشر ، و هذه ، أَيضاً ، خبرة رائعة .

متمرّدة

لا جدوى من إنكار أنّني كنت فتاةً صغيرة صعبة المراس . كنت ما زلت في الخامسة ، عندما تبيّن والدي ، بضعة أَشهر قبل وفاته ، مدى مضايقتي الجميع من جرّاء عدم انضباطي ، فحاول " ضبطي " ، بوضعي في مدرسة راهبات مريم الداخليّة، و سط بروكسيل . و لكنّني ، في تلك الليلة ، أَحدثت في قاعة النوم المشتركة فضيحة مجلجلة ، إذا انطلقتُ أبكي و أَصيح ، بحيث اضطر والدي ، في الغداة ، أن يعيدني إلى البيت . ثمّ جاءني بمربيّة خاصّة ما لبثت أَن فرّت لأنّها لم تطق احتمالي .

أَظنّ أنّني أَملك ، بالفطرة ، روح المعارضة . فعقب وفاة والدي ، عشنا، طيلة أَربع سنوات في لندن ، حتّى نهاية الحرب العالميّة الأولى ، و ما عدت أَذكر من تلك السنوات سوى القليل ، و لكنّني أذكر جيّداً أَنّني كنتُ أَرفض تعلّم الإنكليزيّة ، و أَرفض المضيّ إلى الحضانة ،الخ ...

و لحسن طالعي ، كانت هناك الآنسة لوسي تُعنى بنا . و لكنّني كبّدتها من التنكيد أَلواناً . و ما زلت أَذكر ، على نحوٍ خاصّ ، ما جرى ، ذات مساء صيف ، عندما أَحدثتُ فضيحة حقيقيّة في شوارع لندن . كنّا قد قصدنا حديقة عامّة للنزهة ؛ ولمّا حلّ المساء ، قالت الآنسة لوسي : " فلنعد ، أيّها الأولاد " ، و لكنّني أَجبت : "كلاّ، فأنا ألهو ، و ما زلت راغبة في القفز على الحبل ". و إِزاء إِصرار الآنسة لوسي تشبّثت بشجرة . حينئذٍ التقطت الآنسة لوسي حبل القفز ، و لفّته حول قامتي ، وانطلقت تجرّني و أَنا أَتخبّط . تصوّروا الفضيحة ! لدى مرورنا كان الناس يصيحون مستنكرين و يصفون مربّيتنا بجلاّدة أطفال !

و حتّى فيما بعد، في مرحلة المراهقة ، غالباً ما كنت صعبة الانقياد . و كم من شجارٍ أثرت لكي أَقصّ شعري قصيراً ، في حان كان الشعر الطويل هو الشائع ! و طالبت بامتلاك درّاجة ، و كنت أُدخّن خلسة ، و لا أَتورّع عن شيء . و كانت والدتي – و هي امرأة ممعنة في الجدّ – لا تني تقول لنا ، لأختي و لي : " حذارِ ، هذا لا يسوغ . الفتاة الحسنة التربية لا تفعل ذلك " . و كان مجرّد هذا الإِنذار يستثير فيّ الرغبة في " فعل ذلك " ، غير حافلة ، إطلاقاً، بحكم الآخرين . و عندما كنت أرى لوحة تعلن " ممنوع الدخول " ، كنت أسارع إلى

دفع الباب ، متوقّعة أن أَكتشف شيئاً مثيراً . و كانت تسحرني الكتب الممنوعة التي تحذّرنا منها والدتي ...

مرحلة شبابي كانت " لا " متّصلاً ، و على غير علمٍ منّي ، كنت أَعمل بنصيحة مارك أوريليوس المأثورة : " العائق هو مادّة للعمل " . كنت مثل نهرٍ جيّاش. و لكن، في آنٍ واحد، لم يكن قول " لا " ليشيع فيّ الرضى ... و الآن يتّضح لي أَنّني كنت أَرفض لأَنّ القيمةالوحيدة التي كنت وجدتها هي قيمتي الخاصّة . وعندما كنت أَرفض ، باعتداد ، كنت أحاول إِبراز قيمتي الذاتيّة . و لكنّني يوم عثرت، أخيراً ، على قيمة حقَّة ، قيمة المطلق ، انتابتني الرغبة في قول نعم ، عساني أنقلب مثل نهر هادئ ، هدوء النيل الذي طالما تأمّلته فيما بعد . و قد ساعدتني خبرة مناولتي الأولى ، و الكتاب عن المرسلين، على اتّخاذ قرار بقول نعم للّه، و نعم للإِنسان، و أَعني بالإِنسان رؤسائي ، فبما أَنّني لست صوفيّة ، لم أَسمع قطّ أَصواتاً خفيّة ، و تبيّن لي أَنّ الوسيلة المثلى للعثور على الطريق الأَبديّ نحو الله ، هو الخضوع لرئيستي ، أو لأَيّ كائن مكلَّف برسالة .

و حينئذٍ ، لمّا بلغت العشرين – و كانت والدتي ، في تلك الأَثناء ، قد أَذنت لي بالذهاب إلى قريبةٍ لي في لندن من أَجل تعلّم الإنكليزيّة – أَعلنت عن قراري بدخول الدير . و قد لاقى إِعلاني هذا معارضة أمّي الفوريّة ، فقد قالت : " مع ما أَنتِ عليه من طباع ، لن تصمدي أُسبوعاً واحداً . أوَ تتخيَّلين أَيَّة فضيحة ستحدثين إذا ما غادرت الدير بُعَيْد دخوله ؟ " و هكذا أَجبرتني على الانتظار حتّى بلغت الحادية والعشرين . و حاول مرشدي الروحيّ ، بدوره ، إِقناعي قائلاً : " أَنت لا تفكّرين إلاّ باللهو مع الشبّان ، فتزوّجي قبل فوات الأَوان ! " و لكنَّه عبثاً حاول ، فقد كنت حزمت أمري . و ربّما كان من دوافع قراري انجذابي إلى ما يحاول الآخرون ردعي عنه . و لمّا بلغت سنّ الرشد ، في الحادية والعشرين،اضطرّت أُمّي إلى القبول بقراري ، و لكنّها ظلّت ، فترة طويلة ، تعتقد أَنّني ضللت طريقي .

أَثناء خلوتي في لندن أَنفذت والدتي إِلى قريبتنا ، رئيسة الدير ، رسالة تعلمها بها أَنّ شابّاً فرنسيّاً كان يبحث عن زوجة ، و قيل له أَنّ مادلين سانكان هي الكفيلة بتلبية تطلّعاته ، و قد وجدتْه والدتي عريساً مناسباً ؛ فأَجبتها : " لا ، فقد حزمتُ أَمري، و إِنّما أَبتغي عقد قراني مع اللّه . إِنّه زواج حبّ . "

ظللت، ستّة أَشهر، طالبة رهبنة ، ثمّ سنة و نصف السنة مبتدئة ، و مثّلت لي تلك الفترة تعليماً مثيراً لحياتي الجديدة ؛ و عندما أَبرزت نذوري ، بعد هاتين السنتين، في العاشر من أَيّار 1931 ، استعضت عن اسم مادلين باسم إِيمّانويل ، أي " اللّه معنا " . لقد سحرني اسم " إِيمّانويل " منذ صباي ، و ما انفكّ يسحرني ، فهو ، لي ، تعبير عن ضمان للمخاطرة .

و المهمّ هو عيشي " عمّانوئيل " : أي أنا مع اللّه ، أو بالحريّ اللّه معي، في العلاقة الجوهريّة التي تربط بين كياني و بينه ، و بين الكثيرين من الأشخاص المحبوبين .

و جدير بالتنويه أنّ ممثّل رئيس الأساقفة الذي أبرزت نذوري بين يديه لم يقتصر على السؤالين التقليديّين اللذين يطرحان على جميع الناذرات ، و هما : " هل تنذرين بحريّة تامّة ؟ – " هل أنت على وعيٍ تامّ لقيمة النذور التي تبرزينها ؟ " بل طرح عليّ سؤالاً ثالثاً ، و كأنّه مفصّل لي شخصيّاً ، فقال : " هل ستقوين على الصمود مع ما تتمتّعين به من شخصيّة قويّة ؟ " . و قد استغربت هذا السؤال ، ولكأنّ الحياة الرهبانيّة وقف على الشخصيّات الهشّة ، و أجبت : " أجل ، أبتِ ، سأصمد ، لأنّني لست وحدي ، بل اللّه معي . "

و من المؤكّد أنّ طبعي لازمني ، فبقيت ، أبداً ، متمرّدة . و بعد عشرين سنة، إذ كنت في استنبول ، عارضتُ رئيستي المحليّة ، لأنّها كانت تفرط في مطالبة الطالبات بنظام كان يبدو لي مضحكاً ، مثل اعتمار قبّعة مميّزة ، في الخارج ، وكانت تأخذ عليّ رفضي توبيخهنّ إن لم يعتمرنَ تلك القبّعات ، و أدّى ذلك التعارض إلى مطالبة رئيستي تلك الرئيسة العامّة في باريس بنقلي إلى معهد آخر . و اليوم ، يتبيّن لي أنّني كنت مخطئة ، فقد كنت أفتقد لبعض المرونة ، و لم أحاول التكيّف و التناغم مع الآخرين ، و كان هوى الحياة الذي يحدوني يقطر ، أحياناً ، العداء .

منذ مطلع حياتي الرهبانيّة ، قلت " لا " ثلاث مرّات ، عندما كان وجداني يفرض عليّ قولها . و لا يتعارض مثل هذا الموقف مع روح القوانين ، فحدود نذر الطاعة تتوقّف عند وجدان كلّ فرد . و مع ذلك يكتسي رفض تنفيذ أمر أحد الرؤساء، في الحياة الرهبانيّة ، خطورة كبرى على اعتباره حنثاً بقَسَم ؛ و في الواقع مثل هذا الرفض يعني : " إنّني أقول لا ، و أنا عالمة بأنّ لكم الحقّ بطردي " .

المرّة الأولى التي قلت فيها " لا " ، لم يكن الأمر خطيراً ، و أمكنت تسويته . حدث ذلك في استنبول ، يوم كنت مسؤولة عن " المدرسة الفقيرة " ، و رفضت إيكال تعليم الرياضة البدنيّة لشخص لم يكن يفقه من الرياضة شيئاً ، غير أنّ المديرة أوصت به ، و دعمت رئيستي تلك التوصية . و قد تمادى الخلاف عدّة أشهر ؛ وفي نهاية المطاف ، أيّدت الرئيسة العامّة موقفي ، أثناء زيارتها للمدرسة ؛ و لكنّني ، فيما بعد ، أخذت على نفسي اندفاعي المفرط في هذه القضيّة .

أمّا في النوبة الثانية ، فكانت القضيّة وجدانيّة حقّاً ، و كدت أهجر جمعيّتي . حدث ذلك عام 1965 في الإسكندريّة . كنت آنذاك مدرّسة للآداب ، و كانت بين طالباتي فتيات من البورجوازيّة المترفة ، لا يُعرنَ أيّ بال للفقر المحيق بنا . وضقت ذرعاً ، فكتبت إلى الرئيسة

العامّة مبيّنة أنّني لم أُصبح راهبة لكي ألقّن أَفكار فوليتر ، وروسو ، و كاموس لفتيات الطبقات المحظيّة ، بل لكي أَفتح قلوب طالباتي على مشاركة الآخرين . و أَضفت أنّني ، بعد أَن أَخفقت في إِفهامهنّ هذا الهدف ، سأرفض مواصلة تدريس هذا الصفّ في السنة المدرسيّة المقبلة . و تعذّر على رئيستي المحلّيّة فهم موقفي ، إِذ كانت تعتبرني مدرّسة جيّدة ، و بصفتي هذه ، لم يكن معقولاً أن أَرفض التدريس . و قد التمستُ منها تعييني في مدرسة الفقراء الصغيرة ، و لكنَّها رفضت . فقلت : " تبّاً إِذن ، اطرديني " . حدث ذلك في شهر أيّار ، و بما أَنّنا كنّا ، في كلّ سنة ، نجدّد نذورنا في الثامن من أَيلول ، التمست من رئيستنا العامّة ، في روما ، أَن تبلّغني قرارها قبل ذلك التاريخ ، إذ ربّما تعيّن عليّ عدم تجديد نذوري . ووافاني الجواب في اللحظة الأَخيرة ، متضمّناً الموافقة على نقلي إلى المدرسة الصغيرة ، بشرط أَن أستمرّ في إِلقاء بعض الدروس في المعهد ، فوافقت موضّحة : " أوافق و لكنّني لن أَقضي في ذلك عمري " .

لم أكن أعلم يومها أَنّ قولي هذا سيتحقّق خير تحقيق .

إِنّني أعترف أَنّ باسكال كان محقّاً عندما نصح بمسايرة الخصم بضع خطوات قبل التصدّي له . و أعتقد أَنّني ، مع كرّ السنين ، قد أحرزت بعض التقدّم في هذ1 المضمار . غير أَنّني ، في قضيّة الإِسكندريّة ، لم أَكن لأَتنازل أَبداً ، فقد كان ضميري يحظر عليّ أَيّ تنازل .

أمّا " لا " الثالثة ، فأوثر ألاّ أَتحدّث عنها الآن ، فلها علاقة بالكثيرين ، وعلى أَيَّة حال ، قد انتهى أَمرها نهاية طيّبة .

القسم الثانـي

معلّمة وفق روحِ الإِنجيل ، و على طريقة سقراط

تمهيد

أبت الأُخت إِيمّانويل متابعة دراسات جامعيّة تؤهّلها للتدريس في المعاهد العليا ، لأنّها كانت توّاقة إِلى الشروع ، بلا تلكّؤ ، في تدريس الفقراء الصغار ؛ وانتدبتها الرئيسة العامّة للتدريس في استنبول ، عسى أَن يسهم وجود الأمّ إِلفيرا ، المتميّزة بانفتاح الذهن ، و رحابة الصدر ، على رأس المعهد الإِستنبوليّ ، في ازدهار الراهبة الشابّة ؛ و بالفعل ، سحابة ثلاث سنوات ، عهدت الأخت إِيمّانويل سعادة غامرة ، بتعليمها الفتيات الصغيرات الفقيرات ، إِلى أَن أُصيبت بالتيفوئيد الذي كان قاتلاً ، آنذاك ، من جرّاء الافتقار إِلى مضادّات الحيويّة . و لكنّها حظيت بشفاءٍ عجيب ، بعد أَن تبرّعت لها أَخواتها الراهبات بمقادير من دمائهنّ . و إِثر إِبلالها من علّتها ، طلبت منها رئيستها الانتقال إِلى المعهد من أَجل تدريس الفتيات المراهقات ، بسبب افتقار المعهد إِلى مدرّسات قديرات نظيرها . و قاومت الأُخت إِيمّانويل ، بادئ الأمر ، مؤكّدة أَنّ مكانها هو إِلى جانب الصغار و الفقراء . غير أَنّ الرئيسة تبيّنت لها أَنّ الفتيات المراهقات و الشابّات ، بنات الباشوات و الأُسر البورجوازيّة ، مرشّحات لأَن يصبحن ، قريباً ، زوجات قادة البلاد ، و يحتجنَ إِلى من يفتح أَذهانهنّ على قضايا شعبهنّ ، و مشاكله ، و مآسيه ؛ و عندما أَيقنت أَنّ في تدريسهنّ رسالةً خطيرة الشأن ، امتثلت للأَمر .

صحيح أَنّ التدريس كان ، هو ، مهمّة جمعيّتها ؛ و لكن في حين أَنّ معظم أَخواتها كنّ يأخذن التعليم بحرفيّته ، على أَنّه تلقين موادّ دراسيّة محدّدة في البرامج ، كانت ، هي ، تحيطه بنظرة مزدوجة ، نظرة سقراطيّة ، على أَنّه مساعدة على ولادة للذات ، و إِنماء للعقل و القلب و الروح معاً ، و ترسيخ للقيم الإِنسانيّة ، و لا سيّما قِيَم المحبّة ، و التآخي ، و التضامن ؛ و نظرة رسوليّة على أَنّه وسيلة لخدمة الآخرين ، و لا سيّما المحرومين . و من ثمّ حرصت على اصطحاب طالباتها إِلى الأَحياء الفقيرة ، و المصانع ، و المياتم ، و دور العجزة و المسنّين ، و حثّتهم على تبنّي كلٍّ منهنّ لواحد من أولئك البائسين ، و على غوثهم بما يوفّرنه من مصروفهنّ الشخصيّ . و قد أَصابت ، في هذا المضمار ، نتائج مرموقة .

و فضلاً عن ذلك عقدت علاقات وديّة مع الأورثوذكسيّين ، و لا سيّما مع البطريرك القسطنطينيّ أَثنيا غوراس ، و كانت سبّاقة في الريادة المسكونيّة . و لكي تتأَهّل لتدريس جميع صفوف المعهد ، دعتا رئيستها إِلى الحصول على إِجازة في الفلسفة من جامعة إِستنبول ، فضلاً عن متابعة دروس بالمراسلة مع جامعة السوربون بباريس . و غزت نفسها ، في تلك الفترة ، موجة شكّ هاصرة ، غير أَنّها لم تلقَ لدى أَيٍّ من الفلاسفة جواباً على تساؤلاتها ، أَو قَبَساً ينير ظلمة عقلها . فظلّت تردّد مع الرسول بطرس القول : " إِلى من سواك نلتجئ ، يا

ربّ ؟ " و أَخيراً ، قُيِّض لها العثور على باسكال الذي أَعادت حجّته المحكمة إِلى نفسها الطمأنينة و اليقين .

و فجعت الأُخت إِيمّانويل بوفاة رئيستها في استنبول ، الأُمّ إِلفيرا ، التي كانت لها بمثابة أُمّ ؛ و التي خلفتها راهبة عديمة الخبرة ، ممعنة في التقليديّة ، لم تَرُقْ لها صراحة الأُخت إِيمّانويل ، و لا نزعتها الاستقلاليّة ، و لا خطواتها الاجتماعيّة والمسكونيّة . و اتّضح للأُخت أَنّها ، إِن هي أَقلعت عن تلك الخطوات ، إِذعاناً لرئيستها ، لخانت دعوتها . و حاولت ، عبثاً ، الانضمام إِلى جمعيّة " أَخوات يسوع الصغيرات " ، بعد أَن التقت مؤسّستها الأُخت مادلين في استنبول ، و توسّمت في مرامي تلك الجمعيّة كلّ ما كانت تصبو إِليه من عبادةٍ و معايشة للفقراء . و أَخيراً ، حسماً للصدام المحتدم بين الأُخت الثائرة ، و رئيستها المحلّيّة المحدودة الآفاق ، قرّرت رئيسة الجمعيّة العامّة إِيفاد الأُخت إِيمّانويل إِلى معهد الجمعيّة في تونس .

و كانت السنوات الخمس التي قضتها في تونس محنةً قاسية ، إِذ أَخفقت ، أَثناءَها ، في إِنفاذ أَيّ شيء من رسالتها إِلى طالباتها المراهقات الفرنسيّات المشبعات مقتاً لأَهل البلاد التونسيّين ، و اللواتي تعمَّدن إِثارة الشغب أَثناء دروسها ؛ و انتهت جميع محاولاتها لإِحلال النظام إِلى فشل ذريع . و في غضون أَشهرٍ معدودات اضمحلّت هالة النجاح التي بنتها طيلة ثمانٍ و عشرين سنة من الإِبداع في استنبول .

ووافاها الفرج ، يوم كُلّفت بالعودة إِلى استنبول ، كي تحلّ محلّ راهبة مريضة ، و لكن ما كادت تنقضي سنة على عودتها تلك حتّى بلّغتها برقيّة شديدة الاقتضاب بوجوب الشخوص إِلى الاسكندريّة ، حيث كلّفت بتدريس الفلسفة شابّات أرستقراطيّات غارقات في الأَنانيّة ، و إِزدراء الفقراء ، و البذخ ، و اللامبالاة . وتفاءَلت خيراً الأمّ " غيسلين " رئيسة معهد الإِسكندريّة آنذاك ، و اعترفت ، فيما بعد، " لقد استطارني فرحاً وصول الأُخت إِيمّانويل ، فقد كانت هي الشخص الذي أَبحث عنه لكي أَخضّ طالباتي البورجوازيّات الساحرات ، اللواتي كنّ يتبخترنَ في الشمس ، و لا تجول بخاطرهنّ أَيّة فكرة عن حبّ الآخرين . لقد كنّ أَكثر فتيات العالم أَنانيّة ، و كان لا بدّ للأمور من أن تتغيّر . كنت أَعلم أَنّ الأُخت إِيمّانويل كانت خير أَملٍ لي ، فهي كانت عبقريّة في حمل الآخرين على حبّها ، و كانت هي تحبّهم . و من ثمّ كانت طالباتها يحببنَها ، ووسط هذا الحبّ كانت تعيش على نحوٍ رائع ، وتحمل الآخرين على عيش رسالة حبّ المسيح ، في سلوكهم اليوميّ ، و كانت تفعل كلّ ذلك و هي ضاحكة ، مرحة ، فرحة . أَجل ، لقد كانت تبلّغ رسالة المسيح الحقّة "

و لكن رغم جهودها الدائبة فشلة الأُخت في تسريب شيءٍ من القِيَم الإِنسانيّة إِلى قناعات طالباتها الأَرستقراطيّات الأَنانيّات ؛ و إِثر سنوات من المحاولات اليائسة أَيقنت أَنّها ، باستمرارها ، إِنّما هي تخون دعوتها ، و تهدر طاقاتها سدى ، فطلبت الانتقال إِلى المدرسة المجّانيّة ، و إِزاء رفض رئيستها المحلّيّة ، أَنذرت رئيسة جمعيّتها العامّة بأَنّها لن تقوى على المثابرة ، و لن يكون بوسعها تجديد نذورها ، ما لم تكلّف بمهمّة تتيح لها تحقيق الرسالة التي من أَجلها اختارت الحياة الرهبانيّة .

و قُبيْل بدء السنة المدرسيّة الجديدة ، وافتها الموافقة ، و عُيِّنت مديرة للمدرسة المجّانيّة التي أَعادت تنظيمها . و هناك اصطدمت ببؤس لم يكن ليخطر لها في خيال . و علمت بأَمر أُسرٍ تنام على الطوى لافتقارها إِلى ما تطعمه . و بات نداء الفقراء لها أَشدّ أَسراً ، و أَيقنت أَنّ من واجبها العيش بين ظهرانيهم ؛ و عثرت ، لدى أسرة فقيرة ، على حجرةٍ خَربةٍ مهجورة ، فالتمست من رئيستها العامّة إِذناً بالإِقامة فيها ، و طلبت أَن تُعطي ما يُنفَق على كلّ راهبة لمعيشتها ، والمقدّر بتسعة جنيهات ، شهريّاً ، لكي تقتسمها مع الفقراء . وكان المجمع الفاتيكاني الثاني قد شرع يؤتي ثماره، فاستجيب طلبها . وهكذا أَمضت خمس سنوات تضطلع نهاراً بإِدارة المدرسة ، و تقيم ليلاً إِلى جانب أسرة فقيرة تمكّنها من الشبع ، و تساعد أَبناءها و أَبناء الحيّ على استيعاب دروسهم . و قد يلتئم عندها ، منهم ، في المساء ، نحو ثلاثين ولداً لا تمكّنهم مساكنهم الضنكة من أَداء وظائفهم و استذكار دروسهم ، و بمساندتها لهم أَتاحت لهم إِصابة نجاح منقطع النظير .

و للتدليل على استهداف مصالح طالباتها الحقيقيّة ، في المقام الأوّل ، استعاضت عن تدريس اللغة الفرنسيّة التي كانت تعشقها ، و التي توغّلت في دراستها و دراسة آدابها ، و التي كانت لغة النخبة الاجتماعيّة الراقية ، بتدريس اللغتين العربيّة و الإِنكليزيّة لتمكين الفقراء من تدبّر أمور حياتهم ، و كسب معيشتهم

عام 1970 ، كانت الأُخت قد بلغت الثانية و الستّين من العمر ، و اعتملت في نفسها الرغبة في تكريس سنواتها الأَخيرة لخدمة البرص . و في تلك الأَثناء قرّرت جمعيّتها التخلّي عن مدرسة الإِسكندريّة ، والإكتفاء بموطئ قدم في القاهرة ؛ و أُطلقت للأُخت إِيمانويل حرّيّة إِشباع رغبتها في خدمة المنبوذين .

عن تلك المرحلة التدريسيّة الحافلة ، كتبت الأُخت إِيمّانويل الفصول التالية :

عهد النهوض : المعلّمة

قبل اعتزامي دخول الدير كنت قد نويت متابعة دروسي الجامعيّة ، فاصطدمت برفض أُمّي . ثمّ بعد إبرازي نذوري المؤقّتة ، عام 1931 ، اقترحت رئيستي العامَّة أَن أُعدّ إجازة في الفلسفة في السوربون . و لكنّني أَبيت ،ربّما بدافع المعارضة الذي كان يلازمني . و لكن ، في منطقي ، كان هذا الرفض مبرّراً تبريراً كاملاً . فعلى نحو ما بيّنتُ للأُمّ غونزاليز ، كنت قد أَصبحت راهبة لكي أُعنى بالأطفال البؤساء ، و قلّما تتخطّى دراسة الفقراء المرحلة الابتدائيّة ، و من ثمّ كان بوسعي أَن أباشر عملي في الحال ، فقد كنت ، في بروكسيل ، بعد انتهائي من دراسة " الإنسانيّات " في المرحلة الثانويّة ، قد اتّبعت دروساً مسائيّة خوّلتني حقّ الحصول على معادل لبكالوريا في الفلسفة ، و كان ذلك كافياً ، آنذاك ، لكي أُصبح مدرّسة متدرّبة ، و لا سيّما في الخارج .

و كانت جمعيّتي قد أَنشأت ، في معظم أَنحاء العالَم ، معاهد كانت ، في الأَصل ، تستهدف تثقيف بنات اليهود الذين ارتدّوا إلى المسيحيّة ، و لكنّ تلك المعاهد قد انقلبت ، شيئاً فشيئاً مشاتل للثقافة الغربيّة ، ، متوجّهة إلى نخبة البلاد . و من تلك المعاهد كان العديد منها ، على غرار معهد لندن الذي ارتحت إليه كثيراً ، يضمّ في حديقته ، أَو في الجانب الآخر من الشارع " مدرسة صغيرة " للطلاّب الفقراء . كذلك كانت حال معهد استنبول. فالمعهد الرئيسي كان يضمّ ثلاث مئة طالبة ، بنات الباشوات ، و بورجوازيّة المدينة ، مسلمات ، و يهوديّات و أورثوذكسيّات ، في حين كانت " المدرسة الصغيرة " المجّانيّة ، تجمع طالبات ، معظمهّن فقيرات و مسيحيّات، بنات الأقليّات اليونانيّة و الأرمنيّة . و بهذه المدرسة التحقت .

و أَظنّ أَنّ ما برّر قرار الرئيسة العامّة إيفادي إِلى استنبول أَنّ رئيسة ذلك المركز ، الأُمّ إِلفيرا ، كانت كائناً فذّاً ، و من شأني أَن أَزدهر في جوارها . فقد كانت تلك الراهبة تقرن إِلى ذكاءٍ خارق ، رحابة الفكر ، و الحكم السديد ؛ و كانت من الإِيغال في معرفة خفايا تركيّا ، بحيث كان سفراء الدول يقصدونها التماساً لنصحها .

في تلك " المدرسة الصغيرة " قضيت ثلاث سنوات وسط سعادة غامرة ، عاكفة على إِكساء صغيراتي ، و رعايتهنّ ، و تدليلهنّ ، و تثـــقيفهنّ . و كنت أَستعين على تعليمهنّ بمعلّمة تركيّة كانت تترجم إِلى اللغة التركيّة ما أَقول بالفرنسيّة ، وبدميةٍ كنت أُوجّه إِليها الدروس لكي تحفظها الفتيات و هنّ متهلّلات بهذا الأُسلوب المبتكر الممتع . و هل أَجمل من مساعدة أولاد صغار على الاستيقاظ على الحياة ؟ الدراسة هي ، حقّاً ، السبيل الأَكثر مباشرة الذي يتيح للصغير أَن ينتصب على قدميه، و لا سيّما عندما يرتدي التدريس صيغة توليد الحقيقة التي لقّننا إِياها سقراط العظيم، والتي على المدرّس ، بموجبها ، أَن يساعد الطالب

على " وضع " أو ولادة الإمكانيّات الكامنة فيه . هذا هو ما أثارني سحابة السنوات الأربعين التي أنفقتها في ممارسة هذه المهنة : ألاّ أفرض أبداً معارفي و آرائي ، بل أن أساعد الطالبات على اكتشاف خصالهنّ و مؤهّلاتهنّ الذاتيّة ، و استنباط ثرواتهنّ الخاصّة ، و تعلّم استخدام ذكائهنّ ومواهبهنّ ، و تكوين آرائهنّ بأنفسهنّ .

لم يكن للمدرسة الصغيرة سوى باحة مغرقة في الضيق ، و لم تكن لها حديقة. و قد أذنت لي الأم إيلفيرا ، رئيسة الجمعيّة ، أن اصطحب صغاري للتنزّه ، أيّام الأحَد ، في المركز الذي كانت قد ابتاعته عند ضفاف البوسفور . و كانت الراهبات المسنّات يعترضنَ قائلات : " أمن الحكمة أن تَدَعي راهبة شابّة تكثر الخروج من الدير ؟ " و لكنّ الأم إلفيرا كانت دائماً تتولّى الدفاع عنّي فتقول : "دعوها، فعبثها مع الصغار يؤتيها نفعاً "

و كان الصغار يحرزون تقدّماً في دروسهم ؛ و لكن في نهاية السنة الثالثة ، إذ كانت الأم إلفيرا تحتاج إلى عناصر نشيطة في المعهد ، أوعزت إليّ " باجتياز الشارع " . و رجوتها أن تدعني ، سنة أخرى ، في المدرسة الصغيرة ، غير أنّها ، في السنة التالية ، أعادت الكرّة قائلة : " أوَلا تظنّين أنّه من الأهميَّة بمكان إعداد هؤلاء الفتيات اللواتي سيصبحن فيما بعد جزءاً من الطبقة الحاكمة ، على إدراك واقع بلدهنّ إدراكاً أفضل ؟ "

و في تلك الأثناء كنت قد أُصِبتُ إصابة مريعة بالتيفوئيد ، كادت تودي بي إلى أبواب الموت ، إذ لم تكن قد اكتُشفت ، بعد ، مضادّات الحيويّة الكفيلة بالقضاء على هذا الداء ؛ و لم أُشفَ إلاّ بفضل تبرّع أخواتي الراهبات لي بدمهنّ . و كنتُ ، من شدّة الحمّى أهذي ، و في هذياني كنت أَسبّ الشتائم على الجميع ، حتّى على راهبات المحبّة اللواتي كنّ يحطنَني بأرقّ عناية في مشفاهنّ .

و قد قدّمت والدتي من فرنسا لعيادتي ، و عندما تماثلتُ للشفاء ، استوضحت:

– " أسعيدة أنت يا بنيّتي ؟ إن لم تكوني سعدية لعدتُ بك إلى أوروبا . " فأجبتها :

– " إنّني في غاية السعادة ، و صدّقيني ، يا أُمّاه ، إنّني أوثر الموت راهبةً على العودة معك . "

و قد حملتني مبادرة أخواتي لإنقاذي إلى إعادة النظر في نفسي ، أثناء نقاهتي. و انتهيت بالامتثال لاقتراح الرئيسة ، شرط أن تترك لي إمكانيَّة إقامة جسور بين بنات الباشوات و العالم المحيق بهنّ .

لقد حرصت على فتح عيون أولئك الفتيات على واقع القطاع الأكبر الفقير من شعبهنّ ، و حيال ذلك العالَم الذي كان خافياً عليهنّ كانت عيونهنّ تظلّ محدّقة ، دهشة . ووفق ما تؤكّده لي طالباتي السابقات ، أعتقد أنّني أفلحت في فتح عيونهنَّ على العالم و قد كلِفتُ كَلَفاً

حقّاً بهذه المهنة . و لا بدَّ من الإقرار أنّ مساندة الأمّ إلفيرا كانت لي عوناً متيناً . لقد خلَّفت فيّ الأمّ إلفيرا أثراً بليغاً ، فبفضلها بتّ أبحث دائماً عن الجانب الإيجابي في الأشياء و في الناس ، فقد كانت لها أقوال لازمتني دائماً مثل هذا القول : " عندما يقال لك في أحدٍ سوء ، ضعي علامة استفهام ، و حاولي التحقّق. أمّا إذا قيل فيه خير ، فاطمئنّي وثقي بصحّة القول ... " . و هي لم ترفض ، قطّ ، استقبال أيّ إنسان ، و خاصّة إن كان فقيراً .

كانت الأمّ إلفيرا امرأة مدهشة ، و كانت تجسّد سلطةً نحبّها ، لأنّها كانت تأخذ دائماً بالحسبان ما هو صالح لكلّ واحدٍ منّا . و مع ذلك ، هي أيضاً ، كانت قد استوضحتني ، بضعة أشهر قبل إبرازي نذوري المؤبّدة – عام 1937 ، أي وفقاً للتقاليد ، ستّ سنوات بعد النذور المؤقّتة – : " هل أنت تحسنين حقّاً احتمال الحياة الرهبانيَّة مع ما تفيضين به من حيويَّة ؟ إنّني أُحبّك جدّاً ، لا بل إنّي أدلّلك ، و تأخذ عليّ سائر الراهبات إيثاري لك . و لكن لا بأس ، فأنا إنّما أبتغي مساعدتك . غير أنّي لست باقية أبداً ، و قد تخلفني رئيسة أُخرى قريباً ، و قد لا تتفهّمك مثلي . فهل أنت واثقة من الصمود حينئذٍ ؟ أنتِ لم ترتبطي ، بعد ، بنذور مؤبّدة ، و ما زلت حرَّة..."

–" لا ، يا أمّاه ، بل أنا راهبة للحياة ، و سأظلّ راهبة ، حتّى الممات ، والحياة الرهبانيّة تغمرني بالسعادة ، و أنا أُحبُّ كلّ ما فيها "

فذكرّتني حينئذٍ ، بالأوقات المكرّسة للصلاة ، و التي لا يسوغ انتقاصها ، مؤكّدة :

– " لا شيء ، لا شيء إطلاقاً كفيل بحملك على إهمالها أو التضحية بها . فهذا الوقت يخصّ اللّه ، و هو الذي سيساعدك على الصمود ، حيال كلّ شيء .."

و لن أنسى أبداً الدرس القيّم الذي لقّنتنيه الأمّ إلفيرا ، قُبيل وفاتها ، يوم قيل لها أنّ امرأة فقيرة مسكينة تودّ رؤيتها ، فتناست سنَّها و تعبها ، و انحدرت إلى قاعة الاستقبال ، فاعترضتُها قائلة :

– لستِ في حالةٍ تسمح لك بالجهد ، فابقي في غرفتك ، و سأتولّى ، أنا ، أمر المرأة " . فأجابتني :

– يا ابنتي إيمّانويل ، لو كان سفيرٌ طلب رؤيتي لقلت لي : " إنّه سفير ينبغي أن تقابليه " . في حين أنَّ نقيض ذلك هو الذي ينبغي أن يحدث . فلو كان الزائر سفيراً لاعتذرت عن استقباله ، أمّا هذه المرأة المسكينة ، فقد تكون في حاجةٍ إليّ أكثر من جميع ديبلوماسيّي العالم . "

و قد كان موتها المفاجئ ، عام 1938 ، بالسكتة القلبيّة ، صدمة صاعقة هزّتني في الصميم ، و تكاد تعادل صدمتي بوفاة والدي ، و كان فقداناً لعلاقةٍ جوهريّة . كنت ما زلت ،

آنذاك ، في التاسعة و العشرين ، و أدركت أَنّ عليّ ، إِثر ذلك ، أَن أَنضج ، فبوجودها كنت ما زلت شبه طفلة .

و قد صدق حدسها ، إِذ إِنّ تفاهمي مع اللواتي خلفنَها تدنّى كثيراً عمّا كان معها .

ماذا فعلتُ لمدّ جسور بين الأَغنياء و الفقراء ؟ ابتدأتُ باصطحاب طالباتي لإِجراء تحقيقات اجتماعيّة في أَحياء المدينة الفقيرة . كان ذلك ، في نظري ، جوهريّاً، فالمسيح أَعلن : أَنّه جاء من أَجل الفقراء ، و المرضى ، والخطأة ، و عاش معهم . و كان يضايقني أَن أَنعم كلّ يوم بطعام جيّد ، و التمست من رئيسة الجمعيّة العامّة إذناً بالعيش في أكواخ الفقراء ، و لكنّها رفضت ، ففي ذلك العهد كان مفروضاً على الراهبات أن يلزمن أديرتهنّ .

غير أَنّني كنت أرى أَنّ من الأَهميّة بمكان أَن تطّلع طالباتي على واقع بلدهنَّ، و خاصّة في الأَحياء الفقيرة – مع أنّ الفقر هناك كان فقراً نسبيّاً ، إذ لم يكن ، ثمّة ، ربع البؤس الذي اكتشفته ، فيما بعد ، في مصر– . و لم تهزّني صدمة الفقر الحقّ إلاّ فيما تلا من الأيّام .

كنّا نزور بانتظام ميتماً حيث تبنّت كلّ طالبة اثنين من الأيتام ، و عدّتهما بمثابة أَخوين صغيرين ، توزّع عليهما الحلوى و الدمى التي تبتاعها من مصروفها الشخصيّ . و مرّة كلّ شهر ، كنّا نزور أَيضاً مأوى ، حيث تُعنى كلّ طالبة باثنين من المسنّين . و كنت أودّ زيارة البرص ، و لكن لم يكن ، آنذاك ، متاحاً الدخول إلى مستعمراتهم . فكنّا نعدّ لهم ، بمناسبة الأَعياد ، رُزَماً مرفقة بكلمات رقيقة . كانت أَعمار طالباتي تتراوح بين السابعة عشرة و التاسعة عشرة ، و ما كنتُ أكبرهم بأكثر من عشر سنوات ، فكنت لهم الصديقة ، أكثر ممّا كنت " الراهبة " ؛ كنّا نتبادل الكتب و المجلاّت ؛ و إِذ كنّ كَلِفات بالثقافة الفرنسيّة ، فقد كنَّ يلتهمنَ كلّ ما أستطيع توفيره لهنَّ منها .

إِنّها لرائعة رؤية الذهن يتفتّح كي يتبنّى فكرة استوعبها ، مثل خبز يتحوّل إلى لحم و دم ، و لكنّني لم أفرض يوماً رأياً ، بل كنت أَشعر بالضيق إن تبنّت طالباتي رأيي . لقد كانت حقّاً طريقة سقراط في توليد الحقيقة !

أَمّا المخاطرة التي ما برح بعضهنَّ يذكرنها ، و التي ستظلّ أَجمل ذكرى في مهنتي كمعلّمة ، فتلك التي جرت يوم الأوّل من أيّار – و كان يوم عطلة في المعهد ، و لكنّه لم يكن كذلك في تركيّا – عندما اصطحبتُ طالباتي للعمل في مصنع غزل يمتلكه والد إحدى الطالبات ؛ على غرار العاملات لففنا على المواسير خيوطاً صوفيّة طيلة النهار ، و كنّا نوقف الآلة كلّما انقطع خيط ، و نحن واقفات باستمرار في جوٍّ من الحرارة خانق ؛ و لقينا مشقّة في الصمود . عند الظهر تناولنا الغذاء في مطعم العاملات ، و في المساء تلقّينا أجر النهار الذي دفعناه في الحال في صندوق المشاريع المختلفة التي أحدثناها . لبضع سنوات خلت ، أَثناء

مروري بألمانيا لإلقاء سلسلة من المحاضرات ، التقيت فتاة كانت من أسرة فقيرة ، و قد موّلنا نحن دراستها . و قد اعترفت أنّها بفضلنا تتبوّأ اليوم ، هي و أخوها ، مركزاً جيّداً . هذا هو ، حقّاً ، مكسبنا .

و قد سارعت إلى تعلّم اللغة التركيّة ، فأَقلّ ما يتوجّب على المرء فعله في بلد غريب يعيش فيه، هو أَن يتعلّم لغته . و لكنّ فعلي لم يلقَ استحساناً لأنَّ أولياء الطالبات أَنفسهم كانوا يطالبوننا بمنع استخدام اللغة التركيّة في المعهد ، فبناتهنَّ إنّما جئن كي يتلقنَّ الفرنسيَّة !

و كانت قضيّة الزيّ ، في أيّام أتاتورك ، هي الأكثر إثارة للضحك . كان زيّنا، آنذاك ، جميلاً جدّاً و لكنّه لم يكن عمليّاً ، و يتألّف من ثوب أَسود طويل ، ومن قبّعة بيضاء ، و وشاح أَسود ، و معطف قصير . و لكن ، عام 1935 ، منع أَتاتورك الأزياء الدينيّة ، و مع أَنّ البنات الثلاث اللواتي كان قد تبنّاهنّ ، كنّ في معهدنا ، إلاّ أنّه أبلغ الأمّ إلفيرا اضطرارهُ لإخضاعنا لنفس المنع ، آملاً أَلاّ يكون ذلك سبباً لمغادرتنا تركيّا ، لأنّه كان يقدّر تأثيرنا الممتاز .

تصوّروا تخلّينا عن زيّنا الرهبانيّ ! لقد أعلن مجلس الجمعيّة – الذي كان قبل إصلاح عام 1964 لا يزال في باريس – : " خير لنا أن نغادر البلاد " غير أنّ الأمّ إلفيرا – التي كانت مكافحة – شخصت إلى روما ، و قابلت كرادلة مجمع الرهبانيّات ، للدفاع عن رسالتنا ، و أَفلحت ، و عادت لتعلن : " سنبقى ، و سنرتدي ثوباً مدنيّاً ، و لكن حذار من حبّ التباهي"

و تعيّن ، حينذاك ، إيجاد ستّين رداءً مختلفة الألوان ، لتفادي الزيّ الموحّد ، لستّين راهبة متباينات قياس القامات ... لقد كان تفصيل تلك الثياب مريعاً ، و مبعث ضحك كثير .

غير أنّ ما عزّانا في تلك المناسبة هو موقف القاصد الرسوليّ في تركيّا آنذاك الكردينال " أنجيلو رونكاليّ " الذي أصبح ، فيما بعد ، البابا يوحنّا الثالث والعشرين. فقد توخّى ضرب المثل في الامتثال للقوانين ، واصطنع ثوباً مدنيّاً ، وزارنا به ، فإذا ببنطاله شديد القصر ، و بمعطفه ضيّق يضغط على كرشه ، و إذا بشكله يثير الضحك . وكان هو نفسه أوّل من سخر من زيّه .

كان مونسينور رونكاليّ يختلف باطّراد إلى ديرنا في استنبول و يتولّى إرشادنا الروحيّ ، و يقضي أيّام عطلته في مقرّ جمعيّتنا في " ترابيا " . و قد عرفتهُ عن كَثَب ؛ كان يتمتّع بفكرٍ ممتاز ، و بإيمان من النمط الذي أُحبّه . كان رمزاً للطيبة الإنجيليّة ، و التواضع السحيق . و كان يمتلك مرحاً رائعاً ، و المرح من أجمل الفضائل . كان يقول " الحياة هي

محاولة تخفيف العبء الباهظ الذي يختلقه الناس لأَنفسهم ... أَن يكون المرء مسيحيّاً يعني أَن يكون فرحاً . الفرح هو أَساس " ؛ وغالباً ما كان يغرق في الضحك .

يوم ارتدينا ، للمرَّة الأُولى ، الزيّ المدنيّ ، و كدنا نبكي لبشاعته ، زارَنا مرتدياً، هو أَيضاً، زيّاً مدنيّاً مضحكاً و قال : " إِنّه ليومٌ تاريخيّ ، يا أَخواتي ، و لكن خيرٌ لنا أَن نضحك من أَن نبكي . أنظرنَ كم نحن نثير السخرية ، و لكن صدّقنَني ، هذا لن يبدّل شيئاً لا من إِيماننا و لا من العمل الذي يسعنا الاضطلاع به في سبيل الآخرين ... " أَجل ، كان ذلك درساً رائعاً في الطيبة الإِنجيليّة .

تنبغي معرفة جانب الأَشياء المشرق ، و هذا ما كان يجيد فعله مونسينيور رونكاليّ ؛ و بفضل مرحه كان يقوى على تخطّي الأَحداث . إِنّ الحياة مأساة لمن يُغرقون في التفكير ، و لكنّها مهزلة لمن يحسّون ، و هو كان حسّاساً ... و قد علّمني الكثير . كان يجسّد إِيماناً فولاذيّاً مغلّفاً بالسعادة و بفرح العيش . كان سبّاقاً لزمانه ، فقد كان أَوّل من أَوعز بتلاوة الصلوات ، في تركيّا ، باللغة التركيّة ، عوضاً عن اللاتينيّة . و لم يتورّع عن لقاء بطريرك القسطنطينيّة باطّراد ، و أَقام معه علاقاتٍ وديّة ، و ذلك قبل تطبيع العلاقات بين روما و القسطنطينيّة . و قد افتتح دورات تعليم دينيّ للكبار ، كان أَوّل من تطوّع لإِلقاء دروسها .

بوحيٍ من مثاله قمت بزيارة الفنار ، و التقيت البطريرك أَثينا غوراس ، الذي قال لي بتلقائيّته الشهيرة :

– " آه ! راهبة كاثوليكيّة ! إِنّني سعيد جدّاً بمجيئك . "

و بحركة رمزيّة لفّني بمعطفه . و سأَلته :

– " هل سيفلح المسيحيّون ، أَخيراً ، في تحقيق وحدتهم ؟ "

– " نعم ، و لكنّ الدرب سيكون طويلاً "

ثمّ اختلفت إِلى الفنار في مناسباتٍ عديدة ، و كان البطريرك يأتي دائماً نحوي قائلاً :

– " هذه ابنتي إِيمّانويل التي ترغب دائماً في رؤيتي . "

و في تركيّا وثّقتُ علاقاتي مع مسلمين و أَورثوذكسيّين ؛ و لكنّني لم أحاول ، يوماً ، ردّ إِنسانٍ عن مذهبه . فمهمّتي كانت أَن أُحبّ و أَشهد لحبّ اللّه . و من يحبّ يحترم الآخر ، و يحترم هويّته .

في تلك الأَثناء التمست من رئيساتي في باريس الإِذن بالحصول على الجنسيّة التركيّة ،و أُجبت بأَنَّ " عليّ أَلاّ أدع مخيّلتي تتغلّب عليّ " . و لكن المخيّلة انتهت بالغلبة ، فأَنا أَحمل اليوم جواز سفرٍ مصريّاً ! .

(في بيت الربّ منازل كثيرة)

-

يتّضح لي اليوم أنّ السنوات الطويلة التي سلختها في استنبول هي التي أَرست أُسس خبرتي اللاحقة في أكواخ القاهرة . أَوّلاً على المستوى الفكريّ ، فقد كنت سليلة وسط كاثوليكيّ ملتزم ، و دخلت الدير في العشرين من عمري ، فلم تتسنّ ، قطّ ، لي فرصة التحدُّث مع غير كاثوليكيين أو غير مسيحيّين . و لكنّني إذ كانت تحدوني رغبة جادّة في معرفة كلّ شيء ، و منفتحة على هذه المعرفة ، كنت أَلتهم كلّ الكتب التي تقع تحت يدي ، ومنها الكتب التي تتعلّق بالانشقاق الشرقيّ الكبير : أَو لم أكن في صميم القسطنطينيّة؟ و ما زلت أَذكر الفضيحة المجلجلة التي أَثرتها يوم تولّيت ، أَثناء فسحة ، الدفاع عن فوتيوس ، و هو لاهوتيّ بيزنطيّ من القرن التاسع ، من روّاد الأورثوذكسيّة ، كان قد تجرّأ فانتقد البابا نيقولاوس الأوّل لعدم تفهّمه أَوضاع المسحيين الشرقيّين . و كنت قد طالعت كتاباً عنه ، ووجدت أَنّه رجل جليل الشأن ، في حين أَنّه لم يكن ، في نظر زميلاتي ، سوى منشقّ خطير . ثمّ ، فيما بعد ، عندما رافقت مجموعة من الطلاّب إِلى الفنار ، و هو أَرفع مركز لبطريركيّة الروم الأورثوذكس ، ملتمسة شفاعة القدّيسة أوفيميا ، التي استشهدت قبل الانفصال بين الشرق و روما ، أَثارت زيارتي تلك فضيحة جديدة ، فقد كان محظوراً ، آنذاك

، على الكاثوليكيّين دخول كنيسة تابعة لطائفة أخرى . و لا يغربنّ عن بالنا أنّنا كنّا مازلنا بعيدين عن المجمع الفاتيكاني الثاني الذي حقّق انفتاحاً على الطوائف و الديانات الأُخرى . في تلك الحقبة كان كلّ شيء أبيض أو أسود . أمّا اليوم ، فالشكر لله إذ إنّ المسكونيّة قد خطت شوطاً بعيداً إلى الأمام . و قد اتّفق لي أن شاركت في لقاء أسيزي حيث تناقش ممثّلو جميع الديانات الكبرى في العالم . و كان لقاءً رائعاً.

أوّل الأمر كنت أكثر انفتاحاً على الثقافات الأخرى ، ممّا كنت منفتحة على الديانات الأخرى .

و كانت الأمّ إلفيرا قد أوضحت لي أنّ من واجبنا الجوهريّ أن نبدي احتراماً للمذاهب و الديانات الأخرى ، لا سيّما و أنّنا كنّا نعيش وسط شعبٍ ، أربعة و تسعون بالمئة من أفراده مسلمون ، و يضم قلّة من اليهود ، و أقليّة ضئيلة من المسيحيّين ، حفنةٌ منهم كاثوليكيّون . و مع ذلك كنت ما زلت أعتقد أن لا خلاص خارج الكنيسة ، و أنّ الذين ليسوا مثلي ، قد لا يكونون أشراراً ، و لكنّهم ليسوا على السراط القويم .

و كان أوّل من أطلعني على واقعٍ آخر رجل مسلم علّمني اللغة التركيّة ؛ فأثناء نقاشي معه تبيّن لي أنّه كان قد هجر وظيفة تؤمّن له دخلاً مجزياً ، لأنّه خشي، إن هو بقي فيها ، أن يُقسر على عمل ما لا يرضاه ضميره . و قد هزّني ذلك هزّاً عنيفاً .

ثمّ عندما بلغت الخامسة و العشرين باشرت دروساً في الفلسفة في جامعة استنبول ، إذ كنت ، منذ صباي ، أعشق الفلسفة ، و أشعر بحاجة إلى الفهم و التفكير، فضلاً عن أنّ شهادة عليا كانت لازمة لتمكيني من التعليم في المدارس الثانويّة . وفي الجامعة كنت على صلة بأساتذة مسلمين و يهود يتمتّعون بمواهب عقليّة ، و مناقب دينيّة مذهلة . و كان ذلك صدمة حقّة لفتاة مثلي ، قادمة من مجتمع أكثر ميلاً إلى الانكماش على ذاته . لقد وجدت نفسي إزاء رجال غير مسيحيّين لا تتدنّى قيمتهم عن قيمة بعض الكاثوليكيّين الذين أقدّرهم أرفع تقدير ، مع أنّه قيل لي دائماً أنّ الدين والإيمان هما اللذان يضفيان على البشر قيمتهم ...

و أقبلت معهم على دراسة محمّد ، و بوذا ، و التلمود ، فلم أعثر لديهم على البراهين عن وجود الله أكثر ممّا وجدت في الكتاب المقدّس . و بحثت لدى الفلاسفة عن معنى الحياة ، فلم أجد . فلدى كاموس و سارتر و جميع أضرابهم كانت شكوك ، و تساؤلات ، و لم يكن وضوح.

و هكذا عشت ، فترة طويلة ، أمام منافذ موصدة ، متشبّثة بعبارة الرسول بطرس الصغيرة ، في الإنجيل : " ربّي إلى من سواك نمضي ؟ "

في استنبول ، أَثناء إعدادي لشهادة الفلسفة ، عرفت الشكّ ، حقّاً ، و في الواقع لم أقف على جواب حقيقيّ إلاّ في أَواخر الخمسينات ، عندما كنت في تونس ، و تابعت دروساً بالمراسلة مع السوربون ، و قُيّضت لي فرصة العثور على باسكال ، و رهانه الذي أفهمني أنّ لادليل نهائياً على وجود الله . فحينئذٍ على المرء إمّا أَن ينبذ الإيمان – و هو عالمٌ كم ذلك النبذ مؤلم – أَو أَن يُراهن على وجود اللّه ، و حتّى إن كان خاطئاً فهو لا يُجازف بشيء . و هكذا ، باسكال هو الذي وفّر لعقلي إمكانيّة متابعة الدرب الذي كنت قد اخترته . كان جواباً معقولاً ، و في آنٍ واحد ، كان يدفعني بعنف في إثر اللّه الحبّ الذي وقع عليه خياري في شبابي . و أوضح أَنّ هذا التطوّر لم يحدث بين ليلة و ضحاها ، فاستنبول لم تكن سوى المرحلة الأولى من تفكير استمرّ ما لا يقلّ عن ثلاثين عاماً ، و غذّته صِلاتي بأصدقاء ومعارف ينتمون إلى جميع الديانات ، التقيتهم في جهات العالم الأَربع .

و بتّ أعتقد أنّ كلّ ديانة بوسعها أن توفّر للإنسان الطيّب النيَّة درباً نحو الله، بما أنّ الله قد أَذن بوجود ديانات مختلفة ، و لكنّني أعارض القول الذي طالما يشاع : " أن يكون المرء تلميذ يسوع المسيح أو بوذا أو محمّد ، فذاك سواء " . فعندي أنّ هناك حقيقة مطلقة سأتشبّث بها حتىّ مماتي ، و هي أنّ يسوع المسيح هو ابن اللّه المتجسّد ...

إنّ اعترافي بقدر الكثيرين من البوذيّين ، و المسلمين و اليهود ، و الملحدين الذين التقيتهم ، في حياتي ، لا يعني اعتقادي بأَنّ جميع الديانات متساوية . إنّما ، بعد أن كنت ، في شبابي ، أظنّ أَنّني أَحتكر الحقيقة لكوني كاثوليكيَّة ، أَمسيت ، اليوم ، أَعلم ، أنّ ، ثمّة ، منازل كثيرة في بيت الربّ . لقد بتّ اليوم أَعتقد أنّ دروباً متعدّدة، و ضروباً مختلفة من الحجّ كفيلة ببلوغ الحقيقة ، و أن ليس الدين هو الذي يصنع الإنسان . لقد انتهيت إلى نتيجة بديهيّة و بسيطة و هي أنّ قيمة الكائن البشريّ لا تعتمد على دينه ، و لا على ثقافته ، و لا على لون جلدته ، بل على قلبه .

و بعبارة أُخرى ، عندما أَلتقي شخصاً لا أَسأل عن ممارساته الدينيّة وطائفته، بل عن سلوكه اليوميّ ، و عن نمط علاقته بالأقربين ، و عن قدرته على الخروج من ذاته ، و ممارسته للإخاء .

في مصر يُشاهد عمّال جالسون على حافّة طريق لتناول الطعام ، يستدعون المتسوّل الذي يمرّ بهم ، و يعرضون عليه مشاركتهم اللقمة .

سنوات مرَّت قبل أن أدرك ، أَخيراً ، أنّ المهمّ هو الإنسان . و قد احتجت تحوّلاً تامّاً كي انتقل من دينٍ متمحور على اللّه و يسوع المسيح إلى دين الإنسان ، والمسيح و اللّه . و

لكن عليّ ، فقط ، أن أُضيف أنّني ، أَنا ، الأخت إِيمّانويل ، الكائن الهشّ ، أحتاج ، كي أخرج من ذاتي ، إلى يسوع المسيح . كلّ صباح ألتقيه ، فأتساءل : أَين أَنا من حبّي للآخرين ؟

في استنبول كانت رئيساتنا قد حظَرنَ علينا ، نحن الراهبات ، أن نحدّث غير المسيحيّين عن يسوع ، و أن نقتصر على " نضح المسيح " ، ونعمل بحيث تصبح الفتيات المسلمات ، بعد مغادرتنا ، أَفضل إِسلاماً ، و أَن يبقينَ ، في نفس الآن ، منفتحات على الحوار مع أَبناء الديانات الأخرى . و في المعهد لم يكن للدين شأن في تكوين الصداقات . و فيما بعد في القاهرة ، كنت أَحياناً ألقي دروساً دينيّة على المسيحيّين ، و إن اتّفق أن تسلّل ولد مسلم إلى الدرس ، كنت أطلب إليه الانصراف في الحال . و مع ذلك اتّهمتني الصحافة الإِسلاميّة ، مراراً ، بممارسة التبشير والتجسّس ؛ فقد تعذّر عليها فهم أنّني إنّما استقررت في قرية الصفيح ، بين الأكواخ ، لكي أُحبّ جامعي النفايات و أبناءهم ، كما هم ، و أيّاً كان انتماؤهم . وقد أسعدني أن أعلم ، فيما بعد ، أنّه يوم جاء رجال الأمن ليحقّقوا بشأني لدى المسلمين ، ردّ هؤلاء: " لمَ تريدون شرّاً بالأخت إِيمّانويل ؟ خذوا من تشاؤون ، و لكن لا تمسّوها ، فهي وحدها تحبّنا حقّاً "

ثمار الفشل

أَقمت في استنبول حتّى عام 1959 . و في سنوات إِقامتي الأَخيرة فيها احتدم الخلاف بيني و بين الرئيسة المحلّيّة الجديدة التي خلفت الأُمّ إِلفيرا ، و التي كانت مغرقة في التقليديّة ، و لم تخرج قطّ إِلى أَبعد من حدود فرنسا ، و كانت أَصغر سنّاً من أَن تستطيع احتمال طبعي المتمرّد ، فناهضت بضراوة كلّ تطلّعاتي المسكونيّة ومساعيّ لخدمة الفقراء .

و حظيت ، آنذاك ، بلقاء الأُخت الصغيرة مادلين مؤسّسة جمعيّة " أَخوات يسوع الصغيرات " ، فسحرتني أَهدافها و أَساليبها التي كانت تقرن العبادة بالعيش مع الفقراء ، و عدم الاقتصار على زيارتهم و مدّهم بالإِعانات ، بل مشاطرتهم حياتهم كلّها . لقد عثرتُ ، لدى تلك الجمعيّة ، على الحياة التي كنت أَنشدها ، و طلبتُ الانضمام إِليها ؛ غير أَنّ تلك الجمعيّة كانت تواجه ، في ذلك الحين ، فيضاً من الدعوات لا تقوى على استيعابه ، فآثرت رفض انضمام أَيَّة راهبةٍ قادمة من جمعيّة أُخرى إِلى صفوفها ، و أَيّدتها في ذلك روما .

و قيضّ لي أَن أَبقى في جمعيَّتي ، غير أَنّ الرئيسة العامّة ، رحمةً بي وبرئيستي المحلّيّة ، قرَّرت إِيفادي إِلى معهد الجمعيّة في تونس التي كانت قائمة على إِدارته رئيسة إِقليميّة تتميّز بمثل شكيمة الأُمّ إِلفيرا و حنكتها ، و لها بأَفريقيا الشماليّة معرفة راسخة .

غادرت استنبول ، إذن ، غاصَّةً ، حزينة ، فقد كنت أَحببتُ تلك البلاد التي تعلّمت لغتها كتابةً ، و قراءةً ، وحديثاً ، و أَحببت مدرستي و تلميذاتي ، و التقيت الفقر و السخاء ، و عرفت رونكالّي و أَثيناغوراس ، و شهدتُ ولادة التقارب بين الكنائس .

و كانت المرحلة التونسيّة ، بلا مراء ، الأَعسر و الأَشقّ ، في حياتي كلّها .

كانت قد سبقتني إلى تونس سمعة معلّمة مُجلّية ، بعد أَن حقّقت نتائج ممتازة في استنبول مع فتيات تتراوح أَعمارهن بين السادسة عشرة و الثامنة عشرة ، كنّ لا يعرفنَ من الفرنسيَّة لفظة واحدة ، و بِتْنَ ، عقب ثلاث سنوات ، يستخدمن تلك اللغة استخداماً صحيحاً . و بالتالي كُرّمتُ بتعييني مدرّسة أَصيلة لصفّين معاً ، و لكن لا لفتيات كبيرات كما كانت الحال في تركيّا ، بل لفتيات تترواح أعمارهنّ بين الثالثة عشرة و الرابعة عشرة . و كان معظم " زبائننا " في تونس من الجنسيّة الفرنسيَّة ، بنات مستوطنين ، بينهنّ عدد ضئيل من المسلمات ؛ و بما أَنّني لم أكن قد ظفرت بعدُ بشهادات جامعيَّة ، لم أكن أملك حقّ التدريس في مدارس عليا .

ما زلت أَذكر اليوم الدراسيّ الأوّل ، و كأنّه حدث أَمس . كان باب يفصل الصفّين ، و من جانبي ذلك الباب رأيت ثلاثين أو أَربعين مراهقة يتضاحكنَ ويتدافعنَ و هنّ يصحنَ ، و ينظرنَ إليّ شزْراً . و انتابني الذهول ، إذ إنّني لم أَشهد قطّ لذلك مثيلاً ، و لم أَعهد قطّ مثل هذا الشغب ، فالفتيات الشرقيّات أكثر هدوءاً و انضباطاً . وحينئذٍ، لكي أَفرض الصمت ، شرعت أَصيح . أَنا " الأمّ " إيمّانويل " ، كما باتوا يدعونني منذ إبرازي نذوري النهائيَّة ، أَنا البالغة الخامسة و الأَربعين من العمر ، والتي أَنشأتها والدتها على اليقين بأَنّ الفتاة المهذّبة لا ترفع صوتها أَبداً ، بتّ أَصرخ ! أمّا هنّ فكنّ فتيات ذكيّات ، يتدفّقن حيويّة ، و لكأنهنّ زئبق حقيقيّ ، غير أنّ بعضهنّ لم تكن لديهنّ أَيّة رغبة في الدراسة . و يكفي أَن يكون في صفّ من ثلاثين طالباً ، عشرةُ راغبون في الشغب ، بحيث ، إن لم يُقسروا على الصمت ، يقضون على كلّ انضباط . و سرعان ما أَدركنَ أَنّني لم أَستطع السيطرة على الوضع ، و شرعنَ يطرحنَ عليّ أسئلة سخيفة لإضحاك الآخرين بحيث غدت الحالة جهنّميّة لا تطاق ، وكان الذنب كلّه ذنبي ، إذ لم تكن المدرّسات الأخريات يلاقين أَيّة مشكلة في ضبط النظام ، وكلّما حللت محلّ إحدى زميلاتي أفلت الزمام ، و لكأنّ الطالبات كنّ يفكّرن: " حسن ، سنلهو الآن مع الأُخت إيمّانويل " . و ما تكاد تمضي ثلاث دقائق حتّى تشيع الفوضى. و قد أَصبحت لهنّ دروسي ضرباً من الفسحة الدائمة .

منذ الأيّام الأولى تولاّني الشعور بأنّني مروّض يلج قفص كواسر . و كان جهدي في الحفاظ على حدٍّ أدنى من النظام يمتصّ طاقتي ، و يرهق أعصابي . و في صفٍّ لا يسود فيه

الصمت ، لا يعمل الطلاّب ، فمع الافتقار إلى الحدّ الأَدنى من التركيز تفشل جميع الأساليب التربويّة . و غدا أولياء الطلاّب يشكون إلى الأمّ الرئيسة ضحالة النتائج . و كانت الرئيسة تستدعيني ، و تقابلني بأولياء الطلاّب ، وأَظلّ أتخبّط و لا أَعثر على مخرج ؛ و كلّما استسلمت لسورة غضب على التلاميذ ، أَغضب على نفسي ، و أَشعر بالمذلّة ؛ و ينتابني الإعياء و يجفوني النوم ، و يرين عليّ إِحساس بالمهانة ، لأنّ الأخوات كنّ يشفقن عليّ ، و أَنا أَمقت الشفقة ، و عندما كنت أَضيق ذرعاً ، و أَفقد السيطرة على ذاتي ، كنت أُهرع إِلى الرئيسة معترفةً :

– " لم أَتصرّف تصرُّفاً لائقاً ، فافرضي عليّ كفّارة . "

و كانت تبتسم . و ذات يوم أَجابت :

– " كفّارتك أَن تظفري بنصف ساعة نومٍ إِضافيّة ، فأنت منهكة ، ليس إِلاّ. وعندما ستظفرين بمزيدٍ من النوم ، ستتحسَّنين حالاً " . غير أَنّني كنت خائرة القوى ، و يهدّني المناخ الحارّ و الرطب – الأكثر حرّاً و رطوبة من مناخ تركيّا – و لم تكن لي غرفة للنوم ، بل كان لي سرير في صفٍّ مدرسيٍّ خالٍ ، و بالتالي ، كنت أَثناء النهار أَفزع إلى المكتبة ، و أُقفل عليّ بابها، علّني أظفر بساعة نوم .

لُبّ المشكلة أَنّ طالباتي فتياتٌ فرنسيّات مشبعات بغضاً لأَهل البلاد الذين انتزعوا استقلالهم ،و أَنا لا أَقوى على العيش في جوّ الكراهية، و لم أُفلح في أَن أُشيع في نفوس تلميذاتي روح المحبّة الذي أَرى فيه هدف التدريس الأَوّل . لم يمرّ التيّار بيني و بينهنّ ، و لكأنّ جداراً صفيقاً كان ينتصب بيننا .

كنت أَمضي ، بين حينٍ و آخر ، لزيارة الفقراء في ضواحي المدينة ، و لم ترضَ أَيّة من طالباتي مواكبتي ، يوماً . و ممّا زاد من إِحباطي أَنّ الفقراء أَنفسهم ، الذين كنت عازمة على شدّ إِزرهم ، كانوا ، أَحياناً ، يقابلونني بالرجم ، لمجرّد كوني راهبة فرنسيّة . حينئذٍ كنت أَسعى إِلى كسب ودّ الصغار الذين أوزّع عليهم الحلوى .

و مع ذلك ، لم ينِ نداء الفقراء يلاحقني ، و يُصبح ، أَحياناً ، من الإِلحاح بحيث كنت أوكل صفيّ إِلى إِحدى أَخواتي ، و أُهرع إِلى نجدة المحرومين .

و لم يعد يشغل بالي سوى هدف واحد : أَن أَصمد ، فألقي دروسي بقدر ما أستطيع ، و أصلح الوظائف ، و أُنهي نهاري ، و أقوى على الاستيقاظ في اليوم التالي . وحدها طقوس الصلاة : أي إِفخارستيّا الصباح ، و تلاوة السواعية والمزامير في المساء ، كانت تؤتيني بعض سكينة . و كنت أُحبّ وقت وجبات الطعام التي كنّا ، في تلك الحقبة ، نتناولها صامتات

، فيما كانت واحدة منّا تقرأ مقتطفات من حياة القدّيسين و كبار مؤسّسي و مؤسّسات الجمعيّات الرهبانيَّة .

هذه الحالة تمادت ثلاث سنوات ، و في نهايتها لم تعد الرئيسة تقول لي شيئاً ، إذ كانت مدركة عجزي عن تغيير نمط سلوكي ، أو تغيير الوضع . و كانت الأَخوات الأخريات يشعرنَ حيالي بالحرج ، فقد كنّ يجبنني ، و لكنّهنّ لا يجدن وسيلة للتعامل معي .

و طوال تلك الفترة كان يتفاقم لديّ الشعور بأنّني غائصة في رمال متحرّكة ، و كلّما تخبَّطت ، أَمعنت في الغرق . لماذا ؟ لأنّ تخبّطي كان يُتعبني ، فألوم نفسي وألوم الآخرين ، و أخلق،بذلك ، جوّاً يزعج الجميع . كنت أَخوض معركة عقيمة ، أَنا التي انتصرت ، حتّئذٍ ، في كلّ معركة ، ضدّ ذاتي وضدّ من تصدّوا لدخولي الدير؛ أَنا التي كانت تظنّ أنّ لوحة قداستها كانت تكتمل شيئاً فشيئاً ، و تؤمن بنجاح حياتها؛ التي كانت تظنّ ذاتها قويّة الشكيمة ، قابضة على زمام كلّ شيء ، أَدركت فجأة أَنّني لا أقبض على زمام أيّ شيءٍ على الإطلاق . تلاشت شخصيَّتي ، و قُضيَ عليّ . و عشت ، هناك ، صحراء الوحدة ، أو بالحريّ وحدة الصحراء .

و مع ذلك أومن إيماناً راسخاً أَنّ من يعيش مع اللّه لا يعرف اليأس أبداً . صحيح أَنّني أَشرفت على القنوط ، و بتُّ أحدّث نفسي : لقد ضقت ذرعاً ، فليطردوني ، فليعيدوني إلى فرنسا للاستجمام . و بما أَنّه لم تكن ، في تونس ، "مدرسة صغيرة " للفقراء ، كنت أَتساءل عن جدوى وجودي هناك . و لكن هل يئست حقّاً ؟ كلاّ ، بل لم أَكفّ يوماً عن التوثّب من جديد ، و ليس من السهل القضاء عليّ .

ما أنقذني ، حقّاً ، هو الصلاة . فلم يسبق لي ، مدى حياتي ، أن صلّيت كما صلّيت في تونس .

و كنت أَمتلك المسيح . و هل يمكنكم تخيّل أن يمتلك المرء إِيماناً يبثّ فيه الحياة ، و الثقة ، ثقة مطمئنّة ، هادئة ، لا إِثارة مفرطة فيها ، و لا إِغراق في الحساسية ؟ عندما تعيش مع كائن تحبّه و يحبّك ليل نهار ، تستمدّ من هذه العلاقة معنى ، و منعة ، و هوى لا يقف في دربه شيء . كانت تنتابني فترات من الوهن أَعجز معها عن الصلاة، و يمكن القول أَنّ المسيح ،على نحوٍ ما ، تركني أُحاول تدبّر أمري بنفسي ، و لكن كلّما بعثت إِليه بنداء ، و كلّما صرخت إليه ، كان حاضراً ، مثل مَعين ماءٍ حيّ . إنّني أوقن أنّه من غير المعقول أَن يتردّى إلى اليأس إِنسان راهن على المسيح .

و مع ذلك خبرت الفشل ، بل خبرت فشلاً مزدوجاً : فشلي بصفتي مدرّسة ، و فشلي بصفتي مرشّحة للقداسة ، فلوحة قداستي الزجاجيّة، التي تخيّلتها في صباي، قد تحطّمت إلى أَلف شظيّة .

و الآن ، بعد مرور أربعين سنة ، أشكر للّه تلك السنوات العصيبة التي عشتها . فانحداري إلى القعر ، سحابة ثلاث سنوات ، في عجزٍ و تلاشٍ كاملين ، قد صاغ فيّ نفس فقير ، فقراً روحيّاً . كانت تلك خبرة عمري التي أتاحت لي بلوغ حقيقة كياني . و اليوم عندما يتحلّق الناس من حولي ، مهنّئين ، بعد أن أَصبحت ، إلى حدٍّ ما ، حدَثاً ذائع الصيت ، أو عندما يتّفق لي أَن أوغل في الحديث عن نفسي ، أُخاطب ذاتي : " يا بنيّتي ، أذكري ما كنت عليه ، في تونس ! "

و هناك تجلّت لي صحّة حكمة مارك أوريليوس : " العائق مادّة عمل "

أَعتقد أَنّه يحسن بكلّ إنسان أَن يشعر ، يوماً ، بعجزه ، و خاصّة الإِنسان الذي ينشُد اللّه . حسن أَن يهوي إلى قعر الموجة كي يتعلّم الصعود إلى السطح . وليس الفشل في ذاته هو المهمّ ، بل العبرة التي تستخلص ، و الخبرة التي تُجنى منه. إنّني متيقّنة أَنّ كلّ ما يحدث لنا على الأَرض درس قيّم . و لكنّنا ، نحن ، نعمل أَحياناً في غير مصلحتنا .

منذ عودتي إلى فرنسا ، أَتلقّى فيضاً من الرسائل و النداءات الهاتفيّة من قوم يستغيثون لأَنّهم يعانون من ضربٍ من ضروب الفشل : انفصال ، أو نزوح ولد عن البيت ، أو تسريح من العمل ،أو مشاكل صحيّة خطيرة ؛ و أظنُّ أنّ الخطر الجوهريّ هو فقدان الرشد إِزاء الفشل ، لأنّه يوحي بأَنَّ لا جدوى من المقاومة ، و أنّ كلّ شيء قد فُقِد . مع أَنّ ذلك ليس صحيحاً . فما من شيء فُقِد نهائيّاً ، أو فُقِد فيه كلّ أَمل . في تونس ، حيال الفتيات المشاغبات ، فقدت رشدي منذ الدقيقة الأولى ، و من ثمّ برهنت عن عدم كفايتي . و قد عرفت أَشخاصاً ، في أوضاع مماثلة ، استسلموا كُليَّة للغرق، و آخرون أَفلحوا في النهوض و التصدّي . و في هذا السياق أحبّ مَثَل لافونتين عن ضفدعين وقعا في حليب ، فاستسلم الأوّل و غرق ، فيما ظلّ الآخر يتخبّط إلى أن تحوّل الحليب زبدة ، و بذلك أَنقذ نفسه . و نابليون أَيضاً قال : " المنتصرهو من يصمد ساعةً أُخرى " . علينا إِذن أَن نكافح ، و أَن نصمد ساعةً أخرى ...

غير أنّ هناك حالات أَشعر فيها بعجزي التامّ ، مثل الحالات المتعلّقة بالبطالة، و لا سيّما عندما يكون المعنيّون شبّاناً . فألاّ يستطيع شابّ العثور على عمل، أمرٌ يريعني ، و أمرٌ مغرق في الظلم ، أن يبدأ المرء حياته بالفشل ... ما عساني أَستطيع قوله لهذا الشابّ ؟ أن يهتمّ بالآخرين ؟ ما أَسهله من حلّ ! و ما يسعني أن أقول لرجل في الأربعين أو الخامسة و الأربعين ، لا يجد عملاً ، و يتبيّن أن لا أحد يريده ؟ لا شيء . لا جواب لديّ على هذه

الأسئلة . كلّ ما أَقوى على فعله، الآن و قد أَمسيت متعبّدة – أي راهبة وظيفتها الصلاة – هو أَن أحمل رسائل الاستغاثة إلى المصلّى حيث أطالعها سطراً سطراً ، و أتضرّع : " ربّاه ، هبه النور ، هبه السلام " ، و أحياناً ، كما تفعل المزامير ، أصرخ نحو الربّ : " يا ربّ ، أوَلست أنتَ من خلق هذه الأرض ؟ ألا ترى هذه المرأة ؟ ألا تبالي بما تكابده من أَلم ؟ " أَظنّ أَنَّ من حقّنا الصراخ إلى اللّه .

ثورة باسم الفقراء

لكلّ شيء نهاية ، و في عام 1957 ، و بعد ثلاث سنوات من معاناتي في تونس ، قرّرت الرئيسة العامّة ، بحكمتها الصائبة ، نقلي إلى محلّة خزندار التي تبعد نحو نصف ساعة بالسيّارة عن تونس . وهناك لقيت معهداً صغيراً ، و حديقةً لطيفة ، و طالبات أكبر سنّاً ، و قد مكّنني ذلك من استعادة ثقتي بنفسي . في السنة التالية قدّمت ، و أنا في الخمسين من عمري ، امتحاناتي الأولى في السوربون ، استعداداً لإجازة في الآداب الكلاسيكيَّة . و بعد أن استرجعت قواي ، شرعت أَفتح عينيّ على عالم الفقراء ، و أَستعيد طبعي المحارب ...

و لحسن طالعي تسنّت لي العودة إلى معهدي العزيز في استنبول ، حيث سعدت بتولّي تدريس صفّ في مدرسة الفقراء . و في غضون ذلك كان مونسنيور رونكالّي – الذي عرفناه و قدّرناه أسمى تقدير عندما كان مدبّراً رسوليّاً في استنبول – قد رقّي إلى السدّة البابويّة و أَصبح البابا يوحنّا الثالث و العشرين . و كان المجمع الفاتيكاني الثاني قد بدأ أعماله ، نافثاً في الكنيسة ، و في جمعيَّتنا ، بالتالي ، أملاً عظيماً بالتجدّد .

أَثناء الرحلة البحريّة التي انتقلت بها من تونس إِلى استنبول ، حاولتُ الاستعداد للامتحان في الأَدب اللاّتينيّ الذي كان عليّ تقديمه كي أَتأهّل للتدريس في مدرسة خاصّة بتركيّا . غير أَنّني كنتُ من الاعتلال و الوهن بحيث لم أَستطع مراجعة أيّ درس . و ما إِن وصلت إِلى استنبول حتّى تعيّن عليّ اجتياز ذلك الامتحان . و طرح عليّ الفاحص أَسئلةً لم

أُفقه منها شيئاً . ثمّ تركني ، وحيدة ، في قاعة الفحص ، و ترك على منضدة كتاباً يتضمّن الأَجوبة على كلّ أَسئلته ، و كان ذلك مغرياً . و أَعترف أَنّني ، للحظة ، استحوذت عليّ رغبةٌ في أَن أَغشّ ، و أَفتح الكتاب، و لكنّني حدّثت نفسي قائلة بأَنّه لا يسوغ لراهبة أَن تغشّ ، ففي ذلك عارٌ كبير؛ و أَنا لم أَلجأ في حياتي إِلى الغشّ . و من ثمّ قبعت في موقفٍ يُرثى له ، أَمام ورقتي البيضاء ، و الكتاب المغلق . و عندما عاد الفاحص ، تحدَّثت عن الأَدب اللاتيني ، و جماله ، و عن الحضارة اللاتينيّة ، و عن مواضيع شتّى ، فابتسم ، وأَدرك أَنّني لم أَفتح الكتاب الذي تركه بمتناول يديّ . و ربّما أَدهشه ذلك ، فقال : "يبدو أَنّك تعرفين أَشياء كثيرة ، و من الواضح أَنّك تتحدّثين ببراعة ، و لكن لا بدّ من القول أَنّك لا تفقهين من موضوع الفحص شيئاً ، و مع ذلك أَنت تستأهلين النجاح . " و قد أَنجحني .

و في بدء السنة المدرسيّة لعام 1964 ، ما كدت أُنهي امتحاناتي للحصول على الإِجازة من السوربون حتّى تلقّت رئيستي المحليّة برقيّة ممعنة في الإيجاز تقول " إِيمّانويل – الإِسكندريّة " . و كان عليّ أَن أَتصدّى لتحدٍّ جديد ، إِذ كان مطلوباً منّي أَن أحقّق في معهدنا هناك ، القائم في حيٍّ راق من إِحدى أَكثر مدن المشرق تعدّد جنسيّات ، ما كنت قد أَفلحت في تحقيقه في استنبول : أَي بثّ روح المشاركة في فتيات غنيّات . و جدير بالتنويه أَنّ معهدنا كان قد ضمّ ، بين طالباته، فريدة ، زوجة الملك فاروق الأولى ، و هذا كافٍ للدلالة على مستوى تلك الطالبات الاجتماعيّ .

و قد حدث ، حينئذٍ ، أَمرٌ جعلني أدرك ، في الحال ، أَنّ محاولاتي في هذا الاتّجاه لن يُكتب لها أَيّ نجاح . فقد قالت لي رئيستي : " لكي تتآلفي مع طالباتك الجديدات في صفّ الفلسفة ، قومي برحلة معهنّ . بإِمكانكنّ ، مثلاً ، زيارة الأهرام". و قد أَستطارني ذلك فرحاً ، إِذ لم أَكن أعرف القاهرة بعد . و ما زلت أَذكر كيف كنّا جالسات برفاه على مقاعد العربة الوثيرة من الدرجة الأولى في القطار الذي يحاذي النيل حتّى القاهرة ؛ و لدى كلّ توقّف في إِحدى المحطّات ، كانت زرافات من الأَولاد الرثّي الثياب تتدافع عند النوافذ مستعطية .

و كنت أَستفسر الطالبات : " ما الذي يفعله كلّ هؤلاء الصغار هنا ؟ و من الذي يُعنى بهم ؟ " فيجبنَني : " إِنّهم قذرون و مقمّلون ، و والدوهم كسالى ، فلا تنظري إِليهم ! " في محطّة رمسيس ، في القاهرة ، تدفّق علينا جمع لم أَشهد قطّ مثل كثافته .

لقد صُعقتُ لرؤية مظاهر بؤس لم أَشهد قطّ لها مثيلاً في تركيّا : جموع تجلّت عليها بوضوح مخايل فقر سحيق ، و عجيج أَولاد مرتدي أَسمال زريّة ، وزرافات الأُمّهات المثقلات بالأَطفال ؛ و لمّا لفتّ نظر طالباتي إِلى ذلك الواقع ، أَجبنَ

– " أُصرفي نظرك عنهم ، يا أُختاه ، و لنمضِ ، بالأَحرى ، لزيارة الأَهرام." و ما لبثتُ أَن تبيّنتُ أَنّ قلوب أَولئك الطالبات كانت أَصلب قسوة من أَحجار الأَهرام . فقد دنت منّي فتاة صغيرة ، ذات عينين صافيتين واسعتين ، و أَمسكت بيدي. كانت طفلةً عذبة ، ترتدي فستاناً أَصفر موشّى بالزهور ، و مثقوباً في بعض جوانبه ؛ و قد بادرتني بابتسامةٍ متألّقة انطوت على كلّ حبّ العالم ، و على كلّ ما يخفق به قلب ولدٍ لا رغبة لديه سوى أَن يُحَبّ قليلاً . كم كانت جميلة تلك الطفلة ! وقد سرت معها بضع خطوات ، و أَنا لا أَقلّ عنها سعادة . غير أَنّ طالباتي ، أولئك الفتيات الثريّات المحظيّات ، اللواتي وُهبنَ كلّ شيء ، و اللواتي كنّا نجهد في إِثارة اهتمامهنّ بالعالم ، منذ سنوات ، اعترضنَ قائلات:

– " لا يسوغ أَن تسيري برفقة هذه الصغيرة القذرة ، و التي قد تكون سارقة. أَلا ترينَ أَنّها ليست من مستوانا ؟ " و شهدت طالباتي يبتعدنَ عنّي لكيلا يلحظ أَحدٌ أَنّهنّ برفقتي . لقد تجاهلنَني لأَنّني ، أَنا الراهبة ، اهتممت ،بضع لحظات، بفتاةٍ فقيرة.

ذلك اليوم ، الذي كان مفروضاً أَن يكون يوم اكتشاف أَهرام الجيزة ، كان لي يوم اكتشاف العالم الثالث ، و كان ذلك صدمة حقّة ، صدمة غدت أَشدّ حدّة عندما اتّضح لي أَنّ بوسع المرء أن يعيش في العالم الثالث ، مثلما تعيش طالباتي الشابّات ، و مثلما عشت أَنا ،سحابة أربعين سنة، و لا يُداخله أدنى فكرة عن واقع البؤس والفقر الحقيقيَّين . حينئذٍ ثرت ، و كادت ثورتي تفضي بي إِلى هجر جمعيّتي .

قبل انطلاقنا إلى رحلتنا ، كانت راهبة من أخواتنا تعنى بمدرسة الفقراء قد طافت بين الطالبات بسلّة صغيرة مستعطية ما يتيح للأسر الفقيرة أَن تتناول ، استثنائيّاً، شيئاً من اللحم ، بمناسبة عيد الأَضحى . و كان مجموع ما جادت به فتيات صفّي خمسين قرشاً ، أي ما يعادل نصف دولار . و لكنّ هؤلاء الفتيات ، بضع ساعاتٍ بعد ذلك ، أَنفقن ، في أسواق القاهرة ، أكثر من ألف دولار على ابتياع ترّهات . فاستهولتُ فعلهنّ ، و حاولتُ ، عبثاً ، طيلة سنتين ، مواجهة الصدمة . عندما كنت أحدّثهنّ عن المشاركة كنّ يجبنَ : " لقد سبقَ لنا أن أَعطينا . فبالتأميم سلب عبد الناصر ذوينا أراضيهم كلّها ، مدّعياً أَنّه سيهبها للفقراء . فعليه إِذن العناية بهم " . لم يبقَ لذويهنّ سوى قصورهم وبساتينهم و حدائقهم ، و بناتهم اللواتي لا همّ لهنّ سوى تعلّم السلوك المرهف ، و شيئاً من الثقافة الفرنسيّة ، بانتظار قدوم الأَمير الساحر ، و إِصدار الأوامر إلى أولاد يعملون خدّاماً لهنّ . و قد جعلني ذلك أُعيد النظر في وضعي ، فأَنا لم أَختر الحياة الرهبانيّة كي أُلقّن فيتاتٍ محظيّات يرفضن التفكير بالآخرين علوماً بشريّة . فالتمست من رئيستي إِعفائي من وظيفتي تلك ، ولكنّها أَبت ، و أَبيت ، بدوري ، خيانة أَحلام

شبابي ، و نداء رسالتي ، و تخطَّيت التراتبيّة ، و أَنفذت الرسالة التالية إِلى رئيسة الجمعيّة العامّة التي غدا مركزها الرئيسيّ في روما :

" أُختي ،

أَنا لم أَترهَّب لكي أُتيح لفتياتٍ ذكيّات إِبراز ثقافتهنّ في صالونات المجتمع المصريّ الراقي ، بحجّة أَنّني أُعرّفهنّ بفوليتر ، و روسّو ، و كاموس ، و مالرو . لذلك أَرجوك ، أُختاه ، أَن تندبيني لخدمة الأَولاد المحرومين . " و حاولت الرئيسة تهدئتي ، و إِخماد ثورتي ، و ثنيي عن عزمي، و لكنّني أَجبتها : " لست أَجد أَيّة قدرة على استئناف هذا التعليم . إِنّها قضيّة ضمير " .

كنت واثقة من أَنّ ذلك هو الدرب الذي شاء الربّ أَن أَنتهجه لكي أَكون وفيّة للنداء الذي تلقّيته منذ عهد بعيد . فاللّه هو الذي شاء أَن أُعنى بالفقراء بحبّ . وأَخذت أُصلّي ، متوسّلة الربّ أَن يدبّر بنفسه الأَمور ، و يحلّ مشاكلي . و قد وثقت ، دائماً، من أَنّ على اللّه أَن يدبّر أمور من يبتغي تلبية إِرادته .

كان ذلك في عام 1965 – و إِثر أَشهر انتظار طويلة توقّعت خلالها قطع الجسور حقّاً – إذ كانت الرئيسة الإِقليميّة التي تمثّل حلقة متوسّطة بين الرئيسة العامّة و الرئيسة المحليّة ، تهدّدني بالطرد – وافت أَخيراً برقيّة شديدة الاقتضاب تقول : "إِيمّانويل ، نعم . " فقد عيّنتُ مديرة للمدرسة المجّانيّة – مدرسة الفقراء – القائمة في طرف حديقة المعهد . فأعدت تنظيمها بالكامل ، و مع ذلك لم أَظفر بالسكينة ، فقد كان ، ثمَّة ، دائماً ذلك الثقل الذي يجذبني نحو الفقراء ، و يدفعني إِلى العيش مثلهم ، و معهم .

و ذات يوم ، لفتت اهتمامي ، في الصفّ ، ماجدة ، و هي فتاة في العاشرة ، كانت تبدو في أسوأ حال ، فاستوضحتها عمّا بها ، و بعد لأي ، اعترفت لي أَنّها لم تأكل شيئاً في اليوم السابق لأنّ بيتهنّ كان خاوياً من الطعام . و حينئذٍ حدث ، في داخلي، انقلاب . وواكبت ماجدة إلى بيتها في حيّ باكوس الفقير ، حيث اكتشفت أسرة تضمّ ثمانية أولاد يعانون ، حقّاً ، من الفاقة ، و شاهدت في فناء الدار غرفة مهجورة، فكتبت إلى الرئيسة العامّة ملتمسة السماح لي بالإقامة فيها ، على أن تدفع لي جمعيّتي المبلغ المقدّر لطعام واحدتنا في الدير أي تسعة جنيهات مصريّة ، بحيث أتدبّر بنفسي أمر معيشتي . و كان المجمع الفاتيكاني قد شرع يؤتي

ثماره ، فتمّت الموافقة على طلبي ، وهكذا بتّ أَتناول غدائي في غرفة صغيرة محاذية للمدرسة ، و قوامه طبق فول سعره قرش واحد . و رغيف بنصف قرش ، و بإضافة شيء من الزيت وبرتقالة، كانت وجبة غذائي تكلّفني قرشين ، و بذلك كان يزيد معي كلّ شهر نحو ثمانية جنيهات ، أَقتسمتها مع أسرة " ماجدة " . فعندما كنت آتيهم في المساء ، و قد اجتمع الأب و الأمّ و الأطفال الثمانية ، كنت أَصطحب إحدى البنات لشراء ما يلزم من طعام ، ثمّ نتحلّق حول منضدة و نتناول وجبة متقشّفة ، من خبز و جبن ، و تمر، و في بعض الأمسيات شيء من الزيتون و البيض و السردين ، و ما أشهاها من وجبة ! و بفضل إقامتي معهم استطعت تحسين غذائهم اليوميّ ، و تنظيم دروس لمساعدة الأولاد . و قد استمرّ ذلك خمس سنوات ، في المشاركة الحقّة ، و الفرح والضحك ، و الإِخاء .

أَولاد كثيرون ، لم يكن في بيوتهم الضنكة مكانٌ يدرسون و يكتبون فيه وظائفهم، كانوا يأتون إليّ ، في المساء ، فأساعدهم ، و أُفسّر لهم ما استغلق على فهمهم ، و أَدعهم يؤدّون وظائفهم في هدوء . و قد يأتيني منهم أَكثر من ثلاثين ولداً ، في مساءٍ واحد ؛ و إكراماً لي و لحبّي لهم ، كانوا يجتهدون و يحرزون تقدّماً باهراً ، كما أَثبتت ذلك نتائج الامتحانات حيث أَصابت صغيراتنا جميعهنّ النجاح و علامات ممتازة ، في حين لم تتخطّ نسبة النجاح في أوساط أُخرى مماثلة عشرة بالمئة . و ما انفكّ ذوو الأَطفال يقولون لي : " لقد وفّرت الفرح لأَبنائنا ، و أَتحتِ لهم أَن يعيشوا ." و أَمسيتُ واحدة من أَهالي حيّ باكوس ، فباتت النساء يوافينني ملتمسات النصح ، والرجال يستعينون بي على ملاحقة معاملاتهم الرسميّة التي تمنعهم أُميّتهم من مباشرتها بأنفسهم .

غير أَنّ نهجي هذا لم يُرقْ لجميع أَخواتي الراهبات ، و قد شاركهنّ هذا الاستنكار بعض المسيحيّين الذين لم يطيقوا رؤية راهبة تقضي الليل خارج ديرها ، وكانوا يعمدون ، أَحياناً ، إلى رجمي ، أثناء زيارتي لأُسرٍ فقيرة ، ليلاً . أَمّا أنا فقد عشت حتّى " تقاعدي " ، عند تلك الأسرة ، أَسعد سنوات حياتي كمدرّسة .

صحيح أَنّني نذرت نذر الفقر . و لكن الفقر الرهباني لم يكن كافياً أَبداً ليلبّي تطلّعاتي . فبنذرنا الفقر نتنازل لجمعيّتنا عن كلّ مقتنياتنا الأرضيّة ، و لكن ، بالمقابل تتكفّل الجمعيّة بمعيشتنا . و نحن لا نعيش في رفاهية ، و لكنّنا في مأمن من الحاجة ؛ أَنا لا أَملك سوى زوج أو زوجين من الأَحذية التي أَستخدمها أَحياناً حتّى الاهتراء الكامل . و لكنّني إن كنت ، حقّاً ، في حاجة إلى زوج أَحذية أنالها . و بخاصّة عندما تداهمني علّة ، أَحظى بعناية طبيَّة لا غبار عليها .

و تعنى الجمعيّة بشيخوختي . لا ، ليس للفقر الذي نعيشه في رهبانيّاتنا أَيَّة علاقة بالفقر الحقّ الذي يتميَّز جوهريّاً بالافتقار إلى الأمان و الخوف من الغد ....

يؤخذ عليّ ، أَحياناً ، حبّي للفقر ، و لكنّ ذلك مخالف للحقيقة . فالفقراء هم الذين أُحبُّم ، و لأنّني أحبّهم أجأر باستنكاري لاستمرار فقرهم . و ما يؤجّج ثورتي هو رفض الناس رؤية الفقر ، و الاعتراف بوجوده ، و لا مبالاة طالباتي القديمات في الاسكندريَّة و أمثالهنّ حياله ....

لديّ قناعة راسخة بأَنّ علينا تعلّم المشاركة . و المشاركة لا تعني التجرّد من كلّ شيء من أجل العيش في كوخ مثما فعلت أَنا ، أو الاستغناء عن وسائل الرفاه الشائعة . بل تعني الحدّ من البذخ ، و التبرّع بمبلغ ضخم بين فترة و أخرى ، أو بناء مشفى للفقراء ، و ما إلى ذلك . إنّني أعرف كثيرين ، منهم مدراء مصارف ، يمارسون المشاركة .....

البذخ في نظري ، دودة تلتهم قلب الإنسان . و قد اكتشفت بنفسي أَنّ مجرّد التخلّي عن الأَشياء النافلة يوفّر السعادة ....

خطيئة العالم الكبرى هي أَن يدع الإنسان أَخاه عارياً . و قد قال المسيح بوضوح ، في إنجيل متّى ، أَن بقدر ما تطعمون أو تسقون واحداً من الأَصاغر ، فإنّكم تفعلون ذلك لي . و قد يغرب عن بالنا كم كان آباء الكنيسة ، في هذا المضمار، متشدّدين . فالقدّيس باسيليوس الذي كان ، في القرن الرابع ، أحد مؤسّسي الحياة الرهبانيّة ، أعلن بلا مواربة : " الرغيف الذي تحتفظ به هو ملك الجائع . و المعطف القابع في خزانتك هو ملك للعريان ، و الأَحذية التي تتعفّن لديك هي ملك للحافي . والمال الذي تخبّئه هو ملك للمحتاج ، و أنت تحرم منه كلّ من تستطيع مساعدتهم " .

و المهمّ هو إِرادة رؤية هذا المحتاج . أَظنّ أَنَّ خطيئة العالم ، و لا سيَّما العالم الغربيّ ، تكمن في حصر اهتمامه بالمركز ، و بجهله أو إِغفاله الفقراء المقيمين في الأطراف . كذلك كان شأن الكنيسة قبل المجمع الفاتيكاني الثاني ، أمّا بعده فقد أقدمت راهبات كثيرات على العمل في الأَحياء و القرى البائسة . من قبل ، كان معظم المرسلين مرتكزين في المدن الكبرى مثل الإِسكندريّة ؛ أما الصعيد من حيث يأتي الفقراء ، الذين يؤثرهم يسوع ، و لا سيّما جامعو نفايات القاهرة ، فلم يكن أحد يُعنى بهم .

و منذ تبيّنت ذلك ما فتئت أكتب لرئيساتي : " متى ستأذنون لي أخيراً بتلبية دعوتي و تكريس ذاتي لمن يعانون ، و للأكثر عوزاً ؟ " . و كان عليّ أن أنتظر سنّ التقاعد لكي أحقّق هذا الحلم القديم .

لقد شعرت دائماً أَنّني مدعوّة للعيش فقيرة بين الفقراء ، و للمشاركة معهم ، فأنا ، بفطرتي ، ثائرة ، و يستفزّني كلّ ما أَشهد من مظالم على الأَرض ، و يتولاّني إحساس بأَنّني مدفوعة نحو المسحوقين ، أَيّاً كانوا . و مع ذلك كان عليّ أَن أَتريَّث أَربعين عاماً ، قبل تحقيق رغبتي هذه ؛ و هذا ما يدهشني أَنا نفسي ، مع أَنا عليه من نفاد صبر . لو لم أَنتظر لكان عليّ هجر جمعيّتي ، و هذا ما لم أَكن قادرة عليه ، ولا راغبة فيه ؛ إذ لا قِبَل لي على عيش الرهبنة بمفردي ، و أنا مدينة لجمعيّتي بكلّ الغنى الداخليّ الذي قُيّض لي اكتسابه في حياتي

القسم الثالث

مع جامعي نفايات القاهرة

تمهيد

لأسباب سياسيّة و أمنيّة تعذّر على الأُخت إيمّانويل تحقيق حلمها بخدمة البرص ؛ غير أنّ السفير البابويّ في القاهرة هداها إلى من هم أسوأ حالاً من البرص، زبّالي القاهرة المبثوثين في عدّة قرى صفيح بضواحي العاصمة المصريّة ، بين أكوام الأقذار المتعفّنة ، و المتخبّطين في أوضاع صحّيّة و اجتماعيّة مريعة .

و منذ الوهلة الأُولى أيقنت الأُخت أنّ ، ثمّة ، مكانها ، و أنّ تحقيق حلم شبابها بات في متناول يدها ، بعد أربعين سنة انتظار ، و أنّ الربّ آثر لها على خلوة ساكنة هانئة في أرياف فرنسا ، مرحلة جديدة ، حافلة بالنشاط و الإنجاز .

إزاء ذلك البؤس السحيق أيقنت الأُخت إيمّانويل أنّ لا سبيل إلى تخفيفه و بثّ العزاء والأمل في صدور ضحاياه إلاّ باقتسام حياتهم اقتساماً مخلصاً، كاملاً ؛ فسكنت كوخاً مثل أكواخهم ، خالياً من أيٍّ من أسباب الراحة حتّى الأساسيّ منها ، فلا ماء ولا كهرباء ؛ أرضه من تراب رطب و جدرانه صفيح عتيق صدئ مثقوب ، يشاطرها العيش فيه الجرذان و الذباب و البراغيث و الديدان ، و تسرح بجواره الخنازير ، و تحيق به أكوام الأقذار ؛ و اكتفت ، من الطعام ، بالفول و الخبز والماء، على غرار أفقر الفقراء .

لم يتوقّع أحدٌ أن تمكث ، ثمّة ، أكثر من بضعة أيّام ، فحتّى فقراء المصريّين لا يحتملون، أكثر من ساعات، الجرذان ، و الخنازير ، و نهيق الحمير ، و روائح التفسّخ الساطعة ، و العيش فوق الأقذار في حرمان يكاد يكون تامّاً . غير أنّها مكثت أكثر من عشرين سنة ، و كانت أُمنيتها أن تقضي بين أولئك القوم نحبها ، لولا أن أمرت عام 1993 بالعودة إلى فرنسا . فقد أحبّت أولئك المحرومين حبّاً حقّاً ، وأحبّت فيهم اللّه الانسان المتجسّد الذي على حبّه وقفت حياتها .

منذ وصولها إلى عزبة النخيل كانت قد صرّحت : " مثل دوّار في بحر كان شقاء القوم يجتذبني. كنت أتوجّس خشية من عدم قدرتي على الصمود و لكنّني كنت واثقة في من

أنا لا شيء في معزل عنه ، و من معه أقوى على كلّ شيء". و بعد أن خبرت تلك الحياة و انغمست في غمارها سنين طويلة اعترفت: " في عزبة النخيل،وبما يعادل دولارين في الشهر ، أي ما يكفي لابتياعي مؤونتي من الفول اليوميّ ، عشت أسعد أيّام حياتي ، في فرحٍ عميق، لأنّها كانت على انسجام تامّ مع دعوتي . بعيداً عن الإثارة المفرطة ، كنت أعيش سعادة هادئة مثل السهم التي بعد أن تصيب هدفها ، تتوقّف عن النبض "

و اقتسمت أيضاً آلام جيرانها و همومهم ، و سعت ، منذ اللحظة الأولى ، إلى تغيير أوضاعهم بأفضل منها ، فجهدت في تعليم الصغار الذين أشادت لهم رياض الأطفال و المدارس ، و لقّنتهم مبادئ النظافة و الأخلاق ؛ و أنقذتهم من الكزاز الذي كان يقضي ، على فئاتٍ عريضةٍ منهم . و افتتحت للشبّان نوادي رياضيّة كي تبعدهم عن الحشيش ، و السّكر ، و القمار ؛ و جهدت في محو أميّة الكبار ، و في تلقين النساء و الفتيات الخياطة و المهن المنزليّة ، و الشبّان مهناً صناعيّة كفيلة بإعتاقهم من لعنة الأقذار ؛ و أقامت المستوصفات ، و المشافي ، و دور التوليد النظيفة التي تطوّع للعمل فيها أطبّاء و طبيبات مصريّون و سواهم . ثمّ سعت إلى تزويد قرى الصفيح بالماء و الكهرباء ، و إلى الاستعاضة عن الأكواخ الرثّة و الهشّة ، التي غالباً ما تلتهمها النيران ، ببيوت من الآجرّ و الإسمنت تتمتّع بحدٍّ أدنى من الرفاه . و أخيراً زوّدت جامعي النفايات بشاحنات صغيرة من شأنها تحريرهم من التعب المفرط ، والسماح لهم بإنماء دخلهم .

قرية الصفيح الأولى التي مكثت فيها الأخت إيمّانويل ، تدعى " عزبة النخيل" و قد تمادى مكوثها فيها أحد عشر عاماً كافحت أثناءها، بضراوة ، الجهل ،و المرض و القذارة ، و عوامل الانحطاط و الموت . و قد حفلت تلك السنوات بإنجازات تبدو معجزة ، و تجسّدت في إنشاء ما أطلقت عليه " مركز سلام "، و هو مركز نموذجيّ يستهدف تلبية احتياجات جامعي النفايات و فقراء القرى المجاورة ، في مختلف مراحل حياتهم من الولادة حتّى الموت ، و يضطلع بمهامّ اجتماعيّة ، و ثقافيّة ، وتربويّة ، و طبيّة ، فهو يضمّ :

- مدرسة تستقبل 814 طفلاً و طالباً في الروضة و الابتدائيّ
- مستوصفاً ، حيث ثلاثة أطبّاء مختصّون في الأمراض الداخليّة ، و النسائيّة و السنّيّة يستقبلون ، في أوقات محدّدة ، مئات المرضى أسبوعيّاً .
- دار توليد
- مشغلاً يُستخدم ، صباحاً ، مركزاً لمحو أميّة نحو مئة فتاة من فتيات القرى المجاورة ، و بعد الظهر لنحو ثلاثين من بنات جامعي النفايات .

– مركز تأهيل مهنيّ يحتوي خمسة أَقسام : نجارة ، تمديدات صحيّة ، لحام ، ميكانيك ، كهرباء .

– نادياً اجتماعيّاً موقوفاً على النشاطات الثقافيّة : مكتبة – سينما – مسرح – موسيقى

– و على النشاطات الرياضيّة : كرة قدم ، و كرة طائرة ، و جودو .

– مطبخاً للتأهيل المنزليّ .

– مأوى للمسنّين

– مأوى للأمّهات العازبات .

– داراً للراهبات حيث تثقّف الراهبات ، و تؤهّل المدرّبات للإغاثة و المساعدة الاجتماعيّة ، لا في مركز سلام فحسب ، بل للإشعاع في مختلف أنحاء مصر .

يوم تدشين مركز سلام ، في 29 آذار 1980 ، دوّنت السيّدة جيهان السادات التي اشتركت بالاحتفال ، في سجلّ الشرف : " إنّني أُكبر رسالة الإحسان و الإنسانيّة، التي نهض بها هؤلاء الذين ضحّوا بحياتهم للعمل ، في سبيل سعادة الآخرين ، و لا سيّما أولئك الذي لا يقوون على النضال ، بمفردهم ، في معركة الحياة "

و بعد أَن استقامت الأمور في مركز سلام ، و تولّت راهبات " بنات مريم " القبطيّات مقاليد الإدراة فيها ، استدعيت الأُخت إيمّانويل إلى قرية صفيح ، في منطقة " المقطّم " ، التي تبعد نحو 15 كيلو متراً عن " عزبة النخيل " ، حيث يعيش خمسة عشر أَلفاً من جامعي النفايات ، في مثل ما كان عليه قاطنو " عزبة النخيل " من بؤس و إهمال . و انطلقت الأخت إيمّانويل من الصفر ؛ و أَنجزت مثل ما أَنجزته من قبل، و أَحدثت " مركز المحبّة " الذي يضمّ ، أَيضاً ، مدرسة يرتادها 810 طلاّب ، وعيادة تشمل مختلف الاختصاصات ، و مصنعاً للسجّاد ، و مركزاً لمحو الأُمّيّة ، و آخر لتأهيل النساء ، و نادياً للشباب ، و كنيسة و جامعاً .

و في " مركز المحبّة " أَطلقت الأخت إيمّانويل مشروعين رائدين ، مشروع "ألف مسكن " الذي استبدل الأَكواخ المهلهلة الوبيلة بمساكن بسيطة صحّيّة من الإسمنت و الآجرّ ، تنعم بالماء و الكهرباء . و إذ كان المكان يفتقر إلى الماء الذي يؤتى به بالصهاريج ، ممّا يكلّف القومَ ما لا يطيقون ، و يجعل أَمر البناء عيسراً بل متعذّراً ، استشارت الأخت إيمّانويل أَصحاب الاختصاص ، و توفّقت إلى استنباط الماء من أَعماق الأَرض ، و تسنّى لجامعي النفايات أَن يشهدوا ، للمرّة الأولى في حياتهم ، الماء يسيل بين صخورهم الجرداء .

أَمّا المشروع الرائد الآخر ، والفريد ، فهو إقامة مصنع سماد مركّب يحوّل أَقذار قرى الصفيح إلى مُخصبٍ ممتاز ، و يحوّل بذور الموت إلى بذور الحياة . و قد كان الفضل الأَكبر في مساعدتها على تحقيق هذا المشروع الجلَل لكلٍّ من صديقها جاك ديلور ، رئيس الجماعة

الاقتصاديّة الأوروبيّة حينذاك ، و الذي عرفته يوم منحتهما جامعة لوفان ، معاً ، دكتورا فخريّة ، و الأَب بيير الذي طالما استلهمت مثاله ، و الذي استنفر لمساعدتها أَصدقاءه رفاق عمّاوس .

و في تمّوز 1985 أَبلغها مستشارها الأَخ بولاد ، الذي كان مديراً لمعهد الإِخوة في الإِسكندريّة : " جامعو نفايات المعادي يستغيثون بك ، و لا بدّ من المضيّ إِليهم . و ضعهم حقّاً مأساويّ ، و أَسوأ من كلّ ما شاهدت حتّى اليوم " . و في اليوم التالي تحقّقت من هذا القول ، و اعترفت : " فجأةً بدت لي عزبة النخيل و المقطّم فردوساً " . و أَخذت عصا الترحال ، و هجرت " فردوسها " ، و استقرّت في قرية صفيح " المعادي تورا " التي تبعد نحو ستّة كيلو مترات عن القاهرة . و في 15 تمّوز كتبت إِلى أَصدقائها : " ها أَنذا في قصري الجديد " . و رغم سكنها الزريّ أَعلنت : " إِنّني أَكثر سعادة من الملكة إِليزابيت في قصر باكنغهام " . كيف لا ، وهي كلّما أوغلت في البؤس ، باتت أَشدّ التصاقاً بيسوع ؟

و مرَّة أُخرى ، نهضت ، في " معادي تورا " مدرسة ، و روضة أَطفال ، ومستوصف ، و نادٍ للشباب ، و مجموعة كهربائيّة ، و مساكن صغيرة من الآجرّ ، وتفجّر الماء من باطن الأَرض .

بالإِضافة إِلى كلّ ذلك ابتاعت الأُخت إِيمّانويل، بأموال متبرّعين أوروبيين، على شاطئ الإِسماعيليّة ، مبنىً و مسبحاً أَطلقت عليهما اسم " بيت السعادة " . و إِلى هذا البيت يتقاطر جامعو النفايات ، رجالاً و نساءً و أولاداً ، جماعات جماعات بالتوالي ، فتقضي كلّ جماعة أَيّاماً ثمينة ، هي من العمر أَجملها، فتتهادى أَجسادهم المنهكة مع تراقص الأَمواج ، و ينعمون بالشمس ، و الهواء المنعش ، و الجوّ النقيّ، و بعطلة كالأَحلام ، و ينعتقوق فيها من الكدح و القذارة ، و يدّخرون طاقة لمواصلة كفاح المصير . و يستقبل " بيت السعادة " ، سنويّاً ، ما يربو على ستّة آلاف نزيل ، قادمين من مختلف مراكز الأخت إِيمّانويل .

لخمسة عشر عاماً خلت،من كان يستطيع تخيّل أَن يستحمّ جامع نفايات واحد، بأَسماله الرثّة ، على شاطئ رمليّ مشمس ؟ و قبل أَن تؤمر الأخت إِيمّانويل بمغادرة مصر للتقاعد في فرنسا كانت مراكزها الثلاثة تعجّ بالنشاط؛ ففي " عزبة النخيل" منذ عام 1968 ، و بفضل قروض خارجيّة حصلت عليها الأُخت إِيمّانويل ، بات جامعو النفايات يستخدمون سيّارات النقل الصغيرة ، عوضاً عن عربات تجرّها الحمير ، هدّدت محافظة القاهرة بحظر دخولها المدينة .

عام 1988 ، ثلاثة و تسعون بالمئة من طلاّب مدرسة المقطّم اجتازوا الامتحانات بنجاح . و من كان يتصوّر ، من قبل ، أن ينجح في امتحان دراسيّ واحدٌ من أولئك الأولاد البائسين ؟

و في عام 1989 ، للمرَّة الأولى ، لم تحدث بين الأَطفال الخدّج وفيّات بالكزاز الذي كان يطيح بحياة أَربعة أَطفال من أَصل عشرة في سنتهم الأولى .

و تولّت إِدارة مركزي " سلام " و " المحبّة " الراهبة القبطيّة الأُخت سارة ، وأَخوات من جمعيّتها ؛ و بات لمرسلات المحبّة ، أَخوات الأُمّ تيريزا ، حضور في قرية صفيح المقطّم ، فضلاً عن أَكثر من ثمانين متطوّعاً و متطوّعة يعملون معهنّ جميعاً .

و بالإِضافة إِلى كلّ ذلك أَنجزت الأُخت إِيمّانويل ، في مصر ، مشاريع متعدّدة ، تمثّلت في بناء مساكن في قرية صفيح المعتمديّة ، و إِشادة مركز تعليميّ في سيناء ، و تجديد مركز طبيّ في السويس ، و بناء مدرسة في المطريّة ، ومستوصف في " سكّرة " ، و آخر في زيتون ، و مساعدة أولاد برص ، و أَيتام ، و مسنّين ، وجانحين ، و معاقين عقليّين ، إِلخ .

و بالإِجمال ، حيثما حلّت الأُخت إِيمّانويل ، شنّت حرباً على الفقر و الجهل والمرض ، و غيّرت الأَوضاع و المصائر تغييراً جذريّاً ؛ و ما هو أَخطر من كلّ ذلك غيّرت مكنونات النفوس ، إِذ أَعادت إِلى اؤلئك الذين ازدراهم الجميع ، فانتهوا إِلى اليأس من ذواتهم ، و من الحياة ، ثقتهم بأَنفسهم ، و أَملَهم في مستقبل أَفضل ، بعد أَن لمسوا و تيقّنوا أَنّ ثمّة من يحبّهم حبّاً صادقاً ، و يُعنى بشأنهم ، و يذود عن حياضهم . و لكن ، في سبيل بلوغ هذه الأَهداف ، كان على الأُخت إِيمّانويل أَن تكافح بضراوة . فلئن بات اليوم شائعاً أَن يقدم عشرات المتطوّعين لمساعدتها ، و مدّ يد العون لجامعي النفايات ، لم تكن هكذا الحال عام 1971 ، إِذ لم يكن أَحد قد سمع عن الأخت إِيمّانويل شيئاً ، فتعيّن عليها أَن تكافح وحيدة ، لا سند لها سوى اللّه ؛ و قد اصطدمت بمقاومة من كلّ نوع و كلّ صوب ؛ و كان جامعو النفايات أَوّل المقاومين، إِذ لم يؤمنوا بجدوى التعليم ، و لا بقابليّة مصيرهم للتطوّر ؛ و قد اقتضاها التغلّب على تلك المقاومة بذل كنوز من الصبر ، و التضحية ، و الحبّ ، و الإِقناع . وعندما نضجت ثمار جهودها ، بات القوم يرون فيها " أَبلتهم " ، أَي أُختهم الكبرى ، و أمّهم، و منقذتهم ، التي لن يتخاذلوا عن الدفاع عنها بحياتهم ، و بأَغلى ما يملكون . وكان عليها ، أَيضاً ، مكافحة طبعها الجيّاش ، على حدّ اعترافها :

" أَظنّ أَنّ السنوات العشر التي قضيتها في " عزبة النخيل " قد علّمتني ، خاصّة ، الصبر ، فهو أَكثر ما كنت أَفتقر إِليه . كنت ، دائماً ، مستعجلة ، و راغبة في أَن يسير كلّ

شيءٍ سيراً سريعاً ، و لم يكن شيء يسير سريعاً . كان يلزم وقت للحصول على المال ، ووقت للظفر بالتراخيص الرسميّة ، ووقت للبناء . ثمّ ، فوق كلّ ذلك ، كان يلزم وقت لإقناع إِخوتي جامعي النفايات ؛ فتغيير العقليّات يستغرق ، دائماً ، وقتاً طويلاً . أَجل ، تلقّنت الصبر ، و لكن لست واثقة من أَنّني كنت تلميذة مجلّية ...

" أَعتقد أَنّني لقّنت إِخوتي أَثمن علم ، الكرامة . فقد كان الجميع يزدرونهم ، و انتهوا إِلى ازدراء أَنفسهم ، و هذا هو الأَرهب . كان يتعيّن تعليمهم رفع رؤوسهم لكي يقووا على تغيير مستقبلهم ، و بناء مستقبل أَبنائهم . و من أَجل إِعادة تزويدهم بالكرامة ، كان لا بدّ من محبّتهم ، أوّلاً ، و إِقامة الدليل ، في الحياة اليوميّة ، على محبَّتنا لهم ، لأَنّهم أَبناء اللّه ، و لأَنّ اللّه شاء أَن يتجسّد ابنه بين ظهراني الأَشدّ فقراً. لم أَلقَ في محبّتهم عنتاً ، فقد كنت أُحبّ إِخوتي أولئك ، بكلّ كياني . كنت أَمقت أَن أَمنّ عليهم بإحسان ، و أَحرص على مساهمتهم في إِنقاذ ذواتهم ، كي يكونوا فخورين بأَنفسهم ؛ فعندما كانوا يبتغون بناء بيت ثابت كنّا نوفّر لهم الآجرّ ، و الإِسمنت ، والرمل ، و حتّى الماء ، و نصائح هندسيّة ، و كان شبّان أوروبيّون ، أَثناء عطلتهم ، يساعدونهم ، و لكن كان عليهم أَن يبنوا هم بأَنفسهم . و قد فرضنا رسماً للتسجيل في المدرسة قرشاً واحداً ، و رسماً للإِفادة من خدمات المستوصف قرشين . مبالغ رمزيّة و زهيدة ، و لكنّها كفيلة بمنحهم الشعور بالكرامة .

وواجهت الأخت إِيمّانويل ، أَيضاً ، مقاومة بعض المتطرّفين الذين اتّهموها بالتبشير ، و هي التي لم تكن سوى شاهدة على حبٍّ لا يعرف التفرقة ؛ و تعرَّضت كذلك لارتياب رجال الأَمن في حقيقة مراميها ، فراقبوها عن كثب إِلى أَن ثبت لهم أَنّها لا تبتغي سوى الخدمة المتجرّدة ، و العطاء بلا مقابل . و يوم احتفلت بيوبيلها الرهبانيّ الذهبيّ ، كانت السيّدة مبارك بين المشتركين في الاحتفاء بها ، و بلّغتها أَنّ زوجها ، رئيس الجمهوريّة ، قد قرّر منحها الجنسيّة المصريّة .

و في سبيل توفير الأَموال الطائلة التي استلزمتها إِنجازاتها في قرى الصفيح جابت الأُخت إِيمّانويل العالم و لا سيّما أوروبا و أميركا و كندا ، و أَلقت مئات المحاضرات و الأَحاديث التليفزيونيّة ، التي استدرّت لها فيضاً من الشيكات والهبات، التي أُنفقت ، حتّى آخر فلس ، على تحسين أَوضاع جامعي النفايات المعيشيّة والاجتماعيّة .

و جدير بالتنويه أَنّها ، حرصاً على ضمان مستقبل المشاريع التي أَحدثتها لصالح " زبّالي " القاهرة ، طافت بالمؤسّسات الحكوميّة المصريّة ، بلا كلَل، حتّى حصلت على تراخيص بجميع تلك المشاريع ، و على وثائق رسميّة تكفل استمرارها، و سجّلت، لدى

الشؤون الاجتماعيّة "، اتّحاد جامعي النفايات " ، لكي يكون المسؤول عن تلك المشاريع ، و ينعم بأيّة تسهيلات أو قروض .

في غمرة انغماسها في معايشة إخوتها جامعي النفايات و خدمتهم ، كانت الأخت إيمّانويل تنعم بين فينة و فينة ، بفسحات استجمام ، تجدّد فيها طاقاتها ، وتستجمع قواها لمواصلة نضالها المرهق و البطوليّ .

ففي شهر تمّوز من عام 1982، أثناء جولتها السادسة في أوروبا ، دعيت إلى الاشتراك بمجمع جمعيّتها العامّ ، فتبيّنت ، بسعادة ، كم تطوّرت العقليّات وتبدّلت، و صرّحت : " لقد غمرني هذا المجمع بالفرح . فلطالما اعتبرتني أخواتي غريبة الأطوار ، و فجأة اتّضح أنّنا ننهج ، جميعنا ، درباً واحداً : توافق تامّ مع البلدان التي نرسل إليها ، و إيثار للعالم الثالث ، و نفس الرغبة في الكفاح بلا مساومة ، من أجل العدل ، و نفس السعي إلى الفقر ... "

و في شهر أيلول من نفس السنة قضت أسبوع خلوة في دير فرنسيسكانيّ بالإسماعيليّة ، فاهتبلت تلك الفرصة النادرة لتعيد مطالعة الإنجيل ، بتؤدة ، كي تتذوّقه، في صمت ، أمام الله ، و في فقر كيانها .

و عام 1984 دعتها أخواتها المقيمات في القدس إلى زيارة الأماكن المقدّسة، و قد أخذ موضع صلب المسيح و قيامته من نفسها كلّ مأخذ ، فكانت لاتني تتردّد إليه، و تتأمّل خاشعة في سرّ الفداء ، و تحمل إلى الفادي آلام المحرومين و آمالهم في الخلاص ؛ و قد عادت من تلك الزيارة مزوّدة بطاقات متجدّدة دفّاقة لاستئناف كفاحها في سبيل المتألّمين ، و لا سيّما إخوتها جامعي النفايات .

وسط جامعي نفايات القاهرة عاشت الأخت إيمّانويل أسعد أيّام حياتها وأخصبها . و عن تلك الحقبة وضعت كتابها الشهير : " جامعة نفايات مع جامعي نفايات " و منه نقتطف الفصول الأخّاذة التالية :

حياة مغاوات

عشرون سنة ، عمر الأَحلام و الحياة التي تنشأ ، و أَنا على متن السفينة التي تعود بي من إِنكلترا التي قصدتها لكي " أَتكلَّم الإِنكليزيَّة " .

في غمرة زياراتي إلى برج لندن و المتحف البريطاني ، و نزهاتي على نهر التايمز ، و دروس الإِنكليزيَّة ، سلخت ثلاثة أَيَّام صمت أمام اللّه ، و ها أَنذا قد عقدت العزم على منح ذاتي للمسيح و لإِخوتي ، و أَنا مقدمة على النذور الثلاثة : الفقر ، والعفَّة و الطاعة !

بررر... ستُقيَّدين ، يا بنيَّة ...

بيد أنّ قلبي سيكون طليقاً للحبّ ؛ إنَّني أَسمع ، ليلاً ، في ثنايا أَحلامي ، نداء المفتقرين إلى الحبّ ، فقراء ، و أيتام ، و برص .

نحن في شهر أيلول ، و المانش المتجهّم يقذف بحنقٍ عبابه على سطح المركب ، فيما أَنا متّكئة على الحاجز ، أُدخّن سيكارة ، متذوّقة حرّيّتي . و إذا بشابّ أَشقر يدنو منّي و يبادر بالحديث : " أَتدخّنين ، يا آنسة ؟ "

– " كما ترى ، يا سيّد "

تدخين الفتيات ، آنذاك ، كان أمراً نادراً ، بل كان منكراً . و لكن بما أنَّ والدتي كانت تنهيني عنه ، كنت أجد فيه متعة قصوى .

و استأنف الشابّ حواره :

– " إلى أَين أَنت ماضية ، أَيَّتها الآنسة ؟

– إلى الدير ، أَيّها السيّد

– مع هاتين العينين ، أَيّتها الآنسة ؟

– لن أَتركهما عند الباب ، أَيُّها السيّد .

– ألا تحبّين المخاطرة ؟

– بلى ، و لذلك أدخل الدير ، فذلك نوع من المخاطرة .

– أَنا ماضٍ إلى بيرلين ، أَيَّتها الآنسة

– هنيئاً لك ، أَيّها السيّد

– ألا ترغبين في مرافقتي ؟

– هل تودّ ، أَنت أَيضاً ، دخول الدير أَيّها السيّد ؟

– أوه ... لست أَظنّ ذلك

– إِذن ، للأسف ، لن يتاح لنا ، بعد ، أَن نلتقي . "

و أَطلقتُ نفثة دخان نحو السماء المغبرّة متسائلة ... كيف لي الانعتاق من هذا المزعج ؟

و أُلهمتُ فكرة، فقلت له : " هل تتفضّل و تأتيني بحقائبي ، أيّها السيّد فلست أَدري أين وضعها الحمّال ؟ " . و ما لبث أن عاد بها منتصراً . و افترقنا ، مثل أصدقاء ، و أَبحر كلّ منّا شطر ... مغامرته .

خمس و أَربعون سنة مرَّت منذئذٍ ، خمس و أَربعون سنة حافلة بمغامرات رائعة ، أَجل ، رائعة . أَعتقد أَنَّ المرأة لا تزدهر و تسعد إلاّ في الحبّ . و من رسالة إلى رسالة ، من فرانسا إلى تركيّا ، من تونس إلى مصر ، من روما إلى جنيف وبروكسيل ، وضع الربّ على طريقي أولاداً و رجالاً أُحبّهم ، و ملأ قلبي بآلاف الأَصدقاء ، قاسمتهم أَفراحهم و آلامهم ، خيباتهم ومشاعر حبّهم .

لكي أدوّن هذه الأسطر في هدوء ، فزعت إلى شاطئ الإسكندرية الذي رأى إِسكندر و بومبيوس . و قيصر و أنطونيوس و كليوباتراهما الساحرة . بيد أَنّ حياتي كانت أشدّ امتلاءً برعشة الإِثارة من حياتهم . فهم قد حشروا ، في أوعيتهم التي تظلّ فارغة مهما سكبوا فيها ، أمبراطوريّات انهارت تحت أقدامهم .

غير أنّ إِطلاق أولاد على دروب الحياة ، و تخفيف قلوب متعبة من أَحمالها، و مساعدة أيادٍ كانت موشكة على الضياع في الهوّة ، كلّ ذلك يهب من فرح الحياة المتوثّب ما يتيح لي أن أُصرّح بما أُومن به : فحتّى لو لم تنبت على قبري سوى الأعشاب البريّة ، و حتّى لو اضمحلّت نفسي مع روح قطّتي ، مع ذلك كان ما عشته يستأهل ، بلا ريب ، أن أَهجر ، في سبيله ، ألمانيّ الجميل ... و بعض الآخرين . آه! ما أَجمل الحياة ! يخطر لي أن أسجّل ، بأَحرفٍ من ذهب ، على قبري : " لقد عاشت " .

(ملاحظة : ليس لي روح قطّة ، و أومن إِيماناً راسخاً بقيامة الموتى و الحياة الأبديَّة . آمين)

فوزيّة ، أُختي

إِليك أُهدي هذه الملاحظات ، فأنت تمثّلين لي الإِنجيل ، أَفعالاً .

لستِ لاهوتيّة ، يا فوزيّة ، و تجهلين القراءة و الكتابة ، و لا تتفوّهين بأَلفاظٍ سامية ؛ و لكن عيشنا معاً في قرية الصفيح أَتاح لي معرفتك . إنّك لا تمتلكين سوى سرير أَعرج ، و صندوق سيّء الإغلاق يحتوي بعض ثياب ، و ثلاثة أو أربعة أَطباق . و عليك الاهتمام بزوج يضربك عندما تتأزّم أموره ، و بأَربعة أبناء يلبسون أَسمالاً بالية ، (و قد فقدت أَربعة آخرين) و بنحو خمسين خنزيراً لا يخصّونك ، تطعمينها بفضلات قمامة منازل القاهرة الجميلة . و لا تكفّين تنتقلين من كوخك البائس ، الذي تعيث فيه الجرذان فساداً ، إلى باحة الخنازير حيث تغوص قدماك العاريتان في القاذورات . و أَرى يديك تكشطان الأَرض بقطعة خشبيّة ، مكوّمة الأَقذار في قفّة عتيقة تحملينها على رأسك و تفرغينها في زقاق أمام بابك . ثمّ تجعلين المضخّة العتيقة تصرّ كي ترطّبي وجهك المبلّل بالعرق ، و تغسلي يديك و رجليك المتّسخة .

كيف تبشّرينني بالإنجيل ، يا فوزيّة ؟ بسكونك الشفّاف ، و بسمة عينيك ، والفرح المنبعث من كيانك . أشياء جميلة تُكتَب عن لاهوت التحرّر . أمّا أنت فتعيشينها : فأنت متحرّرة .

أَنتِ ، لي ، سرّ : ففي حداثتك لم تعهدي مثل هذا الوجود القاسي و البائس ، إِذ كنت تعيشين على ضفّة قناة السويس في الإِسماعيليّة ، حيث لم تكوني تفتقرين إلى شيء . و ما هو هدفك اليوم ؟ إِنقاذ أبنائك ، و إرسالهم إلى المدرسة ، و تهيئة غدٍ أفضل لهم . أَمّا في ما يتعلّق بك شخصيّاً فلا تهتمّين ، بل تتحمّلين و تصمدين . فما هو سرّك ، يا فوزيّة ؟ ما هو النبع الحيّ الذي تنبعث منه سكينتك ، و هدوء يديك المصفرتين ، و ليونة جسدك التعب ؟ ذات مساء أصغيت إلى همسك الذي كان يتنامى إليّ من خلال الحاجز الخشبيّ الذي يفصل بيننا ، و كان صوتك ينتهي إليّ بين فينة وفينة ، مثل لازمة نشيد وقور مُصدياً لصوت زوجك . و بغتة أَدركت : لقد كنت تردّدين الإنجيل الذي كان يقرؤه على ضوء مصباح الكاز الصغير .

و دنوت منك : فإذا بك جالسة على الأرض الرطبة ، ترضعين مريم ، طفلتك الأَخيرة ، و شفتاك تجأران ، في تؤدة ، بكلمات المسيح ، ووجهك ، تحت شعلة المصباح ،

يتألّق . أَمامك ، كان جرجس، بكر أَبنائك ، يكتب وظائفه . كان السلام يقطنك ، و منزلك " أَصبح لك مضيئاً " . لقد كان اللّه معك ، و سيُنقَذ أَبناؤك ، يوماً .

كيف عرفت جامعي النفايات ؟

عام 1971، رغبتُ في تحقيق الحلم الذي راودني و أنا في العشرين من العمر: أن أُكرِّس سنواتي الأَخيرة لخدمة البُرصْ . و استوضحت أصدقاء لي في القاهرة ، أَبدوا استعدادهم للمضيّ بي ، بالسيّارة ، إلى مصحّة البرص ، البعيدة عن المدينة . و انطلقنا عبر طريق تحفّ بجانبيْه أشجار النخيل ، طريق بدا و كأنْ لا نهاية له ؛ و بغتة أوقفنا شرطيّ .

– " هذه منطقة عسكريّة . أين ترخيصكم ؟ " و ها نحن نُقتاد إلى مركز الشرطة .

– " إلى أَين ؟ "

– " إلى مصحّة البرص "

و رمقني الرجل بنظرة حافلة بالارتياب

– " أوراقك ؟ "

و اذ لم أكن أَحمل جواز سفري ، ازداد ريبة . و من حسن طالعي أنّ امرأة فاتنة كانت ترافقني ، و تمتلك مواهب محامية ، و قد بذلت من الجهد و المهارة ما دفعه إلى الإِفراج عنّي ، على أن يواكبني شرطيّ حتّى عودتي إلى مركزي .

يبدو أنّه كان يتوجّب عليّ التوجّه إلى وزير الصحّة ، فأرسلت له طلباً منمّقاً، ووصلت أَخيراً إلى المصحّة ، بلا عائق، مزوّدة بأوراق نظاميّة . و طاف بي طبيب لطيف بغرفٍ شديدة النظافة تقيم في كلٍّ منها برصاوان ؛ إثنتان منهما بدا عليهما فرح يلامس الهذيان ، و انضمّت إليهما صديقة أُخرى ؛ غير أنّ الطبيب فسّرَ لي أنَّ إِذن الإِقامة سيكون صعب المنال لأَجنبيَّة في منطقة عسكريَّة ، و أَنّ معالجة الأمر ينبغي أن تتمّ مباشرة مع وزير الصحّة ، الذي عليه أن يراجع ، في ذلك ، وزير الخارجيَّة ، الذي يتعيّن عليه بحث الأمر مع وزير الحرب ... كم من الوزراء ! و نُصحتُ بالتوجّه إلى القصادة البابويّة .

و في القصادة استقبلني ، أوّلاً ، أَمين سرّ شابّ ، الأَب ب . و أَبدى ، في الحال، اهتماماً بالمشروع . و جاء القاصد ، بدروه ، فقال : " أودّ محاولة التدخّل ، يا أُختاه ، بيد أَنَّنا في غمرة الحرب ، و حظوظ النجاح طفيفة . لمَ لا تهتمّين ، عوضاً عن البرص ، بجامعي قمامة القاهرة الذين يعيشون في أكواخٍ بائسة ! "

و بعد إِعمال فكر ، قرّرت ألاّ أُزعج ، بشخصي الحقير ، ثلاثة وزراء لديهم من المشاغل كفايتهم . فلتكن مجازفتنا ، إِذن ، باتّجاه جامعي القمامة .

القاصد الرسولي ، مونسينيور" برونوهيم " كان أَوّل من حدّثني عن "الزبّالين" أو جامعي النفايات، قائلاً : " إنّهم قوم جاؤوا من الصعيد في حرمان تامّ ، ويخيّمون عند أبواب المدينة، وسط الأقذار التي يجمعونها كلّ يوم من أَحياء المدينة الجميلة ، ثمّ يفرزونها و يبيعونها " . ثمّ أضاف : " هيَّا ، سأمضي بك إلى الجانب الآخر من النيل، إلى إِمبابا ، و سترين بنفسك . "

و لمّا رأيت إمبابا ، و هو ضرب من مستنقع فسيح مغطّى بأكواخ مصنوعة من الصفيح العتيق تتوارى تحت ركام من الأَقذار ، تسرح و ترعى فيها الحمير والخنازير ، و لمّا رأيت هناك الأولاد ، قذرين ، في أَسمال مهلهلة ، يركضون حافي الأقدام ، و لكنَّهم في مثل جمال الملائكة ، و باشّو الأسارير ، عندئذٍ أَدركت في الحال أَنَّ تلك هي الحياة التي كنت أَتطلَّع إليها . فهناك كانت الطفولة البائسة التي ابتيغت ، دائماً ، وقف ذاتي على خدمتها .

كثيرون حاولوا عبثاً تثنيي عن عزمي ذاك ، متذرّعين بحجّة أنّ الزبّالين سارقون و قتلة ، و أنَّ الكحول و المخدّرات تعيث بين الأَكواخ فساداً ، بحيث لا يجسر حتّى رجال الأمن على دخولها .

معظم سكّان قرية صفيح أَمبابا كانوا من الأَقباط الأورثوذكس ، و قد رفض المسؤولون الروحيّون الأَقباط وجود راهبة كاثوليكيّة وسط رعيّتهم . و قبعتُ أُصلّي ، و أنتظر الفرج ، و سرعان ما وافاني كاهن قبطيّ يدعى الأَب صليب ، و دعاني إِلى الإِقامة في قرية صفيحٍ أُخرى تدعى " عزبة النخيل " ، حيث له أَصدقاء ، ومضى بي إِليها .

على بُعد بضع مئاتٍ من المكان توقّفت السيّارة ، فقد تعذّر عليها متابعة السير وسط الحفر و أكوام الأَقذر . و قد استطعت استشفاف المكان الذي كنت عازمة على العيش فيه ، و الذي بدا لي ، منذ الوهلة الأولى ، أسوأ من كلّ ما تخيّلت :

مدى مترامي الأَطراف من الأقذار تُحلّق فوقها ، هنا و هناك ، سُحُب دخان دكناء ، منبعثةٌ من نفايات تحترق ببطء ، ليلَ نهار ، منذ سنوات ، و تنشب روائحها المريعة بالحلوق و الصدور .

و كلّما دنوت ، ازداد المنظر بعثاً على التقزّز : ركام من الأَقذار ، و الفواكه و الخضار المتعفّنة ، و تلال من قضبان الحديد الصدئة الملويّة ، و قطعان من الجرذان الضخمة الشرسة ، و الخنازير القذرة ، و الكلاب الهاجمة ، مهدّدة ، حاقدة ، هزيلة، و الجرذان هي أَكثر فصائل القوارض ازدهاراً في تلك البؤرة الوبيلة ، فالأَقذار مرتع خصبٌ لها ، و هي تلتهم منها ما طاب لها ، و تبلغ حجماً مريعاً ، بحيث تخشاها حتّى الهررة ، و تهرب من بطشها .

وسط " كوكب الأَقذار الفتنة " ذاك ، كانت تختبئ ، مستحيةً ، قريةٌ مصنوعة، هي أَيضاً ، من الأَقذار و الخردة الصدئة ، و حطام الأَخشاب النّخِرة ، و علب الكرتون القذرة ، و أوعية الصفيح الصدئة ، و الأَكواخ المهدّدة بالانهيار في كلّ لحظة .

و برزت ، من كلّ صوب ، وراء ركام الأَقذار ، و النيران الملتهبة ، والأَكواخ ، جموع جامعي النفايات : آلاف النساء ، و الأولاد ، و الرجال ، منبعثين من جحيمهم ، و جميعهم راغبون في رؤية الغريبة القادمة إِليهم ، متسائلين ، في قلق، عمّا دفعها إِلى المجئ ، إِذ لا أَحد كان يجسر على الدنوّ من ذلك الكوكب المهجور .

و ما زلت أَذكر كلّ تلك الأَنظار ، التي ضرّجها بالحُمرة الجوع ، و البؤس ، و اليأس ، و الوجوه الوسخة التي تراكمت فوقها سنوات من السخام ، و الأَقذار ، والدموع . أَشباح هزيلة ، جائعة ، مترنّحة ، أَنهكها العمل ، و الحمْل ، و الشقاء .

ووسط هذا العالم الجهنّميّ ، تكدّست أَقذار عالم المحظيّين . عالمان يتواجهان: عالم " الناس السعداء " الذين لم يعهدوا الجوع يوماً ، الذين يجيدون القراءة و الكتابة ، و يهرع الأَطبّاء لعلاجهم عندما يمرضون ، و يقوم رجال الشرطة على حمايتهم ؛ يستقلّون الطائرات ، و ينعمون بالدفء في الشتاء ، و يرتشفون الشراب المثلّج في الصيف . و في المقابل عالم من يسيرون حفاة فوق الأَقذار ، الجائعين منذ أَجيال ، بل منذ الأَبد ، الذين لا عهد لهم بماءٍ ساخن ، و لا بكهرباء ، و لا بماءٍ حارٍ، و لا بحمّام ، الذين لم يعرفوا للّحم طعماً ، الذين يجيدون طبيعيّاً أَن يقضي أَبناؤهم نحبهم بين أَيديهم ، و الذين يتوجّسون من الآخرين خوفاً .

و شاع الفرح في نفسي ، فهؤلاء المنبوذون هم إِخوتي ، أَبناء اللّه الذين ما انفككت أَنشدهم منذ زمان ، و الذين في سبيل إِلتقائهم و غوثهم ترهّبت منذ كنتُ في العشرين من عمري . و انتابني من المشاعر مثل ما انتابني في العاشر من أَيّار 1931 ، عندما قرّرت أَن أَقترن باللّه . فهاهم الفقراء الذين أَودّ ، أَيضاً ، الاقتران بهم . إِنّه نفس القران ، فاللّه و الفقراء واحد ، اللّه الذي ، في سرّ التجسّد ، ارتدى جسداً بشريّاً ، و اللّه الذي تجسّد في الفقير ، و الإِنسان ، ابن اللّه الذي اختار أَن يكون فقيراً ؛ الإِنسان ابن اللّه الذي بُصق في وجهه ، و احتُقر ، و هوى أَرضاً ، وسُخر منه ، و صُلب ، و تألّم ، و تقبّل كلّ شيء ، و الذي قام من الموت لأَنّه حبٌّ صرف ، و لأَنه ابن اللّه . لطالما صلَّيت ، و التمست لقاء إِخوتي البائسين كي أبلّغهم حبّي . و ها قد استجاب اللّه لصلاتي ، و تحقَّقت المعجزة .

و ابتسمت لهم ، فإِذا بهذه الجموع التي كنت أَظنّها حاقدة ، عدائيّة ، متأهّبة لصدّ هذه الغريبة القادمة من عالم آخر ، تشرع تبتسم ، هي أَيضاً . كانت بسمة المرأة العجوز كافية لإِحداث المعجزة ، و حملهم على إِلقاء سلاحهم ، و التخلّي عن قرونٍ من الحقد ، و العداء ،

و البغض ، و الريبة ، و عدم التفاهم . إِنّ البسمة هي كلّ شيء ، لأَنّها تعني أُحبّك ، فأنت أَخي .

لقد اتّخذت حياتي ، و هي في غروبها ، معنًى قشيباً ، و أدركتُ أَنّه ما زال لديّ عمل مثيرٌ اضطلع به ؛ فاللّه لم يفرض عليّ تقاعداً هادئاً ، في بيت هانئ تغشاه الورود ، في مكانٍ ما من فرنسا ، بل شاء أَن يهبني شباباً جديداً ، و أَتاح لي مباشرة حياة جديدة ، وفقاً لدعوتي الأَصليّة ، فشكراً اللهمّ .

منذ النظرة الأولى تبيَّنتُ مدى رحابة حقل عملي ، فهؤلاء الصغار ، ببسماتهم المتألّقة ، ووجوههم الجائعة ، ينبغي تعليمهم العيش و القراءة و الكتابة والنظافة و الفرح . و هؤلاء النسوة بأسمالهنّ الزريّة ، و بطونهنّ المنتفخة، وسِحَنهنّ المرهقة ، ينبغي تلقينهنّ الكرامة و الاغتسال ، و العناية بأولادهنّ ، و الخياطة . وهؤلاء الشبّان الذين يبدون أَوغاداً خطرين ، يتعيّن تعليمهم العمل ، و إِذاقتهم طعم الخير ، و إِفهامهم أَنّ هناك خيراً من العراك ، و الكحول المغشوشة ، و البغض والعنف . و هؤلاء الرجال المنهكون ينبغي شدّ إِزرهم . أَجل ، ثمّة مجال لفعل كلّ شيء .

أولئك القوم لم يزرهم أَحدٌ يوماً ، و لكن الجميع يلوكون سُمعتهم النكراء . ولطالما حُذِّرت من أَنّ مكانهم بؤرة لكلّ أنماط الفساد ، و مجمّع لأَسوأ أنماط الأَشرار، و لم تزدني تلك التحذيرات إِلاّ تشبُّثاً بعزمي :" أَجل ، ربّما كانوا قتلة ، ولكنَّهم إِخوتي ، و لا أحد يحبّهم ، و الجميع يرذلونهم ، و لذلك لا بدّ لي من العيش معهم ، لكي أَقول لهم أَنّني أُحبّهم ، و أَنّهم مثلي ، أبناء اللّه . "

على حبّي لهؤلاء الفقراء أَن يغيّر أوضاعهم ، و أَن يقضي على الفقر . وعلى عيشي معهم أَن يعتقهم من بؤسهم ؛ لا بدافع الإِحسان ، بل بدافع الإِخاء والمساعدة ، و الرغبة في التثقيف ، بدافع " سقراطيّ " : أَي أَن أحبّهم حبّاً كافياً لكي يتيح لهم اكتشاف ما في داخلهم من ثروات كمينة ، و مواهب .

أَخيراً ، بعد أَكثر من أَربعين سنة ، عثرت على دربي .

واقتادني الكاهن إِلى صديقه لبيب و زوجته ملكة ، اللذين ، منذ ذلك اليوم ما انفكّا يقدّمان لي العون و النصح .

و بادرت لبيباً بالقول :

– " إِنّني أَبحث عن مأوى

– " أنظري ، هل يناسبك هذا المكان ؟ " و فتح باب زريبة ماعز قائلا :

– سنضع الماعز مع الخنازير

– ممتاز

مساحة الزريبة نحو أَربعة أمتار مربّعة ، و تتّسع لسرير ، و مركع ، ومنضدة ، أي لكلّ ما أَحتاج إليه . و هي ، مثل الأَكواخ ، مبنيّة بالصفيح ، والأَخشاب ، و سعف النخيل .

ثمّ فتح الرجل الطيّب ، لبيب ، باباً آخر قائلاً : " إن شئت ، أَفرغت لك هذا المكان أَيضاً " .

و دخلت فإذا ما يشبه ممرّاً طويلاً تبعثرت فيه عجلات محطّمة ، و قطع أَخشاب عتيقة ، فهتفت :

– سيكون مقرّاً للمدرسة .

لقد عزمت و اتّكلت على اللّه . و وافقتْ ، أخيراً ، جمعيّتي ، شرط أَن أعود إلى مركزها في المطريّة ، بالقاهرة ، في عطلة نهاية كلّ أسبوع .

" العروسة " في قلب الأَكواخ

ما زلت أذكر دخولي المنتصر إلى الأَكواخ ؛ كان لبيب قد جاء ليصطحبني بنفسه ، فتربّعت في عربته العتيقة التي يجرّها حمار ، وسط مقاعد خشبيَّة قديمة ، ومقاعد دراسيَّة ، و

سرير و منضدة ، و أحاق بي أَطفال يهتفون مصفّقين : "العروسة، العروسة " ، و أُشاركهم أَنا الهتاف ، فيما القوم يضحكون ملء أَشداقهم .

هنا ، عندما تتزوّج امرأة ، تأتي بأمتعتها وسط الأَهازيج و ها أَنذا ، في الثانية و الستّين من عمري ، في موكب عرس . ففي اعتقادي ، المسيح حاضر في قرية الصفيح هذه ، و على نحو ما قالت الزوجة الرومانيَّة الشابّة :

– " حيث تكون يا قاوس ، أَكون ، أَنا ، قايا "

ربّما كان عليّ أن أَرتدي ثوباً أَبيض و أَدعو إِلى عرسي ألمانيّ الجميل ، ورفاق شبابي المرحين .

و كان الفرح يستطيرني بحيث قد يدفعني إلى تصرّفات طائشة ؛ و لكن، لحسن طالعي ، أمدّني الربّ بالحكمة ، بحيث لم أَكن أَفعل شيئاً قبل استشارة لبيب ، فكان يرشدني إلى ما يليق فعله في الأكواخ و ما لا يليق ... و كان ، لبيب ، في قرارة نفسه ، واثقاً من أنّ إِقامتي هناك لن تطول ، و لكنّه لم يكن يعرفني معرفةً حقّة...

إن زرتَ ضواحي باريس أو لندن ، أو نيويورك أو ريودي جانيرو ، لوقفت على صورة لقرية الصفيح التي أقيم فيها بضواحي القاهرة : جدران من الصفيح العتيق المثقّب ، بلا نوافذ ، و أَرض من التراب الرطب ، و سقف من غصون النخيل الجافّة . و لا أَثر لورقة خضراء ، أَو لزهرة ، أَو لعصفور ، بل عبءٌ باهظ من الحزن القاتم ، حيث يعيش و يموت قوم يبلغ تعدادهم ثلاثة آلاف نسمة .

لا كهرباء ، و لا ماء جارٍ ، لا شيء سوى الأكواخ و الرجال الذي لا يُشاهدون إلاّ بعد الظهر و في المساء ، إِثر عودتهم من جولاتهم في المدينة ، و نساء و أولاد ، و حيوانات : حمير تنهق في الليل ، و كلاب ، و خنازير ، و دجاج ، وجرذان شرسة ، و صراصير ، و ذباب منتشر في كلّ مكان . و رائحة يتعذّر تخيّلها تتسرّب إلى الحلق والأَنف ، و أَقذار من كلّ نوع لا يمكن الهروب منها .

كيف هوى أولئك البائسون ، لابسو الأَسمال القذرة ، إلى درك المجتمع ؟ معظمهم جاؤوا من صعيد مصر ، حيث لم تعد تكفيهم قطعة أَرض صغيرة هي حصتّهم من الميراث . أُميّون ، غير مؤهّلين لعمل ، و أَحياناً يفتقرون إلى وثائق هويّة شخصيَّة ، و قد انتهوا إلى قرية الصفيح هذه . بمَ يقيمون أَوَدهم ؟ بجمع قمامة المنازل (أَمّا تكنيس الشوارع فتنهض به البلديَّة) . ينطلقون مع الفجر كي يصلوا إلى القاهرة باكراً فيستطيعوا عبور الجسور ، و إِملاء عرباتهم ، و العودة قبل ازدحام سير الظهيرة . و تفادياً لسرقة دابّتهم العليلة البائسة ،

يقبع ولد فوق الأقذار في حين يتسلّق الأب السلالم ، أو يقبع الأب فوق الأقذار و يتسلّق الولد السلالم .

إنّه لمنظر يوميّ : يتوقّف حمار ضامر يجرّ عربة مترجرجة أَمام منزلك الجميل ، يا سيّدتي . و يقرع بابك رجل بائس يرتدي جلاّبيّة ملوّنة . أَهي نظرة صداقة أَم نظرة ازدراء تحطّينها على صديقي الزبّال ، و أَنت تناولينه القمامة التي يفرغها في قفّته ، قبل أَن يمضي إلى الباب المقابل فيقرعه ؟

و عندما يعود ، يشرع الفرز : فطبقك المكسور من جانب ، و صحيفة البارحة من جانب آخر ، و سيباع كلّ شيء ببضعة فلوس . أمّا نفايات الباذنجان التي رمتها طبّاختك ، يا سيّدتي ، فستكون طعاماً للخنازير . و ماذا عن الأولاد ؟ لن يذهبوا للَّعب في " ميري لاند " متأبّطين كرةً أو دمية مثل أَبنائك ، و لكنَّهم يتمرّغون و يتقاتلون فوق أقذاركم .

و يا لها من ذكرى زيارتي الأولى إلى أولئك الزبّالين الفقراء ! " إيه زيّك ؟ كيف الحال ؟ " و تمتدّ نحوي أيادٍ قذرة . و نتوغّل في أَزقّة مغطّاة بقشور البرتقال (فالخنازير تزورّ عنها) . هنا و هناك حيوان نافق : حمار أو خنزير أو جرذ . ووسط كلّ هذه الأقذار أولاد لوّحت الشمس أَجسادهم ، و شعورهم مجعّدة قصيرة . منظر موجع حقّاً. رأيت طفلاً يلتقط حبّة بندورة دبّ التلف في معظمها ، فصحت : "لا ! إيّاك أن تأكلها ! " و لكنَّ أُمّه ضحكت قائلة : " أوه ! إنّه معتاد " ، و ضمّت بين ذراعيها رضيعاً يغطّيه الذباب .

كلّ هذا البؤس يجتذبني ، مثل ، دوّامة في البحر . لا يسوغ أَن نَدَع مثل هؤلاء الصغار للإهمال .

كان لكوخي طاقة صغيرة تسكب " ملكة " أَمامها ، كلّ يوم ، قفّةً من روث الخنازير الذي لا ينقل من ذلك المكان سوى مرّة أو مرَّتين في السنة . و كانت الخنازير ترعى أَمام بابي .

كنت أَستحمّ بدلو ماء ، و كأس ثاوية على أَرض غرفتي الترابيَّة ؛ أَمّا غذائي اليوميّ ، فالفول ، أسوة بجيراني .

في فيلم ظهر عام 1947عن القدّيس منصور ، يشاهد الممثّل الذي لعب دور القدّيس ، عندما قضى ليلته الأولى في مأوى للفقراء ، و سمع تنفّسهم ، و حشرجتهم، و بكاءهم ، و أحسَّ بكلِّ ذلك الحضور الإنسانيّ الهائل ، حينئذٍ أَدرك أنّه بدأ يحقّق دعوته . هذا بالضبط ما عشته ، عندما قضيت ليلتي الأولى في كوخي : عشت شعوراً بالامتلاء ،و بالانعتاق من كلّ شعور بالنقص راودني حتَّئذٍ . بعدئذٍ لم يعد بوسعي الهبوط إلى درك أَسفل ، إذ بات عليّ أَن أَقتسم ، ليلَ نهار ، أكثر ما تعرفه البشريَّة من بؤسٍ و مهانة . و قد جالت بخاطري جملة

قالها الأب دي فوكو : " إِن ابتغيت المكان الأخير ، لن تعثر عليه أَبداً ، فقد احتلّه المسيح ، و لكن بوسعك إن شئت احتلال المكان قبل الأَخير " . و منذئذٍ احتللت المكان قبل الأَخير الذي سيتيح لي عيش تجسّد المسيح . و بتُّ كعصفور استطاع ، بعد أربعين سنة سجن ، الطيران إلى حيث شاء دائماً جناحاه المضيّ .

غير أنَّ منظر الظلم الناشب بأولئك القوم كان يوجعني . فحتّئذٍ لم أَستطع قطّ تصوّر هذا الدَّرَك من الحرمان ، فأَن يعيش رجال و نساء و أولاد سحابة النهار ، بل سحابة السنة ، وسط القمامة التي ينبذها الآخرون ، دائبين على فرزها ، و تنشّق روائحها ، و اطّعامها ، محاطين بالخنازير و الديدان ، التي هي أَيضاً تتغذّى بالقمامة، أمرٌ يصعب تصديقه على من لم يشاهده. فيما بعد ، غالباً ما تسنّى لي أَن أُري مصريّين " كوخي " ، و كانوا هم أَنفسهم يجهلون أنَّ بلدهم ينطوي على مثل هذا البؤس ، حيث كلّ شيءٍ قذر حتّى الماء الذي به يغتسلون ، و حيث يغوص المرء بلا انقطاع في حمأة مكوّنةٍ من قمامة تتسلّل حتّى داخل " البيوت " ، و ضجيج ، وروائح...

ردّ فعلي الأوّل كان على غرار ردّ فعل جميع الآخرين : يستحيل أَن يعيش بشرٌ وسط كلّ ذلك . و لكن بعد أن مرّت تلك الصَّدمة الأولى ، اكتشفت أَمراً أشدّ إدهاشاً : فالرجال ، و النساء ، و الأولاد العائشون هنا ليسوا تعساء ، لا بل إنّهم أوفر فرحاً من كثيرين من المحظيّين الذين قابلتهم ! و لا بدعَ في ذلك ، فالحياة ، و هوى الحياة أقوى من أَقتم بؤس .

في الإسكندريّة كنت قد شرعت أتعلّم العربيّة ، و بمساعدة لبيب و محاطةً بأولاده ، انطلقت أَزور جيراني ، متسلّحة بالبسمة . مدهشٌ ما يمكن للبسمة فعله . وأَعتقد أنّ جامعي النفايات عندما تبيّنوا أنّني أَنام مثلهم ، و آكل مثلهم ، و لا أَسعى إلى أَن أتفوّق عليهم في شيء ، قبلوني ، و قبلوا كوني لا أَمتلك ما أُعطيهم ؛ فمجرّد حضوري جعلهم يدركون أنَّ حياتهم جديرة بأن تعاش .

هذا لا يعني أَنَّني لم أعرف السعادة من قبل ؛ فباستثناء تونس ، كلّ الأماكن التي عشت فيها قد وفّرت لي فرحاً غامراً ، و لا سيّما و إنَّني كنت كلفةً بالتعليم . ولكأنَّ كلّ حياتي السالفة قد أعدّتني لهذه المرحلة الجديدة ، مثل ثمرة نضجت و باتت مهيّأة للسقوط . أَعتقد أنّني ما كنت لأقدم على ما أقدمت عليه ، لو كنت أَصغر سنّاً ، ففي الثلاثين و في الأربعين من عمري كنت ما زلت " فجّة " ، غير ناضجة ...

على أَيّة حال ، هذه الحياة – اثنتان و عشرون سنة في قرى الصفيح ، منها عشر سنوات في عزبة النّخيل ، و اثنتا عشرة سنة في مكانين آخرين – قد علّمتني ماهيّة الكائن

البشريّ ، في معناه الأكثر تجرّداً . لقد علّمني جامعو النفايات أن أكون إنساناً ، أن أكون امرأة ، و هم الذين أعطوني هويَّتي .

اليوم و قد بتُّ بعيدة عن قرى الصَّفيح ، يعروني الانطباع بأنّني أَمسيت نافدة الصبر ، فأتساءل : ما الذي كان ، هناك ، يفسّر ذلك الشعور ، الذي لايصدّق ، بما كان يغمرني من سعادة ! و أعتقد أنّه كان ناجماً عن عزوفي عن كلّ ضروب الامتياز ، فالامتيازات تنتهي دائماً بإبعادنا عن طبيعة الإِنسان ، و عمّا يعيشه أكثر من نصف البشريَّة . وسط القمامة ، ما من شيءٍ سطحيّ أو مصطنع ، و لا أقنعة ، و لا بهرج ، بل الإنسان في مواجهة حقيقة حياته .

ثمّ كان هناك الإِخاء . هناك كنت أَجلس أَرضاً ، على مُزقةٍ من الورق المقوّى ، و سط القمامة ، مستندة إلى صفيحة عتيقة . قريباً منّي كان الحمار ينهق ، و المصباح تطفئه كلّ هبّة ريح ، و الجرذان تتراكض من حولنا . كنّا نرتشف شاياً حارقاً ، و نتحدّث عن اقتحام الشرطة الأَخير ، و عن جامع القمامة الذي سقط من عربته ، و المرأة التي طردها زوجها ، عن كلّ شيء ، و عن أيّ شيءٍ .

كنت أقتسم مع جارتي ناديا مضخّة الماء عينها ، و نتنشّق نفس الهواء ، ونرقب معاً نفس السماء المكوكبة المملوءة بالنجوم . كنّا نعيش معاً .

و أَعترف أنّني تلقيّت في قرية الصفيح أكثر ممّا أعطيت ، و هناك تيقَّنت حقّاً ممّا شرعتُ أَستشفّه في استنبول : أنَّ ما يكوّن قيمة الإِنسان ليس دينه ، بل إِحساسه بالإِخاء . بين جامعي النفايات كان من المسلمين بقدر ما كان من المسيحيّين ، و كانوا جميعهم يعيشون بحضور اللّه الدائم .

طيلة بضعة أشهر استغرقتُ في إِنسانيَّة ذلك المحيط ، و لكن بما أنّني لست متأمّلة ، بل امرأة عمل ، سرعان ما أكببت على العمل ، باسم الثورة على الظلم ، وبغية تغيير الوضع .

إنقاذ الأَطفال

كما أَسلفت القول ، عاملان دفعاني إلى الإِقامة في كوخ بعزبة النخيل : الوقوف على حقيقتي الشخصيَّة ، و إِفهام جامعي النفايات أنّ حياتهم تستأهل أن تُعاش. و لكن سرعان ما أَدركتُ أنّ ذلك لا يكفيني مبرّراً للعيش . فقد ولدتُ للعمل ، و كان لا بدَّ لي من الانتقال للعمل .

و حدّثتني نفسي أنّني باقتسامي معهم لا حياتي فحسب ، بل أيضاً ، مؤهّلاتي و معارفي قد أساعدهم على الانعتاق من وضعهم المريع .

و كان الصغار هم أقوى دافع لي . فلم أطق رؤيتهم على هذا النحو ، جميلين، ضاحكين ، و لكن غالباً معتلّي الصحّة ، نصف متوحّشين ، و محكوماً عليهم بمستقبل مسدود . فلم تكن، ثمّة ، مدارس و لا دور حضانة . حينئذٍ قلت للبيب : " لو كان لديّ مكان لاستقبال الصغار ، لربّما تيسّرت لديّ وسيلة لإخراجهم من الأقذار " . وكان لدى لبيب زريبة يؤوي فيها حماره ، مبنيَّة باللبن و سعف النخيل . فدُعي الحمار إلى الإقامة تحت قبّة السماء ، و صُبغت جدران زريبته باللون الزهريّ ، وركّب النجّار زكريّا النوافذ ، و باباً حفر عليه صليباً و هلالاً متعانقيْن يعلوهما قول: " اللّه محبّة " . يا للروعة !

و " يلّه " إلى الأمام . لقد رافقني لبيب في جولةٍ على الأكواخ ، بغية إقناع أولياء الأولاد بإيكالهم لي . و في سذاجتي البالغة تخيّلت أنّهم سيقفزون على الفرصة، و لكنّهم كان يجيبوني : " ما جدوى تعلّم القراءة و الكتابة ؟ " . هناك ، الصبيان ، منذ سنّ السادسة ، ينطلقون في الخامسة صباحاً من أجل جمع النفايات ، و فيما يصعد الوالد إلى طوابق الأبنية كي يملأ قفّته ، يحرس الصبيّ العربة و الحمار اللذين ظلاّ في الشارع . في تلك الأثناء ، تعنى الفتيات الصغيرات بإخوتهنّ و أخواتهنّ الأصغر سنّاً ، كي يخفّفن من أعباء الوالدة ، التي تكاد تكون دائماً حاملاً . لم تكن مهمّتي ، إذن ، سهلة ، و في الأشهر الأولى لم تتلقّ حديقة الأطفال سوى نحو عشرة أولاد ، جميعهم من الذكور .

و أقوى حافز لي على العمل ، كان موت الأولاد ، و لا سيّما و أنَّ جامعي النفايات سرعان ما أخذوا يدعونني " أبلتي " أي أُختي الكبيرة . كنت أُعالج ، بقدر استطاعتي ، الأولاد الذين كانوا يُجرَحون ،و ما أكثر ما كانوا يُجرَحون ، فالنفايات تزخر بقطع الزجاج ، و الأشياء الحادّة . فضلاً عن أنّ كثيرين منهم كانوا يحترقون بانسكاب أكواب الشاي الغالية .

خلال سنوات إقامتي الأولى ، كانوا يأتونني ، عدّة مرّات في الأسبوع ، بأطفالٍ ما زالوا في أشهرهم الأولى ، في حالةٍ من التشنّج التامّ ، متغضّني الوجوه ، و كأنّهم في أرذل العمر ، كانوا يحتضرون من عواقب الكزاز ، الذي كان فيروسه قد أصاب منهم الدماغ . إزاء تلك الحالات كان ينتابني شعور بالعجز لم أشعر بمثله قطّ. و في المساء كنت أشخص إلى كوخ الأسرة ، و أجلس معهم وسط الأقذار ، وأمامنا الجسد الصغير البارد المسجّى فوق خرقة ، فأقول : " ألا فاعلموا أنّ طفلكم الصغير قد مثل إلى السماء " . و كانت الأمّ ، حينئذٍ ، ترفع أنظارها صوب القبّة المكوكبة الفسيحة – تلك القبّة التي غالباً ما تخفيها عن أبصارنا المدن الكبيرة بأبنيتها الشاهقة وأضوائها الفوسفوريّة – و تقول : " لا ريب أنّك سعيد الآن ، يا

ملاكي الصغير " . وفي كلّ مرّة كان يذكّرني ذلك المشهد بتلك التماثيل القائمة في كنائس الريف القديمة: عذراء الجمعة العظيمة ، تحمل بين ذراعيها جثمان يسوع ، و لا يرشح منها لا يأس و لا تعاسة ، بل تشاهَد القيامة في عينيها . بالنسبة إليّ كان ذلك تعبيراً رائعاً عن الإِيمان .

فيما بعد ، في السودان و في لبنان ، شاهدت مئات الأولاد قد قضوا نحبهم ، أو هم يحتضرون ، من جرّاء الكزاز ، أو بفعل رصاصة قضت على حياتهم ، أو من الجوع فحسب . و كان يتعذّر عليّ الاستمرار في تحمّل هذه الحياة لو لم أكن أومن بالقيامة . إنّ الحبّ أقوى من الموت، و سترين ابنك من جديد ، يا جارتي ، كما أَعلم أَنّني سأرى من جديد أمّي و كلّ الأَشخاص الذين أَحببتهم .

بانتظار ذلك ، كان لا بدّ من القضاء على الكزاز ، الذي كان يقتل ، في تلك الحقبة ، أربعة أَطفال من أصل عشرة ، في سنتهم الأولى . كانوا يدفنون في ركنٍ من باحة الخنازير ، فالمقبرة غالية الأَكلاف ، و يقتضي اللجوء إليها وثائق هويّة كان جامعو النفايات يفتقرون إليها.

غير أنّني عنيدة ، و إذا ما ابتغيت أمراً لا بدّ من حصولي عليه . و سرعان ما عثرتُ على طبيبة ارتضت أن تقدّم ، مرّة في الأسبوع ، استشارات في قرية الصفيح . ثمّ شرعتُ أدوّن ، بانتظام ، على دفتر، ثبتاً بالأُسر و حاجاتها الأَساسيّة : حاجات الأولاد ، و المسنّين ، و النساء الحوامل ، و النساء اللواتي يتعرَّضن للضرب، و الأَمراض ، إلخ ...

وفي غضون سنة كنت قد زرت الأربعة آلاف شخصاً الذين كانوا يعيشون في عزبة النخيل ، و أدركت ما يمثّله الحشيش الذي يدخّنه معظم الرجال من معضلة، وكذلك " الكحول الحمراء " التي يشربونها ، و هي مزيج رديء من كوكاكولا وبترول إشعال . و لكن كيف لي أن ألومهم ؟ و ما الوسلية إلى منع رجال يعيشون في مثل تلك الظروف المريعة من محاولة الانعتاق منها ؟ هنا أَيضاً ، كان وقر عجزي يرين عليّ ، و هو شعور رهيب لمن ، مثلي ، يعيش و يحقّق ذاته من خلال العمل . فأنا لا أستطيع إلاّ أَن أَهجم . هكذا خلقت ، و أودّ أَحياناً أن أُعتَق من هالة المرأة التي تحقّق المعجزات التي أُلصِقت بي . ليس لي في الأَمر أَيّ فضل ، فالحاجة إلى العمل جزء من طبيعتي ، و قد يتّفق لي أن أنتشي بخمرة العمل . ففي عام 1990 ، إثر تدخّلي لدى حكومة الخرطوم الذي أدّى إلى إنقاذ سبعة آلاف طفل سودانيّ من الموت ، كنت قد زرتُ الأب بيير ، و أَنا مزهوّة بما فعلت ، فقال لي بصوته البالغ العذوبة : " و ماذا عن الآخرين ، أيَّتها الأخت إيمّانويل ؟ أَليس ، على البسيطة ، سوى سبعة آلاف طفل يتعيّن إِنقاذهم ؟ و ماذا ستفعلين لمن نعجز عن إِنقاذهم ؟ " لن أنسى أبداً قوله . هو كان

يتحدّث عن بؤس العالم ، و أَنا كنت أَتحدّث عن بضعة أولاد . تلك الكلمات كانت لي درساً كبيراً .

أعوان : " تسّومه سارة "

طيلة ثلاث أو أَربع سنوات عملتُ ، في الواقع ، و حيدة . ففي مصر ، كما هو الأَمر في بلدان أُخرى من العالم الثالث ، – و قد شهدتُ ذلك على نطاق أوسع في الفيليبين – هوّة سحيقة تفصل بين الأَغنياء و الفقراء . و كنت قد تبيّنت ذلك ، أوّلاً في الإِسكندريّة ، حيث لم تكن طالباتي يجدنَ حرجاً في أَن يحمل لهنّ خدّام صغار حقيبتهنّ اليدويّة . إنّ لفظة " زبّالين"،وحدها ، تعني النجاسة ، و الزبّالون أَنفسهم كانوا يخجلون من مهنتهم ؛ و من ثمّ شق عليّ ، بادئ الأمر ، أن أحمل الآخرين على الانضمام إليّ . فكثيرون من المصريّين كانوا يؤثرون تجاهل ما يجري في كواليس عاصمتهم . أَمّا راهبات جمعيّتي الأخريات فكنّ يعددن ما أقوم به " هامشيّاً " جدّاً ، بالقياس إلى دعوة الجمعيَّة المتمركزة على التعليم . فضلاً عن أنّ

أزمة الدعوات كانت تضع جميع الأخوات في موضع استنفار ، لمواصلة النشاطات التي كنّا قد أطلقناها .

ثمّ ، شيئاً فشيئاً ، انضمّ إليّ أَطبّاء ، و طلاّب ، و لا سيّما طلاّب الآباء اليسوعيّين ، و عكفوا على تعليم الفتيان لعب كرة القدم ، و على محو الأميّة ، و على تلقين حدٍّ أدنى من النظافة ، الخ ... غير أنّ الانعطاف الكبير حدث عام 1977 ، عندماعرفت الأختُ ساره ؛ و هي ابنة ملاّك سابق ، تخفق فيها روح اجتماعيّة ، –ومثل هذه الحالات توجد أَحياناً – . لقد كانت رئيسة راهبات " ناشطات "،" بنات مريم" ،اللواتي ولدت جمعيّتهن ، حديثاً ، في أحضان الكنيسة القبطيّة الأرثوذكسيّة ، التي ما عهدت من قبل سوى الراهبات الحبيسات ، و كان مؤسسهنّ المطران أَثناسيوس ، أسقف بني سويف .

و ما إِن تنامى إِلى علمي وجود جمعيّة هؤلاء الراهبات الجديدات حتّى استقللت حافلة إِلى بني سويف ، التي تبعد عن القاهرة نحو مئتي كيلومتر جنوباً .

عند باب الدير المشرع ، قابلتني أَناشيد فرحة ، و رحّبت بي ، بلغة فرنسيّة ممتازة ، راهبة كانت راكعة تغسل أَدراج الدير بهمةّ و عناية ، فبادرتها بالقول :

– أَودّ التحدّث إِلى الرئيسة

– أنا الرئيسة

و جال بخاطري : " رئيسة تغسل الأَدراج بنفسها . إِنّه لفأل طيّب " . و منذ تلك اللحظة انعقدت بيني و بين " تسّوني ساره " علاقة خصبة ، ما زادتها الأَيّام إِلاّ رسوخاً .

ولدت الأخت ساره عام 1946 في قرية المنية بصعيد مصر ، التي تبعد نحو 250 كيلومتراً جنوبيّ القاهرة ؛ و إِذ تمّ مولدها قَبيْل رأس السنة دُعيت " تهاني " . والدها من أُسرة ملاّكين موسرين ، و كان بيت جدّها يحتوي على خمسين غرفة . أَمّا والدتها فامرأة متميّزة ، تثقّفت في مدارس فرنسّية ، و قد التزمت بمبدأ وجوب إِطعام كلّ فقير يقرع باب بيتها ، قائلة " إِنّه يسوع يمرّ ببيتنا . "

و من تقاليد الأسرة الحيّة : بُعد النظر ، و التسامح ، و احترام الآخرين ؛ فقد بنى جدّها في قريته كنيسةً و جامعاً .

و تعلّمت " تهاني " ، هي أَيضاً في مدراس فرنسيّة ، و حرصت والدتها على تحريرها من وهم أَنّها أَميرة ، فمع وجود طائفة من الخدم في البيت ، كانت تدعوها إِلى غسل الأَواني و الثياب بنفسها ، و قد رسّخ فيها ذلك حبّ التواضع والمتواضعين. و أَثناء مراهقتها كانت " تهاني " تختلف إِلى القرى المجاورة كي تلاعب الصغار ، و تعلّمهم الغناء .

و بعد أن ظفرت بإجازة في التجارة ، أنهت " تهاني " دروساً في التمريض لدى أخوات القدّيس يوسف في ليون بفرنسا ، ثمّ درّست اللغة الفرنسيّة طيلة أربع سنوات في مسقط رأسها . و كانت تراودها ، منذ زمن ، دعوة رهبانيّة ؛ غير أنّها لم تكن راغبة في أن تكون راهبة متأمّلة فحسب ، بل كانت راغبة في الخدمة ، و في قرن الصلاة بالعمل .

و لم يكن ذلك متوفّراً ، فالراهبات القبطيّات ، منذ القديم ، كنّ دائماً متأمّلات لا يبارحنَ حصنَ ديرهنّ . بيد أنّ المطران أثناسيوس ، أُسقف بني سويف ، قد ابتدع تغييراً جوهريّاً ، عام 1966 ، بتأسيسه جمعيّة بنات مريم ، و هدفها العمل وسط الشعب ، و من أجل الشعب ، و معالجة الحالات العسيرة على نحوٍ خاصّ .

و لمّا علمت " تهاني " بوجود تلك الجمعيّة ، رغبت في الانضمام إليها ، ممّا أثار سخط والدها، فهو لم يكن ليرضى برؤية راهبة تجوب الشوارع . و إزاء إصرارها هدّدها بمسدّس ، معلناَ إيثاره موتها على رؤيتها راهبةً من هذا النمط المنكر ، و لكنّها أكّدت أن لا شيء يثنيها عن عزمها ، فاستسلم والدها أخيراً ؛ وانضوت هي ، أخيراً ، تحت لواء " بنات مريم " حيث اختارت اسم " ساره " ، و ما لبثت أن توسَّعت الجمعيّة و تفرّغت و تعدّدت مشاريعها ، و أمست " تسّوني ساره " رئيسة عامّة عليها .

و بعد أن ظفرت الأخت سارة ببركة أسقفها ، جاءت فقاسمتني كوخي في "عزبة النخيل ". و هي تمتاز عنّي بكونها أصغر منّي سنّاً ، فضلاً عن كونها مصريّة. لقد كانت هديّة ثمينة منّت بها عليّ العناية الإلهيّة ، و منذ ظفرت بها ، لم نفترق يوماً . لقد أصبحتْ خليفتي ، و جمعيّتها ، بنات مريم ، هي التي تعنى بجميع المؤسّسات التي أسهمتُ في إنشائها في مصر .

" ساره " شخصيّة فذّة . إنّها تجسّد الفقر المطلق في خدمة الأشدّ فقراً .

إنّها لا تتناول اللحم لأنّه غالٍ ، أمّا الأحذية ، فتحتفظ بالبالي منها إلى أن تُقدَّم لها أحذية جديدة . لقد اختارت بذل شخصها و حياتها بالكامل في سبيل جامعي النفايات ؛ فمذ رأت أولئك الأولاد ، و ذلك البؤس ، انجذبت ، حقّاً ، نحوهم .

إنّها رمزٌ لفرح الحياة ، و حبّ الآخرين ، و التفاني المطلق .

و هي تمتلك حسّاً مرهفاً بالاقتصاد . فذات يوم ، و كنّا ، معاً ، نقوم بجولة في الولايات المتّحدة ، قالت لي : " عوضاً عن المضيّ إلى مطعم ، فلنكتفِ بسندويش، و لنحتفظ بأكبر قدرٍ من الدولارات لجامعي النفايات . و في اليوم التالي ، كان المطر ينهمر مدراراً ، و بُلّلنا بعمق ، فاقترحتُ أن نستقلّ سيّارة تكسي ، فاعترضتْ: " لا مبرّر لذلك ، فلو مشينا قليلاً ، لالتقطنا حافلة توصلنا إلى هدفنا " . ولا بدْع ، بالتالي ، إن أوكلتُ إليها الصندوق .

و هي ، بالإِضافة إِلى ذلك ، تتمتّع بحكمٍ صائب يحيمها ، و يحميني معها ، أَحياناً ، من خداع الآخرين . و هي تتقن الطهو الذي لا أتقنه ؛ ففي غيابها كلّ ما أُجيد صنعه هو حساءٌ خاصّ بي ، قوامه الماء و الخبز و الزيت و الملح ...

في الليل ، عندما أَسمع تنفّسها المنتظم من خلال الطاقة المشرعة في الجدار الذي يفصل بيننا ، يطمئنّ قلبي و يتهلّل ، فقد أَمس المستقبل مضموناً .

معايشة

ها أَنذا مثل عروس : كوخ و قلب ، و ها أَنذا أَحلم بشبابي .

فلنجمع شمل أَبنائنا . و لذلك أَطوف بالبيوت و أَقرع أَبوابها واحداً فواحداً . جرجس الصغير يبتسم لي، فأَسأله : " هل تودّ أَن تأتي للّعب صباحاً ؟ " ، و لأخته مريم ، و هي أكبر منه أقول : " و أَنتِ ، أتودّين تعلّم القراءة و الخياطة بعد الظهر ؟"

غالباً ما يقدّمون لي كوباً من الشاي ، فأَجلس أَرضاً و نتحدّث . شعب بسيط قلبه على يده . كان أَصدقاء قد حذّروني : " لم يجازف ، بعد ، أَحدٌ بنفسه لدى هؤلاء القوم : إنّهم لصوصٌ و قتلة " . و رددت على تحذيرهم : " أوه ! سنرى ؛ قد تذرفون دمعة على قبري " . إِنّني أَظنُّ أَنّني سأَنجو من الاستشهاد . و سيكون ذلك مؤسفاً ، فلطالما حلمت في صباي بأن أكون عذراء و شهيدة :

و لحق بي ولدٌ متأَلّق العينين ، فقلت :

– " ما اسمك ؟

– محمّد .

– مرحى محمّد ، هل تريد أنت أَيضاً أَن تأتي فتلعب معي ؟

و رمقتني والدته بدهشة و قالت :

- " نحن مسلمون .

- ألسنا جميعنا أبناء الله الواحد ؟

- ربّنا واحد . "

وامتدّت قائمة الأسماء في دفتري . فكيف لي أن أكدّس كلّ هؤلاء في الممرّ الضيّق ؟ غير أنّ عدم الانتظام تامّ . و لن يجتمعوا كلّهم ، في يوم واحد ، أبداً .

- " محمود ، لمَ لم تحضر أمس ؟

- لقد ذهبت مع والدي لجمع القمامة .

- و أنتِ ، يا منى ؟

- احتاجت إليّ والدتي من أجل جرّ العربة . "

داود ، ابن السادسة ، يؤثر القتال وسط القمامة . و قد جاءني مشدوخ الجبين، فعالجته ،

و سألته : " ماذا فعلت أيضاً ؟ " . في جيشان غضبه أجاب : " إنّه دودا ، ولكنّني سأحطّم وجهه "

- " جميل هذا : تحطيم وجه رفيقك ؟ "

و انتظرت الوجه المحطّم ، و لكنّه لم يحضر .

أكثر ما يخيفني الأقدام المشدوخة بقطع الزجاج المكسور : عندما يضعون تحت أنفي أقداماً سوّدتها القذارة ، أقول : " إمضِ ، أوّلاً ، إلى المضخّة ، فلست أقوى حتّى على رؤية الجرح . و تعود الأقدام فإذا بوسطها شرخ كبير ، و أُنذر : " إنّك معرّض للكزاز . فامضِ فوراً و خذ مصلاً مضادّاً ، فوراً ، اليوم ، و لا تنتظر إلى الغد ! "

و سرعان ما أصبحت واحدةً منهم . إنّني أعلم أنّ الرجال سريعون في شهر السكاكين . أمّا الآن ، فإن تظاهر أحد بمسّي ، تُشهر مدًى عديدة دفاعاً عنّي .

أختنا

منذ أشهر أَقاسم الزبّالين حياتهم . و سئلت : " أَخبرينا ، يا أُختاه ، ما هي الثمار التي جنيتها ؟ هل استطعتِ تغيير أيِّ شيء ؟ " و بصراحة أجبت :

– " كلاّ ،لم أَتوصّل إلى أيّة نتيجة تذكر

– " ألا يثبّط ذلك عزائمك ؟

– " بلى ، أحياناً ، و لكن في نهاية الشوط ، كلاّ "

و يحدّقون بي ، دهِشين ، و في محاولة لفهم ذاتي أتابع :

– " أترون : إنّني هنا لكي أُشارك و أحبّ . لديّ مثال : المسيح . فما الذي فعله أثناء حياته ؟

– " و هل يظهرون لك عرفاناً بالجميل ؟

– " أجل ، و لكن ليس لذلك شأن . " و أتابع ضاحكة : " ثمّ ، كما ترون ، لم يقتلوني بعد "

بعدئذٍ أعملت الفكر و اتّضح لي أنّ جوهر المشكل هو أنّ الناس يحتاجون ، قبل كلّ شيء ، إلى أن يكونوا محبوبين ، كما هم : بجمالهم أو ببشاعتهم ، بغناهم أو بفقرهم ، بطيبهم

أو بخبثهم ، باستقامتهم أو بلصوصيّتهم . و إنّني لقادرة على حبّهم ، و في الواقع هذا ما يتوقّعونه منّي ؛ و سرعان ما لمست ، على ذلك ، الدليل :شنودا فتى في الثامنة عشرة ؛ يمضي ، مع الفجر، بعربته المهتزّة ، و حماره المطيع ، لجمع النفايات . يومها سار في حديقة ديرٍ أَلِف ارتياده كلّ يوم ، مستقيم المشية ، ثابت القدم ؛ و بادرته راهبة اعتادت رؤيته يمرّ كلّ يوم ، بملاحظتها :

– " صباح الخير يا شنودا ، كيف حالك ؟ كم يسرّني أن أراك اليوم باشّ الأسارير ، واقفاً وقفة رجل ، على خلاف عادتك عندما تكون مطأطئ الرأس ، بادي الخجل . مرحى لك ! "

و سارع شنودا إلى الردّ :

– " آه ! أتدرين أيّ تغيير حدث عندنا ؟ " ثمّ أضاف ، و قد أشرق وجهه :

– " نحن أيضاً لدينا أُختنا الراهبة . أجل إنّها تقيم معنا ، و هي أُختنا . "

لقد أكدّت نبرته على الكلمتين الأخيرتين ، و مضى ، و هو يصفر ، سعادةً .

عندما بلّغت بهذا الحادث الذي قد يبدو لكم سخيفاً ، ازدحمت الدموع في مآقيّ.

لا ، لست أهدر وقتي طالما أمسى الفتيان يصفرون سعداء ، شامخي الهامة .

الف ، باء ، تاء ، ثاء

يحزنني أنّ من أَصدقائي البالغ عددهم ثلاثة آلاف ، قد لا يكون من يعرف القراءة و الكتابة ، و لا تفلح في اجتذابهم كلّ محاولات الحكومة من دروس مجّانيّة ، و شهادات ، و مكافآت .

و فيما أنا أكافح ، ملاحقة الأَهالي كي يسجّلوا من بلغ السادسة ، من أبنائهم ، في أقرب مدرسة ، أُهيب بالرجال ، عبر الأَزقّة :

– يا موريس

– أيوه ؟

– ألا ترغب في تعلّم القراءة ؟

– و ما جدوى ذلك ؟

– سيجعل ذلك منك رجلاً .

يضحك ، فأُلحّ :

– سيجعل منك رجلاً فخوراً بنفسه "

يفكّر قليلاً ، ثمّ يستوضح :

– " هل ستباشرين الدروس ؟

– أَجل ، مساءً ، مع الأستاذ علي – هل ستأتي ؟

– سنرى "

أخيراً تمكّنت من تسجيل أَربعين رجلاً ، باشر منهم ثلاثون الدروس ، وتابعها عشرة . قد تقولون " إنّهم كسالى " و لكن حذارِ من مهاجمة أصدقائي . أَنا لا أُشهر مدْية ، و لكنّني أعرف كيف أَذود عنهم .

ثمّ ، قل لي يا عزيزي القارئ ، في أيّة ساعة تستيقظ صباحاً ؟ هنا ، أَنا أسمع العربات تتحرّك منذ الساعة الرابعة . و مدى كم ساعة تسير أنت تحت الشمس؟ و لنتفاهم : أنا لا أتحدّث عن شمس فرانسا و نافارا المعتلّة ، بل عن شمسنا نحن ، الأفريقيّين ، الشمس الحقيقيّة القادرة على صرع رجل ، و لا سيّما من الأوروبيّين الذين يتصدّون لها كأبطالٍ باسلين ، قد تصرعهم أَحياناً في غضون ساعة واحدة .

تفهمون ، إِذن ، أنَّ زبّالينا الطيّبين عندما يحاولون ، في المساء ، أن يدوّنوا ، بمشقّة : ألف ، باء ، تاء ، ثاء ، إنّما هم متفوّقون ؛ إنّهم " سوبرمان " كما يقال اليوم، فقد ساروا تحت الشمس حتّى الثالثة أو الرابعة بعد الظهر . أمّا الآخرون الذين ليسوا أبطالاً (و هل سأكون أنا أو هل ستكونون أنتم أبطالاً لو كنتم مكانهم ؟) فهم يؤثرون ارتياد المقهى عند ناصية الحارة ... أمّا ما يفعلونه هناك فهذه قصّة أُخرى ، قصّة حزينة .

عندما أَلمحهم ، إذن ، جالسين على المقاعد القديمة يتثاءبون و هم يجتهدون في تدوين حروفهم ، أَرمقهم بحبّ و إِعجاب ، مثل أمّ ترقب ابنها و هو يدبّج أطروحة الدكتورا . و بين فينة و فينة يتنهّد أَحدهم و يرفع رأسه ، و تتلاقى أَنظارنا، فيبتسم ، و يعود يدوّن : ألف ، باء ، تاء ، ثاء ...

" هاو آريو ؟ "

الرجال العشرة الذين يتابعون دروس محو الأمّيَّة طلبوا منّي يوماً : " علّمينا الإنكليزيّة أَيضاً "

– موافقة و لكن بعد أَن تتقنوا القراءة و الكتابة بالعربيّة

و لكنّهم يلحّون :

– لا ، بل أَعطينا درساً و لو لمدّة نصف ساعة بعد درس اللغة العربيّة .

و عثرت على كتيّب إنكليزيّ مع ترجمة و طريقة اللفظ بالعربيّة . و باشرنا . كان الأمر شاقّاً غير أنّ حسن النيَّة متوفّر : " وان ، تو ، ثري ، فور ، فايف ، سيكس " نكرّرها بعناد إلى أَن تترسَّخ . و بات علينا تلقّن بضع عبارات : " هاو آريو؟ – فيري ويل ، ثانك يو " . لقد استطارهم ذلك فرحاً .

عندما أَلتقي أَحدهم عبر الأَزقّة ، يندفع نحوي ، و يمدّ لي يده هاتفاً : "هاوآريو ؟ " و يحدّق الزبّالون الطيّبون برفيقهم بإعجاب ، و يهمسون : " بيتكلّم إِنكليزي " ! و يضحك صاحبنا ملء شدقيه : فهو ملمّ بلغةٍ أَجنبيّة .

و تبلغ سعادتهم ذروتها عندما أَلتقي ، صدفة ، عربتهم الصغيرة ، في أَحد شوارع القاهرة ، فيهتفون محيّين ، فيما أَلوّح لهم بإشارة صداقة . و لكنَّهم ، أَحياناً ، يوقفون ، فجأة ،

حمارهم ، و يهبطون عن عربتهم كي يصافحوني . و يلقون ، حينئذٍ، نظرة اعتزاز ، يمنةً و يساراً :

لا ، لم يعُد الجميع يزدرونَهم .

كم يكفي القليل لمساعدة إنسان على استعادة كرامته : مصافحة ، و ثلاثة ألفاظ إنكليزيَّة : " هاو آريو ؟ " ، و حينئذٍ يتجسَّد الجواب المبتذل : " فيري ويل ، ثانك يو " و يمسي واقعاً ماثلاً : بغتةً بات الرجل يشعر أنَّه " على أحسن حال ... شكراً ! " .

<u>الله محبَّة</u>

المكان الذين نتكدّس فيه قد أمسى ، حقًّا ، خانقاً و لا بدَّ من توسيعه ، بيد أنَّ المشكلة، شائكة فالخنازير تحتاج ، هي أيضاً ، إلى مجال حيويّ .

بعد مفاوضات مستفيضة ، و البحث ، عبثاً ، عن مكانٍ آخر ، نُصِحت بالتوسيع من جهةٍ الزقاق . حسن ، و لكن مع تراكم الأقذار في وسطه ، كيف يمكن للعربة الصغيرة أن تمرّ ؟

قد قيس المكان بدقّة و اتّضح أنَّ الأمر ممكن . و أبدى الجيران الكثير من الليونة و لم يعترضوا ، و ما عاد علينا سوى الشروع بالبناء . و الأمر غاية في البساطة ، فمشكلة الموادّ ، لدينا مبسّطة : تُحدَث في الأرض حفرة ، و يُلقى فيها ماء فيُمزَج القشّ بالتراب ، و يُشاد الجدار بالأصابع العشر . علامَ ، إذن ، الصفيح العتيق في كلّ مكان ؟ ذلك أنَّ زبّالينا قوم حذرون ، و يرغبون في نقل بيوتهم على ظهر حمارهم إذا ما أُرغموا ، يوماً ، على الرحيل . و حينئذٍ تُنزع المسامير ، و تُستعاد الجدران ، و يمضون كما أتوا . هذا ما يسمّونه ، في أوربا ، مسبق الصنع . أما هنا فقد اخترعوه منذ عهد بعيد .

أما السقف فليس بأكثر تعقيداً ، إذ تكفي له بضعة قضبان قصب تغطّيها أغصان نخيل جافّة .

و ماذا يحدث عندما يحين الشتاء ؟ إنّ الأمر في منتهى البساطة ، و يتمثّل في مدّ قماش مشمّع فوق كلّ ذلك ، و تثبيت أطرافه بحجار ...

لم يعد قصرنا الجديد يفتقر سوى إلى الباب و النوافذ . و يأتي النجّار فنعقد إتّفاقاً معه .

و طُليت الجدران بلونٍ زهريٍّ فاتح ، ممّا أسبغ على المكان مظهراً يكاد يكون أنيقاً . و بين الجدران شُدَّت خيوط عليها ملاقط غسيل كي تستقرّ عليها تُحف طلاّبنا الذين يرسمون ، و يلوّنون ، و يطرّزون و يأتون بأنفسهم فيعلّقون تحفهم ...

انتظرنا الباب طويلاً ، و ها هو ، أخيراً ، و هوذا نجّاره زكريّا يعرض لي تحفته : لقد اقتطع صليباً و هلالاً و دمجهما ، كما أنّه اصطنع أحرفاً خشبيّة أثبتها تحتهما بعناية ، و صاغ منها عبارة " **اللّه محبّة** " . و رمقني زكريّا بطرف عينه ، وكنت من شدّة السرور بحيث كدت أقفز على عنقه و أُقبّله ؛ و لكن فلنضبط اندفاعنا، لكيلا نشكّك الجمهور !

هذا المسلم البسيط القلب قد أدرك ، تلقائيّاً ، سبب وجودي هنا : لمجرّد تذكير زبّالينا ، مسيحيّين و مسلمين ، أنَّ اللّه محبَّة . أجل ، إنَّ اللّه يحبّهم بما أنّني ، أنا ، الكائن المسكين المصنوع من نفس الصلصال الذي صيغوا به ، تقطنني نفحة الحبّ تلك التي تحملني على بذل حياتي طوعاً لكي أُطوِّر حياتهم . و أنا أعرف جيّداً ذاك الذي جاء بتلك النار إلى الأرض ، و كلَّ يوم أقصد هذا النبع المضطرم لكي أُذكي الشعلة التي تمتلكني .

غالباً ما تفضي جهودي في سبيل تقدّمهم إلى الإخفاق ؛ و لكن إن لم يخلّف مروري فيما بينهم سوى هذه الذكرى : أنّ " اللّه محبّة " ، فلن يكون ذلك المرور نافلاً ، إذ أكون قد أودعت بين أقذار القمامة بذرة إلهيّة ، و من خلال الموت ستزدهر الحياة .

رسالة ميلاد 1972

(إلى المتبرّعين بمساعدات لمشاريع الأخت إِيمّانويل)

أَصدقائي الأَعزّاء ،

عيد الميلاد يقترب و يدعوني إلى المبادرة لتبليغكم تمنّيات أَصدقائنا جامعي القمامة . إنّهم عاجزون عن إِرسال بطاقة جميلة ، إذ لا يمتلكون سوى الفرح الذي يتألّق في عيونهم، و هم يذكرون الأصدقاء البعيدين المهتمّين بهم ، الذين أحدّثهم عنهم.

إِعطاء الفرح ، أَليس هذا ما يسعى كلٌّ منّا إلى تحقيقه ، و لا سيّما في أَيّام الميلاد هذه ؟ و إنّني لمذهولة و أَنا أرى يديّ تمتلئان من أَجل نشر الفرح . فثمّة ، أَوّلاً ، الممرّ الضيّق الذي كان يتكدّس فيه الصغار و الكبار ، و الذي أَخذ يتحوّل إلى ردهة فسيحة مضيئة .

سيأتي الصغار ، صباحاً ، لكي يمرحوا حيث تنتظرهم دُمىً من جميع الاحجام ، و ألعاب تـــثــقيفيّة ، و مكعّبات ملوّنة مع أحرف و أرقام عربيّة ، و لآلئ يتعيَّن نظمها ، و عجين يتعيَّن تكييفه أَشكالاً ، و أقلام ملوّنة ، و آنية أَصبغة ، و حتّى دبٌّ من قماش مخمليّ .

بفضل دورة ممتازة للإشراف على روضة أطفال ، تمرّستُ من التدريب ، واستطعت الظفر بالموادّ اللازمة ، التي ستساعد أولئك الصغار المتخلّفين عقليّاً على ولوج عالم آخر غير عالم القمامة و الخنازير ، يعدّهم للمدرسة .

و بعد الظهر تظفر الفتيات بمجالٍ رحب ، و بتأهيل أَفضل ، لتعلّم القراءة والخياطة... ثمّ يتعلَّمن مبادئ التفصيل مع استخدام آلة الخياطة ، و هو حلم كلٍّ منهنّ. و يبقى

إعدادهنّ لتربية الأطفال و أَعمال الإِغاثة . و لكن " بشويش بشويش "، رويداً رويداً . لقد ساعدتني مؤسّسة كاريتاس مصر على النهوض بهذا التحقيق المصغّر .

عزائي الأعظم ، هذه السنة ، يكمن في رؤية نحو ثلاثين ولداً يقصدون المدرسة جَذِلين ، متأبّطين كيساً صغيراً من القماش يحتوي دفاتر و كتباً . مثل ذلك لم يُشاهد قطّ لدى جامعي القمامة و لكنّ الوالدين ، اليوم ، فخورون . فقد قالت لي امرأة، بتأثّر جمّ : " أَتعلمين أَنَّ ابنتي ثريّا باتت تعرف كتابة اسمها ؟ " . يوم استطاعت ، أخيراً ، المضيّ إلى المدرسة ، قابضة في يدها على الوثائق الضروريّة، كان منظراً رائعاً رؤية ثريّا تتوثّب من ورائها ، مشرقة المحيّا ؛ لقد كان قلبها الصغير يشعر ، على نحوٍ مبهم ، أنّها تخطو خطوتها الأولى نحو حياة جديدة .

هؤلاء الصغار سيأتون في المساء لمراجعة دروسهم بإشراف معلّم . و سيقوم مصباح كبير و مقاعد و مناضد خشبيّة مقام الشمعة النائسة و الأرض الرطبة في أكواخهم. ثمّ سيَدعون المكان للرجال الراغبين ، هم أَيضاً ، في تعلّم القراءة والكتابة، بفضل دروس شابّ طالب في جامعة الأَزهر الإسلاميَّة ، الأستاذ علي .

المساء هو الوقت المناسب لزيارة الأُسَر . نجلس أرضاً ، حول شمعة ، ويأخذ أولئك القوم البسطاء بسرد حياتهم الشاقّة بما يملؤها من أَحزان و حداد : " آه ! لو إننا استجبنا لرغبتك في ما يخصّ مريم ، لذهبت إلى المدرسة ، و لما وقعت من العربة و دهستها سيّارة . " و يخيّم السكوت ، و تنتحب الأُمّ في صمت على كتفي : "ينبغي أَن نغادر هذا المكان ، و لكن يتحتّم علينا أوّلاً أَن نجد عملاً في مكان آخر " .

عند لويس نتجاذب أَطراف الحديث : " كم سيكارة تدخّن يوميّاً ، يا لويس ؟ " – " علبتان " .

و لكنَّ زوجته الشابّة تقاطعه : " بل ثلاث " – " أَليس ذلك مفرطاً ؟ "

–"صحيح ، ولكن عيشنا بين الأَقذار منذ الصبح حتّى المساء شاقٌ جدّاً ، و أَنا أدخّن كي أروّح عن نفسي ".

و إِن كان من أزورهم مسيحيّين نشترك معاً في تأمّل إنجيليّ : و لطالما تعلّمت منهم ، و أَنا أسمعهم يتحدّثون ، أَحياناً ، بعمق بليغ ، عن رسالة المسيح ، الذي أَقول معه : " أمجّدك ، يا أبتاه ، لأنّك أَخفيت ذلك عن الحكماء و العلماء ، وأعلنته للصغار ." إنّهم يمتلكون كنزاً : حكمة اللّه . لم تكن أمّ مجدي تمتلك ، يوماً ، سوى عشرة قروش ، عندما زارت يتيمة ؛ فقالت في نفسها : إنّها أعمق منّي فقراً ، و أَعطتها كلّ ما كانت تملك ؛ و باتت ، ذلك اليوم ، على الطوى . أليس هذا هو عيش الإِنجيل حرفيّاً ؟

و أَيّ درس في الشجاعة لقَّنتني الطبيبة الشابّة التي تأتينا مرَّة في الأسبوع ، بعد الظهر ، إثر فراغها من عملها في المستشفى ، كي تعالج النساء و الصغار ! فذات يوم من خمسينيّة الصيف حيث كان الحرّ خانقاً ، لم أَنتظر قدومها . و لكنّها ظهرت ، بغتةً ، و سارعت بالجلوس لكيلا تقع ، فعاتبتها :

– لمَ أَتيتِ ، يا ميمي ، تحت هذه الشمس الحارقة ؟

– لقد شئت دائماً أن أردّ للراهبات اللائي ربَّينني كلّ الخير الذي أَغدقنه عليّ. أَليس هذا هو تجسيد ما علَّمنني ؟ " ...

الفرح الكامل

مذ شرعت أُقاسم حياة قرية الصفيح ، اكتسبت خبرة تبدو لي مدهشة : فقد فقدت " الامتلاك " ، و اكتسبت " الكينونة " ، و مع أنّ الأَمر يبدو مفارقة ، مذّاك ، أَخذتُ أَغتني .

قد يرثي لي بعضهم من جرّاء إِملاقي ، ذلك لأَنّهم لم يدركوا الحقيقة . فالعيش على هذا النحو ، ليلَ نهار ، في مشاركة مع الأَكثر حرماناً يؤتي نوعاً من إِشعاع الفرح الكامل ، الفرح الذي كان القدّيس فرنسيس الأَسّيزي يتذوّقه .

و قد وسمتني ، في العمق ، خبرة داخليّة في إِحدى ليالي صيف 1972 ، جعلتني أَكتشف الحرمان المطلق الحقيقيّ ، و الإِستسلام التامّ بين ذراعي الربّ .

كنت عائدة من سهرة صلاة ، و قد أَنهكني الحرّ و الظمأ ، و غشتني البراغيث . كان قيظٌ لا يطاق يسود في كوخي ، فالتمست ، في جرّتي ، بلغة ماء ، ولكنّها كانت فارغة تماماً ، و كانت المضخّة معطّلة ، و لم أَكن لأوقظ جيراني في منتصف الليل ، طلباً لكوب ماء ، و شعرت بهمّتي تتردّى ، و بالثورة تجيش في داخلي ... و أَنحيت بالائمة على اللّه ، و كأَنّه هو المسؤول عمّا أُعاني .

" إِنّك تغالي ، يا ربّ ، فقد أَحتمل القيظ و القذارة ، و البراغيث ، و لكن هل عليّ أَن أُحرم حتّى قطرة الماء ، قطرة واحدة يا ربّ ! "

و استلقيت ، ساخطة ، على فراشي ، و لكن لم أَجد إِلى النوم سبيلاً . و ما حدث حينئذٍ لم أَقوَ أَبداً على الإِلمام به . فقد انتقلت بغتة ، و في طرفة عين ، من وضع السخط إِلى حالة من الغبطة : و استرخى جسمي ، و غمرني فرح لم أَعرف له قطّ مثيلاً . جذل رائع كان يغشى كلّ كياني ، بل كان يحملني مثل سفينة و يدفعني نحو أَعالي البحار و هو يؤرجحني برقّة .

– و بدا لي أَنّ قلبي العجوز ، ذلك البرميل الذي لا يمتلئ أَبداً ، قد تحرّر بغتةً من عبء رغباتي المتجدّدة باستمرار ، و غمره ، فجأة ، فرح رائع . لقد كان نبع الماء الحيّ الذي وعد به المسيح يتفجّر منه بغزارة ، و بعد أَن كنت أَفتقر إِلى كلّ شيء ، وجدت كلّ شيء –

كلٌّ منا يكتشف درب تحريره بطريقته . فتلك المرأة ، ربّة الأُسرة ، أسرّت لي أنّها وجدته وسط سرداب من المصاعب التي تغلَّبت عليها بفضل الحبّ . و رجل الأعمال ذاك وجده بالقرب من اثنين من عمّاله أصبحا له ، فجأة ، أخوين . فلتقدنا دائماً نجمة الميلاد أكثر فأكثر نحو هذه اللقاءات الرائعة حيث يجتاحنا الفرح الذي لا يوصف ، النابع من اللّه : فرح المشاركة مع إخوتنا البشر .

لم يقطفوا قطّ ، من قبل ، زهرة

" اليوم ، يا صغاري ، سنمضي في نزهة ، و سنقطف زهوراً " . و تعالت صيحات فرح تلامس الهذيان ، و تدافع سرب عصافيري ، في فوضى ، نحو الباب المتداعي ، و جميعهم يحاولون الخروج في آنٍ معاً ، بحيث كاد جدار اللبن ينهار . ورمقني إِسحق ، المراقب ، شزْراً ، بنظرة عتاب ، و اندفع بدوره ، يصفع هذا ويصفع ذاك ، و يجأر لكي يسمعه الجميع : " إِهدأ يا روماني . و أنتِ ، يا هدى ، ان استمررت على هذا النحو لن تأتي معنا . لا تتقاتلا يا داود و جرجس . إجلسوا جميعكم في أماكنكم " . و استعاد الصغار ، مرتبكين ، أَماكنهم على مقاعدهم الصغيرة .

كان إِسحق محقّاً ، و كان عليّ ، منذ البدء ، أَن أنذر الأولاد بأنّنا لن نصطحب سوى العاقلين منهم . فأمرناهم بكتف أَيديهم ، تفادياً لتلاكم المتجاورين ... ثمّ خرجوا ، مقعداً فمقعداً ...

و سلم الباب .

هاهم الآن يجرون عبر الدروب ، تفصلهم مسافات قصيرة لكيلا يتنازعوا على قطف نفس الزهرة . لقد استطارهم الفرح ، و بات لكلٍّ منهم حفنة زهور يضمّها إلى قلبه . و تحلّقوا على الأرض ، أزهارهم في أيديهم ، فسألتهم :

– " أَليست جميلة الزهور يا صغاري ؟

– بلى يا أبلتي " . لقد جأروا بأَعلى أَصواتهم بجوابهم المفعم اقتناعاً .

– من الذي أراد أَن تكون على الأرض زهور جميلة ؟

فأجابوا ملء حناجرهم : *ربّنا*

و حاولت تهدئتهم بعض الشيء ، فطافت أَبصارنا بين السماء ، و الأشجار ، و الحقول ، و الماء الذي يوسوس في الساقية الصغيرة . و امتلأت عيونهم الصغيرة جمالاً . و شكرنا للربّ كلّ تلك الجمالات : " نشكرك ، يا ربّ " . و قرّرنا وضع الزهور في علبة كونسروة ، وإيداعها الكوخ الأسود علّها تضفي عليه بعض نور .

و عدنا ، و قد اتّسعت القلوب ، و سحقت الزهور بين الأصابع الصغيرة التي قلّما يتسنّى لها مداعبة حرير الزهور ... أؤلئك الصغار المساكين ، لم يغادروا ، يوماً، أكواخهم و لم يقطفوا يوماً زهرة ، و لم يتأمّلوا طبيعة .

كان سقراط يقول : الارتقاء من جمال إلى جمال ، حتّى الجمال الأسمى !

و الصغار سريعو التسلّق .

الصليب

" صليب " اسم يحمله باعتزاز ، هنا ، كثيرون من المسيحيّين . و يقودني هذا إلى قصّة " صليب " ، جابي الترام الطيّب ، أب الأبناء التسعة . لا مراء أنّ حياته ليست سهلة . و بالتالي عندما وردتني رسالة من أصدقاء أثرياء في فرنسا يعبّرون فيها عن رغبتهم في تبنّي طفلين فقيرين قصدت " صليباً " ، و أنا عالمة ، مسبقاً ، بردّه . و دعا الرجل زوجته ، و سألها ضاحكاً : " أتعطين اثنين من أولادنا ؟ "

– " أبداً ! " ثمّ التفت نحو ابنته سلمى ، و هي في الخامسة من العمر وسألها:

" أترغبين في المضيّ إلى بلد جميل حيث سيكون لك فستان جميل و كثير من الحلوى "

و انقضّت سلمى على والدها ، و اختفت بين ذراعيه و هي تصيح " لا ، لا ". و قال صليب : " على كلّ إنسانٍ أن يحمل صليبه ، و أنا لن أتخفّف أبداً من عبء أبنائي ، ولا سيّما و أنّهم ، أيضاً ، مصدر فرحي "

لم أشهد قطّ أُسرة تضحك مثل هذه ، و لم أشهد عشّاً يغنّي مثل هذا العشّ الغاصّ بالعصافير الصغيرة . أحد الصغار جاثم ، أبداً ، على ركبتي والده ، و الجميع يطعمون من الخبز و البصل بقدر ما يشتهون ... و عندما يعود صليب إلى المنزل ، لا يتوانى أحد منهم عن القفز على عنقه .

هل أطفالنا جياع ، حقّاً ، إلى حياةٍ ميسورة ، أوّلاً ؟ .

يُنشدون

ما زال عليَّ أن أتعلَّم الكثير على أيدي أَصدقائنا جامعي القمامة ، و لا سيَّما فيما يتعلَّق بنوع من روح الدعابة يخنق المأساة في مهدها ...

فالمرأة التي ضُربت ، يوم الاثنين ، ضرباً مبرّحاً ، و جأرت أَلماً ، تغنّي ، يوم الثلاثاء ، داخل الصفيح الذي انتشرت فيه الثقوب . لا وجود للعُقَد ههنا ، و لا عجب إن أَغرق الطبيب في الضحك عندما رأى العقاقير المهدّئة للأَعصاب التي أُعطيت منها قدراً وفيراً، و قال : " الأولى أَن ترسلي هذه العقاقير إلى الأحياء الراقية، يا أختاه ، فهناك يستهلكون منها الكثير ! "

هذا النابض هو الذي ينقذهم ، و يتيح ، أَقلّه لبعضٍ منهم ، أَن يثبوا من جديد في هذا الإِطار المأساوي الكفيل بسحق سواهم .

الحَدث الآنيّ هو ، لهم ، الواقع الذي يتعيَّن عليهم التكيّف معه : تلك هي كلّ فلسفتهم ، صغاراً و كباراً . هذه المرونة ، و هذا التوثّب يدهشانني في كلّ لحظة . فهذه سامية تداعب منذ زمن طويل حلم زيارة حديقة الحيوانات التي سنقوم بها . ولكنَّها ، في صباح يوم الرحلة ، تأتي منتحبة ، شاكية : " إنّ والدتي لا تريد أَن أَذهب ، فتعالي و كلّميها " . و أَصل ، فتقول الأُمُّ : " إنّني اليوم عليلة ، كما تريني، ولا أَستطيع أَن أَدعها تذهب ، فعليها العناية بالخنازير و بأخيها الصغير " . وداعبتُ، برقَّة ، خدّ سامية المبلّل : " ما يسع أُمّك أن تفعل بلاك ، يا حبيبتي ؟ ألا تودّين المكوث لمساعدتها ؟ " . و رفعت سامية ، صوب أُمّها ، عينين ما زالت

الدموع تحجبهما ، و أعلنت باسمة : " سأبقى معك ، يا أُمّاه " . ثمّ التفتت إليَّ و قالت : "ستصطحبيني معك ، في المرّة القادمة ، أليس كذلك ، يا أبلتي ؟ " و قبّلتني ، وجرت، رشيقة ، كي تعنى بالخنازير ، و هي تنشد : " يا ماما ، يا حلوة " يا لسرّ القلب البشريّ ! فالأَكثر حظوة يطالب دائماً بالمزيد ، بحيث يفقد أثرياؤنا النوم ، والأَشدّ إملاقاً يتكيّف مع مسكنه البائس ، و الاسكافيّون و جامعو القمامة عندنا يُنشدون .

أَقدام المُرسَلين

ذات مساء قصدت كنيسة للأَقباط الكاثوليك بغية حضور القدّاس ، و إذ بخوريها يبادرني : " آه ! راهبة جامعي القمامة . لديّ واعظ هذا المساء ، أَفلا ترغبين في التحدّث أَنت أَيضاً ؟ ستكون الكنيسة غاصّة بالحضور .

– إنّ لغتي العربية ليست صحيحة !

– لا شأن لذلك . تحدَّثي عن قومك ، و سيكون ذلك مفيداً للجميع .

وها أَنذا واقفة أمام الإيكونوستاز ، و من ورائي الاثنا عشر تلميذاً ممّا يوحي بالفأل الحسن .

و مضيتُ أُفسّر ، مغمغمةً أحياناً ، و لكن يبدو أَنّ الحاضرين كانوا يفهمون أَنَّ لجامعي القمامة من الشأن ، أمام اللّه ، مثل ما لرئيس الجمهوريّة (و لم أَجسر على القول أنَّ لهم من الشأن أَحياناً أكثر من رئيس الجمهورية ، لئلاّ أَبدو و كأنّي أُريد قلب الحكومة) . و مع ذلك يكتفي الناس برمي قمامتهم بين يديهم من غير أَن ينظروا إليهم ، أَحياناً .

و من دواعي الأسف ، أَيضاً ، أنّ جامعي القمامة ، شأنهم شأن من غادروا مسقط رأسهم ، قد تخلّوا أَيضاًعن كلّ ممارسة دينيَّة . و ها هم الآن مثل أغنام لا راعي لها .

بعد الفراغ من الاحتفال ، تحلّق من حولي بعض أَشخاص في فناء الكنيسة ، قائلين : " نحن مستعدّون لزيارتهم ، يا أُختاه ، و سنتلو على مسامعهم الإِنجيل ، ونرتّل معهم التراتيل (و التراتيل أناشيد دينيَّة ينشدها مسيحيّونا بأَعلى أَصواتهم ، وبفرح منقطع المثيل)

– " حسن ، و لكنّهم أورثوذكسيّون ، و من رعايا البابا شنودا ، فلا تحاولوا جرّهم إلى الكثلكة!

– مؤكّد

و حدّدوا اليوم و الساعة ، و أَتوا . ما أَحلى المسير نَحو الإِخوة ، حتّى إِن غاصت الأَقدام في وحل الطرقات !

و تنافس زبّالونا على فرح استقبال هؤلاء المرسلين الجدد ، فأبعدوا الخنازير، و علَّقوا بمسمار فانوساً يعمل بالكاز ، و تراصّوا حول المبشّرين ، القابعين فوق صفائح عتيقة و أقدامهم في الأَرض القذرة . و راح القوم ينصتون ، و يجأرون بالنشيد ، و يردّدون الصلوات ؛ و قد أَشرق وجه المشرف ، فقد سرت نفحة اللّه في ثنايا الليل .

و تنقّلتُ من جماعة إلى جماعة ، و سمعت جامعي القمامة ، و قد استنارت وجوههم ، يردّدون:

" لقد ظفرنا بالبركة ، هذا المساء ! "

أمّا الذين قدموا كي يجلبوا قليلاً من الحبّ و الفرح ، فعادوا و قد التصقت بأَحذيتهم بعض روائح زرائب الخنازير ، غير أَنّ تلك الأَحذية التي كانت تنساب ، رشيقة ، على الطريق ، بدت و كأنّها مزوّدة بأَجنحة .

أَجل جميلة هي أَقدام المُرسلين !

ماري بول

إنّه يوم إثنين ، الساعة السادسة و النصف صباحاً . و قد بدأ القدّاس في مصلّى الكرمليّات الهادئ ، حيث يُشاهَدنَ متلفّعات بثيابهنّ البيضاء ، جالسات على مقاعدهنّ الصغيرة . و تتقدّم إحداهنّ من الحاجز المشبّك ، و تتلو ، بصوت ثابت ، مقطعاً من نبوءة أشعيا يقول فيها : " فلتبتهج و لتزدهر الأرض الجرداء ، و لتغطّها زهور الحقل ، و لترنّم و تصرخ فرحاً " .

و أَفتح يديّ ، مقدّمة للربّ قريتي الصفيحيَّة ، عسى يقدم من يساعدني على جعلها تتهلّل و تزدهر . إنّ الرئيسة التي أقابلها بين فينة و فينة تستوضحني عنها دائماً باهتمام . و إنّني أَعلم أنّ خلف هذه الحواجز المشبّكة ، ثمّة فتيات قدّيسات مشرعات على العالم و قضاياه ، يتوسّلن الربّ ؛ فهل سيُفلحنَ ، على غرار النبيّ إيليّا، على جبل الكرمل ، في جعل المطر يهمي فتزهر الصحراء ، التي يحلّ جامعو القمامة وسطها؟

و دنا منّي من قال : " ماري بول تنتظرك ، و هي الفتاة القاطنة على مقربةٍ من هنا ، و العضو في مؤسّسة " غرال " العالميّة "

و ها أنذا حيال فتاة فاتنة ترتدي البنطال ، بادرتني بالقول : " يهمّني أَمر جامعي النفايات . هل أَستطيع رؤيتهم ؟ "

– " مؤكّد . و ها إنّني ماضية إلى هناك لقضاء الأسبوع "

بحقائبنا المثبّتة على ظهرنا ، قفزنا إلى الترام ، ثمّ سرنا عبر الفلاة . و لمّا انتهينا أمام زقاقي المزدحم بالأقذار ، و العاجّ بالأولاد لابسي الأسمال الزريّة ، صاحت ماري بول :

" هذا ما طالما حلمت به . هل يسعني الإقامة معك ؟ " – " أهلاً و سهلاً " . و دخلنا إلى كوخي ، فقالت : " ثمّة ، بالضبط ، مكان لمقعدين خشبيّين إلى جانب سريرك ، يا أُختاه " – " موافقة " . لا شيء يثبّط عزمها : لا براغيث ، و لا صراصير ، و لا عناكب ، و لا جرذان .

و نمنا بهدوء جنباً إلى جنب .

و سرعان ما استحوذت تلك الفتاة على قلوب قاطني قرية الصفيح ، حيث باتت تختلف عدّة مرّات كلّ شهر ، فتساعدني صباحاً في روضة الأطفال ، و بعد الظهر مع الفتيات ، و تستفيد مساءً من دروس محو الأميّة التي يلقيها الاستاذ الشابّ علي، الذي سرّه أن يرى ، وسط تلاميذه القساة ، هذه الزهرة من نمطٍ مختلف .

لقد تابعتْ دروساً في تربية الأطفال ، و هي مهتمّة بهم ، ولا سيّما بأطفال فوزيّة . " أشرف ،و صبحي ." تعاليا إلى هنا " . تتفوّه ماري بول بهذه العبارة فتتعالى الصيحات و الضحكات " و تنبت زهور الفرح في الصحراء .

إنّها تؤكّد : " هدفي الأوّل هو مشاركتهم ، و العيش معهم ، مثلهم " . و مع أنَّ لها صديقات يدعونها إلى هذا أو ذاك من منازلهنّ الوثيرة ، في القطاع الجميل من القاهرة ، إلاّ أنّها تعود ، كلّ مرّة ، كي تقتسم حياة قرية الصفيح ، بنفس البسمة .

و لكنّني وجدتها ، يوماً ، متغيّرة المزاج ، ترى كلّ شيء قاتماً ، محبطة من كلّ شيء ، يائسة من انعدام النتائج ، متسائلة عن جدوى إرسال الصغار إلى المدارس، و هم لا رغبة لديهم في الدراسة . و فيما هي تساعدني على تنظيف المكان لاحظَتْ : " لا جدوى من ذلك ، فبعد يومين سيعود كلّ شيء قذراً كالسابق " . ما عساه يحدث لها ؟ بُعيْد ذلك ، اضطرّت إلى التوقّف عن العمل ، فقد انتابتها حمّى شديدة ، يصحبها نزيف ، و اضطراب شديد في جهازها الهضميّ . وقلق الطبيب فأمر بنقلها إلى مستشفى ، و بإجراء تحاليل ، أسفرت عن إصابتها بالأميبة . وشخصتُ لزيارتها فإذا بغرفتها مزدانة بالزهور والبالونات المتعدّدة الألوان ، و إذا بها ، مشرقة من جديد ، تقول لي : " أُنظري كم زملائي في " غرال " لطفاء معي بمناسبة عيد ميلادي " . و أضافت : " حالما تتحسّن حالي سأقاسم من جديد جامعي النفايات حياتهم ."

جريئةً كنتِ يا ماري بول ، و مضيتِ ، في المشاركة ، إلى نهاية الشّوط ، لا بل إلى أبعد من ذلك .كنت قد طلبت منك الاّ تقبلي سوى كوب الشاي المغليّ ، ولكنّك حرصت حتّى على المشاركة بنفس طبق الطعام ... الشباب لا يعرفون الحذر ، والحبّ ، لديهم ، لا يخشى الموت . فمن يهبنا قلب شباب ؟

و عادت إلينا ماري بول بكلّ هدوء . غير أنّ الحرب نشبت ، بما تحمله من غدٍ قلق . و ألحّت قنصليَّتها على عودتها إلى فرنسا ، و ضغط عليها أصدقاؤها كي ترحل ؛ و أخيراً عزمت على المغادرة و جاءتني قائلة : " مارأيك ؟ لا يحسن الرحيل عندما يداهم الخطر ، و أودّ أَن أَبقى للمشاركة ، و لكنّ والديّ يكادان يجنّان ! " ثمّ قدمت، للمرَّة الأَخيرة ، إلى قرية الصفيح ؛ لم أَكن قد رأيتها تبكي قطّ ، بيد أنّها ، أَمام أَسى فوزيّة و أَبنائها ، لم تستطع حبس دموعها .

أَلا ينهج القوم الطيّبو النوايا طريقين مختلفين ينتهيان بالتلاقي ؟ أَحدهما يقود من نظرةٍ إلى اللّه مفتونة به ، إلى نظرةٍ نحو الإِنسان مثقلة حناناً . و الطريق الأخرى تلتفت نحو الإِخوة البشر و تكتشف ، يوماً ، الأَب الذي في السماء . إنّ نظرة النسور التي تميّز بها الإِنجيليّ يوحنّا أَتاحت له اختراق الغيوم ، و على حدّ ما كتبت لي ماري بول ، جعلته يضيف : " كلّ من يحبّ هو مولودٌ من اللّه . "

الديدان البيضاء

لقد أَمطرت واحداً من تلك الأمطار الشتويّة الغزيرة التي تحوّل أزقّتنا إلى مستنقعات حيث يغطس المرء في الحمأة حتّى كاحله . و تخلّف معظم الأولاد عن الحضور ، ما عدا بضع فتيات قدمن بعد الظهر ، متّسخات و ضاحكات ؛ و كانت دميتنا الكبيرة ، سابرينا ، خير مكافأة على جرأتهنّ ، فراحت تنتقل ، لا أَقول من يدٍ ليد ، بل من قلبٍ لقلب ، إذ كانت كلٌّ منهنّ تضمّها بحرارة إلى قلبها ، ثمّ تغمرها بقبلاتٍ رقيقة .

في تلك الأَثناء ، استُدعيتُ لإِغاثة ولد مريض ، فتوجّست الفتيات عليَّ خشية:

– " ستنزلقين في الوحل ، يا " أبلتي " .

– كلاّ ، بل ستساعدنني "

فأمسكنَ بيديّ و مضينا .

ولدى عودتي ، و لجت كوخي ، فارتعدت لرؤية جماعات من الديدان البيضاء تتلوّى على الأرض ، و تتسرّب في كلّ جانب ، و تنساب تحت الدفّ الخشبي القائم مقام جدار ، و تتحرّك مؤتلفة و كأَنّها جوقة . من أين أتت ؟ خرجت فشهدت الآلاف منها تعجّ فوق أَكوام الأَقذار الملقيّة أمام بابي . لاريب أنّ المطر قد أعاد لها مناعتها ، فمضت تستكشف محيطها و حلّ روّادها عندي .

و حاولت إِيقاف تدفّق هؤلاء الزائرين مستخدمة مسحوق ال ددت ، و الماء المغليّ و النفط ؛ و لكنّها لم تحفل ، كالجرذان في الميازيب ، و راحت تتلوّى و هي تهزأ بي . لقد خسرتُ المعركة ، و أَخذ القلق يتسرّب إلى قلبي ، فلعلّ الديدان تتسلّق، ليلاً على سريري ، و تهاجمني .

و استدعيت صديقي لبيب ، فدخل و أَجال نظره بين ما يحدث و بيني ، ثمّ قال لي بفلسفته الهادئة :

– " علامَ الخوف ، أَليست هذه هي الديدان البيضاء التي ستواكبنا عندما سنصبح تحت التراب؟"

و لبثتُ مشدوهة ، فاغرة الفم ... فأيٌّ عالم أو فيلسوف كان كفيلاً بإِعطاء مثل هذا الجواب ؟

و رقدت و أَنا أحدّث نفسي : " إنّه على حقّ ، فسيحدث ذلك عاجلاً أو آجلاً!"

و لكن لم تتنزّه أيّة من تلك الديدان على جسدي . و في الغداة أَشرقت الشمس ، و كانت الكتيبة قد انصرفت على نحو ما أَتت . متى سنتشرّف بزيارتها التالية ؟

تجسّد ...

تتقدّم الحافلة بتؤدة ، و عند الموقف ، ثمّة جمهور ينتظر على الرصيف ، فيقتحم العربة ، في ما يشبه ضغط السردين في علبة . مثل مالك الحزين يستند القوم على رجلٍ واحدة ، فيما الرجل الأُخرى لا تعثر على أرضٍ صلبة فتظلّ متأَرجحة . و تفوح الروائح من كلّ تلك الأجساد الرطبة . و بغتةً ينهض راكب كان جالساً في الدرجة الأولى إلى جانب نافذة . يا للفرصة ! فقلت :

– " يا أُختي غيسلين ، أَسرعي فاجلسي في مكانه "

و لكنّها لم تتحرّك ، و احتلّ آخر المكان .

و حان وقت النزول الذي يتطلّب عمليّة أُخرى . " عن أذنك " ، و هيّا ، دفعٌ عن اليمين ، و دفع عن اليسار ، و مرور من تحت ذراع جنديّ ، و تسلُّل من خلال جسم امرأة يتجاوز مئة كيلوغرام ، أو جسم ملاكم من الوزن الثقيل ، و محاولة جاهدة للخروج على قيد الحياة .

" خلص " ، انتهينا سالمين ، و تنفّسنا الصعداء . و الرئات التي كانت كالكرات المضغوطة انتفخت من جديد . و انطلقنا نسير في الشارع متمتّعتين بفرح الحياة .

– " صباح الخير ، يا أُختاه " . و دنت منّا طفلة ، في الخامسة ، و صافحتنا بحرارة ، فيما ابتسمت أُمّها و قالت : " إيه زيّك ؟ " من كلّ صوب نفس الفرح المتجلّي على وجوه الأولاد ، و نفس الترحيب الحارّ من قبل الوالدين .

و قلت للأخت غيسلين : " ها إنّك قد بتّ محبوبة هنا . كم هو عدد الأولاد في حضانتك ؟ "

– " مئة و ثلاثة عشر ، مع من سُجّلوا أمس الأوّل " .

لسنة خلت كانت قد باشرت بثلاثة عشر طفلاً فقط .

– " و لكن ، صارحيني لمَ أَحجمت عن الجلوس في الدرجة الأولى ؟ الأجرة الإِضافيّة هي قرش واحد ، و ليس ذلك بالشأن العظيم ، و لا سيَّما و أنّك متعبةٌ جدّاً."

بعد برهة صمت أَجابت :

– في اعتباري ، هذا هو نوع من التجسّد .

– لست أَفهم جيّداً .

– لقد انحدر المسيح إلى جسدنا البشريّ ، جسدنا البشريّ المسكين . و عندما أَجد نفسي مضغوطة أَشعر و كأنّني في صميم العجين البشريّ ، مثله . و أَنا ، هكذا ، أدنى قرباً منه ، ممّا لو ذهبت فجلست في الدرجة الأولى . "

و لم أَجد إلى الردّ سبيلاً . لقد كانت الأخت غيسلين ، سحابة عمرها تقريباً ، مديرةً و رئيسة لكبريات معاهد جمعيتنا ، أَمامها هاتف ، و السيّارة عند الباب بتصرّفها . و ما كان عليها سوى مناداة حجرة البوّاب قائلة : " عليّ الخروج في الحال ، أَعلموا السائق " . و في عجلة دائمة كانت تمضي إلى هذا أو ذاك من مواعيدها . و في المائدة ، ما كان عليها سوى الجلوس في مكان الرئيسة المخصّص لها حتّى تُخدَم في الحال . أمّا أمتعتها فكانت بانتظارها كلّ أسبوع ، منظّفة و مكويّة ، في غرفتها التي خلت من كلّ ذرّة غبار . أمّا اليوم فأدعوكم إلى مقرّنا الصغير في حيّ المطريّة في القاهرة . إقرعوا الباب ، تجدوها آتية بنفسها كي تفتح لكم ، مبتسمة و هي مؤتزرة بمئزر المطبخ . لقد انتهت لتوّها من التكنيس ؛ و مساءً ، قبل أن تخلد للنوم ، ستغسل الامتعة و الصحاف ، أمّا الآن فهي وسط قومها من أطفال هذا الوسط الشعبيّ الذي تحبّه و هي تعتزم أَن تُحدث ، أَيضاً ، مركزاً للتمريض و تربية الأَطفال ، و توفّر للأولاد المكدّسين في غرفٍ مكتظَّةٍ ، قاعات للدراسة المسائيّة الهادئة . وفي اعتبارها كلّ ذلك هو ، أَيضاً ، ضربٌ من التجسّد .

صلاة

ما زال عليّ أن أَتعلَّم الكثير من إِخواني الأَقباط ، فهم يعرفون كيف يعيدوني، إذا اقتضى الأَمر ، إلى السراط المستقيم .

في أَوَّل عهدي بالعيش مع جامعي القمامة . غدت حياتي سلسلة من النشاطات التي لا تنقطع : فإثر عودتي من القدّاس أسارع إلى العناية بالأَطفال ، ثمّ بالمرضى ، و عقب توقّف للغداء ، أَهتمّ بالفتيات ، ثمّ بمحو الأمّيَّة ، و هكذا تأذن الساعة العاشرة مساءً ، فأتعشّى ، و أنام ، و أُعيد الكرّة في الغداة ، و يُلتَهم وقت صلاتي . و حده صباح الأَحد الذي كنت أنفقه في مصلّى الكرمل يتيح لي أن أُصلّي ، و أقرأ ، و أتأمّل في الكتاب المقدّس . و كنت أستعين ، بذلك ، على " الغوص "، مجدّداً ، في مفردات اللاهوت الكتابيّ الذي يمثّل كنزاً ثرّاً لا ينضب . و لكن ، فيما عدا ذلك ، و أَثناء الأُسبوع ، لم يكن للصلاة مكانٌ ذو بال .

و سألني يوماً ، على حين غرَّة ، أَبو لبيب صاحب المكان الذي أقيم فيه :

– " بتصلّي إيمتا ؟ "

– صباحاً ، أَثناء القدّاس ، و يوم الأَحد .

– أَهذا كلّ شيء ؟ أولستِ راهبة ... امرأة صلاة ؟ "

لقد خضّ هذا الرجل المؤمن تفكيري . ففي الواقع ماذا أَنا ؟ أَعاملة اجتماعيَّة أَثناء الأُسبوع ، و راهبة يوم الأَحد ؟ و ساورني شعور مبهم بأنَّ أصدقائي من جامعي النفايات ، الغارقين في قمامتهم ، ينتظرون منّي شيئاً آخر . لطالما قالوا بتنهّد: "صلّي من أَجلنا " ، فهم يعدّونني ، أوّلاً ، سفيرتهم لدى الربّ ، و بعد ذلك عليّ العناية بأبنائهم ، و أوراقهم ، و أوجاعهم .

يذكّرني ذلك بكتاب قرأته في شبابي ، يتمحور حول مبدأ جوهريّ : على الحياة العمليّة الناشطة أَن تنبع من الحياة التأمّليّة .

و بتُّ أقول لفوزيّة : " سأعتكف للصلاة ، فقولي للنّاس ألاّ يطلبوني إِلاّ لأَمر ضروريّ حقّاً " . و أغلق كوخي ، و أُشعل المصباح ، و أمكث صامتة مقدّمة للربّ، عبر يسوع ، العالم و جامعي قمامته .

و يعلو صوت من الخارج سائلاً :

– الراهبة موجودة ؟

– " أيوه بتصلّي " . عودي فيما بعد .

– " كويّس "

و تمضي السائلة فرحة ، فالأُخت تصلّي ، و اللّه غير غائب عن جامعي القمامة .

رمضان و الراديو

قدم ، يوماً ، الفتى رمضان ليعمل فيما بيننا ؛ إنّه في الخامسة عشرة ، برونزيّ المحيّا ، متألّق النظرات . أين سيبيت ؟ أُجليت الخنازير الصغيرة و أمّها من بين جدران الصفيح الأَربعة ، و أَصبح المكان جاهزاً ، و مضى رمضان لينام مطمئنّاً.

و باح لي : " أَتعرفين لمَ جئت ؟ كان والدي قد أَقرض مالاً رجلاً أَبى أَن يعيده له . فلم يجد والدي من وسيلة سوى قتله ، و هو ما زال سجيناً . و قالت لي أُمّي : " لقد أصبحت الآن في الخامسة عشرة ، و سيحاول ابن القتيل القضاء عليك ، فارحل .. و ها أَنذا " . و ضحك مسفراً عن أَسنانه البيضاء الطويلة . فالأَمر يبدو له طبيعيّاً ، إذ يتعيَّن عليه التواري عن القاتل ، الذي يتقاضى عشرة جنيهات عن كلّ مهمّة قتل ناجحة . إنّها مهنة رابحة ، و لا سيّما في موسم الذرة حيث يكون القتل في غاية اليُسر ...

في المساء ، يأتي باكراً و ينطرح على القشّ ، إِذ ليس له ما يفعل ، و لا أين يمضي .

و ذات يوم لقيته قادماً سعيداً متأبّطاً مذياعاً مشروخاً يطلقه كي يجأر بكلّ طاقته . و أحاول الصلاة في كوخي ، و لكنّ الصوت النشاز يغرقني بصيحاته الجشّاء، فأخرج و أدنو من جاري الشابّ قائلة : " إِسمع يا رمضان ، سأصلّي الآن ، فهل يضايقك خفض صوت مذياعك قليلاً ؟ " – " نعم ، نعم ". و أعود إلى مكاني وأجلس ، و إذا بصمتٍ مطبقٍ يخيّم ، فأعود لأستطلع الأمر :

– " ما الذي يحدث يا رمضان ؟ لمَ أَخرست الراديو ؟

– لأنّك تصلّين .

– لا ، يا رمضان ، ليس هذا ما أَبتغيه ، و بوسعي أَن أُصلّي ، فيما أَنت تصغي للراديو .

– لا ، لا ، إنّني متعب ، و أوثر أَن أخلد إلى النوم .

و حاولت بجميع الذرائع ، و لكن تعذّر عليّ إِقناعه .

وعدت لصلاتي ، و لكنّني كنت مغمومة . فليس لرمضان من سلوى سوى مذياعه المشروخ ، و ها هو ذا يأبى الإِصغاء إليه بسببي . يا لرقّة نفس هذا الفتى المسلم ! فلديه الصلاة مقدّسة، و لا يسوغ تشويشها .

و مذّاك ، عندما أَسمع جئير الراديو ، أَنسلّ خلسة إلى كوخي ، و أقدّم للربّ صراخ العالم .

مشاركة

في هذه الأيّام ، ألبث في مقرّنا بالمطريّة كي أُعدّ مخيّم أبناء جامعي القمامة .

بقّال الحيّ قال لي : " سأتلقّى " حلاوة " يوم الأحد ، (و الحلاوة عجينة مصنوعة من زيت السمسم و السكّر ، مقوّية و رخيصة الثمن ، و هي حاليّاً مفقودة في السوق) و سأحتفظ لكم بثلاثة كيلوغرامات " . يا لحسن الطالع !

و جاءتني الكيلوغرامات الثلاثة ، قطعة طويلة مستديرة أتأمّلها بعناية : ها أنا مزوّدة بالقوّة لفترة طويلة . ولكن ... ماذا عن الآخرين ؟ تجول بخاطري الأُسر العديدة التي تبتاع ، يوماً فيوماً ، خمسين غراماً من الحلاوة ،و التي ستُحرم منها بسبب حصّتي الكبيرة منها .

كيف اندفعت إلى ذلك من غير تفكير ؟ ما العمل ؟ أأُعيد غنيمتي من الحلاوة؟ و حينئذٍ ما سيحلّ بالمخيّم ؟ لا ريب أنّ الصغار سيبتهجون بتناول شطيرة من الحلاوة بين حينٍ و آخر ، و سيؤتيهم ذلك صحّةً .

و لكن كم يتعيّن عليّ أن أكون متيقّظةً لكي أُقاسم الآخرين لا أقوالاً جميلة ، و الهواء و الشمس ، بل أشياء الحياة اليوميّة . لقد قرأت لتوّي أقوال القدّيس باسيليوس الرهيبة و لكأنّه قذف بها على رأسي : " الرغيف الباقي عندك و لا حاجة بك إليه ، هو خبز الجائع ، و الثوب المعلّق في خزانتك هو ثوب العريان ؛ و الحذاء الذي لا تلبسه هو حذاء الفقير الحافي ؛ و المال الذي تخبّئه ، هو مال الفقير ؛ إنّك تقترف من المظالم بقدر ما تستطيع أن تنشر الإحسان "

و فتحت خزانتي : تكاد تكون خاوية ، و لكن ثمّة ثوب عمل لست في حاجةٍ إليه ، بما أنّ لديّ آخر ، فليمضِ ، فيُسعد ربّة البيت تلك التي بات ثوبها مزَقاً . إذن ، ماذا تقول ، أيّها القدّيس باسيليوس ؟ و إذا به يهمس في أُذني : " أنظري إلى أمتعتك الصوفيّة " .

حسن ، هو ذا شال أبيض أهديتُه لكي أخرج أتنزّه به ليلاً . " علام تقطّب الجبين يا باسيليوس ؟ إنّك كثير التذمّر ، أيّها القدّيس الشيخ "

– " لديك شال أسود تتلفّعين به نهاراً ، فهل يلزمك ، حقّاً ، آخر أبيض ... للّيل ؟ "

– " إنّك لعلى صواب ، يا باسيليوس ، فستلفّ فوزيّة بهذا الشال طفلها . نحن متّفقان . "

– " و ماذا بشأن هذه الجوارب الصوفيّة ؟ "

– " لا تغالِ ، يا باسيليوس ، فهذه هديّة قُدّمت لي حديثاً . و كما تعلم ، البرد، هنا ، قارس عند جامعي القمامة ، و في الشتاء قد أَتعرّض للرشح ، و التهاب القصبات و الرئتين ، و قد يفضي بي ذلك إلى القبر ، ألا يعنيك ذلك ؟ "

– " و ماذ عن جواربك العتيقة ؟

– " إنّها لا تصلح إلاّ للقمامة .

– " أَصلحيها ، إرفيها ، يا بنيّتي ، و ستظلّ صالحة للاستخدام ؛ و أوصيك خاصّة أَن تحتفظي بالجوارب العتيقة لنفسك ، و تتبرّعي بالجديدة ؛ أَليس كذلك ؟ "

مع هؤلاء القدّيسين لا مجال للتعايش . غير أنّ عيني أُمّ كرم قد ابتلّتا بالدموع و هي تنتعل الجوارب ، و قد اعترفت : " ستهدّئ هذه أوجاع الروماتيزم التي ليتك تعلمين كم تؤلمني . "

كانون الثاني هو الشتاء بكلّ قسوته التي لا ترحم . غير أَنّني ، و قد تكوّرت تحت غطائين صوفيّين ، لم أُعانِ من البرد ، و عندما غادرت كوخي وجدت فوزيّة شاحبةً ، قائلة : " لقد كانت ليلة رهيبة ، و قد ارتجفنا جميعنا من القرّ " . فكما هو الحال في كلّ مكان هنا ، ترقد الأُسرة كلّها على فراش واحد ، و دخلت بيتها ، فتبيَّنت ما كان عليّ أن الحظه من قبل : غطاؤهم ضربٌ من شرشف رقيق متعدّد الأَلوان .

ماذا كنت ستفعل ، أَنت من يقرؤني ، و أَنت تنعم بالدفء تحت أَغطيتك الصوفيَّة الوثيرة ؟ لن تفكّر ، بالطبع ، أن تبادر إلى اقتسامها مع مجهول مقرور يبعد عنك نحو مئة كيلومتر . و لكن تخيّل ، مدى لحظة واحدة ، أنّ لوحاً خشبيّاً واحداً يفصلك عن أُسرة من أَطفالٍ صغار يرتعدون من البرد ، و ستسمعهم عمّا قريب يقحّون في ثنايا الليل ، فهل ستستطيع أَنت أَن تنام دافئاً ؟ مستحيل ، بل ستنادي الأُمَّ وتقول : " أُنظري : لديّ غطاآن ، فخُذي أَكبرهما ، و سأتدبّر أَنا أَمري " . و ستثني الغطاء المتبقّي ، و ستخيط بأَطرافه بعض خرق ، لكي تلتفَّ به جيّداً ، و ستخلد ، بعدئذٍ ، إلى الشخير ، مطمئنّ النفس . و فوق ذلك سيهبك القدّيس باسيليوس بركته .

السكّين و الصابون

لديّ سكّين قاطع ، أعيره بعناية ، و أَحرص عليه ؛ و كلّ مرَّة تطلبه منّي فوزيَّة ، أُعطيها إيّاه مرفقاً بقولي المأثور : " لا تنسي أَن تعيديه لي " . كيف لا ، وهو " سكّيني " ، و حيدي ، و أَنا مالكته الشرعيَّة ؟

في حين أنّ فوزيّة ، عندما تجيد طبخة ، تأتيني مسرورة بشيءٍ منها في قدرٍ صغيرة و لكنّني لم أسمعها قطّ تقول لي " : لا تنسي أَن تعيديها لي ، فهذه " قدري " . إنّ هذه المرأة غير متملّكة و يداها منبسطتان .

ذات مساء ، و قت العشاء ، بحثت عن " سكّيني " ، فتعذّر عليّ العثور عليه فقلقت : كيف لم أَجد بتصرُّفي غرضاً أمتلكه ؟

– " فوزيّة ، هل سكّيني عندك ؟

– " أجل ، أَجل . "

و نبشتْ كلّ شيءٍ حتّى عثرت عليه ... تحت السرير . و غسلته بماء المضخّة ، و جاءتني به ضاحكة بمكر و قائلة : " بما أنّنا أُختان ، أليس هذا "سكّيننا؟". و رمقتها ، ضاحكة أَنا أَيضاً ، و قبّلتها قائلة : " أَنت محقّة ؛ و لكن بما أَنّ الأطفال يعبثون بكلّ شيء ، و يضيعون كلّ شيءٍ ، فإن شئت سنحتفظ به في أمان عندي عندما لا تكونين في حاجةٍ إِليه " .

و عقدنا على ذلك اتّفاقاً .

و أَذنت ساعة الشروع بالمخيّمات المتعاقبة مع الأطفال . و قد قضّ مضجعي فقدان الصابون، في تلك المرحلة التي عقبت الحرب ، غير أَنّني ، لحظة انطلاقي برفقة قافلة من الفتيات المبتهجات ، الضاجّات ، استوقفني صوت يناديني . و إذ بفوزيّة تهرع و تدسّ في حقيبتي اليدوية قطعتين من الصابون ، و كنت قد لحظت ثلاثاً منها فوق سريرها قبل برهة . فاعترضتُ :

– " لا يسوغ ذلك ، بل سأكتفي بواحدة

– كلاّ ، بل أَنت في حاجةٍ إليها أَكثر منّي "

و قفلت فوزيّة ، أختي ، عائدة إلى كوخها ، بنفسٍ راضية جذلى ؛ و على سريرها التي علته طبقة قاتمة من الذباب ، و في مكان قطعتي الصابون اللتين اختفتا، رأت بقعتين من نور .

لن تمضي إلى السماء

كنت ، تلك السنة ، في باريس عندما تلقّيت رسالة من سويسرا قادمة من إحدى طالباتي السابقات المسلمات : " أُختي ، أودّ رؤيتك في موضوع خطير . لقد أَذن لي زوجي بالسفر إليك ، فبيِّني لي التاريخ الذي سأستطيع فيه المجيء " .

و رحت أتساءل ، قلقة ، عن المشكلة التي قد تكون تواجهها ، فقد سبق لها أَن جابهت الخلافات المعهودة مع حماتها ، ممّا اضطرّها ، يوماً ، إلى العودة إلى بيت والديها ، و قد طفح بها الكيل . غير أنّ مساعي والدها الجادّة كانت قد أَفضت إلى عيش العروسيْن في منزل مستقلّ و عاد كلّ شيء إلى نصابه .

و جاءتني ، فتيّة ، حلوة ، تنطق عيناها اللوزيّتان بعذوبة مميّزة . و قبّلت إحدانا الأُخرى بحرارة ، و بادرتها بسؤال يشوبه بعض القلق :

– " هل كلّ شيء لديك على ما يرام ؟

– كلّ شيء على خير نسق ، فزوجي ألطف رجل في العالم ، و ابنتي تزداد، كلّ يوم ، جمالاً "

و أرتني صورة رائعة .

– " ما هي ، إِذن ، القضيّة الخطيرة التي جاءت بك ؟ . "

و رمقتني في شيءٍ من التردّد ، ثمّ أردفت ، و قد أشرق وجهها :

– " إنّني أمارس ديني ، و أَتقدّم في ممارسته يوماً فيوماً ... و أَنت تعلمين كم أحبّك !

– إنّها محبّة متبادلة . "

و أردفت :

– " حينئذٍ قلت في نفسي : ليس ممكناً أَلاّ تمضي إلى السماء معلّمتي القديمة التي أُحبّها حبّاً جمّاً . فأبواب الفردوس مفتوحة للمسلمين فقط ، و لذلك أتيت كي أحدّثك حديثاً على جانب كبير من الخطورة : عليك أَن تدرسي ديانتنا . "

و حدّقت فيّ العينان اللوزيّتان و هما مفعمتان حبّاً ... و توسّلاً ، ممّا أثّر فيَّ أبلغ أَثر .

و قلت : " لقد سبق لي أن درست ديانتكم . و قد طالعت القرآن مترجماً إلى الفرنسيّة . و في نصّه العربيّ مستعينة بصديقة .

– أليس رائعاً ؟

– أجل ، بعض مقاطعه كانت لي ومضات نور

– أو لم تحملك على اعتناق الإِسلام ؟

– في الحقيقة ، كلاّ ، يا عزيزتي ، فقد وجدت في الإنجيل ، و في تعليم يسوع ، الكثير من الأنوار .

– أجل ، نحن أيضاً نعترف أنّه نبيٌّ عظيم . غير أنَّ محمّداً قد أرسله اللّه كي يختم و يطهّر كلّ ما أُنزل من قبل . إنّه آخر الانبياء ، و بالتالي أعظمهم . "

فأجبتها برقّة :

– " هذا هو رأيك ، و لكنّه ليس رأيي . و أعتقد أنّ اللّه يطالب كلّ إِنسان بالسير و فقاً لما أنار به قلبه ، و أن يحقّق على الأَرض أكبر قسط مستطاع من الخير

– أجل هكذا ما كنتِ تقولينه لنا . "

غير أنّها أَضافت باندفاع :

– كم أَودّ أن يكون الفردوس مصيرك . "

فرددت باسمة

– " و أنا أَيضاً أَرجو ذلك لك و لي . "

ثمّ استغرقنا في الحديث ، و لن أَنسى أبداً مسحة الحزن التي غشت عينيها اللوزيّتين الجميلتين اللتين حدّقتا فيّ للمرّة الأَخيرة ، قبل أَن تقبّلني برقّة و تتوارى .

نحن البشر نتبادل إِغلاق باب السماء بعضنا في وجه البعض . و لكن لحسن طالعنا أنّ المسيح قد وهب حياته كي يشرع ذلك الباب لجميع البشر الطيّبي النوايا .

صوم

لقد اضطررت إلى ممارسة الصوم منذ شرعت أُقاسم عيش الأَقباط الأورثوذكس ، الّذين ظلّوا أوفياء لتقليد المسيحيّين الأوّلين الذين كانوا يطردون شياطينهم بالصلاة و الصوم . أمّا شياطيننا ، فتبدو و كأنّها تتجوّل بكلّ حريّة .

" أَصائمة أَنت ؟ " سؤال تقليديّ كانوا يطرحونه عليّ باطّراد . و لكيلا أُشكّكهم ، لجأت إلى الصوم .

الصوم ، بحذافيره ، يقتضي الامتناع عن تناول أَيّ طعام حتّى الظهر . و لقد اعترفت بعجزي عن التقيّد به مع مثابرتي على العمل في آنٍ واحد. فقيل لي : " ليس هذا هو الأَساسيّ ، بل المهمّ ألاّ تدخل في طعامك أَيّة مادّة حيوانيّة المنشأ " . وارتضيت بهذا الحلّ . و على غرارهم ، اعتدت التغذّي بالفول ، و العدس ،و الأرزّ، و التمر ، و القلقاس الحلو ، و البطاطا ، بالإِضافة إلى الخبز ، طبعاً ، الذي يمثّل تسعة أَعشار طعام الفقير .

و جدير بالتنويه أَنّ الأَقباط الملتزمين – و هم كُثُر – يصومون أَكثر من مئتي يوم في السنة .

عندما أَخذت أُشارك الفقراء طعامهم هذا الخالي خلوّاً شبه كامل من اللحم،اعتراني السقم ، فحدّثت نفسي : " حقاً إِنك حمارة يا صديقتي المسكينة ، فهذا النمط من الغذاء يتخطّى قواك و طاقتك " . غير أَنّني حظيت بمقابلة خبير في النظام الغذائي المصريّ ، شرح لي : " سيكون بمقدورك الاستغناء عن اللحم ، على أَن تستعيضي عمّا يحتويه من بروتينات بأُخرى متوفّرة في الفول ، و العدس ، والفاصوليا ، و الأَرزّ ، وخاصّة في السمك و هو أَرخص ثمناً من اللحم ، و يحتوي على نوع ممتاز من البروتين . أَضيفي إلى ذلك العسل الأَسود و الحلاوة ، وفيتامينات البندورة و الفواكه. و لكنّني أُحذّرك من أَمرٍ واحد : بما أَنّ هذا الغذاء خفيف ، سينتابك ، سريعاً، الشعور بالجوع ، غير أَنّك ، أَساسيّاً ، ستنعمين بغذاء مماثل ، بل أَفضل من الغذاء القائم على اللحم "

و قد اتَّبعت نصيحة هذا الخبير الغذائيّ ، و دهشت لوجودي أَفضل حالاً من ذي قبل ...

أَمّا خبرتي ، فقد انتهت بي إلى خلاصة حاسمة : الصوم يساعد " الأَخ الحمار " على أَلاّ يثقل ذاته بالعلف ، كي يتسلّق ، بمزيد من الرشاقة درب الكرمل . و لكن لكلٍّ خياره ، فليست جميع الحمير متماثلة .

مخيّمات أطفال

أَعددنا المخيّم الخامس بمساعدة موجّهيْن يتدفّقان غيرة . و كان علينا البدء ، مثل كلّ مرّة ، بلمّ صغار الزبّالين . و خير موعد لذلك بين الساعة الواحدة و الساعة الثانية بعد الظهر ، عندما يؤوب الرجال من جولتهم ، و يتعيّن علينا النضال في سبيل الظفر بإِذنهم : فهم يستفيدون من أَطفالهم ، و يصعب عليهم الاستغناء عنهم .

– " أَبا محمود ، هل ستعطينا ابنك هذا الأسبوع ؟

– " كم يوماً ؟

– " أربعة أو خمسة ، إن أَذنت

– " و ماذا سيعمل معكم ؟

– " سيلهو ، قبل كلّ شيء ، و سيلعب بالكرة "

و يضيف عزّت ، الموجّه : " سيزور حديقة الحيوانات ، و سيركب على الفيل " و فيما محمود يصغي ، صامتاً ، مسحوراً ، يجيب والده ضاحكاً : " أتأخذني معه فاركب على الفيل ؟ هيّا ، محمود ، نادِ أُمّك ، كي تلبسك جلاّبيّتك النظيفة "

و هكذا نتقدّم عبر ركام الأقذار . في هذه الأَثناء يعيد " اوزيريس " إله الشمس في عهد الفراعنة ، ابن " جيب " (الأرض) و نوت (السماء) إلى أَبيه "جَيب " ، في موجات حارقة ، الحياة التي استمدّها منه. و أَخذتُ أَنا أَذوب فيما أَخذ عزّت يحترق . و لكن لا بدّ من متابعة السير ، فأسندت ذراعي الهرمة على قوّته الفتيّة . و قلت :

– " هذه خير خدمةٍ نؤدّيها الآن لصغارنا .

– " كيف ؟

– " بتعبنا في سبيلهم ...

إنّ لعزّت ، كما للكثيرين من الشبّان هنا ، نفساً عميقة الغور . و قد لاحظ :

– " حقّاً ، فالمسيح أسلم ذاته للموت من أَجلنا . "

و ها نحن بإِزاء " حنّا " القابع وسط الأَقذار . فسألناه : " أَين أُمّك ؟ "

لن يكون من الصعب اصطحابه ، فأخته إنصاف قد عادت من المخيّم السابق، تفيض حماساً .

و دخلنا لنستريح في ظلّ الكوخ ، حيث قالت أمّه ضاحكة : " أَجل ، أَجل ، فليذهب ، فذلك سيفيده . "

و نستأنف سيرنا من شمس حارقة إلى شمس حارقة ، و من زقاقٍ إلى زقاق، و تستغرق جولتنا ساعتين ، و تنتهي كلّ مفاوضة مع الوالدين بصيحات فرح ، وتتراكض أَجساد برونزيّة صغيرة نحو المضخّات كي تغتسل و تلحق بنا .

و يصل القطار ، فيقفزون إليه متهلّلين . و ننتهي أخيراً إلى المخيّم ، فنتهالك، أنا وعزّت،على مقعد في ظلّ الحديقة ، و يقول رفيقي : " لقد أَخذ منّا الإِرهاق كلّ مأخذ ، و لكن انظري الأطفال " . لقد تناولوا الكرة و راحوا يلعبون بها في الفناء الذي تظلّله أَوراق النخيل ، و قد استولت عليهم فرحة جديدة .

و استخلص عزّت : " يستأهلون أن نموت من أجلهم "

بسمة

انتهى المخيّم ، و أعدنا لجامعي القمامة صغارهم المشرقين ، الّذين يسألون :

– " هل سنعيد الكرَّة ؟

– أَجل سنقوم بنزهة جميلة ، ذات يوم . و لكن حذارِ ، ينبغي الامتناع عن اللكمات ، و الشتائم، و سنسأل والدتكم كيف تصرّفتم . "

و يجلس صغارنا أَرضاً وسط حلقة من المستمعين المذهولين ، و يسردون مغامراتهم . و يتقاطر الصغار و الكبار كي يصافحونا ، فأستوضح : " كيف حال زوجتك ؟ هل صحّة الصغيرة تحسّنت ؟ هل الوالد الشيخ مازال في المستشفى ؟ " بسمة هنا ، و مداعبة هناك ، و تشجيع لأمّ شابّة ، و توبيخ لصغير مشاكس ، ونمضي عبر جذوع الذرة التي تتسامق فوق رؤوسنا .

و بغتة يستوضحني عزّت : " ما هو أَفضل ما تهبينه لجامعي القمامة ، يا أُختاه ؟

– الأفضل ؟ هممم ! كوب الكاكاو بالحليب ، بفضل أَصدقاء متبرّعين . والأطفال يلتذّون به .

– لا ، لا يا أُختاه ، إنّني أَعني شيئاً آخر غير مادّيّ .

أَضحك و أقول :

– غير مادّيّ ؟ ... أهبهم قلبي الصغير ؛ أمادّيّ هو أم لا ؟

– يا أُختاه ، إنّك تهبينهم ما هو أَثمن من الذهب و الفضّة ، تهبينهم بسمتك ... لقد لحظتُ وجوههم و أَنت تصافحينهم متبسّمة ، فإذا بضربٍ من الفجر يُطيف بهم .

– إنّك شاعريّ ، يا عزّت . أمّا أَنا ، فبوجهي الهرم المغضّن ، لم أعد قادرة على إِنارة فجر . انظر الأُخت إ . التي رافقتنا هذا الأسبوع . إنّها شابّةٌ ، و هي شيءٌ آخر " . و نستغرق ، نحن الثلاثة ، بالضحك .

و لكنّ عزّت يظلّ متشبّثاً برأيه : " البسمة هي ما يتعطّش إِليه الإِنسان . إِرمي له مئة جنيه ، فلا يساوي له ذلك شيئاً . و لكن أعطيه عشرة قروش مقرونة ببسمة ، و بقلبك ، فتغنيه ... الإبتسام هو الإحترام : و الاعتراف بقيمة الآخر هو الخطوة الأولى نحو إِغنائه "

و أَذن وقت الفراق . لقد كان جيملاً تعاوننا من أَجل ازدهار زبّالينا الصغار وودّع أَحدنا الآخر ... ببسمة .

خاطر بحياته لإنقاذي :

- 1 -

إنّه نهار سبت ، و الأُخت غيسلين تنتظرني في المدينة ، عند الساعة الثانية .
غير أنّ التملّص من جامعي النفايات ليس دائماً بالأَمر السهل . فها هي ذي سامية تأتيني قائلة : " أبلتي ، أنظري إلى ركبتي " ، فأضمّدها و أهمّ بالانصراف ، وما أكاد أَخطو خطوتين في الزقاق حتّى يناديني محمود من بعيد : " أَبلتي ، أَبلتي " ، و التفتّ ، و اذ به يأتيني بأخته الصغيرة ، و قد برزت على ذراعها دمّلة ممتلئة صديداً ، فنظّفتها و طليتها بمرهم زيت كبريتي ، و ضمّدتها . و هممت بمتابعة السير، حاثّةً الخطى ، فإذا بأمّ سمير أَمام باب بيتها تصيح : " تعالي عايني سمير " . كان الطفل يلتهب من الحمّى ، ممّا أَقلقني ، فصارحت الأمّ : " إِسمعي ، يا أمّ سمير ، أَنا لست " دكتورة " . و ينبغي أَن يكشف طبيب على صغيرك ، اليوم ، أَتفهمين ، اليوم " . ووعدتني بالمضيّ به إلى القرية المجاورة .
و لمّا انتهيت إلى المحطّة كانت الساعة الثانية . ووصل قطار القاهرة فهرعت إليه . و كان لا بدّ لي من اجتياز خطّ السكّة الحديدية ؛ في تلك الأَثناء كان قطار المرج يتقدّم ، و الوقت المفسوح أَمامي للاجتياز محدوداً جدّاً ، و بغتةً علقت قدمي ، ووقعت وسط قضبان السكة ، في حين كانت القاطرة مندفعة بكلّ سرعتها ، وأطارت السقطة رشدي فعجزت عن النهوض . غير أَنّني شعرت بغتةً بمن يمسكني من كتفي و يجرّني خارج السكّة ، و مرّ القطار قريباً جدّاً منّي ...
في تلك الأَثناء كانت الأخت غيسلين تنتظرني ، وفقاً لموعدنا ، في الساعة الثانية . تلفّظت إِذن، بكلمة شكر لمنقذي ، و أَنا أَلهث ، و قفزت إلى قطار القاهرة ، و شيئاً فشيئاً

استعدت وعيي ، فأدركت أنّ إِنساناً خاطر بحياته من أَجلي ، و أَنا كدت لم أَلحظه ، و شكرته من طرف شفاهي . يا للعار! ينبغي أَن أَعثرعليه بأيٍّ ثمن .

يوم الإِثنين استفسرت عدّة أَشخاص في المحطّة : " هل كنت هنا عندما كدت أُدهس تحت عجلات القطار ؟ " – " كلاّ ، كلاّ ، كلاّ ... " و أَخيراً أَجابني أَحدهم :

– آه ، بلى ، أَنت إِذن ؟

– هل تعرف هويّة الذي أَنقذني ؟

– كلاّ ، و لكنّني أَعتقد أَنّه أحد تلامذة المدرسة القريبة من هنا "

فدخلت المدرسة و قابلت المدير ، و عرضت عليه الأمر . ففكّر قليلاً : " يوم السبت ، الساعة الثانية " لقد خرج طلاّب السنة الثانية قبل الوقت " ، و أَنفذ أَحداً إِلى ذلك الصفّ ، و إِذ بشابّ يدخل ، عيناه تنطقان بالصراحة ، ووجهه شديد التعبير ، مستقيم المنكبين ، جذّاب من رأسه حتّى أَخمص قدميه ، و روى ببساطة :

– أَجل ، عندما شاهدتك على قضبان السكّة ، تذكّرت قول والدي : الواجب الأوّل ، المبادرة إِلى مساعدة الآخر

– ما هو اسمك ؟

– محمّد فوزي .

و شددت على يده بحرارة ، فيما انطلق الأَساتذة يصفّقون . أمّا هو فانصرف بمثل البساطة التي جاء بها . و تساءلت عمّا أَستطيع تقديمه له : ربّما قلم حبرٍ ناشف من طراز جيّد ، فمعظم طلاّبنا غير الميسورين يحلمون بمثله .

و في الأسبوع التالي ، فيما كنت أقدّم لمحمّد تلك الهديّة الوضيعة ، قلت له : " أودّ أَن أَعرف أباك و أمّك " فغمره ذلك فرحاً . و ضربنا موعداً ليوم السبت . ووصلت معه إِلى شقّة شديدة الضنك في بناء سكنيّ شعبيّ . و لكنّه حذّرني قبل أن ندخل : " لم أُطلع والديّ على ما حدث ، إِذ ينبغي كتمان عمل الخير . "

ووجدت نفسي إِزاء رجلٍ بدين يقطر وجهه طيبة ، فهنّأته على ما فعل ابنه . و لكنّه أَجاب : " لم يقم ابني بأَيّ عملٍ خارق . فنحن جميعاً أَبناء اللّه ، و من ثمّ علينا جميعاً أَن نتآزر "

لقد كان يسوع يتكلّم بفم ذاك الرجل المسلم .

- 2 -

و حلّت العطلة الصيفيّة ، و كنت واثقة من أنّ منقذي الشابّ ، محمّد فوزي ، شأنه في ذلك شأن معظم الطلاّب ، كان يودّ إتقان تعلّم اللغة الإنكليزيّة . فذهبت إليه و عرضت عليه أن يستفيد من العطلة من أجل اتّباع دروس لغة انكليزيّة في المدينة .

و سألتني أمّه : " هل تغدّيت ؟

– تناولت شطيرة فول

– ستتغدّين ، إذن ، مع زوجي . "

ووضعت فوق منضدة صغيرة مستديرة وجبة طعام بسيطة قوامها الباذنجان بالبندورة ، و البصل النيء ، و بعض أوراق الخسّ . كانت الساعة الثالثة ، و لم تتناول هي نفسها شيئاً ، لأنّها ، حسب قولها ، سبق لها أن تغدّت ، بيد أنّني رأيتها ، بغتةً ، قادمة بشيءٍ من الملح ، غرست فيه قطعة خبز و تناولتها . ثمّ قالت لي مبتسمة : "لقد غدونا الآن أصدقاء للأبد : فقد اقتسمنا الخبز و الملح . "

... اقتسام طعام الفقراء ، هذا هو ضرب من السرّ المقدّس يشدو في حناياه الحبّ ؛ به تتبدّد فوارق الجنس و الدّين ، و يجلس إخوة جنباً إلى جنب في مشاركة جديدة .

و قد استطارت إمكانيّة متابعة دروس اللغة الانكليزية صديقي محمّد فرحاً ، فشخصت إلى المدينة و سجّلته . ثمّ التقيته في نهاية العطلة ، فإذا به متعب ، وسألته: " ماذا عن اللغة الإنكليزيّة يا محمّد ، هل بتّ تتكلّمها بطلاقة ؟ " فأجابني بحزنٍ :

– ما كدت أشرع بالدّرس حتى انقطعت عنه .

- هل كنت مريضاً ؟

- لا أنا ، بل والدي ، الذي لم يعد يستطيع العمل سوى بدوام نصفيّ

- و إذن ؟

- حينئذٍ التزمت بالعمل مدرّساً لطلاّب الابتدائيّ الذين كان عليهم إعادة امتحاناتهم

- طوال النهار ؟

- أَجل ، كانت هناك فترتان : فقد كان بعضهم يأتون صباحاً ، و الآخرون مساءً . و افتقرت إلى الوقت

- تبدو متعباً جدّاً يا محمّد

فأَجابني مبتسماً :

- أَجل ، و لكنّني أَتحت لوالدي فسحةً للراحة .

إنَّ اقتسام الخبز و الملح في هذه الأُسرة يعني الظفر بالبركة .

قلوب أطفال

بقيت ماري أرملة تجهد في سبيل تربية أبنائها . غير أنّ الحياة قاسية ؛ وذات مساء توسّل الصغار : " ماما ، نريد يوسف أَفندي (مندرينة) " . تلك الثمار ليست غالية الثمن ، فالكيلو غرام بخمسة قروش . و أَخذ الصغار المال و اندفعوا إلى الخارج ، و ما لبثوا أن عادوا مصفري اليدين .

– " ما الذي جرى ، يا أولادي ؟

– " ماما ، كانت المرأة المسكينة و أولادها يرتعدون برداً ، فتركنا لهم المال"

و قالت وفاء ، و هي في الحادية عشرة من عمرها : " لديّ ثلاثة فساتين ، و هذا كثير : سأتبرّع بأَحدها . "

و قالت ماري سيسيل ابنة السابعة : " أَنا لديّ بيجاماتان ، وبوسعي التبرّع بإحداهما " و في الحال أَخرجت كلّ منهما من سريرها الصندوق الصغير الذي يضمّ أَمتعتها . في حين هتف أخوهما الصغير فادي ، و هو في الرابعة من عمره : " وأَنا لديّ برتقالة " . و اندفع الصغار الثلاثة من جديد إلى الخارج بعطاياهم . و تركتهم ماري ، في ذلك ، أَحراراً ، فهي عليمة بإِنجيلها : " من يملك ثوبين ، فليقتسم مع من لا يملك " .

أَمّا ماري سيسيل ، فهي تعود كلّ يوم من المدرسة ، في نحو الساعة الرابعة، جائعة ، مع أنّ أُمّها تؤكّد أَنّها تعطيها ما تبتاع به شطيرة كبيرة . و تميط أُختها وفاء لثام السرّ باعترافها : " ماما ، إنّ ماري سيسيل تعطي كلّ يوم شطيرتها للفقير الذي يقف عند ناصية الشارع " . فتبرّر الصغيرة فعلها :

– " أَجل ، أُمّاه ، فهو أَشدّ جوعاً منّي "

المسيح قال : " إن لم تعودوا فتصيروا مثل هؤلاء الصغار ، فلن تدخلوا الملكوت " .
و لكن ، يا ربّ ، ليس سهلاً على المرء أَن يمتلك مثل قلب ماري سيسيل : فالحياة قاسية ، و هي تقسّي قلوبنا .
بنعمة أَطفالنا ، إجعلنا ، يا ربّ ، نستعيد قلبنا الطفوليّ .

ليندا

جاءتني ليندا ، و هي امرأة بسيطة من عامّة الشعب ، محرومة من كلّ شيء، و بقيت أَرملة مع أَربعة أَبناء ، و اعترفت :

– " ليس سهلاً أَن تكون المرأة أَرملة ، ما من يذود عن حياضها ، و تهاجَم من كلّ صوب ، حتّى من حيث كانت تتوقّع شيئاً آخر .

– و ماذا عن أَصدقائك ، يا ليندا ؟

– أصدقائي ؟ هم أَيضاً ، يتحوّلون ، بغتةً ، إلى وحوش . منذ أَيّام ، كان عليّ أَن أمضي إلى إِبراهيم الذي يساعدني في إِعداد أوراقي ؛ هل تعرفين إبراهيم هذا ؟

– طبعاً ، إنّه أفضل رجل في العالم ، و يشاهد ذلك حتّى على وجهه .

– أَجل ، أَجل ، و لكن إِسمعي ما سأرويه لك قبل أن تحكمي عليه . لقد وصلت إلى مكتبه ، و كان جالساً وراء منضدته ، بإزائي ؛ و دفعت له الأوراق ، فكاد لا يلقي عليها نظرة ، بل حدّق فيّ ، و نهض فجأة ، وقد تحوّل محيّاه إلى وجه وحش ! "

و لكي توضّح روايتها ، أَخذت وجهها بين يديها ، و أَسبغت عليه مظهراً بهيميّاً مؤثّراً .

و تابعت روايتها : " قلت له : يا سيّد إِبراهيم ، لا تفعل ذلك ، و لا تقترب ، فاللّه موجود هنا " و لكنّه أَجاب : " و أَنا ، أَلست بشراً ؟ " و استحوذ عليّ خوفٌ شديد . حينئذٍ استنجدت بالعذراء القدّوسة : " أَسرعي ، أَسرعي إلى عوني ، فأنا أواجه وحشاً بمفردي " . و اعلمي أَنَّ العذراء استجابت لاستغاثتي ، ففي تلك اللحظة عينها دخل ولد ، طالباً من السيّد إِبراهيم دفتراً . صحيح أنّ إبراهيم ، عادةً ، طيّبٌ جدّاً ، و لكنّني ، أنا ، لم أعد أَعرف إن كان طيّباً حقّاً . و لكن ما أَعرفه أنّ مظهر وجهه قد تبدّل عندما حضر الولد ، أمّا أنا

فسارعت إلى الفرار . كثيراً ما يحدث لي مثل هذا ، و لكنّني ، كلّ مرَّة ، استنجد بالعذراء القدّيسة ، و هي تنقذني من جميع الوحوش . "

و استعاد محيّاها سكونه ، بعد أَن اعتراه الاضطراب فيما كانت تسرد حكايتها .

و ذات يوم جاءت لتخيط ، برفقة أَرملة أُخرى . و بغتةً سمعتها تقترح : "فلنتلُ المسبحة " . و بتؤدة ، فيما كانت قدماها تحرّكان آلة الخياطة ،كانت شفتاها المشقّقتان تردّدان : " السلام عليك يا مريم ، يا ممتلئة نعمة " . و تردّدت في الغرفة أصداء ضجيج مزدوج .

في كتابه عن الثورة الفرنسيّة كتب بيير دي لاغورس : " فيما كانت الإلهة العقل متربّعة على عرشها في نوتردام ، كانت الصلوات البسيطة التي تهمس بها نساء فقيرات تنقذ المسيحيّة " .

طالما وُجِدَ أَمثالك ، يا ليندا ، ستكمّ أَفواه الوحوش ، و لن تقفر الأَرض من اللّـــــه .

حجار و قبلات

يتّفق أَحياناً أن يلتقط أولاد مسلمون حجاراً و يقذفوا بها كلّ من يرتدي ثوباً كهنوتيّاً أو رهبانيّاً . و يتعيَّن علينا ، حينذاك ، أَلاّ نضطرب .

ثلاثة أَطفال عاملوني ، ذات يوم ، على هذا النحو ، و عندما التفتّ لاذوا بالفرار ، و لكنّني قبضت على أَحدهم ... و قدّمت لهم ملبّسة ، قائلة : " لمَ تفعل ذلك بي ؟ هل آذيتك ؟ خذ هاتين الملبّستين الأخريين لرفيقيك " .

و مضيت في سبيلي ، و سرعان ما ترامى إلى أُذنيّ وقع أَقدام تركض خلفي، و انتهى إليَّ الصغار الثلاثة و هم يلهثون قائلين : " معذرة ، لم نكن ندري ما نفعل ". فابتسمت لهم وقبّلتهم، و مذّاك أصبحنا أَصدقاء .

في مكان آخر أَخذ أطفال ، لا يتجاوز طول واحدهم ارتفاع ثلاث تفّاحات ، يجمعون حجاراً كي يقذفوني بها . و حينئذٍ رأيت فتاة صغيرة تندفع نحوي ، و تأخذ يدي ، و تقبّلها بحرارة . أليس هذا رائعاً ؟

مهمّتنا أَن نعلّم صغارنا الحبّ ، الحبّ من خلال فوارق الدين ، و الجنسيّة ، و لون الجلدة ... و أن نجعلهم يردّدون مع أنتيغون : " لقد خلقت للحبّ لا للبغض "

متى سيتصافح كلّ أولاد العالم ؟ حينئذٍ ستتحوّل الأَرض إلى فردوس وتتحوّل حجارها إلى قبلات .

لقد قتله رفاقه الثلاثة ، لماذا ؟

(كان الحادث مازال يخضّني خضّاً ، و أَنا أُدوّن هذه الأَسطر ، حيث تسري حرارة دم بعزق . و حتّى اليوم لست أَدري هل أَستطيع أن أكتبها و أَنا أكثر هدوءاً.)

لقد قتلوه ، و هو في الثامنة عشرة ، و اسمه بعزق ... لم يكن يرغب إلاّ في الحياة و لكن رفاقه الثلاثة قتلوه . لمَ ؟

كان قد وصل إلى مقرّ جامعي النفايات و هو في الخامسة عشرة ، و راح يقود حماراً كي يجمع النفايات ؛ و أَحبّوه، فقد كان مستقيماً ، نشيطاً ، متأهّباً دائماً للعمل .

لقد قتلوك يا بعزق ... لماذا ؟ و أَنت لم تكن ترغب إلاّ في الحياة . كيف حدث ذلك ؟

لخمسة أَيّام مضت ، في الحادي عشر من شباط ، كنتَ قد عدت متعباً من تسلّق آلاف الأدراج . و في المساء قال لك رفاقك الثلاثة : " يلّه ، فلنمضِ إلى المقهى " . أيّ مكان آخر يمكنك أَن تقصده لتروّح عن نفسك ؟ فكوخك المصنوع من صفيحٍ مثقَّب ، مثل كلّ أَمثاله ، لا نوافذ له ، و فيه ترقد مع رفاقك الثلاثة .

و مضيتم إلى المقهى حيث جلستم و شربتم كحولا رخيصة ، يباع ليترها بستّة قروش ، وطلبتم ورق اللعب ، فلعبتم و أَنتم تشربون . الكحول أَلهبت حناجركم، و الورق أَلهب عيونكم . و انتصف الليل و أَنتم ما زلتم تشربون ؛ و لسوء طالعك ، يا بعزق ، فزت باللعب ،و قلت منتصراً :

" يلّه ، قد ربحت ، و أَنتم مدينون لي بخمسين قرشاً " . خمسون قرشاً هي أَجر يَومْي شغل سائق عربة قمامة . و انتفض رفاقك غضباً صارخين : " لسنا مدينين لك بشيء أَيّها اللصّ ! "

و انهالت عليك الشتائم . حذارِ ، يا بعزق ، فالكحول تفقد الصواب ؛ غير أَنّك تصرّ على استيفاء حقّك ، و ربّما دفعتك إلى ذلك رغبتك في مساعدة والدك ، أَو رغبتك في مزيد من الشرب ؛ لن يعرف أحدٌ ، أبداً ، سرّ ذلك . أخيراً قذفوا لك بفلوسك ، و الغضب يتطاير من عيونهم ، و لكنّهم احتفظوا منها بعشرة قروش ، فطالبتهم

– يلّه ، قروشي العشرة

– هذه ، لن تحظى بها أبداً

و غادر الرفاق الأَربعة المقهى ، يترنّحون و يجأرون حنقاً ، و انطرحوا في كوخهم . حذارِ يابعزق فالكحول تفقد الصواب . إيّاك ، إيّاك أَن تستسلم للنوم ! وناس المصباح ، ثمّ انطفأ ، و نام بعزق ، في ظلام دامس ، و لمعت المدى ....

– " يلّه ، لن تطالبنا بعد ، بقروشك العشرة "

كلاّ لن تطالب بها ، بعد ، أبداً ، يا بعزق . و أَخلد الرفاق الثلاثة إلى النوم ، و قد تلطّخوا بالدم وتعتعهم السكر ... و اصطفّت الأَجساد الأَربعة جنباً إلى جنب .

و في الساعة الرابعة ، قدمت أُمُّ كريمة التي يعمل لديها الرفاق الأَربعة ، كي توقظهم ، و صاحت : " يلّه ، انهضوا إلى العربات ! " كانت تحمل مصباحاً ، و تقف عند العتبة ، و إذ بقدميها تدبق بمادّة لزجة ، و تطلّعت فإذا ببعزق ، و رفاقه الثلاثة مضرّجون بالدماء التي ضرَّجت ، أَيضاً ، قدميها و صاحت : " بعزق ، بعزق " و لم تلقَ جواباً ، أمّا رفاقه الثلاثة فكانوا نائمين ، ثملين .

و انطلقت أمّ كريمة تصرخ ، فتقاطر الجيران . و أَنفذت أحدهم على متن حمار لاستدعاء الشرطة .

– " أَيّهاالرفاق الثلاثة ، ماذا فعلتم ببعزق ؟

أَجل ، لقد قتلوه ؛ لمَ ؟ و هو لم يكن يتطلّع إلاّ إلى الحياة . سيسجَن الرفاق الثلاثة خمشة عشر أو عشرين عاماً ، و عندما سيفرج عنهم ، سيكونون كهولاً ، منتهين.

أَنت يا قارئي ، أَيُّها الإنسان الشريف الناصع الضمير ، أسمعك تقول : "إنّهم لم يسرقوه " . ربّما ، و لكن قل لي ، في الحقيقة ، من هم المسؤولون ؟ هل هم الرفاق الثلاثة ، أم المجتمع الذي يستغلّ جهدهم ، و يدعهم يعيشون مثل بهائم تتناحر؟ والمجتمع هو أَنت و أَنا ، ونحن جميعاً .

حسن ، ولكن ما العمل ؟ ما العمل ؟ أوّلاً أَن تنظر إلى جامع القمامة هذا الذي يأتيك ليعتقك من قمامتك ؛ أَن تنظر إليه نظرة أَخ ، و أَن تذكره في صلاتك ، وفكرك ، و تتحدّث أَحياناً عنه مع أَصدقائك . و من يدري ، فقد يستنهض روح اللّه الذي يبحث عن " متعاونين " على حدّ قول القدّيس بولس ، في سبيل خلاص البشر ، من يتصدّى لهذه المشكلة ، فيقدّم لهؤلاء القوم ، و لا سيّما للشبّان منهم ، خشبة خلاص .

أجل ، قتلني رفاقي الثلاثة ، و أنا لم أكن أطلب سوى الحياة . فهل سيكون لموتي أَيّة جدوى ؟

لقد قبض رجال الشرطة على الشبّان الثلاثة ، و أَنا استحوذ عليّ حزنٌ بليغ ، و تساءلت : " من المسؤول عن جريمة القتل هذه ؟ أَهم الرفاق الثلاثة ؟ بالطبع لا ، فهم كانوا يحبّون بعزق حبّاً شديداً . بل القاتل هو السكر ، وهو وضعهم الزريّ " . فقد كان أولئك الشبّان الأربعة يسكنون كوخاً معتماً ، و يرقدون على الحضيض تحت غطاء وحيد . و لم يكن لديهم من حيلة، في المساء ، سوى الفزع إلى المقهى حيث كان يوجد مصباح ، و ذلك المشروب المنكر الذي يساعد على قتل السَّأم .

ثلاثون ألف دولار

موت بعزق ، في الثامنة عشرة من عمره ، و قد غدر به خير رفاقه ، كان ظالماً ، بل كان فضيحة . كنت أُدرك أنّ تلك المأساة ما كانت لتحدث لو أنّني أُوجدتُ ملعباً ، و لو أنّ الشخص الذي كان قد أَعارني ملعباً لكرة القدم لم يستعِدْه ، و لو أنّني استطعت تنظيم ما يشبه نادياً للشباب . أَجل ، كان الشعور بمسؤوليّتي يرهقني . فلم تكن معالجة الأَمر تستلزم سوى القليل ، قليل من المال ؛ و حينئذٍ لَما قَتَل ذلك الشابّ الذي لم يكن راغباً إِلاّ في العيش ، إِخوةٌ له ، في ليلة سُكر .

ثمّة مشاكل جسيمة يشعر المرء حيالها أَنّه أَعزل . و لكن ، هنا ، كنّا نواجه معضلة نملك كلّ حلولها . و لم يكن يلزمني سوى القليل من المال .

غداة مصرع بعزق ، يمّمت شطر معهد اليسوعيّين ، و قلبي مثقل حزناً . وطلبت مقابلة الأب مارتان ، فوافى و بادرني بالسؤال :

– كيف حالك ، يا أُختاه ؟

– على أسوأ حال !

– لمَ ؟

– لأنّني لا أَفعل شيئاً ، و أَنت لا تفعل شيئاً ، و جميعنا لا نفعل شيئاً ، فيما شبّاننا يُقتلون .

– على رسلك ، يا أُختاه ، على رسلك . ما الذي حدث ؟

فرويت له القصّة المأساويّة ، و أَنا ما برحت منفعلة ، و خلصت إِلى القول :

– " كلّ ذلك ، في الواقع ، من خطئنا ، أبتِ ، خطئي و خطئك . فطالما لم نبنِ قاعة نادٍ حيث يتسنّى لشبّاننا قضاء سهرتهم في تسليات سليمة ، ستتكرّر الفواجع. ليسوا هم القتلة ، بل نحن !

– إِنّك تغالين ، يا أُختاه .

– لست أغالي بقدر ما تتخيّل ، يا أبت . ربّما شاهدت ، قديماً ، فيلم كيّات : "جميعنا قتلة . " و إِنّني أُشاطره الرأي . فلنبنِ لهم قاعة .

– لقد تحدّثنا في هذا الأمر ، و لا سيّما في الأَشهر الأَخيرة ، بعد أَن استعاد المالك أرض الملعب الذي كان قد أَعارنا إيّاه .

– بالطبع ، و منذ ذلك النهار المشؤوم ، بعد أَن بات متعذّراً على شبابنا مزاولة الرياضة البدنيَّة ، ما فتئت أُكرّر : فلنبتع لهم رقعة أَرض . "

و في شيء من نفاد الصبر ، أجاب الأَب :

– " أَجل ، و لكنّك تريدين ، في آنٍ واحد ، شراء حقل ، و بناء حديقتي أَطفال ، و قاعة للخياطة و أُخرى لمحو الأُمّيَّة ، و نادياً ، فضلاً عن إِعداد ملعب كرة قدم . و قد حسبنا أَنّ كلَّ ذلك يكلّف ثلاثين أَلف دولار . و بالإِضافة إلى ذلك ، كنت دائماً تقولين أَنّك تريدين إِنشاء مسبح "

فرددت و أَنا أَجيش غضباً :

– دع أَمر المسبح جانباً ، أبتِ ، مع أنّ جامعي القمامة أحوج من سواهم إلى الانتعاش أثناء الصيف . أَمّا الثلاثون أَلف دولار ، فسألتمسها في أوربا . فجِدْ لي عناوين ، و زوّدني ببركتك، و سنتحالف ، في ذلك ، مع السماء و الأَرض .

و نتج عن هذا الحديث أن تزوّدت بتوصيات من شخصيّات رفيعة : أسقف ، و قاصد رسولي ، و بطريرك ، و أَنفذتها إلى مختلف المدن الأوروبيَّة ؛ و اندفعت في البحث عن الثلاثين ألف دولار .

يوم غادرتُ القاهرة لجباية هذا المال ، اعتقد الناس أَنّني سأخفق في جمع الثلاثين أَلف دولار ؛ أَمّا أَنا ، فكنت أَشعر أَنّني محمولة بقوّة رائعة ، و كنت مستعدّة لرفع الجبال .

المصريّون

كثيراً ما تنقّلت عبر بلدان أوربا ، و آسيا الصغرى ، و أفريقيا الشماليّة.ولكنّني قلّما شهدت علاقات تتّسم بمثل روح الصداقة و الدماثة التي عهدتها في مصر و إليكم دليلاً من ألف دليل .

فيما كنت أعدّ لرحلتي نحو الثلاثين ألف دولار ، فوجئت بخبر يقول أنّ السعر المخفّض على بطاقات الطيران سينتهي مفعوله في الأوّل من نيسان ، ممّا يعني زيادة مئة جينيه على ثمن البطاقة .

و هرعت أسابق الزمن ، ساعية من مكتب إلى مكتب كي أُنهي معاملات السفر ، قبل أن أُرغم على دفع هذه الزيادة . و أنا ، على غرار أَصدقائي جامعي القمامة ، أَلِفْتُ ألاّ أَستخدم التكسي إلاّ في حالة الضرورة القصوى . و يومها كان عليّ أن أُنهي جميع المعاملات قبل موعد إغلاق المكاتب .

و فيما كنت أَبحث عن تكسي ، تقدّمت سيّارة ، و رغبت امرأة مستعجلة في استقلالها ، وعندما اتّضح أنّنا ماضيتان في إتّجاه واحد ، اتّفقنا على اقتسام خدمتها . و سألتني المرأة :

– ما هو مقصدك بالتحديد ، يا أُختاه ؟

– مكتب الطيران السويسري

– " يلّه يا ريّس إلى الطيران السويسريّ " .

– و لكن ، ماذا عنك ، يا سيّدتي ؟

– لا بأس ، سأوصلك ، أَوّلاً ، ثمّ أُتابع دربي ، فيبدو أَنّك أكثر استعجالاً منّي. "

و قد أبت ، قاطعة ، أن أَدفع حصّتي من أجرة السيّارة ، وودّعتني أَمام باب المكتب .

كان السيّد ب . م ، الدمث و المهذّب ، قد أَعدّ برنامج سفري ، غير أنّ ثلاثة أَشخاص كانوا يجلسون في مكتبه .... و عقدت حديثاً مع اثنين منهم ، شابّ و فتاة ، و تلقائيّاً تتطرّقنا إلى موضوع جامعي القمامة ، فهو الموضوع الذي أُجيده أكثر من كلّ موضوع سواه . و عندما همّت الفتاة بالمغادرة أودعت في يدي قطعة نقد قيّمة قائلة : " هذه من أَجل جامعي القمامة ، أَصدقائك ". و توارت مبتسمة ، قبل أن يتسنّى لي شكرها .

و جاء دوري ، فقال لي السيّد ب . م :

- " لقد كان عسيراً العثور على مقعد في رحلات 31 آذار ، فالجميع يحرصون على السفر في اليوم الأَخير الذي ما يزال فيه السعر المخفّض سارياً . ولكن عثرنا على بطاقة متبقّية لدى شركة الطيران الباكستانيّة ، وسيكون كلّ شيءٍ على خير نسق . هذا هو المبلغ المتوجّب عليك أَداؤه ، ولكن احسمي منه عشرة جنيهات ستكون مساهمتي في رحلتك " . و غادرته و قد بلغ منّي التأثّر كلّ مبلغ ، لكلّ ما لقيته من كرم و لطف .

و ما كدت انتهي إلى الرصيف حتّى توقَّفت سيّارة ، و سألتني سيّدة : " هل تقصدين حيّ الزمالك ؟ " - " أَجل ، يا سيّدتي " - " تفضّلي ، إِذن ، بالركوب " . وصرّحت لي تلك المرأة الفاتنة أنّها تدعى " إيزيس " ، اسم كالحلم ، اسم إلاهة القمر. و عندما توقّفنا أمام إِشارة مرور ضوئيّة حمراء ، هرعت إِلينا بائعة بنفسج ، فهتفتُ بحمق : " يا لها من زهور جميلة ! " - " هل تحبّين البنفسج ، يا أُختاه ؟ " و قبل أن تتاح لي الإِجابة ، اشترت لي رفيقتي صحبةً منها قدّمتها لي ، فشكرتها ، مرتبكة ، وعبقت السيّارة بشذى ناعم . و سألتني رفيقتي :

" أيّ جهة من الزمالك تقصدين ؟

- " السفارة البابويّة .

- حسن ، سأوصلك إليها "

وودّعتها ، و يدي قابضة على صحبة البنفسج . اسمها إيزيس ؛ هذا كلّ ما أعرفه عنها .... من المؤكّد أَنّني لن أراها ، بعدُ ، أَبداً .

بالزهور العطرة ، و بطاقة السفر المخفّضة الثمن ، و بعشرة جنيهات في حقيبتي ، و لجت السفارة البابويّة ، و إذا بسعادته ، مونسينور ج . قد كتب إلى روما يوصي بي ، أَمّا أَمين سرّه الإِيطالي الأب ب . فهو من أكبر أصدقاء جامعي النفايات، و أنا منهم ، و قد زوّدني بنصائح مفصّلة تتيح لي تدبّر أَمري في المدينة الخالدة .

و عدت مفعمة سروراً . إنّه يوم سعد ينبغي الدلالة إليه بحجر أَبيض كما كان يفعل الأقدمون . من المحقّق أنّ الأَقمار المصريَّة لا تبشّر جميعها بمثل هذا الطالع السعيد ، و لكن تعال و شاهد ، على الأرض ، كم القوم يتجشّمون من عناء كي يخدموك .

في أوّل عهد إِقامتي في القاهرة ، زرت يوماً خوري أمبابا ، و كان عليّ العودة إلى مقرّنا في المطريّة ، و المسافة بين المكانين مسيرة ساعة و نصف إلى ساعتين . و كنت أَجهل كلّ ما يتعلّق بوسائل الانتقال . فاقترح ربّ أُسرة : " سارافقك حتّى المطريّة و أعود " ، فقلت : " هذا مستحيل ، بل هذا جنون . فحسبك أن تضعني في أوّل حافلة و تشرح لي أين

يتعيّن عليّ أن أهبط ، و أين أن أصعد من جديد . " وقد اقتضى منّي الأمر أن أتعارك معه كي أَردعه عن القفز معي إلى الحافلة .

آه ! لو كان لي أَن أُحدّثكم عن دماثة العديدين من الأصدقاء المصريّين لملأت مجلّداً .

في مستهلّ نشاطاتي ، في مصر ، ووجهت ببعض ريبة ، بحيث اضطررنا ، في وقتٍ ما ، إلى تجميد مركز السلام ، بعد أن أشيع أَنّنا نبني كنيسة . ولكنّ الوقت فعل فعله ، و في عام 1980 شرّفتنا السيّدة جيهان السادات ، زوجة الرئيس ، بتدشين مركز السلام في عزبة النخيل.

و سرعان ما غدوت محبوبة السفيرات اللواتي تبنّت كلٌّ منهنّ أُسرة من جامعي النفايات .

و عام 1991 ، عندما أَقمت احتفالاً كبيراً ، مع جامعي القمامة ، احتفاءً بسنواتي الرهبانيّة الستّين ، و بحضور السيّدة دانييل ميتران ، أَبلغتني السيّدة مبارك أَن طلبي الحصول على الجنسيّة المصريّة قد نال الموافقة ، و كانت تلك ، لي ، هديّة فريدة ثمينة .

<u>**دم بعزق**</u>

لقد اكتملت أَوراق سفري ، و ما انفكّ بعزق يملأ خاطري ، و لكأنّه يرافقني. أَجل ، سننقذ شبّاننا .

محطّتي الأولى : روما حيث اتّصلت هاتفيّاً بمؤسّسة " الكنيسة المتألّمة "، فجاءني الردّ : " أَجل ، أُختاه ، لقد تلقّينا بريدك . غير أنّ الأب فان سترتين ، مدير المؤسّسة ، مسافر . و أَنت قادمة من أفريقيا حيث لدينا الكثير من المراكز التي يتعيّن عليها إِغاثتها ، في حين أنّ مواردنا غير كافية . و عليك أَن تدركي مصاعبنا . "

– " أجل ، أُدرك ، و لكن إذا حدَث المستحيل و أُعطيت أَكثر من الثلاثين ألف دولار التي أَحتاج إليها ، فسأتمكّن من مساعدتكم .

– " شكراً أُختاه ؛ إلى اللقاء ، و حظّاً طيّباً . "

تلك المحاولة الأولى لم تكن على جانبٍ وافٍ من الإيجابيَّة . و لكن فلنُقْصِ عنّا القنوط .

بعد ذلك هتفت إلى الكردينال ب . ردّ عليّ صوتٌ رقيق و لكنّه مستعجل : "أَجل أُختاه ، لقد أَطلعني القاصد الرسوليّ على موضوعك . و لكنّني أُنهي الآن حزم حقائبي ،متوجّهاً إلى باريس ، فراجعي مونسينور ب ، و أتمنّى لك حظّاً طيّباً " .

و ها أنذا أمام ذلك الأسقف الثاقب النظر ، و الواضح الكلام ، الذي بادرني بالقول : " أمامي ملفّ جامعي النفايات . أنت تحتاجين ، إذن ، لثلاثين أَلف دولار ، و هو مبلغ لا بأس به . هل شرعت بمساعيك من أَجل جمعه ؟ " – " أَجل ، يا صاحب السيادة " . و رويت له،ببساطة،محاولتي الأولى الهاتفيّة ، فاستخلص : " إن استمررت وفق هذا الأسلوب ، يا أختاه ، فخير لك أَن تستعيدي غداً طريق القاهرة ، إذ لن تتمكّني من الظفر بأيّ شيء . و لكن عليك أَن تقصري اهتمامك على جامعي النفايات ، يا أختاه ، و ألاّ تهتمّي بجميع المراكز في أَفريقيا . أَمّا الهاتف فلا تستخدميه إلاّ لتحديد موعد ، و تحلّي بشيء من الحنكة . "

و عندما لحظ ارتباكي ، أَضاف : " هيّا ، سأقدّم لك شيكاً ، و سيكون البداية". ثمّ التفت إلى أمين سرّه و قال : " اتّصل بالكنيسة المتألّمة و أخبرهم أنّ الأُخت في طريقها إِليهم " . ثمّ قال لي : " المكان قريب جدّاً ، ما عليك سوى اجتياز الجسر والانعطاف إلى اليمين ، إنّهم في البناء الأوّل . إلى اللقاء ، و تمنّياتي لك بالتوفيق . "

لقد كنت محظوظة حقّاً بلقائي ذلك الأسقف ، فبفضل نصائحه التي اتّبعتها بدقَّة ، تمكّنت من فتح العديد من الأبواب الموصدة . ففي المقام الأوّل تلقّيت استقبالاً رائعاً في " الكنيسة المتألّمة " ، حيث أَصغت إليَّ المرأة العذبة المدعوّة أنطوانيت ، بكلّ قلبها . و رويت لها قصّة بعزق ، و بغتةً ، كما لا يحدث لي إلاّ مرَّة كلّ عشر سنوات ، وجدت نفسي أذرف

الدموع . كم كنت مدعاةً للسخرية ، و لكنّني كنت عاجزة عن الانعتاق من تأثير موت بعزق .
حينئذٍ أَكّدت لي محدّثتي : " لا تقلقي ، يا أُختاه ، فسنساعدك ، و لن تتكرّر المأساة "

و غادرت مطمئنّة ، و لكن علامَ تتراءى آثار دم بعزق باستمرار على يديّ ؟ فمع أنّني لم أَمسّه ، يبدو لي أَحياناً أنّ بوسعي أن أكرّر مع الليدي مكبث : " جميع طيوب بلاد العرب لن تقوى على غسل هذه اليد الصغيرة "

و لمَ يتوجّب أن تقع ، أوّلاً ، ضحايا ، و ينثال الدم ، قبل أن نسعى إلى غوث إخوتنا المعانين ؟ لقد كان لمقتل بعزق تأثير عليّ من العنف بحيث أفلحت في تسريب رسالتي .

بوسعي القول أنّ مأساة بعزق قد استفزّت ، في كلّ مرّة ، مساعدات لأصدقائي جامعي النفايات . و في كلّ مرّة كنت أطرح هذا السؤال المحرج ظاهريّاً :

- " ماذا كنت تفعل ، سيّدي ، يوم الحادي عشر من شباط ، هذه السنة ، في الساعة العاشرة مساءً ؟ " و كانت الدهشة تأخذ بمحدّثي ، فيقلّب أحياناً أوراق مفكّرته، و يجيبني غالباً :

- " لا ريب أَنّني كنت في منزلي ، يا أختاه

- " في رفاه تامّ ، يا سيّدي ، متمتّعاً بالكهرباء ، و التدفئة المركزيّة ، والتيليفزيون "

و كان بعضهم يعترضون :

- " أَنا لا أُشاهد التيليفزيون أَبداً ، يا أُختاه

- " ربّما ، سيّدي ، و لكن ، على أيّة حال ، كنت جالساً على مقعدٍ وثير ، عقب وجبةٍ فاخرة .

- " مثل جميع الناس يا أُختاه .

- " جميع الناس في مدينتك ، يا سيّد و لكن في تلك الأثناء ، لم يكن لشبّان في العشرين من عمرهم من مكان يسهرون فيه سوى كوخ حقير ، طوله ثلاثة أمتار، و عرضه متران ، يرقد فيه أربعة منهم على سرير من أرض ترابيّة ، لا نافذة فيه ، و لا ضوء ، و لا ماء ، و لا تدفئة ... فيما درجة الحرارة تكاد لا تتجاوز الصفر . ولم يكن بوسعهم سوى الفزع إلى مقهى ، عند ناصية الشارع . "

هكذا كنت أَتحدَّث بأكثر ما أَستطيع من برود ، و لكن بغتةً كانت حنجرتي تتقبض ، فأصمت...

على جميع الشيكات التي تلقَّيتها ، خُيِّلت لي رؤية بضع قطرات دم .

خلال تلك الجولة ، تبيّنت ، للمرّة الأولى ، ما تمكّنت غالباً من التحقّق منه فيما بعد ، و هو أنّ الناس ، خلافاً لما يُشاع ، ليسوا أنانيّين ، فعندما يتسنّى لهم مَنْ يمسّ قلبهم حقّاً ، و

عندما تتولّد لديهم الثقة في مصير ما يتبرّعون به من مال ، فهم يبرهنون عن سخاءٍ لا يصدّق ، و غالباً ما يقترن سخاؤهم بالخَفَر . و ما زالت تحفل ذاكرتي بالتبرّعات المُغفَلة التي كانت تردني إثر محاضراتي ، قادمة من أَغنياء وفقراء على حدّ سواء . و قد جاءني رجلٌ ، يوماً ، بسبيكة ذهبيّة .

شهراً بعد مغادرتي القاهرة عدت بثلاثين أَلف دولار ، واستطعت مباشرة العمل . و لكنّ الأسعار كانت ترتفع باستمرار ، و في آنٍ واحد ، كانت تتفاقم الحاجات ، فبعد ملعب كرة القدم ، لزمنا مال من أجل دار توليد ، و من أجل مدرسة مهنيّة ، إلخ ... و بالتالي قمت بجولة ثانية في أوروبا عام 1976 ، وبجولة ثالثة عام 1978 في أميركا برفقة الأُخت ساره ، ثمّ بجولة رابعة، فخامسة ، و بجولات أُخرى لم أعد أعرف عددها ، حتّى عام 1993 عندما تقاعدت . كنت أُحبُّ هذه الأسفار ، ولكنّني في عقب كلّ منها كنت أكثر سعادة بالعودة إلى كوخي

عمليّة سطو

أثناء محاضرة لي في جنيف ، أخذني الاندفاع فهتفت : " عليّ أن أَعثر على الثلاثين ألف دولار ، و إلاّ قمت بعمليّة سطو ! "

و كان صحفيٌّ بين الحضور ، فصدرت في الغداة صحيفة سويسريّة تحمل عنواناً بأَحرف كبيرة يقول : " راهبة مستعدّة للقيام بسطو ! " يبدو أنّني نسيت اتّباع المثل الشعبيّ القديم القائل : " أَدر لسانك في حنكك سبع مرّات قبل أن تتكلّم ! " غير أنّ عدداً من الشبّان أبدوا تأهّبهم لمساعدتي ، و استفسر بعضهم : " هل نعدّ المسدّس، أُختاه ؟ " و خيّل إليّ أنّني أسمع أزيز الرصاص ! يا للشؤم ! فلنُرجع السيف إلى غمده ، و لنبقَ " راهبة طيّبة " لا تؤذي .

و قد أثرت أَيضاً استنكار أَصدقاء عندما صارحتهم بقولي : " عندما شاهدت متجر المواد الغذائيّة الكبير في جنيف يفيض بالأَغذية للبشر ، و للكلاب و للهررة ، قلت في نفسي لو أنّني كنت مازلت شابّة ...

– ما عساك كنت تفعلين لو أنّك كنت ما زلت شابّة ؟

– لكنت سكبت على ذلك المتجر نفطاً و أشعلته .

– يا له من أسلوب ! فلو شرعت الراهبات ، هنّ أَيضاً ، يفتعلن الحرائق ، لما بقي للبشر سوى الفرار إلى القمر !

– أرجوكم أن تفهموني ، فقد هبطتُ ، بقسوة بالغةٍ ، من عالم جامعي النفايات إلى عالم متجر كبير يغصّ بالأَغذية ! "

و يوم مررت ، ثانية ، بجنيف ، في نهاية رحلتي وجدت تلك المدينة الهادئة ضاجّة : شوارعها مقفلة ، و رجال الشرطة مبثوثون في كلّ جانب ، و سيّارات النجدة منتشرة . و أشعل زوج صديقتي شارلوت التيليفزيون و أعلن : " للمرّة الأولى في تاريخ جنيف يحدث سطو على واحد من أكبر المصارف الدوليّة . و ما زال اللصوص في داخله . أنظري إليهم " .

ثمّ التفت نحوي ، متصنّعاً القلق ، و قال : " أَخشى أن تداهم الشرطة منزلي ، بعد لحظات . فأثناء زيارتك الأولى كنت قد أَعلنتِ ، جهراً ، للصحافة ، أنّك ستعمدين إلى السطو إن لم تظفري بالثلاثين ألف دولار . و ما كدت تعودين حتى تمّت عمليّة السطو " . ثمّ أَردف بلهجة الصديق الذي ينبغي ألاّ يُخفى عنه شيء: " هل أَنت واثقة من عدم اشتراكك في السطو ؟ "

مراحل الدرب

عام 1978 ، و أَنا في طريق عودتي من الولايات المتّحدة و كندا ، برفقة الأُخت ساره ، رغبت في زيارة أَصدقائي في أوروبا ، و خاصّة برؤية البابا يوحنّا بولس الثاني المنتخب حديثاً .

و لم تتسنّ لي مقابلة خاصّة معه ، فاكتفيت بمقابلة عامّة مع بضعة مئات من الحجّاج .

و لمّا شهدت الأَب الأَقدس يدنو من المكان الذي كنت واقفة فيه ، قفزت فوق الحاجز ، و أَنا ابنة السبعين ، و انتصبت أَمامه هاتفة : " نحن راهبتان من القاهرة..." و هجم الحرس البابويّ متوجّساً من كوني إِرهابيّة متنكّرة في زيّ راهبة ؛ غير أَنّ البابا ردّهم قائلاً : " هذه هي الأخت إِيمّانويل ، و أَنا مطّلع على ما تفعله في القاهرة ... " و تحدَّث معي لحظات ، ثمّ التفت إلى الأُخت سارة ، و استوضحها عن صحّة البابا شنودة ، و باركها ثلاثاً .

عام 1980 أَلمّ بي التهاب رئويّ حادّ هدّني هدّاً ، و إِذ كنت آنذاك في زيارة لفرنسا أَذنت لي رئيستي بقضاء شهر نقاهة في ديرٍ مريميّ على مقربةٍ من نيس . كانت لي تلك العلّة حظّاً كبيراً ، إِذ أَتاحت لي ثلاثين يوماً من الخلوة مع اللّه . تلك الخلوة كانت حلم حياتي الذي تحقّق .

برنامجي اليوميّ في عزبة النخيل

في الخامسة صباحاً أَتدحرج على الجبل ، و بيدي مصباح كهربائيّ أُصوّبه إلى عيون الكلاب لكي أُبعدها عنّي .

في الخامسة و النصف ، أَستقلّ الحافلة المقرقعة ، و أَبتسم لركّاب تلك الساعة المبكّرة .

و عندما تفوتني الحافلة يقلّني أَحد جامعي النفايات على عربته ، سعيداً باستضافتي .

في السادسة أَتزوّد بالطاقة المستمدّة من الإِفخارستيّا ، في قدّاس يحتفل به معاً ثلاثةٌ أو أربعة كهنة يسوعيّين .

ثمّ أَهرع للّحاق ، من جديد ، بالحافلة التي ترتقي بي جاهدة إلى أَسفل الجبل ، فأتسلّقه ، و أَنا أَقضم خبزي ، توفيراً للوقت ، و استعداداً لاستقبال أَصدقائي جامعي النفايات الصغار .

في الثامنة و النصف يتدافع الصغار إلى المدرسة التي بناها شبّان بلجيكيّون ، و يجلسون على الحصر ، و يشرعون يقرؤون و يكتبون ، بإِشراف لبيب . وبعد انصرافهم نقتسم الخبز و الجبن ، أَخويّاً .

في الساعة الرابعة عشرة و نصف ، توافي الفتيات لتلقّي دروس في التفصيل و الخياطة و القراءة ، و بعضهنّ يرتدين باعتزاز فساتين صنعنَها بأنفسهنّ .

في السابعة عشرة يأتي طلاّب الصفوف الابتدائيّة من أَجل الحصول على دروس تقوية هم في أَشدّ حاجةٍ إِليها .

في التاسعة عشرة ، فيما ينطلق الفتيان ، يتدفّق الرجال من أَجل الظفر بدروس في محو الأُمّيَّة ، و يرتعشون ازدهاءً و فرحاً ، و هم يُروني الكلمات الأولى التي رسموها بيدٍ متردّدة . لقد أَخذوا يشعرون أَنّهم أَمسوا رجالاً مكتملين .

و يهبط الليل ، فأَقضي ساعة صلاة ، شاكرة للربّ الذي يُسيل في نفسي قليلاً من حبّه ، كي أُشعّه على إِخوتي جامعي النفايات .

اليوبيل الذهبيّ

في العاشر من أَيّار 1981 ، ذكرى يوبيل رهبنتي الخمسين ، أَردت اقتسام فرحي أوّلاً مع إِخوتي جامعي النفايات ، و تجديد نذوري و سطهم . فاجتمعنا في زقاق ، و تسلّقت فوق عربة لكي نستطيع أَن نشاهد بعضنا بعضاً ، و بعد ترتيل بعض الأَناشيد الفرحة ، تلوتُ في شيءٍ من التأثّر ، و لكن هذه المرَّة باللغة العربيّة ، النذور التي كنت أَبرزتها ، لخمسين سنة خلت ، في كنيسة الجمعيّة الجميلة في باريس. و كان جورج يعيد تلاوة كلّ جملة و يفسّرها ، مبرزاً نذور الفقر ، و العفّة ، والطاعة . و قد ساد صمتٌ قدسيّ مبيّناً مدى اشتراك كلٍّ من الحضور في هذا الاحتفال المتواضع تحت نجوم الله .

هل أَنا نادمة لأنَّني لم أُنجب أَطفالاً ؟ ... في المدرسة الصغيرة التي أَنشأتها في قرية صفيح المقطّم لديّ ... ثلاث مئة طفل استطعت انتشالهم من القمامة ؛ لقد انتشلتهم منها حقّاً ؛ إِنّه لأمرٌ مثير ، رائع ...

لقد فتنني اللّه ، و استسلمت لفتنته ؛ لقد أَخذني ووضعني في قرية الصفيح هذه و إِنّني لأَشكره . إِنّني أُغنّي في قلبي ... إِنّها حياة جميلة ، جمالاً خارقاً .

<u>مدرسة في المقطّم</u>

جئت قرية صفيح المقطّم عام 1982 ، و كان عليّ أَن أَنطلق فيها من الصفر.

المدرسة الوحيدة القائمة في تلك المنطقة تقتضي مسيرة ثلاثة أَرباع الساعة . و من ثمّ يحجم الأَهلون عن السماح لأَطفالهم ، الذين لم يتجاوزوا السادسة من العمر، و لا سيَّما البنات منهم ، بهبوط الجبل إليها . حينئذٍ وطَّنت العزم : فلا بدّ من إِشادة مدرسة إبتدائيَّة في وسط قرية الصفيح .

و عثرتُ على رقعة أَرض في منحدرٍ حيث ما زال الهواء نقيّاً ، و ساومت صاحبها :

– إنّك تطلب خمسة عشر أَلف جنيه ثمناً لها ؛ و لكنّه ثمن غالٍ ، يا عزيزي ميخائيل ، و هكذا لن يبقى معي من المال ما يسمح لي بالبناء .

– يا أُختي ، من السهل عليّ الحصول على خمسة عشر أَلف جنيه ثمناً لها ، و لكنّني أَودّ مساعدتك على إِنقاذ أَبنائنا ، و بالتالي سأَتنازل لك عنها لقاء تسعة آلاف فقط .

و سرعان ما نهضت المدرسة ، ناصعة البياض ، في قلب قرية الصفيح المتَّشحة بالسواد ، جميلةً بجدرانها المزيَّنة برسوم اللوتس ، و الطيور ، و المراكب ، و الأَشخاص الرمزيّين المستمدّين من تقليد الفنّ الفرعونيّ . فليس ضروريّاً أَن تكون المدارس ، دائماً ، تافهة المنظر، رماديّة اللون .

و مضيت من كوخٍ إِلى كوخ داعية إِلى الالتحاق بها الأَطفال الذين رقصوا جذلاً ؛ ووقف كلّ منهم ساكناً ، ريثما يؤخذ قياس مريلته ، ثمّ هرع إِلى برميل الماء كي يغسل وجهه ، و انتصب مزهوّاً ، أَمام السائق جورج ، لكي يلتقط له صورة الهويّة .

في الساعة السابعة من اليوم الأَوّل ، كان أَربعة و ثلاثون طفلاً قد سُجّلوا ، وسيكونون مستعدّين للاستيقاظ في الثالثة فجراً لجمع النفايات ، و لتبديل زيّهم بسرعة كي يلتحقوا بالمدرسة في التاسعة .

و في غضون السنة الأُولى بات لدينا مئة و ثلاثون طالباً صغيراً ، و روضتا أَطفال ، و مدرسة ابتدائية ، مع أَنّني اندفعت إِلى ذلك المشروع بلا مال ، و لا جهاز إِدارة ، و لا شيء.

إنّني مصابة ، دائماً ، بشيءٍ من الجنون ، و لن يشفيني منه أَحد .

و قد لجأت ، في سبيل توظيف معلّمات ، إِلى قرية منشيّة ناصر القريبة ، فأَجبنَني :

– كلاّ ثمّ كلاّ ، لن نمضي إِلى هذا المكان الملعون !

غير أَنّني أَقنعت فتاة كانت تنهي دورة معلّمة روضة أَطفال بزيارة المكان ، و أَريتها المدرسة وصفّها النظيف ، فدُهشت ، إِذ لم تكن تتوقّع رؤية ما رأت . وبغتةً قدم بعض أَطفال جامعي النفايات بأَسمالهم الزريّة ، و تشبّثوا بها ، و انطلقوا يهتفون:

– ينبغي أَن تأتي إِلينا .

و جال بخاطري : " لقد قضي الأَمر ، فلدى رؤيتها هذا البؤس سترفض " ، و أَغمضت عينيّ و شرعت أُصلّي ، ثمّ استوضحتها :

– " ما رأيك ، يا آنسة ؟

– سأفكّر في الأَمر ، يا أختاه ، وسأبلّغك جوابي غداً "

أَلم يكن ذلك رفضاً ؟ فعندما يقول المصريّون " غداً " ، ألا يعنون " لا" ؟

و لكنّني فوجئت بالفتاة ، في الغداة ، تقول :

– " إنّني قادمة ، و اسمي روز "

والدها الطيّب هو الذي كان قد أَقنعها بقوله : " صحيح أَنّهم أَبناء جامعي نفايات فقراء ، و لكن عليك الآن ، و قد ظفرت بشهادتك ، أَن تخدمي "

و بعد روز جاءت أَنجيل ، و غيرهما .

عندما أُشاهد ، اليوم ، صغار جامعي النفايات السبع مئة هؤلاء ، نظيفين ، لطيفين ، متأبّطين قمطرات من القماش – لأَنّهم لا يملكون من المال ما يسمح لهم بشراء قمطرات جلديّة – أَهتف : " لو لم أُنجز سوى هذه المدرسة ، لكان بوسعي أَن أموت بسلام "

ذات يوم التقيت في بيت صديقة لي ، مفتّشة مدارس ابتدائيّة ، كانت بادية الاستياء من نتائج تفتيشها ، فسألتها ببراءة :

– هل أَنت ، أَيضاً ، مسؤولة عن تفتيش مدرسة المقطّم الصغيرة ؟

فأجابت :

– هذه نموذج مختلف ، و ينبغي وضعها فوق عجلات ، و الطواف بها ، كي يشاهدها الجميع!

" لن أَقتل إبني " نيسان 1983

التقيت ، في الشارع ، أمّ صباح تسير بمشقَّة ، و تتنفّس بمشقَّة أكبر .

– " في إِيه " ؟ هل أَنت مريضة ؟ إِمضي و الزمي سريرك ، و سأوافيك ، في الحال ، مع الدكتور عادل . "

و ها نحن في الكوخ البائس حيث لا يعرف المرء أين يضع قدميه ، فتحت الصفيح العتيق المثقّب الذي يقوم مقام جدار يسيل روث الجاموسة ... و دنا الدكتور عادل ، و فحص المريضة ، فإذا بها حامل في شهرها الثاني . و التفت نحوي و قال لي بالفرنسيَّة : " إنّ قلبها في منتهى الوهن ، و لن تقوى أبداً على الوضع . فعليها أَن تختار بين الإِجهاض أو التعرّض للموت "

فحدّثتها برقّة : " يا أمّ صباح ، ترين كم أنت ضعيفة ، و قد تقضين نحبك وأنت تضعين " .

ثمّ قال لها الطبيب : " بإِمكاني إِجهاضك ، و لكن عليك أن تقرّري بلا تلكّؤ". و رمقتني بنظرات ملتهبة ، متوسّلة ، فقلت : " عليك ، أنت وحدك ، أَن تقرّري بشأن حياتك ، و حياة طفلك " . و أَجابتني بصوتٍ خافت و لكن بلهجة حازمة : " لن أَقتل ابني ، و حياتي بين يدي اللّه " . و تلمّستْ ، برفق ، بطنها وأَردفت: " كلاّ ، لن أَقتله"

و غادرتها منقبضة القلب ، مستعظمة سموّ نفسها .

أَثناء الأَشهر اللاحقة ، بتنا ، الأُخت ساره و أَنا ، نوافيها بالأَطعمة الأَغنى غذاءً ، و في شهرها الأَخير نقلناها إلى المستشفى كي تتلقّى أَفضل عناية ... و ذات ليلة داهمتها آلام المخاض ،و جيء بعربة مضت بها ، عبر مصعد ، إلى غرفة العمليّات . غير أنّ الطبيب الشابّ المناوب ، الذي كان يعرفها ، كاد يجنّ ، و راح يصيح : " ستقضي نحبها بين يديّ ، و سأُتّهم بقتلها ، كلاّ ، كلاّ ، استدعوا طبيباً آخر، أو امضوا بها إلى مشفى آخر ... " . و مرّة أُخرى العربة ، و المصعد ، وقاعة المرضى ... و لكن الآلام تتفاقم ، و النساء المرافقات يفقدنَ صوابهنّ . وعودة إلى غرفة العمليّات ، بيد أنّ الطبيب الشابّ ، و قد ازداد اضطراباً ، يرفض رفضاً قاطعاً الاهتمام بها . ثلاث مرّات ارتقى بها المصعد و هبط ... و في المرّة الثالثة ، و هي وحيدة على عربتها ، في المصعد ، وضعت أمّ صباح طفلها ... وصمد قلبها!!!

عيد الفصح يقترب ، و الحياة تنتصر على الموت ... و ها إنّ طفلاً عذباً يدعى يوسف ، مطمئنّ بين ذراعي أمّه .

جاء أيلول و انتهت العطلة التي وفّرت لإخواننا جامعي النفايات ساعات ساحرة في

<u>**دار السعادة**</u>

جاء أيلول و انتهت العطلة التي وفّرت لإخواننا جامعي النفايات ساعات ساحرة في بيت السعادة بمحلّة " أبو سلطان " . و قد عبث في بحيرة الإِسماعيلية ، منذ مشرق الشمس

حتّى مغيبها ، الرجال و النساء و الأَولاد القادمون من مركزي السلام و المقطّم – و كانت الأَفضليّة قد أوليت للنساء و الأولاد – و ها هم أَجساد تسيل بالماء المالح ، و جلود رطبة ، و شفاه ضاحكة ، لا يبارحون الأمواج إلا لتناول الطعام الذي كنّا نحاول جعله منعشاً لتلك المِعَد التي يثير فيها الهواء النقيّ الجوع . كانوا يرفعون أَيديهم نحو المشرق ، فيردّد المسيحيّون : " أبانا الذي في السموات " ، فيما يتلو المسلمون الفاتحة للرحمن الرحيم . ثمّ ، كانوا يتحلّقون فوق حصيرة ، و قد ثنوا أَرجلهم ، و يغمس كلّ منهم خبزه ، بحماس ، في طبق "الملوخيّة" اللذيذ ، أو طبق الباذنجان المتبّل بالبهار و الحارّ ، و ينتهون بالبطّيخ الذي يسيل طلاوته في الحنجرة ، أو بالمانغا البالغة العذوبة ، و لا سيّما ساعة يقطفها الفلاّح من شجرتها .

ثمّ كانوا يستلقون على الحصير ، فيظفرون بفترة قيلولة ، و بعدها ينطلقون ، ضاحكين ، للغوص في ماء يعيد الشباب ؛ و الشاهد على ذلك العمّ صادق ، الجار العزيز الذي باع للشبّان البلجيكيّين من مؤسّسة أَصدقاء الأخت إِيمّانويل ، رقعة الأرض التي عليها أَشادوا مركزنا لتعليم الخياطة و محو الأميّة ... العمّ صادق كان شبه محتضر ، و قد أَذهلني عندما رأيته يصعد إلى عربتنا " مبروكة " التي تستأهل اسمها . و ما كاد يصل إلى الماء ، حتّى خلع جلاّبيّته و انغمس في اليمّ ، و قد بلغت به السعادة بحيث ما عاد يبارح الماء . و مذّاك هو يضاهي الشباب نضارة و عافية .

و عندما تشرع الشمس بالزوال آخذة معها حرارتها البالغة أَربعين إلى خمس و أَربعين درجة ، كنّا نتنزّه في الحقول . و كان أَطفالنا يتأمّلون للمرَّة الأولى ، وكأنّهم في حلم ، نبتات الفول الخضراء ، الفول الذي ينقذ من الجوع ، و أَشجار البرتقال و أَزهارها العابقة الشذا ، و أَحياناً برتقالات صغيرة ما برحت زرّاً ذهبيّاً ... و خاصّة أشجار المانغا بأَغصانها المتدليّة المغرية . قبل مجيئنا كنت قد أَلقيت خطاباً علنيّاً : " نحن لسنا لصوصاً ، فلن نسرق الفلاّحين " . و لا ريب أَنَّ فتياننا كانوا يضغطون بشدّة على أَيديهم لكيلا تمتدّ نحو الثمار العذبة . و إنّني أَشهد أَنّ ما من يد امتدّت ، و اقتضى ذلك بطولة حقّة .

الصغار يلعبون لعبة الاختباء ، فيتوارون خلف أَشجار النخيل ، أو وراء الجواميس الجسيمة الهادئة ؛ و يقتطفون أَزهار الحقول ، و يفترشون العشب كي يتناولوا طعام النزهة في هدأة المساء ... و يتنفّسون ملء صدورهم . و رفعت عينيّ في صمت ، شاكرة للأَب السماويّ توفيره كلّ هؤلاء الأَصدقاء لزبّالينا الصغار، ومعاً هتفنا ببساطة : " أَيّها الآب ، بارك الذين يوفّرون لنا هذه السعادة . "

"يلّه " ، فلنعد ؛ و ما لبثت أن رحت أُنصت إلى التنفّس المنتظم المتصاعد من فرشات الاسفنج التي رقدت عليها جنباً إلى جنب ، كلّ تلك الأَجساد الصغيرة ...

ما أَجمل الحياة عندما تكون بسيطة و أَخويّة ! و يا لها من فسحة ، يا أَصدقائي ! الأُمّهات كنّ يعلنّ : " هذه أَجمل أَيّام حياتنا! " و مع ذلك تعرَّضنا لحوادث لا بدّ منها بين البشر ، وصغارهم. فها هوذا جرجس ، و هو في الثامنة ، يشتم أحمد، ابن الخامسة ، لأنّه أَبى التخلّي عن إطار يستخدم بمثابة مركب ؛ و يتعاركان ، ومع أنّ أَحمد يتمتّع بقوّة خارقة ، إلاّ أَنّه ، في نهاية الأَمر يهوي أَرضاً ، و في سورة غضبه يتناول حجراً كبيراً و يهمّ بقذف جرجس به .

و كان لا بدّ لي من التدخّل : " هاتِ هذا الحجر ، يا أحمد " . فحدجني بنظرة قاتمة ، حارقة، تقطر حقداً .

و في المساء طلب منّي المسيحيّون الصغار صلباناً ، فسألتهم : " لمَ تريدون الصليب ؟ " فأجابوا باعتزاز : " لأَنَّنا مسيحيون ! " – " أجل ، و لكن ما يعني الصليب ؟ " – فأَجاب صوتٌ : " أنّ يسوع مات من أَجلنا عليه " . و ردّ صوت آخر: " لأَنّه كان يحبّنا " – " حسن ، و لكن ما علينا أن نفعل نحن ؟ " و جاء الجواب سريعاً : " أَن نحبّ ، نحن أَيضاً ، بعضنا بعضاً "

– " حتّى عندما نتقاذف بالحجارة ؟ " و استدعيت أَحمد ، فأَجلسته برقّة على ركبتيّ ؛ ثمّ استدعيت جرجس ، فجاء متردّداً ، و قلت له : " سأعطيك صليباً ، عليه يسوع ، و عليكما ، أَنتما ، أَن يقبّل أَحدكما الآخر ، مثل إخوة طيّبين " . و حدّق أحدهما بالآخر و ابتسما ، و تعانقا.

كان يسوع يقول : " إن لم تعودوا مثل أَطفال صغار ، فلن تدخلوا ملكوت السماء "

التهاب رئويّ

لقد أُصبت بالتهاب رئويّ حادّ جدّاً أَلزمني المستشفى سحابة ثلاثين يوماً ، ثمّ قضيت فترة نقاهة بين أَخواتي راهبات صهيون في الاسكندريّة ، محاطة بمحبّتهنّ ، متنشّقة بعذوبة

نسيم الربيع وسط أَشجار البرتقال ، و شتّى أَصناف الزهور و الورود. خلال الثلاثة عشر عاماً التي قضيتها بين ظهراني جامعي النفايات ، لم أتلبّث ، قطّ في مثل غمرة الجمال هذه .

و قد حدث لي ذلك لأنّني أَلِفْتُ ، و أَنا في الخامسة و السبعين ، أن أَنحدر في الساعة الخامسة صباحاً من جبل المقطّم ، تلسعني ريح شمال الشتاء ، أَنتظر ، مقرورة ، وصول حافلة مشرعة النوافذ على جميع الرياح ... و لكن تلك الحافلة تقودني إلى المدينة حيث أجري ، عبر الدروب التي ما برحت معتمة ، نحو الإِفخارستيّا ، منبع فرحي ، و موعد حبّي اليوميّ ، مذ كنت في الثانية عشرة من عمري !

و في الليل كانت تتسنّى لي زيارة أُسر إِخوتي جامعي النفايات حيث نتحلّق جميعاً حول نار قطع بالية من الورق المقوّى ، و نبحث ، معاً ، عن طريقة لحلّ مشاكلهم : أَمراض من كلّ نوع ، حالات حمل عيسر ، فشل مدرسيّ ، إلخ ...

إِخاء في المساء ، إِفخارستيّا في الصباح : أَلا يتعينّ علينا المضيّ حتّى نهاية شوط الحبّ ؟ من منكم ، يا أَصدقائي ، لم يتخطّ ، يوماً ، قواه ، في سبيل خدمة فرضها الحبّ ؟ جميعنا على شيءٍ من الجنون ، عندما نحبّ .

ما أَجملها ، مدرستنا ! أَيّار 1984

أَعظم فرح لنا ، هذه السنة ، هو فرحنا بمدرستنا ؛ كانت أَصوات خبيرة قد أَنذرتني : حديقة أَطفال : أمر ممتاز ، و لكن إيّاك من افتتاح المدرسة الابتدائيّة هذه السنة ، إذ سيكون الفشل الذريع مصيرها المحتوم . فهؤلاء المتوحّشون الصغار لا يعرفون سوى القمامة و

الخنازير ، و من غير إعداد ، لن يتمكّنوا أبداً من استيعاب مبادئ اللغة العربية الصعبة . ما العمل ؟ أثناء تجوالي في الأزقّة في سبيل الظفر بموافقة الوالدين على تسجيل أبنائهم ، كنت أتبيّن أعمارهم من شهادات ميلادهم ، وإذ بالكثيرين منهم في السابعة ، و القوانين تحظر حظراً قاطعاً تسجيل من بلغ الثامنة في المرحلة الابتدائيّة . فهل أدع هؤلاء الصغار للقمامة ؟ كلاّ ، أبداً . " يلّه " ، فلنخاطر... و ها إنّ خمسة و أربعين ولداً يباشرون الدراسة الابتدائيّة . و لكن عندما حان موعد الامتحان الانتصافيّ استحوذ عليّ قلق ما عتّم أن تحوّل إلى دهشة : فجميعهم ، عدا واحداً ، قد تمكّنوا من الإقلاع ، و نحو نصفهم قد حصلوا على العلامة المطلوبة ، ولا بدّ من إنقاذهم جميعاً ، و بالتالي من شطر الصفّ إلى قسمين، من أجل تحريض الضعفاء منهم .

يومها ، يا للعجب ، تقدّم معلّم يحمل توصية ، فاستخدمناه في الحال . والنتيجة ، اليوم ، أنّ نحو الأربعين طالباً سينتقلون إلى السنة الابتدائيّة الثانية ، وسنفتتح ، كلّ سنة ، صفّاً جديداً حتّى الصف السادس ، و إنّني أحلم ، بعد ذلك ، بمدرسة مهنيّة تقنيّة لاستنبات صَنَعَة مهرة متعلّمين ، تحتاج القاهرة إلى أمثالهم أشدّ حاجة .

في هذه الأثناء ، نحن دائبون على بناء طابقٍ ثانٍ كفيل باستقبال أربع مئة ولد نتوقّع مجيئهم ، في السنة القادمة .

و ليتكم تعلمون كم مدرستنا جميلة ! فالرسّام السويسريّ أندريه سونيو ،الذي يستدعونه في أوربا ، و أفريقيا و أميركا للإفادة من فنّه ، قد ارتضى أن يأتي ويزيّنها، " حبّاً بالأولاد " ، بلا مقابل .... و هكذا بات الأقصر و الكرنك يغنّيان في قلب قرية الصفيح ... و غدا صغارنا منفتحين على الجمال الذي أبدعه أجدادهم !

عمليّة بناء المساكن – آب 1984

عمليّة بناء " ألف مسكن " تسير سيراً حسناً ، و أرجوا أن أُنهي ثلاث مئة منها في آب 1985 ؛ و يُمكّننا اهتمام أصدقاء عبر العالم اهتماماً جدّيّاً بهذا المشروع، من أن نوفّر لجامعي النفايات ، الواحد تلو الآخر ، الآجرّ ، و الاسمنت ، و الرمل ، و الماء الغالي الثمن في قرى الصفيح . كلّ واحد من أصدقائنا يبني بيته بنفسه ، مستعيناً بمعماريّ يؤدّي له أُجرته

. و يأتي أَيضاً متطوّعون من فرنسا ، و بلجيكا ، وإيطاليا ، و سويسرا ، و أَلمانيا ، و مالطا ، فيقدّمون مساعدتهم . و قد رأيتهم في شهري تموز و آب هذين ، تحت أشعّة شمس تتخطّى حرارتها الأَربعين درجة ، يعكفون ، غير هيّابين ، على نقض الصفيح العتيق ، و نقل الآجرّ ، و سقل الاسمنت على الجدران ؛ و منذ بضعة أَيّام ، عزف فريق من المالطيّين عن الطعام والاستجمام، في الساعة الواحدة ، و ظلّوا ، في المقطّم ، دائبين على العمل حتّى الساعة الثالثة و النصف ؛ و لمّا عادوا و قد كساهم الغبار بالقتام ، مثل منظّفي المداخن ، أَعلنوا بنبرة منتصرة : " لقد فرغنا من بناء بيتنا ! " ... لقد أَمسى لهم جامعو النفايات إِخوة حقّاً ! ومن الذي يجرؤ ، بعد ، على القول أن لا همّ للشبّان سوى العبث ؟

و قد مضى بعضهم لبعث السرور في قلوب فتيان مسلمين جانحين : أولاد مساكين ، يوجد أمثال لهم في كلّ مكان في العالم ، يدرّبهم ذووهم على السرقة ويقبض عليهم رجال الشرطة ، فيودعون حتّى السادسة عشرة في مركز إِعادة تأهيل. قد لا يفتقرون إلى طعام ، و أَسرّة ، و تعليم ... و لكنّهم يفتقرون إلى الجوهريّ : الشعور بأَنّهم محبوبون . من أَصغرهم الذي ما برح في السابعة أو الثامنة إلى أكبرهم البالغ الخامسة عشرة أو السادسة عشرة ، ينتفضون فرحاً عندما ينظر إليهم الآخرون نظرة حبّ ، أو يقبّلونهم بحنان الأُمّ . و قد ضمّني أَحدهم بشدّة كادت تخنقني .

من أجلهم ، أَيضاً سنُشرع أبواب " بيت السعادة " حيث سنمضي غداً لنرقص مع الأمواج .

<u>قرية صفيح المعادي – آب 1985</u>

4 تمّوز – ها أَنذا في قرية صفيح المعادي . يا للصدمة ! ... وسط الصحراء التي لا يقطع امتدادها سوى أكوام القاذورات ، تنتصب مئات الأكواخ المصنوعة من الصفيح العتيق المثقّب، بلا ماء ، ولا كهرباء ، و لا ممرّضات ، و لا طبيب ، و لا مدرسة ؛ لا شيء ، سوى مئات الرجال و النساء ، و بخاصّة الأولاد المتسكّعين .

و بغتةً يبدو لي مركزا سلام و المقطّم فردوساً . – حسن يا أبا ميخائيل ، هل ستبني لي كوخاً من الصفيح العتيق ، على غرار كوخك ؟

– مؤكّد

– بكم ؟

– بمئة و خمسين جنيهاً

– موافقة ؛ و كم يستغرق ذلك من وقت ؟

– ساعة واحدة .

– حسن ، غداً صباحاً ، سآتيك بالمبلغ ، و سأستقرّ هنا .

و ها قد حللت في قصري الجديد ؛ و استدعيت جرجس ، المتعهّد الذي أجاد إشادة المركزين الآخرين ، و الذي عكف على بناء قاعة كبرى لمحو أميّة الصغار والبالغين ، و نادٍ مسائيٍّ ، و قاعة للخياطة و التفصيل ، و مستوصف ، إلخ ....

صباحاً ، ثمّة ثمانون ولداً قابعين على الأرض ، و قد انقسموا إلى جماعات كلّ منها تضمّ عشرة منهم ، أمام لوح أسود ، و في يد كلّ منهم دفتر و قلم : " ألف ، باء ، تاء ، ثاء ... واحد ، إثنان ، ثلاثة " . و يتوّج كلّ ذلك كوب حليب .

بعد الظهر ، دروس في الخياطة و التطريز ؛ و قد شرعنا بتكوين فريق كشفيّ . و حالما ستعمل مجموعة التوليد الكهربائيّ ، سنباشر محو أُميّة الرجال ، وسنفتتح النادي المسائيّ .

و عند افتتاح المدارس ، سأمضي كلّ يوم كي أجلب ، في حافلتنا ، الصغار الذين بلغوا سنّ الدراسة وفقاً لشهادات ميلاد نظاميّة . و بما أنّ قرية الصفيح هذه قد احترقت ، لبضع سنوات خلت – ثلاث مرّات متعاقبة – فقد أُعيد إخراج شهادات الميلاد إخراجاً عشوائيّاً ، بحيث أظهرت وثائق بعض أطفال بلغوا السابعة من عمرهم، و كأنّهم في الثالثة .

و تبقى المشكلة الرئيسة هي مشكلة الماء ، إذ يفتقر المكان إليه إفتقاراً كاملاً. فهل سأفلح في استنباط بعض منه على عمق خمسين متراً ؟ لقد تصدّيت لهذه القضيّة مستعينة بخبراء أكّدوا وجود أَمل ... " إن شاء الله "

مشكلتي الشخصيّة تتمثّل في التماس نبعي الخاصّ ، الإفخارستيّا، الذي تفصلني عنه مسيرة ساعة و ربع الساعة ... " يلّه " إلى الأمام ... قد ألتقي عربة جامعي نفايات فأقفز إليها ...

و تبقى عليّ مسيرة ثلاثة أرباع الساعة ... و تمرّ شاحنة فاستوقفها و أستقلّها فأختزل من المسيرة ربع ساعة ... و ها إنّني أقترب من غايتي" . " يلّه " الحياة جميلة، و يبدأ القدّاس

، فتشجّعي يا نفسي ، و انهلي من النبع ، و عودي منتصرة ، متدفّقة فرحاً و حبّاً تغمرين بهما إِخوتك جامعي النفايات !

الدكتور عادل يوافي ، مرّتين أسبوعيّاً ، لمعالجة المرضى . و قد باتت ممرّضة و مساعدة اجتماعيّة تزوران ، كلّ يوم ، الأكواخ . وبمساعدة الشابّ رفيق ، الطالب في معهد الأخ بولاد ، و المتدفّق حماساً ، قمنا بزيارة و إِحصاء مئة وخمسين أُسرة ، متدارسين معها ما تصطدم به من معضلات : مرض ، و مدارس ، و محو أمّيّة ، إلخ ....

لا بدّ لهم من تولّي أمورهم بأنفسهم ، و قد أوعزت إليهم أن تختار كلّ عشرة أُسَر ممثّلاً عنها ؛ و في اجتماعنا الأوّل أعلنت : " أَصدقائي ، إنّكم نيام ، و لاتفعلون شيئاً للإفادة من المساعدة الحكوميّة . " يلّه استيقظوا " . و لم يطل بهم الأَمر ، فها هم يبحثون كيف ينظّمون التماساتٍ رسميّة . صبراً ، سنبلغ أَربنا ...

نصف سكان المعادي من المسلمين ، و هم يعرفون أَنّني أُحبّهم أَيضاً بكلّ قلبي ؛ إنّني هنا لكي أُحبّهم ، بقدر ما أَستطيع مدّ جسور بينهم ... و الأمور تتحرّك بتؤدة .

إِغفر لي ، يا ربّ ، أَنا الخاطئ

-

إنّنا في كوخ ، مقتعدون الأَرض جميعنا ، و الجرذان من حولنا ، و قد حلّ المساء ، و مصباحنا ينوس ، و يكاد ينطفئ ، و الباب يأبى الانغلاق ، فتدخل الكلاب و الخنازير . و نحن ملتصقون بعضنا ببعض ، و براغيثنا ملتصقة بعضها ببعض .

هؤلاء القوم ، على غرار جميع الأَقباط ، يحبّون الغناء ، و هم يجأرون بتراتيل لا تناغم فيها و لا جمال ؛ و مع ذلك أعتقد أنّ صلاة الفقير تثقب السُّحب ، وأنّ أُذن اللّه ليست شديدة الإِرهاف ، فالشكر له .

ثمّ نهض أَحدهم ، و مازلت أرى " طائع " منتصباً ، و كتفاه متهدّلتان ، مطاطيء الرأس يردّد : " يا ربّ ، أَنا خاطئ " . و أَنا على الحضيض ، في ركن ضيّق ، مستندة إِلى

جدار من الصفيح العتيق ، يتدفّق منّي العرق ، كالجميع . أُنصت إلى الرجل ، وأتبيّن أَنّني ، أَنا ، ليس لديَّ هذا العمق في التوبة . لطالما قلت وردّدت مئات آلاف المرّات و أَنا أَتلو السبحة : " صلّي لأَجلنا ، نحن الخطأة .... " و لكن لا مقارنة بين ترداديو صيحة أَخي جامع النفايات ، فالتوبة تنبجس من أَعماقه ، هو . إنّه يعلم أَنّه ميّال إلى السرقة ، و أنّه ، بين حينٍ و حين ، يدخّن الحشيش ، ... و أنّه يغشى المقهى ، و يثمل ، و يشهر مديته ، و يرين عليه الشعور بأنّه مفرط الوهن ، غارق في " قعر الهوّة " ، و عاجز عن النهوض ، فيصرخ : " يا ربّ ، أَنا خاطئ " ، ثمّ يرفع ، قليلاً ، رأسه و أَنظاره نحو السماء و يقول : " ياربّ ، إرحمني " . منظر يستعصي على الوصف بالكلمات : ففي تلك اللحظة ، يستقيم جسمه كلّه ، و يتجلّى وجهه ، و يشيع نور الإِشراق في عينيه ، و في ملامحه ، ملامح جامع النفايات الهرم. إنّه واثق – و هو يصلّي على هذا النحو – أنّ الله يصغي إِليه ، و أنّ دم المسيح يخلّصه . لا يدري متى سيُعتق، حقّاً ، فهو شديد الوهن ، و قد يكبو من جديد. و مع ذلك إنّه واثق أنّ المسيح سيحرّره ، ذات يوم .

و هذا يبسّط الصلاة إلى حدٍّ بعيد . و أَنا أَشعر بعمق إلى أَيّ مدى أحاكي أَخي جامع النفايات . و لئن لم أَكن سارقة و لا قاتلة ، فلأَنّ محيطي لم يدفعني ، قطّ، إلى مثل هذه الأفعال ، و إنّني لعلى يقين بأنّه لو تسنّى لأخي " طائع " مثل هذا المحيط ، لما انتهى إلى ما انتهى إليه .

و ليس صحيحاً ظنّي بأنّني أكثر استقامة ، فأنا من نفس اللحم و الدم ، و من نفس العنف ، غير أنّ ما يفرّقنا هو اختلاف البيئة ، ليس إلاّ . إنّ وعيي لهذا الواقع يغيّر ، بالعمق ، نظرتي إلى العالم ، و يبسّط صلاتي إلى حدٍّ بعيد ؛ و صلاتي ، الآن، هي هذه : " أَنا خاطئة مع كلّ إِخوتي و أخواتي جامعي و جامعات النفايات على الأَرض ، و على غرارهم ، القابعين في السجون ، و اللصوص ، و البغايا ، والسارقين ، المؤمنين و غير المؤمنين ... و ما من فرق بيننا يا ربّ ، إِرحمني وارحمهم ، و ارحمنا جميعاً ؛ فما أَكثر معاصينا على هذه الأرض التعيسة ! "

أَجل بوسعي القول عن إِخوتي جامعي النفايات : لقد بشّروني حقّاً بالإِنجيل .

إِن المياه الغامرة ، و المذابح ، و البغيضة ، و الجحيم ، لعاجزة عن إِطفاء الحبّ .

فالحبّ من اللّه ، و الحبّ هو اللّه .

السودان : تشرين الثاني 1985

أُدوّن هذه السطور في الخرطوم ، في هدأة المساء . فقد استدعاني أَصدقاء سودانيّون و أَجانب منكبّون ، منذ أَشهر ، على إِنقاذ من تهدّدهم المجاعة و الموت ، و لا سيّما أَولاد الشوارع .

فالأَحداث تتخطّى جهود الحكومة ، و اللاجؤون من الجنوب ، الفارّون من الحرب و المجاعة ، يتدفّقون أَلوفاً أَلوفاً على الخرطوم ... و منهم أولاد ، كثيرٌ من الأولاد ، صبية دفعهم نحو الشمال ذووهم الذين كادت المجاعة تقضي عليهم ، قائلين لهم : " إِمضِ ، أنت ، سِرْ ، و سرْ (مئات الكيلومترات !) لعلَّك تنجو من الموت !". و ما أكثر الذين قضوا نحبهم

على الطرقات ، سَغَباً و عطشاً ، تحت شمس من سعير ! ... أمّا الذين استطاعوا التسحّب حتّى الخرطوم ، فقد انتهوا إليها ، و قد صاروا إلى أَقصى تخوم المرض و الإِعياء .

الحرّ ثقيل و رطب ، و قلبي مثقل مسحوق بكلّ ما ماعاينته عيناي من شقاءٍ مريع ... أَجل ، و لكن ثمّة ، أَيضاً ، و في كلّ مكان ، جهود جبّارة في سبيل إِنقاذ ما لا يزال ممكناً إِنقاذه . و لقد دفعت الكنيسة السودانيَّة بكلّ ما كانت تملك من موارد هزيلة ، و لكن ، أَيضاً ، من شبيبة ديناميكيّة ، لا تني تنشيء مراكز تصارع فيها الحياةُ الموتَ . فيها تشاهد مجموعات من الأولاد المتحلّقين حول قدور من الفول أو العدس بالبصل ، يلتهمونها ، و عيونهم القاتمة السواد تتألّق . ثمّ تبدأ الدراسة ، فيتكدّس أولئك الصغار تحت أَغصان الخيزران ، و يعكفون على دفاترهم الصغيرة النظيفة حيث يدوّنون الحروف العربيّة ، فليس للهجات الجنوب مكان هنا .

و نلتقي أمّهات ملتهبات الأَنظار ، يشددنَ أَطفالاً مصابين بالكساح إلى أثداء ناضبة . منظر لا ياطاق ... كثيرون منهم قضت عليهم رياح الليل . أَجل ، و لكنّنا نلتقي بعضاً من أولئك الأمّهات في مركز صحّي تديره الراهبات الهنديّات ... حيث النظافة ، و العناية الساهرة و لا سيّما بالأولاد .

في محلّة " دامازين " ، الواقعة على بُعد ستّ مئة كيلو متر إلى الجنوب ، يطالعنا استقبال حماسيّ : مئة و اثنان و ثمانون ولداً من كافّة القبائل ، اختلط فيهم المسيحيّون بالمسلمين اختلاطاً أَخويّاً ، رحّبوا بنا بقرع الطبول ؛ ثمّة ثلاثة صفوف يفصل بينها حاجز من الخيزران ؛ فقر مدقع ، و لكنّ الشقاء قد هُزِم : فالصغار يتميّزون بالنظافة و يتناولون كلّ يوم كوب حليب ، و شيئاً من الذرة البيضاء .

بحلول الظهر نغادر ، و يحيطني الأب علماً بأنّ قدّاساً سيُحتفل به تكريماً لي، و أنّ بوسع المسيحيّين الراغبين المشاركة فيه ؛ و يسود جوٌّ من الحريّة الفرحة على أَنغام تقرعها فتاة صغيرة على دلو ماء عتيق ، مثقوب .

و توافي نسوة ملتمسات من الأَب نصْحه في مواجهة حالة حمل عسيرة ، فيرفع يديه نحو السماء ، حائراً ، و يبوح قائلاً : " إنّني في حاجةٍ هنا إلى راهبات ، و ممرّضة ؛ و لكن إن كان بوسعي ، أَنا ، الإقامة في خُصٍّ من الخيزران ، فكيف أضع أولئك النسوة في مثله ، في حين لا يكفّ الأولاد يزيحون القضبان كي يستدعوني ، أمّا البناء ، فغالي التكلفة . "

و حدّق فيّ فقلت له : " لا تقنط يا أَبتاه ، سنحاول مساعدتك "

و ها أنذا ، مرّة أخرى ، في الخرطوم ، عند " الكبّابيش " ، و هي قبيلة من الغرب أَعملت فيها المجاعة تقتيلاً مريعاً فقضى منهم نحو مليون شخص جوعاً ؛ ولقد شهدت لدى

أُمّهات و أطفال نحولاً ، و حزناً ، و انحطاطاً ، و حدقات عيون متسّعة برز فيها السواد القاتم وسط بياض ضارب إلى الصفار ، و إِهاباً أسود مشدوداً على خدود شاحبة ، و أصابع نحيلة تتشبَّث بما يقدّم لهم من مؤونة ؛ و ثمّة صبيّ يضرب آخر كي ينتزع منه ما يملك . ما السبيل إلى إعادة الكرامة لهؤلاء القوم الذين نفقت مواشيهم ؟ ...

و أنتهي إلى موئل المحتضرين التابع لمؤسّسة الأم تيريزا الكلكتّاويّة . من النقّالات تتدلّى أذرع طويلة نحيلة تمسك بيدي ، توّاقة إلى ضغط رقيق على أصابعهم المجرّدة ... و تحضرني كلمات يسوع على الصليب " إِلهي ، لمَ ، تخلّيت عنّي " . لمَ، يا إلهي ، لمَ ؟ و أَرنو إلى الأُخت فإذا بحبّ جمّ يقطنها ، و إذ بها تنحني على تلك الهياكل العظميّة التي ما برحت الحياة تخفق فيها ، و تغمرها بالرقّة و السلام ؛ وأَشهد السكون يمتدّ على تلك الوجوه المدمّرة ، بمسحة من حنان . يقول الكتاب : " الحبّ أقوى من الموت " . و أحاول التمثّل بالأخت ، فأنحني ، و أداعب تلك الأعضاء المجرّدة و إذ بشعلة تومض ، و بالجسد ينتفض ، و بالبسمة تشعّ . لقد تغلّبت على الموت ، يا ربّ . و ها إنّ القيامة تقترب ، و ها هي تسري بهذا الجسد، في موئل المحتضرين هذا .

21 تشرين الثاني . نحتفل بقدّاس ذكرى تقدمة العذراء إلى الهيكل . هي أَيضاً ، كان عليها،يوماً أن تهرب ، مذعورة ، ضامّة طفلاً مهدّداً بالقتل . إنّني أَدعوها بحرارة ؛ و هي ستحبّنا .

في الشارع صغار يمسكون بيدي ، و يتشبّثون بها ، هاتفين " خذيني معك ، أَنقذيني " يا لعيون الأَطفال المتوسّلة ! ... أَيّتها العذراء ، افتحي قلوب البشر ، فينبغي إِنقاذ هؤلاء الصغار ، هؤلاء الأبرياء .

عند إحدى ضفاف النيل ، أزور مركزاً كنسيّاً آخر . هنا أَيضاً تمّ إنقاذ الأولاد، و ساد جوّ فرح . و حدّق فيهم الأب مبتسماً و قال :" أنظري ، لقد شرعت خدودهم تنتفخ ، و ها هم يعودون إلى الحياة " . و لكنّه يضيف ضاحكاً : " يا لهم من مشاكسين ! " و في لوعة يبوح : "أنظري هذه الأَراضي غير المستثمرة علىضفّة النيل ، كم أَحلم بتوزيعهاعلى فلاّحيها المعدمين الذين لا أَرض لهم . و قد تحدَّثت في ذلك مع مالكها ، و لكنّه اقتضى ثمناً مرتفعاً . "

سأَعود إلى القاهرة غداً ، و لكن يبدو لي أنّ جميع تلك الوجوه الشاحبة التي التقيتها تدنو منّي فجأة ، في مثل رقصة جنائزيّة هاتفة : " خلّصينا " . أَجل ، سأشخص إلى أوربا ، باحثة عن موارد . أجل سننفخ الخدود من جديد ، و سنشعل الفرح في العيون ، و سنضفر

سلسلة حبّ بلا حدود . لا ، يا قلبي ، لا تستسلم للهزيمة ، فستنتصر الحياة على الموت . و لا تنسَ ، يا قلبُ ، أنّ قرع الموسيقى ممكن حتّى على دلو ماء عتيق مثقوب .

النصر : معمل الأَسمدة العضويّة المركّبة .

ما زلت أَتخيّل الخبير السويسريّ ، أَرنولد فان هيرشيدت ، حاملاً مجرفته ، تحت وطأة قيظ حارقٍ مريع ، و قد أَحدث حفرة في قشرة الأَقذار التي جفّفتها الشمس، بحثاً عن التربة العضويّة في الأَعماق . و كنت لا أَكفّ أَصيح : " توقّف ، يا أَرنولد ، أَرجوك ، فالرائحة المنبعثة لا تطاق ... حتّى أَنا المصابة بزكام مزمن لا أَحتملها " . و لم يكن أَرنولد يصغي ، بل يمضي قُدماً مردّداً بنشوة : " ممتاز ، ممتاز، يا للثروة ! " ، فيما كنت أُتمتم : " يا للرائحة!"

ثمّ حفر ثلاث حفر في باحة خنازير، إحداها بعمق متر ، و الثانية بعمق ثمانين سنتمتراً ، و الثالثة بعمق خمسين سنتمتراً ، و أَلقى فيها التربة العضويّة ، وغرس فيها ثلاثة موازين حرارة ، و أَعطاني ثلاث ورقات قائلاً : " يا أُختاه ، كلّ يوم ، ظهراً ، ستسجّلين درجات الحرارة ، و بعد شهر سترسلين لي التربة العضويَّة".

ظللتُ لا أُومن بهذه الكيمياء إلى أَن وردني هذا النبأ من زوريخ : " إِعلمي ، أَيَّتها الأُخت إِيمّانويل ، أَنّ لديكم أَفضل سماد في العالم " . فسمادنا أَغنى الأَسمدة بالموادّ الطبيعيَّة . و كلّ امرئٍ غنيّ بما يقوى عليه .

و لكن في سبيل تنفيذ هذا المشروع الحلم ، لزمنا جمع مبلغ ستّ مئة أَلف دولار . فلجأت إِلى صديقي جاك ديلور رئيس الجماعة الاقتصاديّة الأوروبيّة ، الذي توثّقت معرفتي به يوم منحتنا معاً جامعة لوفان دكتورا فخريّة . غير أَنّ قوانين الجماعة الأوروبيّة لا تسمح إِلاّ بمساعدة مشاريع قائمة ، فحثّني جاك ديلور على السعي إِلى تأمين ما يلزم لبنى المشروع التحتيّة ، و حينئذٍ سيكون بمكنة المجموعة تقديم مساعدة قيّمة .

و لجأت إِلى الأَب بيير ، فالتفاهم سهل بين جامعي النفايات ، وسرعان ما توثّقت أَواصر تفاهم و توادّ بين عمّاوس و جامعي نفايات القاهرة . و قد ارتضى الأَب بيير أَن يضع كلّ وسائله تحت تصرُّفي ، و طيلة ثلاثة و ثلاثين يوماً جبنا معاً مختلف أَنحاء فرنسا حيث عرضت مشروعي الذي استفزّ حماس رفاق عمّاوس ؛ وهؤلاء ، بكدّهم و من نفاياتهم، وفّروا لي مليون فرنك . لقد أَكبرتُ إِيمانهم واندفاعهم، فصارحتهم : " لو لم أَكن أُحبّ بنفس القدر إِخوتي جامعي نفايات القاهرة ، لعشت في عمّاوس . "

و كان لا بدّ من الاستعانة بجوبيتير آخر قادر على تفجير أَمطار من ذهب... و قد عثرتُ عليه في ملامح المذيع التيليفزيونيّ فيليب جيلداس ، و محطّة أُوربا الأُولى ، و في ميشيل تورّ التي تفتن الجماهير بصوتها الذهبيّ ، و ريمون ديفوس الذي يجعل الجماهير تنبض بدعاباته و ارتجالاته اللاذعة ؛ و قد أَمطرت حفلات هذين الفنّانين غيثاً ذهبيّاً تمثّل في ثلاثة آلاف شيك ، و حرّك آخرون الأَرض والسماء لكي نظفر بالمبلغ المطلوب ، و تأمّن ، أَخيراً، تمويل المعمل الأوّل ، و أُبرم عقد صنع الآلات ، و غدا بإِمكان المصنع أَن ينطلق على سكّته.

و لكن على من يعمل في مصر أَن يتدرّع بالصبر ؛ أَوَ لم ينتهِ أَيّوب البارّ ، الذي يكرّمه المصريّون ، بفضل صبره ، إِلى الانطلاق خارج مزبلته ؟

و كم لزمنا من صبر ! ففي حين خيّل إِلينا أَنّ كلّ المعاملات الرسميّة قد أُنجزت ، و أَن الرُّخص منحت ، و بات المهندس و المتعهّد و العمّال متأهّبين ، ارتأى موظّف متشدّد أَن لا بدّ من توقيع آخر . بيد أَنّ الموظّف المسؤول عنه لم يكن له وجود ، و لا أَحد يعلم هل هو توفّي أَو اختفى في الخارج .... و تمادى اختفاؤه ، فعُيّن بديل له ، و مرَّت الأَسابيع . و ذات يومٍ جميل مشهود جلس موظّف إِلى مكتبه مبتسماً ، ووقّع . " صبر " ، بالصبر يظفر المرء بكلّ شيء . " يلّه " سنبدأ غداً ، هيّا إِلى الورشة ؛ و إِذا بمفاجأة مذهلة ! فقد شرعت البلديّة

بالحفر من أَجل تمديدات صحِّــيَّة في قلب موقع المصنع ... و قد مارست على نفسي ضغطاً شديداً لكيلا أَنقضّ على أَحدهم و أَخنقه . " صبر ، صبر " . بعد لأي رُدمت الحفر ، و ما قيمة تأخير سنة ، قياساً إلى الأبديَّة ؟ أو لم يشهد أَبو الهول من مثل هذا الكثير ؟

و أَخيراً ، في 26 كانون الثاني عام 1987 ، و بعد سبع سنوات من الكفاح المستميت و الصبر المضني ، درات آلة بوهلير الضخمة ، وبات جامعو النفايات يزيلون من صحون دورهم ، و من أَزقّتهم ، فضلات الأَقذار الحاملة بذور الموت ، فتلتهمها تلك الآلة و تطحنها ، ثمّ تبصقها من جديد غباراً ناعماً لا يلبث أَن ينسكب على أَراضينا المصريّة ، بذور حياة تخصب الصحراء ، حالاًّ محلّ طمي النيل الخصب الذي قضى عليه سدّ أسوان ؛ و ستسهم الأرباح الناجمة عن تلك العمليّة في تطوير قرية الصفيح .

مرَّة أُخرى ، انتصرت الحياة على الموت . الحمد للّه .

عشر سنوات مرَّت : كانون الثاني 1987

عشر سنوات كرَّت مذ شرعتُ أدوّن ، عند شاطئ بحر الإِسكندريّة ، السطور الأولى من كتيِّبي : " جامعة نفايات مع جامعي النفايات " . يومها كنت قرَّرت ، عابثة، أن أطلب تسجيل هذه العبارات على لحدي : " لقد عاشت " .

و انصرمت عشر سنوات ؛ أَجل " قد عشت " ، إذ ما العيش سوى الحبّ ، والارتعاش فرحاً أو حزناً مع من نحبّ ، و الكفاح ، يوماً بعد يوم ، لكي نستطيع جميعنا ، متكاتفين ، و متحدّين الصعاب ، أن نستنبط من كياننا ما يكمن فيه من ثروات ... كفاح ضارٍ ، مثير ، يوميّ .

أودّ ، اليوم ، محاولة إِصدار نوع من الميزانيّة لهذه السنوات العشر ... التي أعترف أنّ إنجازاتها تدهشني ، بل تذهلني : إِذ كيف تهيّأ لكلّ ذلك أن ينبعث من الأَرض ؟

في مركز السلام الذي أحدثناه من أَجل ثلاثة آلاف جامع نفايات ، في قرية الصفيح الأولى المدعوّة " عزبة النخيل " ، يزدحم اليوم ثلاث مئة ولد في روضتيْ الأطفال المبنيّتين على خير نسق . و تعود بي الذاكرة إلى خمس عشرة سنة مضت حين تمكّنت ، بكثيرٍ من المشقّة ، إِحضار عشرة أولاد صغار إلى المدرسة التي ارتجلناها في قاعة صغيرة من

الصفيح العتيق.وكان جامعو النفايات يتساءلون ، الواحد تلو الآخر ، و هم يهزّون أكتافهم ساخرين : " و مانفع تعلّم القراءة و الكتابة ؟"

و أَفلح مركزنا المهنيّ في توفير عملٍ مجزٍ لعددٍ لا بأس به من شبّاننا الذين عمل بعضهم نجّارين ، و بعضهم في لحم المعادن ، و آخرون في تصليح السيّارات ، إلخ ...

و تتدافع الفتيات ، مبتهجات ، لتعلّم الخياطة و التفصيل ؛ و من بواعث الفرح أنّ صبياناً و بناتاً قد شرعوا يقرؤون و يكتبون . و في المساء ، يشهد النادي الرياضيّ مباريات مثيرة بكرة القدم ... و كلّ شيء يضجّ بالحياة و الغناء .

لخمس سنوات خلت ، بعد أن تمّ إِطلاق مركز السلام إِطلاقاً حسناً ، استطعت إِسناد إِدارته لأَخواتي القبطيّات المصريّات العزيزات ، و مضيت إلى قرية صفيح المقطّم التي تضمّ عشرة آلاف جامع نفاية ، و كان عليّ الانطلاق من الصفر ، في سبيل استفزاز نشاطات مماثلة لتلك التي بعثناها في مركز السلام . و هكذا ، رويداً رويداً ، تحرّك كلّ شيء : روضة أطفال ، و مستوصف ، و دار توليد ، و مدرسة خياطة و تفصيل ، و مركز لمحو الأمّـيّة ، و مركز مهنيّ ، و نادٍ ، و ما يواكب كلّ ذلك من نجاح و إِخفاق ، و من صعود و هبوط . و قد وفّر لناالأطبّاء و الممرّضات من منظّمة " أطبّاء لجميع البشر" مؤازرة مؤهّلاتهم و جدواهم ، في سبيل تأمين تثقيف طبّيّ أساسيّ .

المدرسة التي أسّسناها منذ أَربع سنوات تضمّ الآن سبع مئة طالب : و تُبرز رؤيتهم قادمين ، في الصباح ، جذّابين ، نظيفين و فخورين بمثولهم إلى المدرسة ، البوْن الشاسع بين ما انتهوا إليه و ما كانوا عليه من رثاثة و توحّش .

و قد نهض ثلاث مئة مسكن صحّيّ مكان الأكواخ الخانقة ، الخالية من النوافذ ، التي تحفل أَرضها الترابيّة بالميكروبات . و بفضل حملة التلقيح ، لُجمت آفة الكزاز التي كانت تقضي على أَربعين بالمئة من أَطفالنا .

و ذات يوم ، قمت بزيارة لوزير الكهرباء المتميّز ، السيّد ماهر أباظة، الذي أنفذ إلينا جُنَيَّه : النور . و قد جنّ جامعو النفايات فرحاً لرؤيتهم الليل يتحوّل بغتةً إلى نهار .

و منذ عام 1985 أَمسيتُ أقيم في مركز المعادي ، حيث تحقّقت المشاريع الطبّيّة و الاجتماعيّة عينها . و قد شيّدتُ لإخوتي جامعي القمامة ما افتقروا إليه أبداً : مصلّيين : واحداً للمسيحيّين ، و آخر للمسلمين ، حيث يصعّدون ، كلٌّ وفقاً لطقوسه ، دعواته إلى اللّه الواحد ، أب الجميع .

هل تسمعون ثغثغة الأَطفال ؟ إنّها تتصاعد من دار حضانة الرضّع ، حيث توافي صديقات لتعليم الأمّهات طرق غسل أطفالهنّ ، و العناية بأجسادهم الصغيرة المترجرجة ... و

ينجم عن ذلك نجاحات باهرة ، و أفراح متبادلة ، و تنعقد صداقات و يتلاقى طرفا السلّم الاجتماعيّ !

و يبقى عليّ التحدّث عن السودان ... و ينقبض قلبي عندما يجول بخاطري أبناء المجاعة أولئك ، المتسكّعون في الشوارع . في الخرطوم افتتحنا ، الواحد تلو الآخر ، مراكز لإنقاذهم من الجوع ، و الاغتصاب ، و المخدّرات ، و الزهريّ ، والدعارة ... و شيئاً فشيئاً امتلأت خدودهم ، و تلاشت من عيونهم تلك النظرة القلقة التي توجع في وجه ولد . لقد كانت المهمّة جسيمة .

و أخيراً شرع يعمل مصنع السماد العضويّ الذي ما انفككت أناضل من أجله منذ عشر سنوات . و بات يأتي كلّ يوم جامعو النفايات في سيّاراتهم الصغيرة ، بفضلات الأقذار ، مستودعات الميكروبات الحاملة بذور الموت ، و التي أَمست تتحوّل إلى بذور حياة تخصب تربتنا المصريّة. أَجل ، في كلّ مكان تتدفّق الحياة ، وتغنّي ، و لكن هناك ، أَيضاً ظلال : فما زالت نساء كثيرات يتعرَّضن للضرب ، وللحمل المتعاقب المنهك ، و قد مُنيتْ بالفشل محاولاتي تعميم وسائل تحديد الإِنجاب الطبيعيّة ، فالرجال يريدون المزيد من الأولاد بأيّ ثمن .

و ما زال أولاد كثيرون بعيدين عن المدرسة ، ما زالت مساكن بائسة كثيرة قائمة ، و ما برح الإِعياء ناشباً بالعديد من الرجال ، الذين سلبهم الإِحباطُ الرغبةَ والقوّةَ على المساهمة في إِنقاذ ذواتهم ... و ما انفكّ أَطفال سودانيّون عديدون يبكون.

أجل ، لقد عشت ؛ أجل ، لقد كافحت ؛ و لكن هل استغللت جميع قوى حبّي ؟ لست أظنّ ذلك ، ففي بعض الساعات استسلمت ، أنا أَيضاً ، حيال جبال من اللامبالاة التي بدت لي زحزحتها مستحيلة ...

و لكن تشجّعي يا نفسي ، و لا تنسي الكتّاب القدامى : مارك أوريليوس معلناً: " ما العائق ؟ إنّه مادّة عمل " . و تأمّلي تلك الحكمة الأُخرى للامبراطور الرومانيّ الشيخ ، و اجعلي منها صلاة :

" يا ربّ ، هبني سكون النفس ، فأَرتضي مالا أقوى على تغييره ،

و القوّة على تغيير ما يمكن تغييره ،

و الحكمة للتمييز بين هذا و ذاك "

و لا تغفلي الرسول إيريناوس ، الذي أَعلن :

" الانسان الحيّ هو مجد اللّه "

" يلّه " ، إلى الأمام ، فالحياة جميلة ، و هي تغنّي .

أَحلام مشاريع

المشروع الأوّل

في القاهرة سيُطرد مئة و خمسون أُسرة جامعي نفايات بسبب إِقامتهم على مقربة من طريق سيارات عامّ . فبنينا لهم قريةً نموذجيّة ، و في سبيل تحقيق هذا المشروع ، باعتنا محافظة القاهرة رقعة أَرض بسعر مناسب .

هذه القرية النموذجيّة ستضمّ مئة و خمسين مسكناً لجامعي النفايات ، تفصلها عن الأَقذار و الخنازير، باحة و أَشجار و مدخل خاصّ ، بحيث لا يُقيم الأولاد وسط الأقذار كما هي حالهم اليوم . لقد باشرنا تحقيق هذا المشروع بمساعدة شخصيّات أوربيّة بارزة مثل جاك ديلور ممثّلاً الجماعة الأوربيّة ، و دانييل ميتيران رئيسة حركة " فرنسا الحرّيّات " ، ووزير الشؤون الإِنسانيّة الفرنسيّ برنارد كوشنر . وقد وضع مخطّط هذه الورشة " مهندسون بلا حدود " ، و سينفّذه مهندسون مصريّون في إِطار جمعيّة مصريّة لحماية البيئة .

من المتوقّع أَن تحتلّ المئة و خمسون أسرة منازلها الجديدة في كانون الثاني عام 1993 ، حيث ستجد بيوتها و حدائقها فضلاً عن مسجد و كنيسة ، و مركز طبّيّ، و مركز تسلية .

المشروع الثاني

طلب منّي محافظ القلوبيّة التي تمتدّ حتّى ضواحي القاهرة بناء مشفى للأطفال المصابين بالسرطان ، على أن يتولّى المحافظ ، فيما بعد ، إِدارة المشفى و صيانته . المشروع قيد الدرس ، و قد وعدني البروفسور ليمير ، و هو من أشهر المختصّين بالسرطان في أوروبا بأن يأتي شخصيّاً إلى القاهرة لدراسة هذه القضيَّة . و هكذا سنقرّر، بمزيدٍ من الدقّة، ما يتوجّب فعله لإنقاذ هؤلاء المصابين ، في أغلبيّتهم، بسرطانات جلديَّة ، و الذين تعذّرت حتّى الآن معالجتهم بسبب الافتقار إلى التجهيز الملائم . و سيستمرّ تنفيذ المشروع حتّى عام 1993.

المشروع الثالث

مدرسة ثانويَّة مهنيّة تقنيّة . لدينا الآن مركز تأهيل مهنيّ في كفر السيسي يوفّر لفئة من الشبّان تعليماً في الكهرباء و التمديدات الصحِّيَّة . و لكن يحتاج جامعو النفايات إلى أكثر من ذلك ، يحتاجون إلى مدرسة تقنيّة ، و سيتمّ افتتاحها عام 1993. و يبدو لي من الأهمِّيّة بمكان ألاّ نوفّر لهؤلاء الفتيان مدارس تعدّ لدراسات جامعيّة . ففي مصر كظّة من المهندسين و الأطبّاء ، و من الجامعيّين الرفيعي المستوى ، و الذين لا يعثرون على عمل ... لذلك أوثر أن ينعم هؤلاء الفتيان بتدريب يؤهّلهم ليكونوا صنّاعاً ماهرين رفيعي المستوى ، قادرين على تأهيل سواهم . فالبلد يفتقر الآن إلى صنّاع مؤهّلين مختصّين في أعمال الصيانة . و هكذا لن يضطر أولئك الشبّان إلى البقاء ، أبداً ، جامعي نفايات يعيشون بين الأقذار .

من أجل تنفيذ هذه المشاريع لا يمكنني الاعتماد على التمويل المحلّي ، و لن أطلب من الإِدارة المصريّة مالاً من أجل مدرسة كهذه ، فمصر تفتقر حقّاً إلى مدارس، و لو أنا طلبت من الإِدراة المصريّة تمويل هذه المدرسة ، و دفع رواتب المدرّسين فيها ، فلن يكون ذلك إلاّ على حساب مدرسة أخرى ، و هذا ما لن أرضى به . فمن العدل (و ليس من "

الإحسان ") أَن تساعد أوروبا و الولايات المتّحدة على تنفيذ هذا المشروع الذي سيكون مشرعاً لكلّ الأولاد ، أيّاً كان جنسهم ، و مذهبهم ، ووضعهم الاجتماعيّ ...

المشروع الرابع

إنّ القسم الطبّي الاجتماعيّ في مركز سلام ، وهو أوّل مركز أسّسته ، يفتقر إلى مستشفى ، و يُطلب منّي بإِلحاح ردم هذا النقص . إنّه مشروع بالغ الدقّة : فأنا حريصة، أوّلاً ، على إيجاد الجهاز الطبّيّ الملائم ، و امتلاك المال اللازم لدفع أجوره، فعلى نقيض مستشفى الأطفال المصابين بالسرطان الذي أُساعد على بنائه ، سننهض نحن بجميع نفقات المستشفى الجديد الذي أَتحدّث عنه ، و هذا يكلّف مالاً وفيراً ، وأَنا آبى أَن أخلّف ورائي مشاريع غير مؤمّنة ....

ما بعد الأُخت إيمانويل

تعلمون جميعكم ، و بعضكم بالخبرة ، أَنّ ثمّة فترة في الحياة يتعيَّن فيها على المرء أَن يدع مقاليد الأمور بين يدي من هم أَصغر منه سنّاً ، ولو شقّ عليه ذلك . إنّ مركز سلام يحاكي ولداً وضعتُه وسط الصراعات و المصاعب ، و قد نما ، وسارت نشاطاته على خير نهج .

لقد تولّت الأُخت ساره و راهباتنا القبطيّات زمام الأمور ، و إنّني أَشهد ، كلّ يوم ، ضرورة إدراة مصريّة . إنّي أَنظر إلى هذا التسليم نظرةً رسوليّة ، فهو يعني لي السير في خطى المسيح ، " المرسل " الأوّل ، أي مبعوث اللّه ، فمع أَنّه غريب عن أَرضنا ، جاء ليشارك الجنس البشريّ أَفراحه و آلامه ، و حياته و موته ، لكي يساعده على الارتقاء صوب الآب . و يبدو لي أَنّني " مرسلة " لكي أُقاسم أَفراح وآلام إِخوتي جامعي النفايات ، و مساعدتهم على النهوض و التطوّر . غير أَنّني بصفتي غريبة ، عليّ أَن أَدع العمل بين أَيدٍ مصريّة لكي يتلاءم ، حقّاً ، مع مقتضيات البلاد ، و ثقافتها و حضارتها اللتين أَغنيتاني شخصيّاً .

و ضماناً لاستمرار هذه المشاريع حيكت ، خارج مصر ، شبكة من المتعاونين الذين أَثبتوا فاعليّتهم ، من نمط " أسماي "

ثمّة ثلاثة اتّحادات ؛ ولديّ أَصدقاء في فرنسا ، و بلجيكا ، و سويسرا ، والنمسا ، و ألمانيا ، و إنكلترا ، و الولايات المتّحدة ، وكندا ، و مصر . و سنتآزر معاً في سبيل مواصلة دعم مشاريعنا .

عام 1989 فرغنا تقريباً من جميع الأَبنية ، و هي الأَكثر كلفة . و أودعنا بعض المال في المصارف للإِفادة من فوائده لأنّ جميع مشاريعنا مكلفة ، و لا يفلح أَحد منها في تمويل ذاته .

فمدرسة أَقساطها ضئيلة جدّاً لا تقوى على دفع رواتب المعلّمين فيها ؛ وكذلك المستوصفات عاجزة على دفع أجور الأطبّاء ، و لا بدّ لنا من سيولة .

و لقد حسبنا كم ننفق كلّ شهر ، و كم نملك من ودائع ، و كم يلزمنا من فوائد... و بفضل المنظّمات سيُردم كلّ عجز . و تسهم في ذلك " رسالة القاهرة " التي ترسل إلى ثلاثين أَلف شخص . و تتكاتف منظّماتنا في فرنسا و بلجيكا وسويسرا، في جوّ من الصداقة الحارّة و المجدية ، على وضع ميثاق " ما بعد الأخت إيمّانويل " . أَجل إنّ المشاريع التي وضعتها أَحياناً في الألم ، لن تنهار .

الأُخت ساره و أَخواتها في مصر ، و الفريق الذي أطلقه كامل و سيمون في السودان ، و أَصدقاء الأخت إِيمّانويل المتعاونون عبر العالم ، و ازدهار " أسماي " ، وإقبال متطوّعين شباب نحو ورشات جديدة ، كلّ ذلك ينبض حياة و حبّاً .

إلى الأُخت داميانا ،

مع الأُختين ساره و هيلينا ، كنتِ في طليعة الراهبات القبطيّات اللواتي عشنَ و عملنَ بين ظهراني جامعي النفايات . و ذات يوم وجدتكِ منهكة ، فقلقت وأَصررت على أَن تنالي قسطاً من الراحة ، ريثما تستشيرين طبيباً ، و كان شقيقك هو الطبيب . و مضيت إلى جامعي النفايات ، و ما لبث أَن رأيتكِ قادمة ، يا داميانا ، شاحبةً و لكن مبتسمة ، و قلتِ لي : " لا أَستطيع تخييب أَمل هؤلاء الصغيرات ، الفخورات بشروعهنَّ في ممارسة الخياطة ... " و عندما هدّك ، أخيراً ، السرطان ، و كنتِ مستلقية على سرير .... الموت ، قلتِ لي ، أَيضاً ، و قد افترّت شفتاك عن بسمة ملائكيَّة : " أَيَّتها الأخت إِيمّانويل ، أَنا ماضية إلى السماء " ثمّ همستِ : " سأَمضي قُدُماً في مساعدتكم ، أَنت و جامعي النفايات ... إنّني أُحبّكم " . تلك كانت كلماتك الأَخيرة . أَجل ، يا داميانا ، لقد أَحببتِ ... حتّى الموت ، أو بالحريّ حتّى الحياة ، الحياة الحقيقيّة ، الأَبديَّة .

مع أخواتك ، نحن نبحث اليوم ، في الكتاب المقدّس ، عن كلمات الحياة ، تلك التي تعلّمنا أَن نحبّ مثلك ، حتّى النفس الأخير ، " إن شاء الله " ... استمرّي في مساعدتنا ، يا داميانا " .

" الزبّالون "

إنّني أُحبّهم ...

إنّهم يختلفون عن جميع من عرفتهم حتّئذٍ ، في القاهرة أو في الإِسكندريّة ، من طلاّب معاهدنا، و من أوروبيّين بعيدين عنهم جدّاً . إنّهم قوم على جانب كبير من الخشونة ، و العفويَّة ، و ليس لهم ، مثلنا ، أَقنعة . ظاهرهم كباطنهم . و ما يدهشني هو علاقتهم مع اللّه ، علاقة دائمة، مباشرة ، و بسيطة .

لا يقول لك جامع النفايات ، أَبداً ، أَنّه يصلّي ، و لكن ، في رؤيته للعالم ، يحتلّ اللّه دائماً مكانه ، و هو لا يني يردّد ، مع كلّ عمل ينهض به مهما ضؤل ، وكلّ حدث في حياته ، قوله : " اللّه كبير ، اللّه موجود " . لا يفصلون بين الروحيّ والزمنيّ ، بين اللّه و البشر ، بل حياتهم انغماس في الألوهة . عندما يصلّون معاً ، مساءً ، جالسين على الحضيض ، و الخنازير في مجيء و إياب ، و الجرذان من حولهم ، في كوخ لا يضيئه سوى مصباح ، فإنّما صلاتهم صيحة إِنسان حقيقيّة نحو اللّه : " يا ربّ ، إرحمني أَنا الخاطئ . " صيحة الفقير هذه تنبجس من أَحشائهم ؛ فهم يشعرون أَنّهم خطأة في أَعماق جسدهم ، و يعرفون أَنّهم

بالأَمس شهروا المدية ، وأَنّهم ، غداً ، لن يقووا على عدم الذهاب إلى مقهى الشؤم ، و أَنّهم قد ينقضّون على إِخوتهم .

ليسوا قدّيسين ، و يسرق بعضهم بعضاً ، و لا يتوانون عن شهر السكاكين ، و يعتبرون ، أَحياناً ، أَنّ حياة الآخرين لا قيمة لها . و مع ذلك يظهرون قدرة على التضامن لاتُصدّق . قد يسرقون جارهم بلا خجل ، و لكن إن هو واجه ، بغتةً ، مصاعب ، يُهملون كلّ شيء كي يخفّوا إلى مساعدته .

ذات ليلة افتقرت إلى الماء ، فاستجديت جارتي بعضاً منه ، فأبتِ إلاّ أَن تجود عليّ بكلّ مائها ، و كلّ ما تبقّى لديها من خبز ، و هي خيرات ثمينة جدّاً ، عندنا ، في ظروف حياتنا . و لست في حاجة إلى القول أَنّه كان لهذا الخبز طعم الصداقة .

و قد روى لبيب أَنّ سارقاً ، منهم ، دخل كوخاً في قرية الصفيح ، و جلس أَمام طبق أرزّ و همّ بالتهامه ، عندما تعرَّف ، من خلال صورة أمامه ، رجلاً سبقَ أَن ساعده . فقفز ، في الحال ، من النافذة ، كما جاء ، من غير أَن يمسّ شيئاً .

و لن أنسى أَبداً حدثاً هزّني في ليلة باردة من ليالي نيسان . فعلى مقعد خشبيّ، أَمام المستوصف ، كان فتى متمدّداً متلفّعاً بجلاّبيّته ، و هو يرتجف من الحمّى. و مرّت به زوجة جامع نفايات ، فانتزعت الغطاء الذي كانت تقي به الطفل الذي تحمله على ذراعها ، و أَلقته برقّة على الفتى المستلقي على المقعد الخشبيّ ، بعد أَن اتّضح لها أَنّه أكثر اعتلالاً من ابنها . و حينئذٍ غدت الكنزة التي كنت أَتلفّع بها تبهظني ... و حده الفقير يعرف كيف يتجرّد من أَجل الفقير .

لطالما تعلّمت منهم ، و أَنا أَسمعهم يتحدّثون بعمق ، أَحياناً ، عن رسالة المسيح ، و قلت معه : " أمجّدك ، أيّها الآب ، لأنّك أَخفيت ذلك عن الحكماء والعلماء و أَعلنته للصغار" . إِنّهم يمتلكون كنزاً : حكمة اللّه . و هؤلاء الفقراء يلقّنوني الإِنجيل . ذات يوم ، لم تكن أمّ مجدي تملك سوى عشرة قروش عندما مضت لزيارة طفلة يتيمة ، و إِذ وجدتها أَدقع منها فقراً أَعطتها كلّ ما كانت تملك ، و باتت ، تلك الليلة ، على الطوى . أَليس هذا هو عيش الإِنجيل حرفيّاً ؟

ما كان عساني أكون اليوم لو كنت ، منذ صغري ، في مكانكم ، يا إِخوتي ، جامعي النفايات ، و لو عشت ، يوماً فيوماً ، الأَحداث التي وسمتْ حياتكم ... و كانت في أَعماق قلوب بعضكم جرحاً لن يندمل أَبداً ، جرحاً سرّيّاً لن يعرف أحدٌ أبداً عمقه. لا أَحد ؟ لا ، إِنّي مخطئة ، يا ربّ ، فأَنت ، يا من يسبر قلب الإِنسان ، كلّ إِنسان ، تعلم أَنّ هذا الجرح سيظلّ أَبداً فاغراً . و بسبب معرفتك هذه للهشاشة البشريّة ، شئت، يا ربّ، في يومٍ من الزمن، أَن

تصبح إِنساناً ، إِنساناً فقيراً ، أَحبّ الآخرين حبّاً دفعه إلى الموت من أَجلهم . لقد عانيت الازدراء ، و الضربات ، و الخدوش ، أَيّها المسيح ، و أُلقي بك على جذعين مصلوباً ، فاكتفيت بالهمس : " إِغفر لهم ، يا أَبتاه ، فإِنّهم لا يفهمون . " و كانت آخر اقوال فمك الظمآن : " أَنا عطشان " . وكانت آخر نظرة من عينيك الممتلئتين دماً ، – فقد كان الدم ينثال من الأَشواك المثبتة على رأسك – آخر نظرة لك كانت إلى ذلك الآخر المصلوب إلى جانبك ... من كان ذاك؟ لصّاً اقترف كلّ أَنواع الجرائم ، و لم يتحرّج من القول : " نحن استأهلنا ما انتهينا إِليه، و لكن ماذا عنك ؟ أُذكرني عندما ستصير في ملكوتك " ؛ و جاء جوابك لاهثاً ، فالموت كان قريباً : " اليوم ستكون معي في الفردوس . " ... بأيّ إِيثار تحبّ بؤسنا البشريّ ؟ و تحمله حتّى الموت ، كي تحوّله بغتةً ، في لمحة ، و تدخلنا في نور الحياة .

سعادتي مع جامعي النفايات

التعايش مع الآخرين يستلزم تبادل المودّة ، و الإِحساس معهم و ليس بوسع الجميع التعايش مع جامعي النفايات ؛ و قد يتعذّر عليهم ذلك " جسدياً " فأنا ، على سبيل المثال ، أَعيش حقّاً مع الجرذان ، أَعيش معها ليلاً ، و ليتكم تشهدون أَيَّة جلبة تحدث في كوخي ، جارية فوق سريري و تحته ، راميةً كلّ شيءٍ أَرضاً .... كثيرون لا يقوون على قضاء لياليهم مع الجرذان ؛ و أَنا قد شقّ عليّ ذلك أَوّل الأمر و لكنّني أفلحت في تخطّيه ....

أَنا لست مهتمّة بمظهر الحياة الماديّ ... و ماديّاً لست أَملك شيئاً و لكنّني مغتبطة لأنّني أُحبّ هؤلاء القوم ، و هم عندما يشعرون بحبّي لهم يحبّونني . إنّني شديدة السعادة بالجلوس ، أرضاً ، وسط الأَقذار ، مع جامعي نفايات ، نقتسم إِحتساء الشاي . كوني مع إِخوتي يسبغ السلام على نفسي ، و يجعل قلبي يغنّي .... إنّني ، نظيرهم ، رثّة الهندام ، قذرة ، ففي الأكواخ لا مهرب من القذارة ، التي يعيش الناس في وسطها . إنّني أَغسل يديّ عشرين مرَّة كلّ يوم ، و تظلّ يداي قذرتين . يزعجني ذلك بعض الشيء ، غير أَنّ مناخ العلاقة البشريّة السائدة يجعلني أَتجاوز ذلك .

عندما أخرج من كوخي إلى شارعي ، أَعرف الجميع ، فنحيّي بعضنا بعضاً، و نحتسي الشاي معاً ، و نتمازح ، و نبكي و نضحك معاً ، و نتآخى طيلة النهار . نعيش علاقة ، فالحياة ، في نظري ، هي إِقامة علاقة مع الإِنسان كأخٍ ، و مع اللّه كأب .

هذه هي الحياة ، و يمكنكم تخيّل ما تنطوي عليه من غنى .

إنّ عيشي مع هؤلاء القوم ، و على غرارهم ، قد وفّر لي تجربةً رائعة لا يمكن تصديقها إلاّ بعد اختبارها ، فالعيش ، على هذا النحو ، ليل نهار ، في مشاركة مع الأَكثر حرماناً ، يؤتي شعاعاً من الفرح الكامل الذي كان يتذوّقه ، إلى أَبعد مدى ، القدّيس فرنسيس الأَسيزي .

لقد أُقفلت الدائرة : كان كلّ شيء قد بدأ محاطاً بالعوائق في قلب قرى الصفيح . و اليوم بات أَبناء جامعي النفايات ، فتيات و فتياناً ، يندفعون نحو البكالوريا، و المستقبل مشرعٌ أَمامهم . الحمد للّه ، لقد أُنقذوا .

و أَكثر ما يدهشني ، وسط كلّ ذلك ، أَنّ كلّ شيءٍ يسير في معزلٍ عنّي ، ومن ثمّ لا تمنعني سنواتي الخمس و الثمانون من الرغبة في الرقص ، و إِنشاد نشيد العذراء : " إِنّ قلبي يطفر جَذَلاً في الربّ مخلّصي . "

رجاء ينقذ و يدفع . رجاء و فرح .

لمَ اخترت العيش في قرى الصفيح ؟

لم أبتغِ إثبات أيّ شيء ، بل رغبت ، فقط ، في مشاركة حياة الأكثر تعرّضاً للازدراء و اقتسام الازدراء المحيق بهم . و هذا ما فعله المسيح : لقد شاء أن يشاركنا حياتنا ، آلامنا و موتنا .

مشاركة الآخر ، و احترامه و محبّته هي بدء تحريره ، لأنّها تثبت له أنّ له قدْراً ، و أنّ حياته التي تبدو في نظر الكثيرين حقيرة ، لسيت في جوهرها كذلك ، فهي ترتدي قيمةً كبرى ، إذ إنّ أحداً كان ينتمي إلى مجتمع يبدو متفوّقاً كلّ التفوّق على مجتمعهم قد اختار الانحياز إلى جانبهم . كلاّ ، هؤلاء القوم المزدرون لا يمثّلون الفئة الأقلّ قدراً في المجتمع ، بل لهم ، أيضاً ، كرامة ... إنّ قاعدة كلّ علاقة إنسانيّة ليست ، أوّلاً ، الحبّ ، بل الاحترام .

قد لا أكون قد أحدثت كلّ التغيّرات التي كانت تبدو ضروريّة ، بيد أنّ هدفي الأوّل كان أن أشارك القوم و أحبّهم ، و أسوتي ، في ذلك المسيح . فهو لم يفعل ، في حياته ، أكثر من ذلك ، و ظاهريّاً أخفقت حياته إخفاقاً تامّاً .

إنّ القوم ، فضلاً عن رغبتهم في أن يُحترَموا ، يحتاجون ، قبل أيِّ شيء ، إلى الحبّ ، إلى أن يُحَبّوا كما هم ، جميلين أو بشعين ، أخياراً أو أشراراً ، مستقيمين أو عديمي الاستقامة . و أنا بوسعي أن أُحبّهم ، و هذا ما يتوقّعونه منّي .

حتّى لو لم يخلّف فيهم مروري بهم سوى ذكرى أَنّ " اللّه محبّة " فلن يكون نافلاً . و ستكون بذرة إلهيّة قد أودعت وسط الأَقذار ، و ستزدهر الحياة من خلال تعفّن القمامة ، و هي صورة الموت .

إِنّ الحياة درب ، و هي ناجحة بمقدار ما يكون المرء قد سار في إِثر دعوته. لقد أَدرك الجميع ، مسيحيّون و مسلمون ، أَنّني عشت بين ظهرانيهم فقط لكي أَذكّرهم بأنّ اللّه حبّ . أَجل ، اللّه يحبّهم ، بما أَنّني أَنا الكائن المسكين ، المجبول من نفس صلصالهم ، يسكنني روح الحبّ ذاك الذي يجعلني أَهب حياتي طوعاً لكي أُحوّل حياتهم ، أَنا أَعلم من جاء بهذا القَبَس إِلى الأَرض ، و من نبعه الملتهب أُضرم ، كلّ يوم ، اللهب الصغير المشتعل فيّ .

و أَعتقد أَنّ يسوع ، لوعاد إِلى الأَرض ، لعاد إِلى قرية الصفيح ، فالكوخ المصنوع من صفائح عتيقة يحاكي ، في افتقاره إِلى الرفاه ، مغارةً ، بل يبذّها فقراً . و الطفل الوليد ، هنا ، يوضع على ركام خروق ، و غالباً ما يتجوّل ، في الجوار ، حمار .

القسم الرابع

يلّه ، إلى الأمام أَيّها الشباب

موجز

ذاعَ للأُخت إيمّانويل صيتُ " إطفائيّة المحبّة " ، المتأهّبة دائماً إلى إِخماد الحرائق التي يضرمها الحقد ، و صيتُ صانعة المعجزات ، في مجال إِسعاف المحرومين ، فباتت تُستدعى إِلى كلّ بقعةٍ من العالم حيث البؤس مستشرٍ ، و تدفعها نداآت الاستغاثة على شتّى دروب الجوع و البؤس و الموت .

عام 1985 وردها نداء استغاثة متلهّف يناشدها المبادرة إلى غوث ألوف الأَطفال السودانيّين ، ضحايا الحرب الأَهليّة الذين يموتون جوعاً .

و إذ كانت مطمئنّة إلى حسن سير مراكزها الثلاثة في القاهرة ، قامت بأولى زياراتها إلى الخرطوم في 18 تشرين الثاني 1985 . و هي التي أَلِفَت مشاهدة شتّى أَصناف البؤس ، حيال أَكثر من ثلاثين ألف ولد مشرّدين جائعين يواجهون الآلام ، و الازدراء ، و الرعب ، والجنوح ، هتفت : " هذا لا يُطاق " ، فيما كان يلجّ هاتف في داخلها " لا بدّ من فعل شيء ، ولامناص من تدارك هؤلاء البائسين بمساعدات مباشرة ، مجدية ، تنقذهم من مصيرٍ ظالم مؤسٍ . "

و كانت ، في السودان ، جماعات صغيرة عديدة قد شرعت تسعى ، مخلصة، إلى مدّ يد العون لمن دفعهم الجوع و التشرّد إلى تخوم اليأس ، و عتبة الموت . فتدارست مع تلك الجماعات أَفضل وسائل الغوث ، و أَكثرها إِنسانيّة وجدوى ، واستغاثت بأصدقائها في الخارج

مستجدية الإِعانات . و تواترت زياراتها إلى الخرطوم ، و في كلّ مرَّة كانت تأتي بأَفكار وموارد جديدة ، و قد غدت حالة أولاد السودان هاجسها الملازم المؤرّق .

و في مطلع عام 1987 أحيطت علماً بأَنّ سبعة آلاف ولد سودانيّ باتوا مهدّدين بموتٍ محقّق ، فطارت إلى الخرطوم في شباط من ذلك العام ، و هالها ما شاهدت : أولاد يأكلون الوحل لكي يسكتوا عضّات الجوع ، و يشمّون البنزين لكي يفقدوا الوعي و الشعور بالألم . سبعة آلاف منهم كانوا مهدّدين بموتٍ محقّق ، في غضون أَيّام ، و الأَطبّاء يؤكّدون : "سيقضون نحبهم تحت أبصارنا و لا نملك ، في ردّ الموت عنهم ، حيلة ."

و ثارت ثائرة الراهبة المتمرّدة المقاتلة ، و جأرت بأعلى صوتها: "استقرضوا، استدينوا بأيّ شرط ، و أَنا كفيلة بالوفاء . سأمضي إِلى أوروبا ، وسأصرخ ، و سأجد المال اللازم . فلا يمكن أَن ندع هؤلاء الأولاد يموتون تحت أَبصارنا ، بحجّة افتقارنا إلى الموارد ".

و من السودان طارت إلى باريس في السادس من شهر آذار . و في نفس اليوم تحدَّثت في جريدة الأَخبار المصوّرة بقناة التليفزيون الثانية ،و أَسهبت ، وباحت بما شاهدت ، ومقلتاها مزدحمتان بالدموع . بكلماتها البسيطة خضّت فرنسا . صيحة قلبها هزّت الفرنسيّين وجعلت قلوبهم تنبض تعاطفاً . ثمّ جابت فرنسا من طرف إلى طرف ، طيلة شهر ، محاضرةً ، مقابلةً الصحافة و الإِذاعات و التليفزيونات المحليّة، مناشدةً الجمعيّات و المؤسّسات .

و عندما شبّهها بعضهم بلبؤة في دفاعها عن السودانيّين ، اعترضت قائلة : "بل مثل أمّ تأبى رؤية أبنائها يقضون نحبهم تحت أَبصارها ... "

و أَثناء مقابلة مع محطّة " أوربا واحد " ، استنكرت ليس فقط الهوّة الماضية اتّساعاً بين الغرب و العالم الثالث ، بل ، أَيضاً ، السياسة الحمقاء التي تؤثر تخزين أو إِتلاف الموادّ الغذائيّة الفائضة ، عوضاً عن التبرّع بها لمن ينفقون جوعاً . و تدخّل ، على الأثير ، صديقها جاك ديلور ، وشاطرها الرأي ، مؤكّداً أَنّ كلّ ذلك مخزٍ ، وأعلن عن تبرّع الجماعة الأوروبيّة بأربعين طنّاً من الحليب المجفّف لأولاد السودان الجياع ، و في الحال تبرّع ، بدوره، اتّحاد منتجي الحليب في فرنسا بثلاثة و أَربعين طنّاً ، و تعهّدت شركة إيرفرنس بنقلها جميعاً ، مجّاناً ؛ " و هبط المال من السماء ، أَي من قلوب البشر. "

صيحاتها المدوّية انقلبت مساعدات عاجلة ، و ترجمت في الواقع إلى ثمانية مراكز استقبال ، يتلقّى كلٌّ منها نحو ثلاث مئة ولد يعيشون عيشة أسرة ، مع أَبٍ وأمّ متطوّعين ، وإلى اثنتين و سبعين مدرسة (راقوبة) حيث يتلقّى ثمانية وعشرون ألف ولد سودانيّ التعليم مقروناً بغذاء يوميّ أَساسيّ ؛ فضلاً عن ستّة مستوصفات تستقبل شهريّاً 2500 مريض .

وفي شهر تشرين الثاني 1987 ، استجابت لطلب رئيس اتّحاد أصدقاء الأخت إيمّانويل في باريس ، و شخصت إلى بيروت تحت دويّ المدافع . " في كلّ مكان أَبنية منهارة ، وشرطان حديد شائكة ، و هياكل سيّارات محروقة . في كلّ مكان الموت ، و لا شيء سوى الموت " ... هكذا بدا لها لبنان منذ الوهلة الأولى ، ولكنّها ما لبثت أَن شهدت علامات القيامة ، و جهود الحياة تقاوم الموت بعناد وتفاؤل، فأعلنت : " ينبغي أَن نصيح و نجأر ، حتّى في لبنان ، بل خاصّة في لبنان ، أَنّ الحبّ أَقوى من الحقد ، فالحبّ هو منبع حياة . و هذا ليس مجرّد أَمل ، بل حقيقة ماثلة . "

و بالتعاون مع منظّماتها العالميّة ، و أصدقائها المبثوثين في شتّى أَرجاء المسكونة ، قدّمت العون لجميع الساعين بإخلاص إلى النهوض بأنفسهم و إِنهاض الآخرين ، و زرعت السعادة في نفوس أُلوف الأَطفال .

في تلك الأَثناء كانت منظّمة " أَصدقاء الأُخت إِيمّانويل " ، و منظّمة " أَسماي" التي استهدفت بادئاً غوث أطفال مصر ثمّ امتدّت تطلّعاتها و مساعداتها إلى جميع أطفال العالم الثالث، قد نمتا ، و اندمجتا ، و تفرّعتا ، و جرّتا في إِثرهما الأُخت إِيمّانويل إلى مختلف مواقع البؤس في العالم ، في أفريقيا و آسيا ، و أَميركا اللاتينيّة، بالإِضافة إلى مصر ، حيث كانت هي المرشدة ، وباعثة الأَمل ، و نافثة الحماس ، ومفجّرة الموارد .

و تقاطر الشبّان ، و معظمهم جامعيّون ، من شتّى أقطار أوروبا لكي يقدّموا لمراكز الأُخت في مصر ، و لسائر أَصدقائها في العالم ، عمل سواعدهم و أَمثلة معرفتهم ، ومهاراتهم ، و كنوز سخائهم .

لقد أَلهبت مبادرات الأخت إيمّانويل مخيّلات شباب العالم ، و أَدهشتها استجابتهم السمحاء ، و حميّتهم الجيّاشة ، فأَعلنت :

" من أَرض أفريقيا إلى أوروبا ، عبوراً بآسيا و الفيليبين ، أَدهشني الشبّان الذين التقيتهم . اندفاعهم غذّى اندفاعي ، و سخاؤهم أَذكى سخائي . لقد كانوا يجرون، بلا توانٍ ، نحو الهدف الذي ابتغوه ، أي اقتسام أَسوأ الأوضاع مع منكودي الحظّ ، كي ينبعثوا معهم إلى الحياة و النور . "

و قد آمنتْ أَنّ الشباب هم بانو المستقبل ، و دعامته ، فحرصت على ازدهارهم نفسيّاً و عقليّاً ، و على استثمار طاقاتهم الجبّارة لمحاربة البؤس أَينما وجدوه . و يوم تبرّع لها "

آلان جوبيه " رئيس وزراء فرنسا السابق بموارد كتابه : " فيما بيننا " ، أَوعزت إلى مؤسّستها توظيفها في تأهيل الشباب اجتماعيّاً و مهنيّاً ، ودمجهم في بيئتهم ، و مساعدة من أَخفقوا في دراستهم على اكتساب المبادئ الأساسيّة و على تولّي زمام مصيرهم ، و استعادة ثقتهم بأنفسهم ، و إِدراك معنى المسؤوليّة و قيمة العمل ، و اختيار مهنة تؤمّن لهم الكرامة و الاستقلال .

و للمتقاعسين المتشائمين أَعلنت : " لمن يقولون لي : " يا أُختي المسكينة ، ما كلّ ذلك سوى قطرة في مياه المحيط " أُجيب : " أسكب ، أنت أَيضاً ، قطراتك . و إِن سكب كلّ فرد قطرة ماءٍ عذب ، لتحوّل يمّ المرارة إِلى غمار مياه عذبة . فلندأب ، بعناد ، رجالاً و نساءً ، من كلّ عمر ، على مواكبة شبابنا في كفاحه ."

إِعجاباً باندفاع الشباب وضعت الأُخت إِيمّانويل كتاب : "يلّه ، إِلى الأَمام أَيّها الشباب "، الذي نقتطف منه الفصول الرائعة التالية .

(1)

كيف ابتدأ كلّ شيء ؟

تمّوز 1984

كنت في عزبة النخيل ، في القاهرة ، أكتب ، بيدٍ سريعة ، نداءً إِلى أَصدقاء ، التماساً لعقاقير .

و بغتةً ظهر ، في فرجة الباب ، وجهان شقارهما غير مألوف هنا ؛ و بنبرة رنّانة قالا: " صباح الخير ، يا أُختاه . نحن قادمان من بلجيكا لمساعدتك " . و رنوت إِليهما ، بلا حماس .

فما عسى هذه الشبيبة المحظيّة أَن تفعل وسط أَقذارنا ؟ هل سيسعهم المثول كلّ صباح إلى شقق القاهرة الجميلة لإِفراغ نفاياتها ، و جلبها مع إِخوتنا جامعي النفايات و بيعها ؟

لم يُثبّط عزيمتهما استقبالي المتحفّظ ، و بادر أَحدهما إلى الإِيضاح :

– " اسمي هنري و اسم زميلي اوليفيه ، و قد سبق لنا أَن راسلناك

– " حقّاً ، و لكنّني دعوتكما إلى التريّث .

– " لا سبيل إلى التريّث يا أختاه ، فنحن طلاّب في جامعة لوفان الجديدة ، في عطلتنا الصيفيّة ، و نريد مساعدتك على البناء .

و أَجبتهما بلهجة باردة :

– أطلاّب أَنتم أَم بنّاؤون ؟

– بل طلاّب ، يا أُختاه ، و قد راقبنا بنّاءً يعمل ، و سواعدنا مفتولة . نحن طليعة الريادة و لن يتأخّر الباقون ، فتيات و شبّاناً ، عن اللحاق بنا ، و عددنا يناهز العشرة .

كان حماسي ماضياً في تضاؤل ، و حاول أُوليفييه التأثير فيّ ، فقال :

– نحن فريق من الرفاق العابثين . لقد سجّلنا آباؤنا في الجامعة ، و هم حريصون على متابعتنا دروسنا فيها ، و يدفعون نفقاتها ، و لكنّنا ، نحن ننشد اللهو . و بما أَنّ الدروس لا تجتذبنا كثيراً ، نستغرق ، ليلاً ، في المجون ، و ننام صباحاً ، ونغيب عن الدروس ، و نسوق حياة رغيدة . و لكنّها حياة حمقاء ، لا تجدي نفعاً ، ولا تفضي إِلى أَيَّة غاية " ...

و فيما كنت أَتأمّله ، تناول رفيقه هنري الحديث فقال :

– " حينئذٍ خطر لنا الإِفادة من العطلة الصيفيّة للقيام بعمل ذي بال . "

و حدّق فيّ ، و قد أَقلقه تجهّمي و صمتي ، و حاول النيل منّي ، فاستأنف :

– " لقد سمعناعنك ، أَيَّتها الأُخت إِيمّانويل ، و علمنا كيف تناضلين وحدك في قرية صفيح . و قد خطر لنا أَن نساعدك على بناء شيء جميل .

فافترّت شفتاي عن بسمة ساخرة ، و أَكّدت ريبتي ، مرَّة أخرى :

– " بناء ؟ و ما أَدراكم بالبناء ؟

– لقد راقبنا معمارياً يعمل ، و هو أَكّد لنا أَن العمار ليس بالأَمر العسير : فحَسْبُنا أَن نضع آجرّة فوق أُخرى ، مثلما نفعل في أَلعاب البناء ! "

و انفجرا كلاهما بالضحك ، تفعمهما ثقة الشباب المحاربة .

و كدت أَضيق بهما ذرعاً .

و أَضافا أَنّ آباءهما قد اعتادوا أَن يقدّموا لهما الرياضات الشتويّة في سويسرا، حيث كان عليهما أَن يشخصا مع رفاق لهما ، و لكنّهما استطاعا ثني أولئك الرفاق عن مشروعهم بقولهم : " ما رأيكم أَن نمضي ، بالأولى ، إِلى القاهرة ، ونمارس رياضة الصفيح في قرية الصفيح هناك ؟ " و أغرقا ، مرَّة أُخرى ، في الضحك ، آملين في إِقناعي ؛ و خلص أوليفيه إِلى القول : " لقد قبلوا . تنكّبوا عن التزلّج من أَجل مساعدة جامعي النفايات . أَليس هذا جميلاً ؟ أَوَلا يعجبك ؟ "

أَجل إِنّها لمبادرة طيّبة . و قد سُحِرتُ بكلّ ما ميَّز محدّثيَّ من صراحة وعفويَّة . ولكنّ ذلك لم يحلّ مشكلتي ، فما زالت تلك النوايا الطيّبة تضايقني ، فأتساءل ما عساني أَفعل بكلّ أولئك الشبّان الطيّبين ! و أحاول إِفهامهما أَنّ نيّتهما الطيّبة ليست كافية للنهوض ببناء لدى جامعي النفايات . غير أَنّني حيال تكدّرهما واستغفاراً عن قسوتي ، قلت لهما بلهجة تنبض بالحرارة :

– " سأفكّر بالامر ؛ عودا غداً . "

و عادا على أعقابهما ، متجهّمين ، و قد ثبّط موقفي الجليديّ اندفاعهما .

و هكذا بدأ كلّ شيء .

ما إِن بارحا غرفتي حتّى رحت أُقلّب الأمور في خلدي . فما عساني أَفعل بتلك الزمرة من الشبّان المضطرمي المشاعر ، الّذين أَفسدتهم حياة الرخاء – وفق ما اعترفوا به هم أَنفسهم– و الذين غادروا مدينتهم الجميلة كي يحطّوا الرحال في أَشدّ مطارح القاهرة بؤساً ؟

جنون محض! إنّني أَعرف موطنهم في بلجيكا : بيوت جديدة مزوّدة بكلّ وسائل الرفاهية ، محاطة بحدائق صغيرة أَنيقة ، على أَتمّ نسق ، و أكمل نظافة . أمّا نحن ، جامعي النفايات المساكين ، فلسنا نعيش في أَحياء القاهرة الجميلة ، و لا في داراتها الفخمة الغارقة في الخضار ، و المطلّة على شوارع عريضة انتصبت على حافاتها الأَشجار ، و ليس لدينا ما نقدّمه لهم سوى أَزقّة مرصوفة بأقذار نتنة ، وأَكواخ من صفيح عتيق مثقّب ، و جرذان تجري بين الأَرجل ، و خنازير سوداء تنخر و هي تغمس فناطيسها في الأَقذار . أَمّا البراغيث ، فخير لنا ألاّ نتحدَّث عنها ، إِنّها كفيلة بالتهام شبّاننا الطائشين !

قضيّة أُخرى كانت تقلقني ؛ فأَنا، هنا، تحت رقابة رجال الأمن المشدّدة . إِذ عندما استقررت في ذلك المطرح اللعين الذي لا يجسر رجال الأمن أنفسهم على الدنوّ منه ، أَثرتُ الشبهات في الحال ، و اعتقد بعضهم أَنّني ، بلا ريب ، جاسوسة تعمل لصالح إِسرائيل بأجر دسم ؛ و قد قدم عنصران منهم بعد ظهر يوم ، أَثناء غيابي ، فنبشوا كوخي رأساً على عقب ؛ وبطبيعة الحال لم يعثروا على أَيّ شيء مشبوه ، ولكن مراقبة الشرطة لي لم تفتر ، و حَسْبُ أولئك الحمقى العشرة ارتكاب أَدنى هفوة حتّى يتفاقم وضعي سوءاً ، و ترجح كفّة إِدانتي .

ثمّ كيف سيتصرَّف أولئك الشبّان و الفتيات في عالم يدين الاختلاط ؟ أَلن يثيروا الفضائح بين الأَهالي ؟

لا ، لقد حزمت أَمري ، و سأقول لهم أَنّ عليهم البحث عن مكان آخر يستطيعون فيه إِرواء غليل عطشهم إِلى التفاني و البذل .

و لكنّني ، في كوخي ، لم أَجد إِلى النوم سبيلاً ، و حاولت الصلاة : " يا ربّ، هل يحقّ لي ، ضميريّاً ، أَن أَردّ أولئك الشبّان ؟ " . إِنّهم يأتونني بقلبهم وقواهم، بغية التخفيف من بعض البؤس الإنسانيّ . فلهؤلاء البلجيكيّين الّذين ليس في بلادهم جبال مغطّاة بالثلج يمثّل التزلّج في سويسرا روعة الروائع . و قد امتلكوا من الجرأة ما حملهم على استبدال نقاء الثلج بالقذارة ، و رياضات الشتاء بما سمّوه رياضة الصفيح . فهل سأردّهم ببرودة قائلة : "إِنصرفوا ، لسنا بحاجةٍ إِليكم " ؟

جنون بجنون ، و في هذا المضمار نحن متعادلون ، فأنا أَيضاً قد اتّخذت من هذا المكان مقرّاً ، وحيدة ، متحدّية الجميع .

أَليس مبعث صحَّة ، بل ضروريّاً ، أن يتصرَّف الإِنسان أَحياناً بجنون ؟ وهل كنت أَنا نفسي ، في يومٍ ما ، فتاة تتمتّع بتوازن تامّ ؟

في الخامسة عشرة من عمري ، كان الأب داميان قد استفزّ حماسي : فقد اختلى في إِحدى جزر المحيط الهادئ مع البرص الذين كانوا يتعفّنون في أَحضان اليأس .صحيح أَنّه أُصيب هو نفسه بالبرَص ، و لكن بعد أَن حوّل جزيرة موت إِلى مرفأ سلام .

و أَنا أَيضاً ، رغبت ، يوماً ، في العيش بين ظهراني المجذوبين لكي أُعيد لهم الرجاء ، و في أَن أموت برصاء مثلهم . و بفضل حلم المراهقة هذا أَنفقت أَكثر من عشرين عاماً مع جامعي النفايات ، حيث عشت معهم ، ليل نهار ، على غرار الأب داميان ، لكي أُساعد أولئك البائسين على تحويل نمط حياتهم .

أَلم يكن ضرباً من الجنون مشروع انغراسي هنا ، وحيدة ، في كوخٍ قذر ؟ ومع ذلك أَثمرتْ إِقامتي في إِخراج رؤوس جامعي النفايات من الماء الذي كانوا يغرقون فيه .

أَثناء فترات أَرَقي ظلّت تجول في خلدي ظواهر الجنون ، و العناد ، والاستبسال ، وقوّة الرغبة و هي ميّزات الشبيبة الفريدة . و رحتُ أُحدّث ذاتي : "تذكّري نفسك ، يا إِيمّانويل ، و أنت شابّة في مثل عناد البغال ، متشبّثة بما التزمت به ، و يعجز أيُّ شيء أو أيّ أَحد عن لجمها ، و تسبح دائماً في مواجهة التيّار... "

و ماذا لو كان هؤلاء الشبّان في مثل تصميمي على مساعدة الآخر ، والوقوف إِلى جانبه ؟ هل يحقّ لي الحؤول دون إِمكانيّة ازدهار هذه الرغبة التي تبدو مترسّخة بعمقٍ فيهم ؟ و أنا أَعلم أَنّ الحياة تبنى هكذا ، بمثل هذه الإِرادة .

في تلك الحقبة ، كانت قرية صفيح المقطّم ما زالت مهملة تماماً ، خالية من أَيِّ نشاط . و كان بوسع أولئك الشبّان الراغبين في البناء إِشادة حديقة أَطفال فيها.

إِنّهم قادمون غير هيّابي المخاطر و أَنتِ تخشينَ استقبالهم ؟

هيّا ، يا إِيمّانويل ، ثقي بهم .

و في الغداة انتصب أَمامي عشرة من الشبّان و الفتيات الأَشدّاء ، بوجوههم الصريحة الناطقة بالتساؤل ، قائلين : " ها نحن ، يا أُختاه ، و قد جئنا للمساعدة على رفع شأن جامعي النفايات . فهل تقبليننا ؟ "

هذه المرّة ، حدّثتهم ببسمة : " يلّه ، إِلى الأمام ، شمّروا عن زنودكم ، سنهتمّ بالصغار ، و سنبني مكاناً لاستقبالهم . "

و ردّت على كلامي صيحات ترحيب حماسيَّة ؛ و دلفنا إِلى حافلتهم الصغيرة و انطلقنا صوب المقطّم . و انتهزت فرصة الرحلة القصيرة كي أَلج إِلى صميم المشكلة . فقلت

:" تحدّثتم عن " رفع شأن " جامعي النفايات . فما الذي تعنونه بذلك ؟ إنّ الذين تجاوزوا الثلاثين من العمر ما عادوا يؤمنون بذلك ، فقد سمعتهم يقولون : "نحن لن نعرف الخلاص ، نحن قمامة وسنظلّ غائصين في القمامة ، فلا ترهقي نفسك من أجلنا " . أمّا الأصغر سنّاً فلا ينفكّون يطالبونني : " نحن نريد أن نخلص فلا تتخلّي عنّا " . واجبنا الأوّل أن نعيد لهم ، جميعهم ، الرجاء . لا ليس مكتوباً عليهم أن يكونوا ، أبداً، جامعي قمامة ، و نفاية القاهرة . إن " رفع شأن " إنسان ، يستهدف تمكينه من القبض على زمام مصيره لكي يحوّله ، و لا بدّ له ، قبل كلّ شيء ، من أن يبدأ فيؤمن بذلك ؛ أجل ، تحسين ظروف الحياة ممكن ؛ و ممكن أيضاً وصول الصغار إلى المدرسة ، و محو أُمّيّة الكبار ، و منحهم ثقافة مهنيّة . إنّ إعادة تصنيع البلاستيك و الألبسة العتيقة محلّيّاً ممكنة بفضل آلات خاصّة ، إلخ ... "

و لحظت أنّ الطلاّب ينصتون إليّ في كثير من الاهتمام ، فخلصت إلى القول: "تدركون أنّ مجيئكم إلى قرية الصفيح سيكون ذا أثر بليغ محقّق . إنّه أسلوب تقولون لهم به : "هيّا ، يا جامع القمامة ، فلنكافح معاً ، و رفعة شأنك ستتحقّق في نهاية الشوط . "

و أجابوا بحرارة :

– " طبعاً ، يا أُختاه ، من أجل ذلك جئنا .

– " حسن سنشرع في البحث عن خوري المكان ، أبونا سمعان . إنّه من نمط القدّيسين . فقد هجر مركزه كمدير مطبعة كي يستقرّ في المقطّم و يحاول مساعدة هؤلاء البؤساء ، الذين أمعن المجتمع في إهانتهم ، على النهوض .إنّه المسؤول الوحيد هنا – فمن سواه يقدم على الخدمة في هذا المكان ؟ – و الجميع يحبّونه ويحترمونه ، مسيحيّون و مسلمون . "

و قد استقبلهم أبونا بحرارة تتناقض و ما قابلتُهم به أنا من برود ، و هنّأهم : " مرحى ! إنّكم قادمون لبناء حديقة أطفال ، و هذه هي البداية التي ينبغي الإنطلاق منها . إنّها أساس حياة جديدة . أتبحثون عن مكان ؟ تعالوا ، فلديّ فكرة عن المكان الملائم " . و اقتادنا إلى موقع رحب تتلاقى فيه ثلاثة أزقّة .

و يا للانفعال الذي أحدثه وصول أولئك الشبّان الشقر ! و سرعان مابتنا محاطين بجمع متعاطف يغدق لنا البسمات التي يردّ عليها فريقنا المستطير فرحاً، بوجوهٍ مشرقة .

و شرح أبونا للأهالي – الذين يجهلون أين تقع بلجيكا – أنّ أولئك الغرباء قد قدموا من أوروبا من أجل إشادة حديقة أطفال ، فلم يكن لقوله هذا أيّ ردّ فعل . ففي تلك الحقبة لم تكن المدرسة تعنيهم بعد ، إذ لم يغشَها أحد منهم ، و لم يكونوا يرون لها جدوى . و لكن

عندما دعا أَبونا إلى استلام المكان ، طفقوا يضجّون ويعترضون: " أين ستسرح الخنازير ؟ أَين سنلقي بالأقذار ؟ لا ، لا ، أبونا ، " مش ممكن " ... "

أَبونا رجل حكيم ، و هو يعلم أَنّه سيكون عسيراً اجتذاب الصغار إلى المدرسة و من ثمّ فليس من الصواب ، في شيء ، الشروع باستفزاز شعور القوم . ولكنّه يعرف رجلاً طيّباً ، إسمه " أبو عوض " يبتغي بيع رقعة أَرض ، " بيع " ما لا يملكه حقّاً ، فالأرض هنا ملك الدولة ... غير أَنّ " واضع اليد " هنا يعدّ نفسه مالكاً ، و لن يحجم عن شهر المدية في وجه كلّ من يحاول إقصاءه عن ملكه . و أبونا على علمٍ بكلّ ذلك . فيستوضح البلجيكيّين :

– " هل أَنتم مستعدّون لدفع مبلغٍ ما ؟ "

– " بالطبع ، فرياضة الصفيح أَقلّ كلفة من رياضة الشتاء "

و يُبرَم اتفاق بالتراضي ، من غير ما حاجةٍ إلى عقود ، فهنا الشأن للكلمة .

و باشر بنّاؤونا المتطوّعون عملهم في ذلك اليوم عينه ، يساعدهم بنّاءٌ مصريّ .

ما أَجمل رؤية دأب أولئك الشبّان على العمل ! كانت سواعدهم تقوم مقام الجبّالات إذ لم تكن أَيّة آلةٍ لإِعداد الإِسمنت متوفّرة . بل يمكن القول أَنّ كلّ شيء كان " صناعة يدويّة " . و ما هي إلاّ أَيّام حتّى نهضت جدران الآجرّ و امتدّ فوقها السقف.

كانت الفتيات أَكثر جلداً من الشبّان ، و لكن أَيّا كان جنس العاملين و ظروف عملهم ، لم يشكُ أيٌّ منهم ، و لم يُخِفْهم شيء : لا العرق بفعل قيظ شهر تمّوز ، و لا القذارة ، و لا روائح الإِنتان ، و لا الجرذان الضخمة التي كانت تحدّق فيهم و أَذنابها بين أَرجلها ...

بين حين و حين كان أَحد جامعي القمامة يأتي بصندوق من الكوكا كولا ، فيطيح بأَغطيتها و يقدّمها ، قنّينة قنّينة، مصحوبة ببسمة عريضة تشقّ وجهه حتّى الأُذنين . و كان بنّاؤونا المرتجلون يرمون ، للحظات ، مِسجّاتهم ، و يطلقون كلمة "شكراً " مدويّة ، ويبرّدون، برشفات سريعة ، حناجرهم الجافّة . لقد كانت الكلمات العربيّة القليلة التي يتلفّظ بها الغرباء الشقر تحدث على القوم أَثراً بليغاً ، مزيجاً من دهشة و من عرفان بجميل لما بذلوه من جهد في سبيل تعلّم بعض أَلفاظ مثل "مرحبا"، " كويّس " ، " أيوه "، " جميل " . هذه الكلمات التي كانوا يلفظونها بلكنة بلجيكيّة بارزة ، كانت تثير لدى الصغار ، ترحيباً مدوّياً ، فيسود جوّ عائليّ طيّب .

و هكذا ، وسط بهجة عامّة ، كانت حديقة الأَطفال تنهض من الأَرض بسرعةٍ، و لم يحدث شيء ممّا خشيت ؛ كان الفرح يفعمني ، فقد بتُّ قادرة على استقبال أطفال المقطّم ، في وقتٍ قريب ، و فيما بعد ، تلبية احتياجات أولئك القوم الذين كان يحيقون بنا ، إِذ لم يعد حضوري في عزبة النخيل ضروريّاً ، بعد أَن جاءت الأُخت ساره ، من رهبانيّة بنات مريم

القبطيّة الأورثوذكسيّة ، لمعاونتي ، وانضمّت إلينا أَخوات أُخريات من جمعيَّتها ، و كلّهنّ شابّات متأهّبات لأَعتى المهامّ . كنّ قد قاومنَ الأَهل و الأَصدقاء في سبيل الانضواء في رهبانيّة غير محصّنة . ففي تلك الحقبة ، كان خروج راهبة مصريّة من ديرها في سبيل العناية بالمرضى ، وزيارة الفقراء ، أَشبه بالفضيحة . و لكنّهنّ صمدنَ ، و كنّ يقاسمنَنا نفس الاندفاع ، و نفس حبّ جامعي النفايات ، و نفس الرغبة في إِقالتهم من عثارهم ، متطلّعات إلى تزويدهم بما يرفع من شأنهم . كانت الأَخوات قد تولّينَ ، في عزبة النخيل ، إِدارة حديقة أَطفال جديدة قشيبة ، و كانت الأُمّهات ، و قد بهرهنّ جمال المدرسة المزدانة بالصور الكبيرة ، قد جئن بصغارهنّ ، الواحدة تلو الأُخرى ، فيما كان المستوصف ، مع صديق الفقراء الدكتور عادل ، يستقبل المرضى ، و مشغل الخياطة قد شرع ، هو أَيضاً ، يجتذب أَكثر فأكثر من الفتيات .

كنت ، إِذن ، أُبارح قرية صفيح انتهجتْ درب النهوض ، و ما عليّ سوى الشخوص إليها بين حين و آخر للإِسهام في برنامج التنمية . و إِذن " يلّه " ، فلنستقرّ في المقطّم ، من أَجل إِطلاق نفس النشاطات . كنت أَجهل، حينئذٍ ، أَنّ حيّاً جديداً سينبعث على تلك التلّة المشرفة على مدينة الأَموات ،حيث يقيم نحو خمسين أَلف نسمة . حينذاك كنت أَفتقر إلى مسكن ، و لكن كان بتصرّفي فريق متّقد نشاطاً ، يفيض حيويّة، و يُثبت قدراته . فلأَلتمس إِذن ، من هؤلاء البلجيكيّين ، مساعدتي على مشروع آخر :

– " و الآن ، أَيّها الشبّان ، إِصنعوا لي كوخاً من الصفيح ، على غرار أَكواخ إِخوتي جامعي النفايات "

– معاذ اللّه ، يا أُختاه ، بل سننشئ لك منزلاً ثابتاً من الآجرّ

– كلاّ و كلاّ ، فأريد أَن أَسكن على غرار الآخرين !

– رجاءً يا أُختاه ، إِفهمي موقفنا : نحن روّاد ، و قد جئنا للمساعدة على تطوير الأَحوال . و لا بدّ من إِعطاء جامعي النفايات طعم البيت الحقيقيّ ، وستكونين أَنت ، في ذلك، القدوة . سيكون بيتك هو النموذج ، و لن تمنعينا من بنائه . "

هل من سبيل إلى مقاومة مثل هذا المنطق ؟ لقد استسلمت ، و صدّقوني لقد كان لهذا البيت تأثير معجز .

تأثير عليَّ ، في المقام الأوّل . فقد تراجعت عن آرائي المقرّرة مسبقاً بعد أَن استثارتني طاقات و دوافع أولئك الطلاّب الشبّان ، الذين ولدوا محظيّين ، و الذين كنت حكمت عليهم بقسوة بالغة ، ثمّ شهدتهم يعملون ساعات متواصلة ، مكبّين على العمل في ظروفٍ

شديدة الصعوبة . كلّ شيء بدأ معهم و بفضلهم . لقد جاؤوا من عزبة النخيل بسريري و أَمتعتي القليلة ونقلوها ، مزدهين ، إلى الغرفة التي أَشادوها لي .

و كان لذلك المسكن الثابت تأثير بعيد المدى على الآخرين ، فقد كانت جدرانه المطليّة بالكلس تتكلّم ، مخاطبة جامعي النفايات : " أُنظروني ، سيأتي يوم تتحوّل فيه أكواخكم البائسة إلى بيوت حقيقيّة " . و سنةً إِثر سنة تحقّقت المعجزة ، ونهضت مساكن ثابتة . فقد أَفلحت شبيبة جريئة في إِزالة آلاف أَكواخ قرية صفيح .

إنّ العجوز التي أَصبحتُها لم تكن، في شبابها تشهد مثل هذه المناقب . " في زمني " لم يكن ليأتي أحد من أوروبا كي يضطلع بمثل هذا العمل . " في زمني " لم يكن شبّان بيئتي منفتحين على عالم البؤس و الأَرق . فالحياة التي كانت تنتظرهم كانت على جانبٍ من البساطة و اليُسر . أَمّا صديقاتي ، فكنّ يقبعنَ إلى جانب المدفأة ينتظرنَ الأَمير الساحر ، أو يغشينَ مرابع الرقص بحثاً عنه ، فيما كان إِخوتهنّ يبحثون عن فتاة وافرة البائنة ، و يتطلّعون ، حسب العبارة الشائعة، إلى تزوّج " الفتاة و المنشأة " ، منشأة الوالد المتقاعد .

كان كلّ شيء مؤكّداً ، محكم التخطيط . و لم يكن للمغامرة ، و المخاطرة ، و خاصّة للآخرين ، و للمعدمين ، أَيّ مكان في مسيرتهم .

أَمّا هؤلاء الشبّان الذين كنت أَكتشفهم ، فكان للقلب عندهم مكانٌ جوهريّ !

<u>إِنّكم لمدهشون أَيّها الشبّان عندما تحفزكم مُثُلٌ عليا</u>

في الأَوّل من أيلول 1982 فتحت حديقة أَطفال المقطّم أَبوابها . و كم تمنّيت دعوة معماريّينا المتطوّعين إلى تلك المناسبة التاريخيّة ، و لكنّهم كانوا قد قفلوا عائدين إلى بلجيكا . و لاريب أَنّهم كانوا سيُذهَلون لرؤية ردهة عارية لا مقاعد فيها و لا مناضد . فمثل هذه التجهيزات غالية الثمن ، و لم أَكن أَملك ، حينها ، أَيّ مورد . و لكنّ الأَمر ليس مشكلة هنا : فأَبناء جامعي النفايات يقتعدون الحضيض عفويّاً ، ممسكين بالقلم والدفتر ، مأخوذين بدخولهم المدرسة على هذا النحو ، بعد أَن أَتاح لهم طلاّب من لوفان الجديدة ولوج عالم جديد.

إنّ روح أولئك الشبّان القتاليّة هي التي أَطلقت عمليّة " ألف مسكن " التي ما كنت لأَخوضها لولا جرأة تلك الحفنة من الشبّان المتطوّعين ، و حماسهم . و بما أَنّي كنت حينئذٍ ، أَفتقر إلى المال ، فقد كنت مصمّمة ، في هذه النوبة ، على الترحيب بمساهمة السواعد المتطوّعة ... إِن هي تقدَّمت لي من جديد .

و لطالما تساءلت كيف كانت أَنباء قرية صفيح القاهرة تتنامى إلى سمع جماعات من الشبّان الإيطاليّين ، و الإنكليز ، و الأَلمان ، و كذلك الفرنسيّين والبلجيكيّين . . فقد كنت ، حينئذٍ ، نَكِرةً ، لا تعيرها الصحافة و الإِذاعة و التيليفزيون أَيَّ اهتمام .

و أَعتقد أَنّ الأَحاديث المتبادلة كان لها ، أَكثر من مقالات الصحف ، دور في التعريف بنا . فالشبّان باتوا يسافرون بسهولة أَوفر ، و يعقدون الصداقة ، و يحدّث بعضهم بعضاً عن مغامراتهم ، و كانت مغامرة أَصدقائنا البلجيكيّين من الإِثارة بحيث أَيقظت لدى الآخرين الاهتمام والرغبة في العمل .

على أَيّة حال ، استلمت ، يوماً ، رسالة من روما تعرض المساعدة ، فقلت ، هذه المرَّة ، بلا تردّد : " إِنّني بانتظاركم . " يلّه " ، إلى الأمام " .

و إذا بفريق إيطاليّ شديد العزم يوافي ، تقوده فتاة بادرتني بالقول :

– ها نحن جئنا يا أُختاه ، و متأهّبون للعمل .

– العمل هنا شاقّ في قلب قرية الصفيح الحافلة بالأَقذار ، و الروائح ، والجراذين وما إِليها .

– ما من مشكلة . فمن أَجل هذا أَتينا .

– فلنباشر ، إِذن ، هيّا إلى العمل .

و انشرحت أساريرهم . أَيّ اندفاع ، و أَيّ تصميم !

هذه النوبة كان كلّ شيء قد أُعدّ بانتظام ، و كنت قد اخترت أَكثر جامعي النفايات فقراً الذين كان عليهم أَن يبدؤوا بهدم جدران أكواخهم المصنوعة من الصفيح العتيق . و كان الصيف يسهّل مهمَّتنا ، إِذ كان الجميع يرقدون في العراء . و كان يؤتى إلى الموقع بالآجرّ ،

والرمل ، و كذلك بالماء الذي كنّا نبتاعه . لسوء الطالع ، أَحد الأَكواخ لم يكن قد هدم ، لأنّ ربّ الأُسرة التي كانت تقطنه كان عليلاً . و لم أَجسر على مطالبة أولئك الشبّان بفكّ تلك الجدران المصنوعة من الصفيح القاسي ، الصدئ ، و الذي أَصبح ، من القذارة ، قاتماً . ولكنَّهم احتجّوا مستنكرين :

– " أتعتقدين ، يا أُخيّة ، أَنّنا نخشى أَن نتّسخ ؟ "

و ها هم يتناولون فؤوساً متينة ، و ينقضّون على الجدران ، التي تهتزّ وتتهاوى ، فيما تتوارى رؤوسهم وسط سحابة من الغبار القاتم ، حوّلت أولئك الفتيان إلى زنوج حقيقيّين . كانوا منهكين ، و لكن سعداء ، و يضحكون ملء أَشداقهم فتلتمع أَسنانهم المتألّقة بياضاً ، فيما هبّ لمساعدتهم شابّان آخران شديدان قائلين :

– لقد أَنجزتم الجزء الأَصعب ، و ها نحن جئنا لمساعدتكم !

لقد دأَبوا ، أَيّاماً ، على إِنجاز العمل ؛ يستيقظون في الصباح الباكر ، و لا يتوقّفون حتّى تسقط المسجّات من أَيديهم ، و قد أَخذ منهم الإِرهاق كلّ مأخذ ، و حينئذٍ كانوا يتداعون على الأَرض و أَبصارهم شاخصة إلى الآجرّ المحكم الإِثبات ، المتسامقة مداميكه باطّراد نحو السماء . و ما هي إلاّ دقائق حتّى يهبّوا واقفين قائلين : " نحن لم نأتِ للاسترخاء . يلّه ، يلّه " تلك كانت العبارة السحريّة التي تدفعهم إلى الأَمام .

و أَخيراً أَمسى لكلّ أسرة مسكنها الجاهز ، و شاعت بهجة يتعذّر وصفها ، وراح الجميع يقبّلون بعضهم بعضاً ، و يدورون حول البيوت في رقصة مجنونة ، امتزجت فيها إِيطاليا و مصر ، و حوّمت فيها بناطيل الجينز ، و الجلاّبيّات ، على وتيرة واحدة . و توّجت العيد مأدبة قوامها خِنّوص شوي على الجمر أَمام عيوننا . وقد تحلّقنا على الحضيض أو على حجارة ، و طفقنا نلتهم بشهيّة اللحم الساخن ، بأَيدينا ، طبعاً ، شوكة جدّنا آدم الذي عرف الاستغناء عن الأَطباق و أدوات السفرة... ! كيف يمكن وصف الضحكات التي تفجّرت ، والسحر المنقطع النظير ، الذي خيّم على عشاء الوداع البسيط هذا ، و أَخذ بأَلباب ضيوفنا و قد امتشقوا فخذ خنّوص ؟

في الغداة جاءت حافلة ومضت بهم إلى المطار . و قبّل بعضنا بعضاً في تأثُّر بالغ ، وودّعتهم بكلمة " شكراً " رنّانة .

– علينا نحن أَن نشكرك ، يا أُختاه ، لأنّك قبلتِنا . فقد وصلنا إلى هنا على شيء من الكآبة ، و ها نحن نعود فرحين . و قد تعلّمنا ، من خلال مساعدة الآخرين، سعادة العيش . وهذا ما لن ننساه أبداً ، مثلما لن ننسى الخنّوص .

و مضوا وسط ضحكات مدوّية .

كنت قد غادرت أوروبا عام 1931 ، و كنت أَجهل أَنّهم هناك قد نسوا المرح. في تركيّا ، و لبنان ، و في هذا القطاع من مصر الممعن في البؤس ، عهدتُ لحظات سعادة فريدة . و لم أَكن أَعلم ، بعد ، أَنّ أوروبا أَمست كئيبة ، متجهّمة .

و كان أولئك الشبّان الذين وصلوا مكتئبين ، حائرين ، قد تعلّموا العطاء والبسمة حتّى في بلد يسود فيه الفقر و الرثاثة ، حيث قوام الطعام هو الفول ، و حيث المساكن من الصفيح العتيق ، و القوم يعرفون كيف يرقصون و يغنّون . و قد عاد أولئك الأوروبيّون الشبّان و هم يضحكون ، لأنّهم عثروا على التضامن ، وأَدركوا نسبيّة الأوضاع .

كان مزلاج قد حطّم ، و باب قد أُشرع ، و قِيَم قد تجلّت لهم .

و على هذا النحو تعاقبت الورشات ، بنفس الأسلوب : كان البريد يأتينا بعرض مساعدة فأجيب : " تعالوا " ، فيقدمون ، فريقاً إِثر فريق .

الإنكليز ، الفارعو القامة ، المترنّحو المشية ، الضامرو الأَجسام ، و المفتولو العضلات ، الكتومون ، كانوا يعمّرون و يعودون ، فخورين بما أدّوا من عمل ، بضميرٍ جادّ يقظ .

و الألمان كانوا يشكرونني بحرارة لتوفيري لهم فرصة الاضطلاع بعملٍ إِنسانيّ ، قائلين :

– " يا أُختاه ، عندنا كلّ شيء محكم التنظيم بحيث لا يسعنا أَن نفعل شيئاً!...

– ماذا ، إِذن ، عن بيوت المعاقين ، و المسنّين ، و الأولاد الجانحين ؟

– يتعذّر حتّى دخولها ، إلاّ بتصريح رسميّ من وزارة الشؤون الاجتماعيَّة ، أو وزارة الصحّة ، أو سواها .

– و في عيد الميلاد ؟

– نعم ، في ذلك اليوم تُشرَع كلّ الأَبواب . و لكن مرَّة واحدة في السنة ، في حين أَنّنا ، نحن الشباب ، نودّ أَن نكون نافعين للآخرين ، و أن نمنح السعادة للمتأَلّمين؛ و نؤثر أَن نُدفَع إِلى ذلك دفعاً ، عوضاً عن أَن نُلجم . "

فتاة من بروكسيل تدعى " فابيين " ، أَثناء زيارة إلى القاهرة برفقة عمّتها ، هزّها مصير جامعي النفايات ، فباحت لي : " إِنّني عضو في " الواحة " التي تضمّ جماعة من شبّان بروكسيل . و سأحدّثهم عن وضع قرية الصفيح . علينا أَن نعمل ، فمن الحيف أَن نمتلك كلّ شيء و ألاّ يمتلكوا شيئاً . ينبغي أَن تأتي إلى بلجيكا وتحدّثينا " . في مثل عمري ، يسير كلّ شيءٍ سيراً سريعاً .

لقد دعوني إلى جولة محاضرات ، فعثرت ، في كلّ مكان على شبّان أفعمهم الحماس ، و اجتذبوا معهم ذويهم و أصدقاءهم . و هكذا ستظفر حديقة الأطفال بتجهيز جميل . ولم يتوقَّف الأمر عند ذلك ، بل إنّهم قرّروا إنشاء جمعيّة "أصدقاء الأُخت إيمّانويل " التي ستنمو باطّراد ، و ستتعاون مع جمعيّة باريس عندما ستتأسَّس بدورها ؛ و ما أوفر الثمار التي ستجنيها ، من جرّاء ذلك ، قرى الصفيح الثلاث ، والسودان فيما بعد !

بُعَيد ذلك قرّر طلاّب جامعة لوفان البلجيكيّون إنشاء مركز رياضيّ في قرية صفيح المقطّم و جنّدوا الصحافة لهذه الغاية ، ففتحت صحيفة " بلجيكا الحرَّة " باب الاكتتاب ، و نُظّم احتفال فخم في الجامعة لصالح الورشة العتيدة ، و هطلت الشيكات، و ابتيعت الأرض في وسط القرية و بات بالإمكان مباشرة الأشغال .

و لكن ، لسوء الطالع ، ثمَّة أطنان من الأقذار قد تراكمت، طيلة سنوات، في الموقع ، وأمامها تتكّب العمّال ، فهم قد قدموا للبناء ، و لكنّهم لن يمدّوا يداً إلى جبال الأقذار المنتنة . و مع أنّ طلاّب لوفان أوجدوا لنا المال ، جُمِّد كلُّ شيء . كيف السبيل إلى إنقاذ الوضع ؟

لحسن الطالع ، وصل إلى قرية الصفيح فريق من الشبّان الفرنسيّين كانوا قد حطّوا لتوّهم في المطار ، و فؤوسهم على أكتافهم . و اقتدتهم إلى جبل الأقذار ؛ و ما زلت أرى ، بالذاكرة ، أحدهم ، المدعوّ " بينوا " ، و هو مدرّس شابّ في باريس ، ينتزع قميصه ، وبصدره العاري ، يغرس فأسه وسط النفايات المتفسّخة ، مثل متسلّق جبال يغرس رايته في قمّة جبل ... و حذا حذوه الآخرون ، وبذلك حرّضوا عمّال القاهرة ، الذين ، وقد رأوا أولئك الشبّان الأجانب المتطوّعين يتصدّون للأقذار ، اعتراهم الخجل من تخاذلهم ، و حدّق أحدهم بالآخر ثمّ نهضوا ، و اندفعوا هم أيضاً إلى الحلبة ....

إنّ النادي الذي نهض في ذلك الموقع يضمّ اليوم مئات الشبّان من جامعي النفايات الذين يقدمون كلّ مساء من أجل لعب الكرة ، و ممارسة الجودو ، وتقديم عروض مسرحيَّة ، و تعاطي الأشغال اليدويّة ، و تنظيم فرق كشفيّة ، يلتقون ، ويروّحون عن أنفسهم ، و يلهون ، و بذلك يستغنون عن المقهى و أبخرة كحوله الرخيصة ، و دخان حشيشه .

من يجسر، بعد ذلك ، على القول أنّ جميع شبّان البلدان المتقدّمة يجهلون التضامن مع العالم الثالث ؟

و قد تأخذ المغامرة بقلوب بعضهم كلّ مأخذ فيقرّرون المضيّ قُدُماً في تقديم خدماتهم ، كما حدث لإيليزابيت و سيلفيان ، اللتين مازلت أتخيّلهما وسط أطفال يتدافعون لتأمّل الرسومات الملوّنة التي ابتكرتاها من أجل تلقين قواعد النظافة الأساسيَّة .

كانت سيلفيان قد شرعت تأتينا و هي مازالت في الخامسة عشرة ؛ و في رحلتها الأولى ، كان والداها قد أَبيا مساعدتها ، فكدحت بقسوة لتوفير ثمن بطاقة الطائرة بين باريس والقاهرة ، إِذ إِنّ جميع الشبّان الذين يفدون إلى ورشتنا يتعهّدون بتأمين أَثمان بطاقاتهم بأنفسهم . و بين سنّ الخامسة عشرة و العشرين ، ما انفكّت تأتينا في كلّ عيد ميلاد و كلّ عيد فصح . و ذات يوم قرّرتْ البقاء . فعاشت سنتين في قلب قرية الصفيح ، مقتسمة معيشتي ، و هي أَكثر من زريّة ، ، آكلةً مثل طعام جامعي النفايات ، وراقدة في كوخي المبنيّ بالآجرّ ، الذي كان يبدو بالغ الرفاه . كانت تبحث عن المعاقين الصغار ، وتمضي بهم إلى أَخصّائيين يرضون بمعالجتهم مجّاناً ؛ و تظفر لهم ، عنوة ، بإِقامة في مستشفى ، أو بعمليَّة تقويم قدم . و كانت تفلح في تحسين نظر هذا ، و سمع ذاك ، و مساعدة آخر على السير . و لقد حقَّقت المعجزات أَثناء إِقامتها في قرية الصفيح . و لحسن طالعها ، لم يأتِ يوماً والدها ، وهو جرّاح ذائع الصيت ، يُستدعى من كلّ أَنحاء العالم ، و لم يشهد المكان الذي كانت تمارس فيه ابنته نشاطاتها الطبّيّة!

مركز معادي تورا

في 25 تموّز 1985 ، فيما كان مركز المقطّم ماضياً في طريق النموّ بمستوصفه ، ومدرسته ، و مدرسة الخياطة ، بفضل عمل الأُخت ساره ، و بنات مريم ، انتقلتُ إلى مخيّم ثالث ، في معادي تورا ، بضغطٍ من إِحدى صديقاتي ، "مارغريتا " ، التي كانت تختلف إلى ذلك المكان ، و تلحّ على ضرورة انخراطي فيه، و تعاوني مع جامعي النفايات ، في سبيل تطوير أَوضاعهم ، على نحو ما فعلت في قريتي الصفيح الأُخريين .

كنت أواجه المشكلة عينها : تزويدهم بالأَمل ، و إِفهامهم أَنّ بوسعهم أَن يصبحوا ، هم أَيضاً ، مواطنين كاملين ، و استنفاري للكفاح معهم .

عندما مضيت لزيارتهم مررت أَمام سيّارة آنستين كانتا جالستين على كرسيّين قابلين للطيّ جاءتا بهما ، تلقّنان مبادئ الدين المسيحيّ لزمرة من أَطفال جامعي النفايات قذرين ومرتدين أَسمالاً بالية . كانتا تعلّمانهم الصلاة ثمّ تدعانهم يمضون حفاة وسط الأَقذار . و قد

أحاطتاني علماً بأنّهما تأتيان مرَّتين كلّ أسبوع ، فتشرحان " الديانة " ، ثمّ تستقلاّن " بتقوى " سيّارتهما .

و شعرت بالثورة تجيش في داخلي . أهذا هو " الدين " ؟ أن نحدّث صغاراً عن الصلاة ، و ندعهم يتعفّنون في القذارة ؟ أهذا ما فعله ، هو ، المسيح ؟ صحيح أنّه كان يتحدّث عن ملكوت الله ، و لكنّه كان يلبّي دعوات المتألّمين ، و يُعنى عناية خاصّة بالمرضى ، و العميان ، و المشلولين ، الذين كان ، بشفائه إيّاهم ، يعيد لهم الحياة و الأمل .

و بلغت منّي الثورة بحيث قرَّرت ، في الحال ، الاستقرار هنا كي أسهر على صحَّة وتربية الصغار. أقمت أوّلاً في كوخ من صفيح ، أسوة بالجميع ، بانتظار المال و العون الكفيلين بمساعدتنا على بناء مستوصف ، و حديقة أطفال ، و مركز لمحو الأُمّيّة ، و آخر للتسلية .

و سرعان ما تحقّق كلّ ذلك . كنّا في شهر آب ، و حالفني الحظّ بقدوم "داني"، وهي أمينة سرّ في الجماعة الأوروبيّة ، كانت قد اختارت قرية الصفيح لقضاء عطلتها الصيفيّة فيها ، بانتظام . و كانت تأتي بحقائب مترعة بالعقاقير الأساسيَّة ؛ فتعالج الجروج ، و تحرّر الشعر من ساكنيه ، و تغسل الأرجل والرؤوس، و تكافئ الصغار على صبرهم ، بقبلةٍ و ملبّسة . لقد اعتادت أن تشاركني كوخي ، و كانت أكثر صموداً منّي في مواجهة القيظ و التعب . و كانت تعيد لي الانتعاش عندما تخور مقاوتي ، و تقول لي بلهجةٍ متغنّجة : " لا عليك ، أيّتها الأخت إيمّانويل ، فكلّ شيء يمضي " . و إذا ما هبّت ريح " الخمسين " القادمة من الصحراء، و التي تُغرق القوم في حرارة تتجاوز الأربعين درجة ، و تجفّف منهم الجسم و الفم ، وتجعلهم يكادون يختنقون افتقاراً إلى نسمة منعشة ، فإذا بداني تهرع إلى القاهرة ، وتبتاع بضعة أمتار من قماشٍ رقيق ، فتفصّل و تخيط لي بسرعة " جلاّبيّة " من نمط جلاّبيّات قرية الصفيح ، وتلبسني إيّاها ، منتصرة .... آه ياللروعة! إنّها تحوّلني إلى جامعة نفايات حقيقيّة ، و تتيح لي أن أتنفّس .

من كلّ صوب كان شبّان يوافون ، و تقوم بينهم و بين المصريّين علاقات تفاهم ممتازة ، و كما حدث لأصدقائنا البلجيكيّين الأوائل ، كانوا يُغنون بعضهم بعضاً.

و تطوّعت أُختان من الجماعة الكاريسماتيّة لمدّة سنة : هما أوتيلا البرتغاليّة السمراء الساحرة ، و بياتريس ، الفتاة الجيّاشة ، مع قصر قامتها و بدانتها ؛ و بدأتا بالتصدّي لتعلّم اللغة العربيّة ، البالغة التعقيد ، و باتتا قادرتين على استخدامها ، مع المرشدات المصريّات اللواتي كنّ يحطنَهما علماً بالمكان ، و بمشاكل الأُسر . و أيَّة نفحة حياة نفثتاها في معادي توارا ! كانت " أوتيلا " تجلس في الأكواخ ، و تهدهد الأطفال ، و تصادق الأمّهات ، و تسدي

لهنّ دروساً في النظافة ، في حين كانت "بياتريس " تزرع البهجة في حديقة الأطفال ، و متسلّحة بالأوكورديون كانت تجعل الصغار يغنّون و يرقصون ، و لا شيء كان يوقفها .

ذات يوم قالت لي :

– أختي إيمّانويل ، كم سيكون جميلاً لو كان لدينا مسبح يعبث فيه الصغار !

– فكرة مدهشة ، و لكن لا ينقصنا إلاّ الماء !

– ما من مشكلة : نأتي بصهريج ماء .

و سرعان ما حفر لنا متعهّدنا و صديقنا ، جرجس ، بركةً طولها أَربعة أَمتار بعرض ثلاثة أمتار ، و غلّفها بالاسمنت ، و جاءنا بالماء ، تحت نظر الأَهالي المعجَبين .

كلّ شيءٍ كان محكم التنظيم ، و كانت " بياتريس " قد استصنعت سراويل سباحة يرتديها الصغار و هم يرتعشون بِشْراً و متعة ، ثمّ كانت تغسل لهم أَرجلهم واحداً فواحداً ، فيثبون إلى الماء المشبع بالمطهّرات عملاً بمادئ النظافة ، جماعات من أَربعة أو خمسة أولاد.

في المساء كنّا نلتئم نحن الثلاث ، لكي نشيد بتسبيح الربّ . لقد كانت سنة مدهشة و معهما عدت إلى العشرين من عمري !

و لكنّ الأخت ساره و أَنا كنّا نتطلّع إلى أَكثر من بركة لا تتعدّى بضعة أَمتار مكعَّبة ينتعش فيها صغارنا ، و كان يراودنا حلم :

– " يا إِيمّانويل ، إنَّ بحيرة الإِسماعيليّة مكان رائع ، يبعد 150 كيلومتراً عن القاهرة – في حين أَنّ المسافة إلى الاسكندريّة تتجاوز 300 كيلو متر ، و البحر فيها خطر – و الماء في بحيرة الإِسماعيليّة هادئ ، و غير عميق عند أطرافها ، و تتمتّع شواطئها برمل مذهّب . و كان محسنون كرماء قد مكّنونا من شراء حافلة للنقل .

– ساره ، فلنبحث عن صديق ثريّ ! "

و ذات يوم جاءنا رجل هولانديّ بارد المظهر ، و لكن دافئ القلب ، كان قد سمع عن جامعي النفايات . فاقترحنا عليه اصطحاب فريق من الصغار إلى الإسماعيليّة . و عندما شاهد الأولاد ، للمرّة الأولى ، كلّ ذلك المدى من الماء ، راحوا يطلقون صيحات إِعجاب جامح ، ممّا هزّ صديقنا الهولنديّ الذي ترجم تأثّره إلى شيك أتاح لنا شراء فيلا . ثمّ أَرتني الأخت ساره الشاطئ الذهبي الفسيح المحاذي للبناء ، قائلة :

– " إِيمّانويل ، أُنظري الأَرض التي سيستطيع أصدقاؤنا جامعو النفايات أَن يعبثوا ويستحمّوا فيها !

– " أُصبري ، يا ساره ، سيحين وقتها ! "

و قد حان الأوان ، هنا أَيضاً ، بفضل وصول فريق من الكشّاف يواكبهم كاهن يتدفّق بالمبادرات ، اسمه روبير و يلقّبونه " بوب " . لقد نصب الشبّان خيامهم في رمال أحلامنا ، فتميّزت المالكة غضباً ، و أمرتهم بالرحيل فوراً ... و ما إِن عاد ضيوفنا إلى فرنسا حتّى أطلقوا عمليّة " شاطئ جامعي النفايات " ، و سرعان ما امتلأت أكياسهم بالنقود ، و وافانا شيكٌ ، و انتهى الأمر بشراء شاطئ أَحلامنا !

و استمرّ الفرنسيّون في المجئ لمساندتنا ، و تضخّمت أعدادهم ، و هم عازمون على توسيع مجال عملهم . غير أنّ الأمر لم يتوقّف عند هذا الحدّ . فذات يوم أَفضى إليّ جيرار ، وهو شابّ في الخامسة و العشرين يعمل في سفارة فرنسا ، و يأتي غالباً لمساندتنا :

– " يا أختاه ، لديّ مشروع . سأطلق في فرنسا منظّمة " أَصدقاء الأُخت إيمّانويل " بهدف جمع الهبات و مضاعفة النشاطات .

– إِنّها فكرة عبقريّة ، يا جيرار ، و لكن المنظّمة لا تولد ، هكذا ، عشوائيّاً .

– ما من مشكلة (عبارة سحريّة هنا في مصر) . سأقحم في الأمر السفير ، و هو رجل طيّب و ذكيّ . و إذا ما ترأّس المنظّمة سار كلّ شيء على خير نَسق . "

بفضل جيرار ، و بضعة زملاء له في مثل مؤهّلاته ، رأت النور منظّمة "أصدقاء الأُخت إِيمّانويل "

بضع سنوات بعدئذٍ ، أَنشأ " بينوا " – ذاك الذي كان قد اقتحم ركام الأَقذار – منظّمة "اسماي " (asmae) و هي اختزال يعني " مساعدة اجتماعيّة طبّيّة لمصر " التي تحوّلت فيما بعد إِلى " مساعدة اجتماعيّة طبّيّة للطفولة " . بينوا و صديقه إِيريك جعلاني أَجتاز فرنسا من شمالها إلى جنوبها ، و من شرقها إلى غربها ، ذارعين الطرقات في سيّارة مندفعة بسرعة 140 كيلو متراً في الساعة ... ما أطيب أن يكون المرء شابّاً !

لقد قامت شقّة بينوا في باريس مقام مكتب للمنظّمة ، طيلة سنوات ، و حتّى تمكّنت من اتّخاذ مقرّ لها ، تولاّه إِيريك ، ذاك الذي كان ينتظره مستقبل لامع في الوظيفة العامّة ، و الذي كان قد أَقام معرضاً مدهشاً لوثائق غير مطبوعة عائدة لريشليو مؤسّس الأَكاديميّة الفرنسيّة . لقد كان إِيريك من نمط من يؤثرون " الخدمة " على " الربح " .

عام 1986 استقدمني بينوا و إِيريك إلى باريس ، على رحلة جويّة مجّانية استطاعا انتزاعها من شركة إِيرفرانس ، و أَنذرني إِيريك :

– أيّتها الأُخت إِيمّانويل ، ينبغي أَن تقرّري الظهور على شاشة التليفزيون . إِنّها دعاوة ضروريّة .

– و لكن ، يا إِيريك ، لا يظهر على التيلفزيون من مازال مثلي نكرة .

– بل تكفي المثابرة . لقد اتَّصلت بهم عبر الهاتف لا أَقلّ من عشرين مرّة . و قد أَجابوني ، في المرَّة الأَخيرة ، و قد ضاقوا ذرعاً : " كفاك تصديعاً لرؤوسنا . ائتنا بها ، و لننهِ الحديث عن أُختكم " ماشنيسكي " ! .

– بل إِيمّانويل

– حسن ، فلتحضر لمرّة واحدة .

و أَغرق إِيريك في الضحك و هو يروي هذه النكتة . و أَضاف : " ستكون أَكثر من مرَّة ... سننال منهم " . و بالفعل ، بفضل روح ذلك الشابّ القتاليّة ، استطعت الظهور مرّات عديدة ، و إِثر كلّ ظهور ، كانت الشيكات تنهمر كالمنّ ، وقد أتاحت الدعاوة لآلاف الأولاد المعانين أَن يتغلّبوا على مشاكلهم و يغشوا المدرسة. و في نهاية المطاف قرّرت منظّمتا " أسماي " و"أصدقاء الأخت إِيمّانويل " ضمّ قواهما في سبيل توسيع مدى نفوذهما . و قد بات اليوم أَكثر من ستّين ألف عضو ، يُغيثون خمسين أَلف ولد في عشرة بلدان .

و لن أَنتهي لو حاولت التعريف بجميعهم . إِنَّ العوائق هي لكم ، أَيُّها الشبّان و الفتيات ، مادّة للعمل ، كما كان يقول الإِمبراطور مارك أوريليوس . إِنّي ما زلت أَراكم ، و فؤوسكم بأيديكم ، تتصدّون للتربة الصلبة كالصخر في عزبة النخيل : مشدودي العضلات ، و قد جفّف القيظ شفاهكم ، تهزّون الأرض هزّاً لكي تحفروا أساسات المدرسة الجديدة . و كنت أسمع العمّال المصريّين ، العاكفين على المهمّة عينها ، يقولون فيما بينهم :

– " يا سلام " ، و بهذه العبارة يشيدون بكلّ ما يدهشهم ، و يضيفون :

– " الكتاكيت دول شاطرين "

و يضاعفون ، هم أَنفسهم ، جهودهم .

و عندما كان العرق يسيل على تلك الأَجسام غير المعتادة على الصيف القائظ، كنت أَتدخّل :

– " هيّا ، توقّفوا ، و لنلتجئ قليلاً إِلى ظلّ الخيمة . "

– و لكنّنا يا أختاه ، لا نريد اللجوء إِلى الظلّ . فبناء مدرسة لصغار جامعي النفايات هؤلاء ، يعني منحهم فرصة حياتهم ، و هو يستأهل أَن ننفق في سبيله .

و في المساء كانوا ، منهكين و لكن سعداء ، يتناولون الفول ، قوت الفقراء ، ثمّ يستلقون على الحضيض كي يرقدوا في العراء ، غير حافلين بأذناب الجرذان التي كانت تداعب أقدامهم .

اليوم باتت قرية الصفيح تُصفر كلّ صباح ، فمئات الطلاّب ، المتأبّطين أَكياساً من القماش ، يمضون حثيثي الخطى ، كي يصلوا إِلى المدرسة في الوقت المحدّد . و غداً لن

يكونوا ، مثل آبائهم ، نفاية القاهرة المزدراة ، بل رجالاً و نساءً واقفين ، و لهم ، في المدينة ، مكانهم .
كنتم محقّين أيّها الشبّان . هذا الهدف يستحقّ أَن " ينفق " المرء في سبيل تحقيقه .
آه ! لقد أَخطأت عندما ساورتني حولكم الشكوك : فعندما يحدوكم دافع ، أَنتم مذهلون .

ثقافات تتواجه

العيش جنباً إِلى جنب ، سحابة أَسابيع عديدة ، كان يضع الشبّان الأوروبيّين وجامعي النفايات حيال ثقافة تتعارض تماماً مع ثقافتهم . فما كانت عواقب الأسلوب المختلف الذي كان يعرضه كلّ فريق للآخر ؟

بعضهم كانوا يقدمون من أوروبا ، حيث المشكلة الكبرى تتمثّل في اضطرار المرء إلى اكتساب أَكبر قدر من المال لكيلا يظلّ ضحيّة شعور دائم بالحرمان . ففي حضارة حيث كلّ شيء منظّم للحثّ على أَقصى قدرٍ من " الاستهلاك " ، و حيث الدعاوة التجاريّة لا تكفّ تصبّ إِعلاناتها ، طيلة مدّة البثّ ، و حيث العروض التي لا تني تتجدّد تؤدّي ، حتماً ، إِلى عدم رضى متّصل : إِذ لا يكاد المرء ينعم بالمادّة التي حلم بها ، حتّى يتعيّن عليه اقتناء مادّة أُخرى أَفضل منها . و من لم يمتلك وسائل هذا السعي الجامح ، اعتراه الشعور بأَنّ المجتمع ينبذه .

و إِذا بضيوفنا الشبّان الذين أَلفو هذا النمط من العيش يحطّون الرحال في مكان خالٍ من المراكز التجاريّة ، و مصابيح النيون ، و دور السينما ، و من آلاف أوهام المجتمع الاستهلاكيّ .

الزواج هنا ؟ بضع قطع من الصفيح العتيق يُجمع بعضها إلى بعض بمسامير، وتغطّى بالورق المقوّى ، و بصور ملتقطة من النفايات ، فتصبح ردهَة العرس جاهزة ! خزانة الثياب؟ " جلاّبيّة " عتيقة ، و أُخرى أَكثر نظافة لأَيّام الأَعياد. العمل ؟ ثلاث مئة و خمسة و ستّون يوماً ما خلا أَربعة أو خمسة أَيّام عطلة في شهر آب بمناسبة عيد العذراء . و التسلية الوحيدة هي هذا الحجّ إلى الصعيد المصريّ حيث يشخص الجميع ، عقب صلاة لمريم ، التي

يجلّها الاسلام أَيضاً ، و هناك معرض شعبيّ يوفّر للجيمع أُلهيات رخيصة الثمن . و الطعام ؟ قوامه ، كلّ يوم ، الفول و الخسّ .

إذن ، و الحالة هذه ، هل محكوم على الشبيبة باليأس ؟ كلاّ ، على الإِطلاق . فهي تعبث و تطلق صيحات مدوّية ، في كلّ مناسبة ، حول كوب من الشاي .

و يبدو ضيوفنا مذهولين ، و يتناقشون فيما بينهم ، و أُنصت إِليهم ، من غير أَن أَتدخّل:

– " أَلا ترى ، يا كلود ، أَنّهم يبدون و كأَنّهم يعيشون هنا في منأى عن أَيَّة مشاكل ؟ أمر لا يصدّق وسط مثل هذا البؤس !

– بالطبع ، فهم غير ملزمين بدفع الضرائب ، و لا تهدّدهم البطالة ، و لا يقلقون على غدهم

هكذا أَجاب كلود ، ابن الثالثة و العشرين ، و صاحب اللحية الصغيرة الحمراء .

– مع أَنّهم يولدون ، و يعيشون و يقضون نحبهم في قرية الصفيح البائسة هذه . أَيَّة تسلية لديهم ؟ لا شيء . و هل لاحظت أَنّهم لا يستطيعون حتّى محادثة الفتيات ؟ إِنّه لأمر محزن . هل تتحمّل هذا ، أَنت ، الشابّ الوسيم الذي يحظى باستلطاف الفتيات ؟

– بالطبع لا ! و لكن الغريب هو أَنّني هنا أَكثر سعادة ممّا أَنا في فرنسا "

و يدلي برأيه جانو ، الفارع القامة ، المفتول العضلات ، المعتاد على نوادي باريس الليليّة :

– هذا صحيح ، فأَنا أَيضاً ، أَشعر بارتياح ، و أَستطيع الاستغناء عن ليالي العاصمة .

و تدخّلت " إِيزابيل " ، ابنة العشرين ربيعاً ، الشقراء القصيرة الشعر :

– على أَيَّة حال لا أودّ أَن أكون امرأة هنا ، أرأيتم أُولئك النسوة التعيسات ؟ إِنّهنّ عبدات و لا يخرجنَ أَبداً !

– صحيح ، و لكنّ المحيّر هو أَنّهنّ ، في الظاهر ، أَكثر أزدهاراً من نسائنا المتحرّرات .

و تستأنف إِيزابيل ، و أَنظارها شاردة :

– إِنّهنّ يحملن دائماً طفلاً على ساعدهنّ ، حتّى عندما يدأبن على فرز النفايات باليد الأُخرى . و الطفل يوسّع القلب . إنّ الأسرة ، هنا ، لم تتفجّر بعد شظايا، و تمكن مشاهدة أَفرادها ، جالسين ، على الأَرض ، يأكلون ، و يتحدّثون ، ويضحكون معاً .

و يُصرّح جانو :

– ثمّة سرّ ، ففي باريس حيث أَلهو ما طاب لي اللهو ، و أَحصل على كلّ شيء بقدر ما أَشتهي، أَشعر غالباً أَنّ جسمي ثقيل ، و نفسي فارغة ، أَمّا هنا ، فأُصفّر جذلاً سحابة النهار ، رشيقاً كالعصفور . "

أَمّا " إِيفيت " ، صغراهم ، التي لم تكد تبلغ الثامنة عشرة ، فقد أَثارت غليان الجميع بطرحها السؤال الجوهريّ :

– إِذن ، أَيّها الرفاق ، ما هي السعادة ؟

و تدفّقت الأَجوبة : " هي قبول الحياة كيفما أَتت " ، " هي إِلغاء الرغبة من الذات ، على غرار بوذا " ، "هي اقتسام السرّاء و الضرّاء ؛ فهنا لا يعيش أَحد وحيداً".

و إِثر صمت قصير ، استأنفت " إِيزابيل " :

– " إِنّكم لا تدركون شيئاً ، فالسعادة هي الحبّ المتبادل . أَلم تلحظوا كيف يُعنى الكبار بالصغار ، و كيف الجميع يتعارفون ، و يتعاطون ؛ الأَبواب دائماً مفتوحة : فتدخل الجارة إِلى بيت جارتها فتحتسيان الشاي معاً ، و الجميع يتبادلون أَشياءهم ، و يعيشون في إِخاء !

و قال " كلود " :

– عندنا الشقق دائماً محكمة الإِيصاد ، و القوم يعيشون في طابق واحد ، ولا يعرفون بعضهم بعضاً ، و الكآبة سائدة . أَمّا هنا فأَنا أَبتسم للجميع ، و الجميع يبتسمون لي ...

و سأل أحدهم :

– و أَنتِ ، يا أُختاه ، ماذا تقولين في كلّ هذا ؟

– أَقول أَنّكم أَصبحتم فلاسفة ، إِنّكم تبحثون عن معنى تسبغونه على الحياة ، وأَظنّ أَنّكم تعثرون عليه .

و هتفت " إِيزابيل " :

– يلّه ، الحياة جميلة ، عندما يتحابّ البشر .

و ردّت عليها صيحات تأييد صاخبة . و أنهى كلود النقاش بقوله :

– لقد تقدّم الليل ، يا أَولاد ، و علينا النهوض باكراً غداً . هيّا إِلى النوم ، ليلة طيّبة يا جماعة ! و تمدّد كلّ منهم في كيس رقاده ، و عيناه شاخصتان إِلى النجوم .

أَكثر المشاهد إِثارة كان تجاذب الشبّان الأوروبيّين و جامعي النفايات الأَحاديث مساءً ، حول أَكواب الكوكاكولا . و كان السؤال الذي يلهب شفاه شبّاننا المصريّين ، و يضعهم في أَقصى حيرة ، هو الرفقة الطيّبة السائدة بين الشبّان والفتيات. وكنت أنا أضطلع بالترجمة .

و كان أَوّل المتجرّئين على طرح السؤال ، جرجس ، الذي التصقت بعض خصل شعره الداكن بوجهه :

– " عندكم البنات حرّين ؟ "

– بالطبع ، فنحن في المدرسة معاً ، و نمارس الرياضة معاً ، و نتنزّه معاً .

– و في أَيّة سنّ تتزوّجون ؟

– غالباً ، في نحو الثلاثين .

لحسن الطالع ، امتنع الأوروبيون عن القول بأنّهم يعيشون معاً بلا زواج ، فهذا لا يمكن فهمه هنا ، و من شأنه إِثارة فضيحة مجلجلة .

– إِنّها سنّ متأخّرة ، فهنا يتزوّج الشبّان في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة والفتيات في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة .

– إِنّها لسنّ مبكّرة جدّاً . و هل القانون يجيز ذلك ؟

– كلاّ ، و لكن ما من مشكلة ، فقيود النفوس تزوّر . "

و استغرب شبّاننا الأوروبيّون هذا التباهي السهل ، و لكنّهم أحجموا عن أيّ تعليق . و في حرصي الشديد على مناقشة رؤية رجال قرية الصفيح للمرأة ، سألت في شيء من التحدّي :

– فايز ، قل الحقيقة ، هل تضرب زوجتك ؟

– " أُمّال " ، بالتأكيد . فالنساء لا يفهمنَ شيئاً ، و لا بدّ من ضربهنّ !

فقوبلت أَقواله باستنكار عامّ ، و هزّ السخط الحضور ، و هتفت إِيزابيل :

– فليجسر رجل على تهديدي فقط حتّى أَطرحه أَرضاً ، فقد تلقّنت الجودو .

و لاذ شبّان قرية الصَفيح بالصمت ، و لكنّهم كادوا يختنقون .

و سألت " بياتريس " ، الخجول ، ذات الشعر الحسن التصفيف :

– و لمَ نكون نحن أَقلّ من الشبّان ذكاء ؟

إِزاء هذا السؤال اعترى الارتباك جامعي النفايات . و حاول مصطفى ، و هو شابّ مسلم جذّاب ، التظاهر بالرقّة ، فقال :

– أَنتنّ الفرنسيّات مختلفات ، و خير مثال على ذلك الأُخت إِيمّانويل .

فتدخّلتُ قائلة :

– يا مصطفى القضيّة قضيّة تربية . إِنّكم تسجنون بناتكم في كوخهنّ فلا يرين و لا يعلمنَ ما يجري في الخارج . و التفتّ إلى الأوروبيّات سائلة :

أَيّتها الآنسات ، ألم تغشين جميعكنّ المدرسة ؟

فرددن في مثل شلاّل من الضحك :

– " بل جميعنا في الجامعة "

و اجتاح الذهول شبّان قرية الصفيح ، فهذا الأَمر يتخطّى خيالهم .

و استأنفت " إِيزابيل " ، و قد أَنذر ناظراها بروحٍ قتاليَّة :

– أَوّلاً ، لمَ تتزوّج الفتيات و هنّ في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة ؟ فليغشينَ المدرسة ، أَقلّه حتّى سنّ السادسة عشرة . و هكذا لن يحتجنَ أَن يُضربنَ كي يفهمنَ .

و سمعت بفرح مصطفى يقول : " مش بطّال " . فانتهزتُ الفرصة و قلت :

– " المدرسة هي الأَهمّ . و في نيَّتي أَن أَبني قريباً واحدة للفتيات و الصبيان. وستساعدونني على إِقناع الوالدين . و سترون أَنّ المصريّات لسن أَقلّ من الفرنسيّات في شيء !. "

و تفرّق الجميع بعد أَن تصافحوا ، و صافحت فتيات فرنسا شبّان قرية الصفيح ، الذين أخذ يتمزّق أمام أعينهم قناع . فليس الذكاء وقفاً على الذكور ، وللإِناث حقّ بالاحترام .

منذ ذلك اليوم شهدت شيئاً يتبدّل في عقليّتهم ؛ و سيتأكّد هذا التبدّل بقدر ما ستنال فتياتنا نفس التعليم الذي يناله أخوتهنّ . و على كلّ حال لم ينتظرن طويلاً حتّى يحقّقنَ ، في هذا المضمار ، ثورة لم تكن لتخطر ببال أُمّهاتهنّ . فقد افتتحت الأخت سارة و أخواتها و فريق من العلمانيّين مدرسة جميلة في المقطّم ، تتوقّف صفوفها عند عتبة الدراسة الثانويّة . و في امتحانات عام 1994 الرسميّة نجح 38 صبيّاً من أَصل 40 ، في حين رسبت 30 فتاة من أَصل 30 . و اعترى الأَساتذة الذهول ، وادّعت الفتيات التفسير التالي : " لقد غشّ الصبيان في امتحان اللغة الإنكليزيّة ، أَمّا نحن ، فحرصاً على الاستقامة ، أَبينا الغشّ ، و أعدنا أوراقنا بيضاء " .

لا ريب أَنّ تلك الرواية كانت تخفي أَمراً ما ، و توفّقتُ إِلى القبض على مفتاح السرّ ، بعد أَن استمعت إِلى اعتراف إِحدى الفتيات : " لم تنشئ لنا الأَخوات ثانويّة . الصبيان أحرار وسيسعهم المضيّ خارج قرية الصفيح ، أَمّا نحن فلن يسمح لنا ذوونا بالخروج ، و لذا آثرنا إِعادة الصفّ ، و إِلاّ قُسرنا على الزواج في نفس السنة ، و هذا ما نأباه ، أَيّاً كان الثمن . إِنّنا نبتغي إِنهاء الدراسة الثانويّة ، و بلوغ الثامنة عشرة ، و اختيار مصيرنا بأَنفسنا ! "

لقد أَنّبناهنّ ، الأخت ساره و أَنا ، لتصرّفهنّ هكذا ، خلسة ، و لكنّنا ، في قرارة نفسنا كنّا فرحتين جدّاً : فهؤلاء النسوة سيستطعنَ، يوماً ، تحويل وجه قرية الصفيح .

و قد أَفلح صديقنا " جان ساج " في إِيجاد المال اللازم لبناء ثانويّة " بسمة " ، التي تستقبل اليوم فتيات جامعي النفايات . حقّاً " ما تريده المرأة ، يريده الله ! "

ترى ، هل تطوّرت عقليّة شبّاننا الأوروبيّين ، هي أَيضاً ؟ إِنّني أَعتقد ذلك ، و قد بلغتني أَصداء هذا التطوّر . فأَثناء أَسفاري إلى حيث أُدعى لإلقاء محاضرات ، أَلتقي "الشاطرين " ، أَبطال الورشات . و أَسمع هذا أو ذاك منهم يؤكّد لي بقناعة : "آه! يا أُختاه ، أيّ درس تلقّيته لديكم ! لقد تعلّمت الآن عيشة الإِخاء ، و لم أَعد أَستطيع العيش محبوساً في سجن مشاكلي الصغيرة . إنّ الاهتمام ، بالآخرين منبع للحيويّة ! " إِنَّ جميعهم يؤكّدون ، بنفس نبرة الحنين :

" ما أَطيب الوقت الذي عملنا ، أَثناءه ، في قرية الصفيح ! "

لقد تمّ أَخيراً نوعٌ من التراشح بين ثقافتين : الثقافة الأوروبيّة المندفعة على غير هدى في دوّامة الاستهلاك و الفرديّة ، و ثقافة قرية الصفيح التي تنعم بالتضامن و لكنَّها تحرم المرأة كرامتها ، و تحرم الطفولة التعليم .

و كما هي الحال في كلّ علاقة عميقة اغتنى كلّ فريق بأَفضل ما لدى الآخر. فقد أَدرك أُوروبيّونا قيمة الإِخاء الأساسيّة ، و اعترف جامعو النفايات بحقّ الفتاة في الاحترام ، وحقّ الولد في المدرسة .

إنّ لقاء ثقافتين ، لا في المواجهة ، بل في التكاتف ، ينتج ثورة حيث كلّ فردٍ ينمو إِنسانيّاً .

طالما كانت هناك الحياة ، كان الأَمل : السودان

-

منذ تمّوز 1984، لم تفتر الحيويّة ، التي بعثتها في قرية الصفيح أَمواج الشبّان الاوروبيّين . فمدارس عزبة النخيل و المقطّم كانت ماضية في نموّها ، و في قرية الصفيح الثالثة ، معادي تورا ، كانت حديقة أَطفال قد رأت النور . و قد قدمت ممرّضات شابّات من فرنسا و بلجيكا لمساعدتنا في مستوصفاتنا الجديدة ؛ و كانت نوادي التسلية المسائيّة ، على غرار نادي المقطّم ، تزدهر لدى جامعي النفايات .

و في شهر تشرين الثاني 1985، في غمرة نشاط تلك الخلايا المدوّية ، وصلت إِليّ رسالة تقول : " أَيّتها الأُخت إِيمّانويل ، السودان في ضيق شديد ، تعالي لنجدته " . كانت الرسالة تحمل توقيع " سيمون " . في تلك الحقبة لم أَكن أَعرف جيّداً تلك المرأة الرائعة التي تولّت الذود عن حياض أَطفال الخرطوم ، و التي ستغدو روح منظّمة سنتعاون فيها معاً . و لكن عليّ أَن أَعترف أَنّ جوابي كان ، بادئ الأمر ، سلبيّاً :

- " إنّ قرى الصفيح الثلاث تفيض نشاطاً ، فكيف يسعني هجرها ؟ "

و لكنّ النداء كان يزداد إِلحاحاً ، و يواكبه وصف مريع لما يحدث في السودان . فقد كانت المجاعة تدمّر الجنوب ، و تفتك بالبلاد كلّها حرب أَهليّة تشطر الشمال عن الجنوب دينيّاً و إِيديولوجيّاً . السودانيّون يموتون آلافاً ، الأُمّهات يُواجهنَ الضيق و الحيرة ، وحيدات ، منفصلات عن أَزواجهنّ الذين راحوا يقاتلون بعيداً ، وهنّ يرقبنَ النيل الذي خلا من المراكب، و السّماء التي خلت من الطائرات ، والطرقات التي أصفرت من الشاحنات ، لا شيء ، لا غوث .

و كنّ يرقبنَ أَبناءهنّ : أَجسادهم تتغضّن ، و رؤوسهم تتعرّى من شعرها ، ولحمهم يذوب بحيث لن يرَيْنَ قريباً سوى جثث . حينئذٍ ، وضعنَ في كيس صغير ما تبقّى لديهنّ من ذرة بيضاء ، و قلنَ لأَبنائهنّ : " يا بنيّ ، ينبغي أَلاّ تقضي نحبك . فامضِ ، و تقدّم ، و سرْ مئة ، بل خمس مئة ، بل ثماني مئة كيلو متر حتّى الخرطوم... حيث ستلقى الخلاص ... تقدّم ، وإِن سقطت ، هبّ واقفاً من جديد ، إِلى أَن يقلّك سائق فوق رزمة بضائع ، أو يقلّك

قطار فوق سقفه . سرْ دائماً إلى الأَمام . و حدّق في الطريق بلا توانٍ ، حتّى الخرطوم ، فهذا طريق حياتك ، طريق الأَمل . أُصمد ، فعليك أَلاّ تقضي نحبك ! "

لم يأمرنَ بناتهنّ بالمضيّ ، فالبنات لا يُرسلن على الطرقات ؛ و الذين مكثوا من نساء و أطفال ، وشيوخ ماتوا جميعهم ، بمئات الألوف ... ولم يحظوا حتّى بالدفن ، فمن ذا الذي يقوى على حفر الأَرض ؟

أمّا هم ، الأَبناء ، فقد خاضوا مسيرة طويلة ، مسيرة الجوع و النضال من أَجل الحياة . أَحدهم ، و اسمه " لوّال " و قع بين يدي تاجر رقيق باعه ، و لكنّه أَفلح يوماً في فكّ وثاقه ، و انطلق وصدى صوت أُمّه يدوّي في رأسه: " سرْ ، سرْ ، وهبّ واقفاً إن وقعت ، و تقدّم ، فينبغي ألاّ تموت " . و تقدّم متراً فمتراً ، و كيلو متراً فكيلو متراً ، و مرّ قطار ، فتسلّق على سطحه ؛ و قد وجدناه في الخرطوم ، نصف ميّت ، وسط آلاف من أَمثاله ، الذين كافحوا بضراوة كي لا يموتوا ، التزاماً بنصيحة امّهاتهم . و كانت عيونهم الغائرة في محاجرها ، تستغيث .

كيف يمكن مقاومة صيحات الاستغاثة هذه ، بعد مطالعة هذه الفضائح ؟ وبما أنّ الأخت ساره و أخواتها و فريقها باقون ، فقد بات ممكناً الاستغناء عن وجودي . و هكذا طرت، ، أَخيراً ، إلى السودان . و ها أَنذا أَجوب مع سيمون شوارع الخرطوم . و مضة أَمل كانت تشتعل في عيون الأولاد و هم يرون راهبة تمرّ ، فيغرسون أَظافرهم الطويلة في جسدي و هم يقولون لي : " أَنا معك " . كان منظراً مريعاً رؤيتهم هكذا يتسحّبون على الأَرض ، هياكل عظميّة تتحرّك . وحدها النظرات كانت تحتفظ بشرارة حياة . كانوا سبعة آلاف ولد . فكيف السبيل إِلى إِيجاد المال الكافي لملء هذه البطون الجائعة ؟

شخصت إلى فرنسا و جأرت : " لا يحقّ لكم ترك إِخوتكم و أَخواتكم ينفقون، أَنتم أَيّها الشبّان المتخمون ، و أَنتم أَيّها الرجال و النساء الذين يجهلون عذاب الجوع القاتل " . و حينئذٍ هبّت ريح تضامن شديدة من فرنسا حتّى السودان ، و كانت ريح أَمل . في باريس تراكمت أَكياس البريد المحشوّة بالحوالات و الشيكّات ، في شقّة "بينوا " الضيّقة التي كانت تقوم مقام مقرّ لمنظّمة " أَسماي " التي سبق له أَن أَسّسها . فاستعان بجميع أَعضاء فريقه الذين دأبوا بحرارة على إِرسال مساعدات للخرطوم ... و هكذا أَفلحنا في إِنقاذ السبعة آلاف سودانيّاً صغيراً . أَجل ، سبعة آلاف هيكل عظميّ غطّيت باللحم من جديد .

إِنّها عجيبةٌ حيويّة الأَجساد الصغيرة التي تأبى الموت . و لكن ذلك لم يكن كافياً ، فالولد ليس لحماً و دماً فحسب ، بل هو أَيضاً روح . و كيف السبيل إلى بناء مدارس لهم ،

والعثور على المبالغ الطائلة لهذا الغرض ؟ كانت أَعدادهم تتفاقم : عشرة ، عشرون ، ثلاثون ، أَربعون أَلفاً ، و قد أَنشأنا أَكثر من سبعين مدرسة .

و كانت سيمون قد شرعت بإِنشاء مجلس إِدراة يتألّف فقط من فرنسيّين وإِيطاليّين ؛ ولكنّني أَصررت على أَن ينضمّ إِليه سودانيّون ، فالتعاون مع أَبناء البلاد قد بدا لي ، دائماً، شرطاً للنجاح لا غنى عنه . فنحن ، الأَجانب ، كثيراً ما نميل إِلى إِرادة تسيير العالم وفقاً لمعاييرنا ، و ثقافاتنا الوطنيّة ، في حين يتوجّب علينا احترام ثقافات كلّ أُمّة . و هذه هي النصائح التي أسداها لنا أَصدقاؤنا في الخرطوم : " إِنّكم تبتغون إِشادة بناء ثابت ، يقتضي مالاً وفيراً ، و لكن لا مبرّر له . فهنا يقوم القصب، لدى الفقراء ، مقام الإِسمنت المسلّح . و له مزايا عديدة : فهو ليس فقط قليل الكلفة ، و لكنّه ، أَيضاً يتيح للهواء أن يتسرّب ، و يخفّف وطأة الحرّ القائظ . "

و إِذا بمواردنا تصبح كافية ، و ما كان يبدو لنا ، نحن الأوروبيّين ، غير معقول ، ثبتت جدواه .

كان ظمأ صغارنا إِلى التعلّم من الحدّة بحيث لم يكن شيء يقف دونهم حائلاً . فلم نكن نملك الوسائل لشطر كلّ صفّ إِلى إِثنين ، و كان كلّ صفّ يضمّ مئة منهم ، محشورين كالسردين على مقاعد ضيّقة . و حين كان نصفهم مكبّين على الكتابة كان نصفهم الآخر ينضغطون ، كي يدَعوا للآخرين مكاناً لوضع أَيديهم على دفاترهم ، و عيونهم مثبّتة على رقعة تقوم مقام لوح ، حيث ما كُتب بالطبشور يكاد لا يقرأ . ومع أَنّ حصيرة من قصب كانت تفصلهم عن مئة آخرين إِلاّ أَنّهم ما كانوا يتذمّرون ، فقد أَدرك أولئك الأَولاد المساكين أَنّ النجاح في المدرسة على جانب كبير من الأَهمّيّة، فكان عليهم بذل جهد بالغ لتعلّم اللغة العربيّة، و هي أَصعب اللغات ، في حين كانت لهجاتهم المتنوّعة ، مثل لهجة الدينكا العذبة التي يستخدمونها في أحاديثهم، تذكّرهم بنقاشات ضيعتهم الطويلة ، التي كانوا ، صغاراً ، يتسلّلون ، مساءً للإِصغاءِ إِليها ، وهم مختبئون ، بعيداً عن النار التي كانت تضيء وجوه الرجال ، وجوه آبائهم الجميلة . كم أمسى ذلك بعيداً الآن ، فقد مرّت الحرب ، محطّمة تلك السعادة الساجية! و العثور على أيّ عمل في الخرطوم يقتضي الإِلمام باللغة العربيّة ، فيجهدون لتعلّمها بكل ما امتلكوا من ذكاء و تصميم .

و لم يكن من اليسير العثور على عددٍ كافٍ من المعلّمين السودانيّين ؛ بادئ الأَمر اضطلع بهذه المهمّة شبّان يفيضون حسن نيّة ، و لهم بعض إِلمام بالقراءة والكتابة و الحساب، و كانوا جذلين بتلقّي أَجرهم العادل . و لكنّهم من عطلةٍ أسبوعيّة إِلى أُخرى ، و من عطلةٍ

سنويَّة إلى أُخرى ، تثقَّفوا حتّى حصلوا على الشهادات الرسميّة المؤهّلة للتعليم الابتدائي . وعددهم حاليّاً يناهز الثلاثمئة .

كلّ ثلاثة أشهر كنت أَقدم من مصر – حيث كنت ما زلت متمركزة – و غالباً ما كانت تواكبني الأُخت سارة ، فتزور معي المدارس بصفتها خبيرة ، و كانت تريني الدفاتر قائلة : " يا للخطّ الجميل! " ثمّ تلتفت إلى الأولاد هاتفة : " ما شاء الله ! مرحى ، يا لكم من تلامذة ممتازين ! " و في الواقع كان معظمهم ينجحون نجاحاً باهراً في الامتحانات الابتدائيّة ، ثمّ يتابعون دروسهم في المدراس الحكوميّة .

و كان من الأَيسر العثور على طبّاخات يعددن، كلّ يوم ، طبقاً أَساسيّاً ، وهو، غالباً طبق الفقراء الوحيد . وكان الأولاد يلتهمون الفول المطبوخ ، مع الزيت و البصل ، المحتوي على البروتينات و الهيدرات و الكربون و الدهون الضروريّة للجسم البشري .

من دواعي الأَسى أَنّ الفتيان الذين انتهوا إلى الخرطوم و قد بلغوا سنّ الخامسة عشرة أو تخطّوها قد اندفعوا ، في سبيل تأمين عيشهم ، إلى السرقة والدعارة ، و أمسوا يتعاطون المخدّرات . و قد أَلَّفوا عصابات ، و باتوا يتوارون في القفار ، هرباً من الكلاب البوليسيّة التي كانت تطاردهم . كانوا يخرجون ليلاً ، كالجرذان ، و يتسلّلون إلى الحانات المشبوهة . و كانوا، جميعهم ، يرفضون ، بضراوة الالتحاق بالمدرسة . فهل هم ضلّوا ، بلا رجعة ؟ ذات يوم ، التقيت ، صدفةً، رجلاً سودانيّاً يدعى كمال ، يناهز الأَربعين من العمر . و قد باح لي بنجواه ، وحدّثني عن هؤلاء الشبّان : " إنّ النوم يجفوني في بعض الليالي ، يا أُختاه ، فأقف عند النافذة و أرقب الطريق ، فأشهد ظلالاً تلامس الجدران . إنَّهم شبّان فرّوا من جنوبيّ السودان ، ويستخدمون أَقبح الأَساليب للعيش .و أنا أَملك كلّ شيء : متجراً مزدهراً ، و بيتاً حافلاً بالرفاه و زوجة أُحبّها ، و ابنة ذكيّة ستدخل الجامعة قريباً كي تدرس الطبّ . و أَنا ، شمّاس الكنيسة ، أَقف عاجزاً حيال هؤلاء الشبّان اليائسين . "

و قد حدّثت سيمون عن " كمال " هذا ، و اقترحنا عليه التعاون مع فريق مدارسنا ، فهجر تجارته ، و ارتضى أَن يكسب أَقلّ ، كي يساعدنا . و قد أَفضيت إليه، بدوري : "ياكمال، هؤلاء المراهقون الضالّون هم هاجسي الدائم ، فأنقذهم ! " وما لبث أَن جاءني ، منتصراً ، و قال : " لقد تمّ الأَمر . فقد وهبني الأسقف مزرعة تمتلكها الكنيسة ، و هي على مسافة خمسة و عشرين كيلومتراً من هنا ، و سترين أَنّ هؤلاء الشبّان ، عندما سيعيشون في أَحضان الطبيعة ، سيستعيدون صحّتهم الجسديّة و النفسيّة " و أَضاف ، ضاحكاً : " طالما كانت هناك الحياة ، كان أَمل . "

و في الواقع مضيت لزيارتهم ، بعد مضيّ شهر ، و شهدت مشهداً خارقاً ، رائعاً . فثمّة شبّان صافو النظرات يعملون في الأَرض ، كانوا قد ابتنوا خصوصهم السودانيّة الطراز ، المخروطيّة الشكل، و حفروا أَقنية يتدفّق فيها ماء يغنّي ، و كان لكلّ منهم " قطاعه " . و كانوا ينادونني : " أُختاه ، تعالي شاهدي بطّاتي السمينة ، إِنّني أُطعمها بنفسي " ، " أَختاه ، أُنظري خرافي ، سأجزّ صوفها ، قريباً " . و كان أَحدهم يقول باعتزاز : " تلك هي خضراواتي ؛ إِنّها تنمو بسرعة ، و لكن ينبغي رعايتها " ، و كان آخر يدنو مادّاً يديه قائلاً : " ينبغي أَن تتذوّقي جبنتي ، فأَنا الذي يصنعها ، و هي المُثلى في البلد . "

معلّموهم كانوا مزارعين خبيرين يؤهّلونهم لتحمّل مسؤوليّاتهم ؛ و في المساء كانوا يتابعون دروساً تزوّدهم بالأسُس الثقافيّة التي يفتقرون إِليها . و بالإِجمال كانوا مشغولين انشغالاً ذكيّاً : فوداعاً للسرقة و الاغتصاب ، و المخدّرات ، و الدعارة . وكان كمال محقّاً . فبعيشهم في أَحضان الطبيعة ، و بتحمّل كلٍّ منهم مسؤوليّاته ، كانوا قد حقّقوا القول الروماني المأثور : " روح سليم في جسد سليم " .

و افتتحنا ، أَيضاً ، مآوي ، و مراكز عائليّة للأولاد المشرّدين الذين ليس لهم من يستقبلهم ؛ كانوا قد أَلفوا التسكّع ، فهل سيرضون الإِقامة في بيت ؟ كنّا قد اخترنا مسؤولين عنهم ، أَزواجاً من قبيلتهم " الدنكا " ، لاجئين مثلهم ، فارّين من الأَهوال وقادرين على إِحاطتهم بقلب جريح مثل قلبهم ؛ فكانوا يخلقون جوّاً عائليّاً ، بفضل أَبنائهم ، الذين لا يلبثون أَن يقيموا علاقات صداقة مع الآخرين . كانت الأُمّ تعدّ وجبات الطعام ، و تسهر على النظافة ؛ و كان الأَب يحضر في المساء ، إِثر الفراغ من عمله ، و يسهر ، على إِشاعة الانسجام و التفاهم .

كانت تعليماتي تقضي بألاّ توصد أَبداً الأَبواب المطلّة على الشارع ، فالشباب في حاجة إِلى الحرّيّة حتّى عندما ينعمون بمناخٍ من الصداقة الحارّة . و حينئذٍ كانت المشكلة تكمن في طريقة استقبالهم لدى عودتهم من فرارهم المؤقّت ، و التي ينبغي أَن تخلو من التوبيخ الشديد ، و الاستعاضة عنه ببسمة فرح : " ها أَنت قد عدت ! كم نحن فرحون برؤيتك من جديد . تعالَ، لا بدّ أَنّك جائع (فهم يعودون جائعين حقّاً) ، و سريرك بانتظارك " . و يكتمل الاستقبال بقبلة على الخدّ ، وبحساءٍ شهيّ مغذٍّ .

هذا الأسلوب قد أَبرز ، من جديد ، ما هو خيّر في قلب ولد . و هكذا عاد جميع الذين كانوا قد شرعوا يختفون ، عدا واحداً ، قيل لنا أَنّه قُتِل إِثر شجارٍ . وعندما غشوا المدرسة ، انتظم كلّ شيء . و ليتكم ترونهم عندما يقدم إِلى أحد المراكز ، سيمون ، أَو كمال ، أو زوجته مادلين ، و أَيَّة صيحات فرح يطلقها هؤلاء الصغار الذين يتدافعون للظفر بقبلة !

أَوَ ليس ما يحتاجه الصغار ، حتّى أولئك الذين يبدون أَكثر انغلاقاً ، هو أَن يُفهَموا و يُحَبّوا كما هم ؟

بمناسبة إِحدى زياراتي إِلى الخرطوم ، كنت قد جئت بألعاب " ليغو " ، ثمّ زرت أَحد المراكز ، فإِذا بي إِزاء نحو عشرين طفلاً بين الثامنة و الثانية عشرة ، منتصبين أَمام منضدة ، عاكفين على النهوض بأبنيتهم ، متجهّمي الوجوه ، التي غاضت بسمتها . و قد جمّدتني رؤيتهم يلعبون على هذا النحو ، بلا أَيّ أَثر للفرحة .

فسألت سيمون التي تدير ، دائماً ، بكفاءة مجموع نشاطاتنا : " ما الذي يحدث هنا ، هل يُضرب الأولاد ؟

– " أَنت لا تفهمين يا إِيمّانويل! هذا هو آخر مأوى افتتحناه ، و كلّ ولد فيه قد عاش مأساة مريعة : سكن محروق ، أب أو أمّ قتل تحت أَبصارهم ، مسيرة مضنية إِلى الخرطوم ، بلا أَيّ طعام أو شراب تقريباً ؛ و تريدين ، مع ذلك ، أَن تريهم يضحكون و يرقصون ! ينبغي ، أوّلاً ، بعث الدفء في أَجسادهم و نفوسهم . فصبراً ، و لا نقنطنّ ، فحيويّتهم تنتهي بالتغلّب."

و إِثر استغراقي في التفكير خيّل لي أَنّني انتهيت إلى الحلّ ، فقلت لسيمون : " اشتري لهم كرة قدم ، و جدي لهم مدرّباً على اللعب " . و بعد شهرين عدت إِلى السودان ، فمضيت لزيارة أولئك الأولاد ، و دفعت باب الفناء فقابلني صمت مطبق... و انقبض قلبي ، فتساءلت : " ما الذي يجري ؟ أَلا يوجد أَحد ؟ " و بغتةً سمعت صيحات في الخارج فهرعت ، و شاهدت فريقاً قادماً فرِحاً يجري وراء كرة ، متدافعاً ، ضاحكاً . وكنت قد جئتهم بدبّ من القطيفة ، فراحوا يتقاذفونه مصفّقين . يا للغبطة ! ثمّ وزَّعت على كلٍّ منهم أَوراقاً و أَقلاماً ملوّنة ، اشتريتُها من القاهرة ، وهي هنا نادرة الوجود ، و خيّرتهم في رسم ما يشاؤون . و أَيّ بؤسٍ أَسفرت عنه رسوماتهم : فهنا مخروطيّ يمثّل بيتاً ، و أَمام بابه وقف رجل وامرأة هما الأَب والأم ينتظران عودته ... و هنا لهب أَحمر يُحيط بالمخروطيّ الذي عملت فيه أَلسنة النار ، وآخر رسم أَجساداً ملقاة أَرضاً ، ميّتةً . ولد واحد فقط رسم شمساً صفراء و بعض أَزاهير . إِنّ سيمون لعلى حقّ : فالجراح عميقة الغور .

إِنّ التعبير بالرسم يساعدهم على قذف آلامهم إِلى الخارج ، و نرجو أَنّه سيساعدنا أَيضاً على تلطيفها ، و لكن يلزم وقت ، و خاصّة يلزم كثير من الحبّ ، ولا بدّ من مضاعفة كلّ ما من شأنه أَن يشرح صدورهم . و قد أَعطيت كلاًّ منهم ورقة ، كي يملأها من يرغب منهم برسوم زهور ملوّنة . و حينئذٍ طرد الفرح الحزن، ففي هذا العمر يفعم الرسم القلب جذلاً، وينتقل الولد بيُسر من مشاعر إِلى أُخرى . و قد جاؤوني ، ضاحكين بصفحاتهم الحافلة

بكلّ شكل ولون ؛ و تأمّلت بإعجاب تلك الروائع واحدة فواحدة ، و بعناية فائقة ،علّقتها على الجدار وسط حماس شامل . إنّ رسم الولد جيمل دائماً !

و جاءت " الأُمّ " بقِدْرٍ جسيمةٍ تفوح منها روائح طيّبة ، فقد حان موعد الطعام، موعد وجبة الفول بالبصل الشهيرة ، و الشهيّة مشحوذة . ثمّ ، في مساء الشتاء ذاك ، إثر طقوس النظافة المسائيّة ، تسلّل كلّ ولد تحت غطائه . و انقبض قلبي من جديد : فقد عادت الكآبة تنشب بنفوسهم ، و سرت في عيونهم ومضة حزن، و هبط عليهم صمت ثقيل . فهؤلاء الصغار في حاجة إلى دفء الأمّ أكثر من حاجتهم إلى السرير المريح ، و ذهبت إليهم ، وبسطت بعناية الأغطية فوق أكتافهم ، وداعبت شعر رؤوسهم المشعّث ، فطوّقوا عنقي بسواعدهم و شدّوا عليه بقوّة . وحلّ عليهم نوع من السلام . أو ليست قبلة المساء ، في الأسر، هي حدث النهار الأثمن ؟ و ما إن هممت بالنوم ، حتّى انتابني القلق من جديد . فهل هم أخلدوا إلى النوم ؟ و فتحت برفق باب إحدى الغرف ، و ذهلت لرؤيتي ، في العتمة ، ما يحاكي ظلاً فوق كلّ سرير ، و سمعت صوتاً رقيقاً يقول : " فلنصلِّ من أجل أُسرنا" ، ثمّ ترامت إلى سمعي عبارات قادمة من مختلف أرجاء الغرفة تردّد : " فلنصلِّ من أجل آبائنا لكيلا يُقتلوا ، و لنصلِّ من أجل أُمّهاتنا ، لكيلا ينتحبنَ وحيدات في البيت ، فلنصلّ لكيلا تحرق النيران القرية . و لنصلّ من أجل القطيع لكي يظفر بالمرعى " . و إثر فترة صمت ، عاد الصوت النحيل يقول : " فلنصلِّ معاً : " أبانا الذي في السماوات " ، تلك الصلاة الجميلة التي يحبّونها والتي تعلّموها ، في دروس التعليم الدينيّ ، باللغة العربيَّة التي توحّد لهجاتهم المتباينة .

ثمّ توارت الظلال تحت الأغطية ، و ساد الصمت ، فانسحبت على رؤوس أصابع أقدامي .

هكذا ، وحيدين في الليل ، يخاطب أباهم السماوي صغارٌ يعانون .

سيمون و كمال بذلا قصارى جهودهما لبعث الحيويّة في المآوي ، و استقدما لهذه الغاية ثلاثة مدرّبين من القاهرة ، يقيمون ليلَ نهار مع الأولاد ، بالإضافة إلى مربّيتهم ، ويساعدونهم على تمثّل دروسهم ، و ينظّمون لهم سهرات تسلية ...

أحد أولئك المدرّبين ، و اسمه محفوظ ، جاءني يوماً قائلاً : " عليّ اتّخاذ قرار خطير ؛ فقد جئت لفترة سنة ، كي أعيد لأطفال الحروب هؤلاء ، بعضالحيويّة. الآن تنتظرني خطيبتي في القاهرة كي نعقد زواجنا . و لكنّني أرى أنّني مفيد لهؤلاء الصغار ، الذين يبدون وكأنّهم يعودون ، شيئاً فشيئاً ، إلى الحياة ، و بوسعي أن أهبهم سنة أُخرى من حياتي كي أعينهم على استعادة درب حياتهم " . و تساءلت في قرارة نفسي ما الأهمّ له : حياته الخاصّة

، أم أولاد الخرطوم ؟ كان السؤال يحرق شفتيّ ، و لكنّني أحجمت عن إسداء أيّة نصيحة ، له ، و اكتفيت بالقول في لهجة دعابة : "إسمع يا محفوظ ، الشأن شأنك ، فقضايا الزواج ليست من اختصاصي ! " و أغرقنا كلانا في الضحك .

و قد مكث ، مع علمه أنّه ليس آمناً في الخرطوم ، حيث خطر الموت يحوم . وقد أوقفه ، فعلاً ، رجال الأمن ذات ليلة ، في إثر إعدام إرهابيّين في القاهرة ، فقرّرت حكومة السودان شنقه ، هو المصريّ ، انتقاماً لمواطنيها ، و لحسن الطالع ، كنت قد التقيت ، لسنة خلت ، حسن الترابي ، الزعيم المسلم ، و جرت بيننا محادثة مستفيضة ، بلغة فرنسيّة لا غبار عليها ، فهو حاصل على دكتورا من السوربون ؛ وكان قد أكّد لي ، آنذاك ، حرصه على حقوق الإنسان ... فكتبت له ، و أُعيد محفوظ، سالماً ، إلى الحدود .

ما يثير الدهشة هو أنّ الشباب يعرفون كيف يخاطرون بحياتهم ، عندما يستأهل الرهان المخاطرة . و قد كنت شاهدة على مثال آخر . فقد كنت أَحضر القدّاس في إكليريكيَّة حيث يتأهَّب نحو مئة شابّ للكهنوت ، معرّضين أَنفسهم بذلك للقتل ، وباطّراد كان يُعلنَ نبأ مقتل هذا الكاهن أو ذاك . و كانت قد أُلصقت لائحة على باب المصلّى ، هي بحدّ ذاتها ، بليغة : فهي تحمل اسم قريةٍ قُتِلَ خوريها ، واسم الكاهن المرتسم حديثاً الذي حلّ محلّه . ومع ذلك ، عندما كنت أَلتقي أولئك الشبّان ، في أَعقاب الإفخارستيّا ، كنت أُدهش بما يتجلّى عليهم من مخايل الانطلاق والانشراح و البسمة . إنّهم ما كانوا صوب الموت يسيرون بخطى رشيقة ، بل نحو الأمل في حياة جديدة : فإزاء المجاعة ، و القنوط ، و الموت التي تبدو منتصرة ، تهبّ طاقات الشباب الداخليّة للبذل . إنّ الشبيبة تحمل في صميم جسدها ، و روحها ، و قلبها ، سرّ حيويّة جمّة ، تبرز فجأة ، عندما يُنذر كلّ شيء بالقضاء عليها . إنّها تهبّ واقفة، هشّة ، و لكن قويّة، فهي تؤمن أنّه ، طالما كانت هناك حياة ، كان الأمل .

<u>لبنان : بلد ينهض</u>

ماكان بوسعي هجر السودان ، فكنت أَزوره باطّراد مع الأُخت سارا ، ويغمرني الفرح لرؤية الأربعين أَلفاً من أولادنا يزدهرون ، جسداً و روحاً ، في مدارسنا السبعين ،بفضل تفاني كمال و فريقه ، و بفضل مساعدة ماليّة من محسنين أوروبيّين كرماء .

و في القاهرة ، كان المستقبل يكمن في مدارس حديثة البناء ، حيث تتراصّ أعداد لا تنفكّ تتكاثر من أَبناء جامعي النفايات . و ما هي إلاّ سنوات معدودات حتّى يحوّلوا قرى الصفيح إلى قرى تسود فيها النظافة و الصحّة .

كلّ شيء ، إِذن على خير نسق .

و لكن ، وا أسفاه ، لم تكن الأَرض تضمّ ملاجئ آمنة فحسب . ففي لبنان ، خاصّة ، كان دويّ الحرب لا يتوقّف . و في عام 1987 ، كان رئيس اتّحاد أَصدقاء الأخت إِيمّانويل في باريس " هيرفي تول " الذي سبق له أَن كان أميناً عامّاً لمنظّمة عمّاوس الدوليّة ، والمتميّز بفكر نيّر ، و قلبٍ كبير ، قد بادرني أَثناء إِقامة عابرة لي بباريس من أَجل إِلقاء محاضرات ، بالسؤال التالي : " أَيّتها الأُخت إِيمّانويل ، هل تتابعين أَخبار أَحداث لبنان ؟ إِنّ سياسة مغرقة في البشاعة تستفزّ اللبنانيّين بعضهم على بعض ، و القنابل تنهمر على المدن و القرى ، والمزارع تسلب و تُخرّب ، والمصانع تدمّر . و لا ينجو شيء و لا أَحد ؛ جدران الحقد تشطر العاصمة إِلى شطرين ، و لا أَحد من سكّانها يأمل في الصباح رؤية المساء ، و لا يأمل في المساء أَن ينهض في الصباح سالماً . و أصدقائي يستغيثون بي " . و عقب لحظة تردّد أَضاف : " خطر لي أَنّك قد تأتين معي لمساعدة من يناضلون لإِنهاض الأَكثر تعرّضاً للسحق."

و في الحال أَبلغته موافقتي ، و هكذا ، بعد أَيّام قلائل ، حططنا في بيروت ، هيرفي وأَنا ؛ و سرعان ما جرى تعارف بيني و بين صديقة لهيرفي ، السيدة كريستيان ، و هي امرأة شابّة مسيحيّة لبنانيّة فاتنة ، في الثلاثين من العمر ، شديدة المراس ، اقتادتنا إلى منزلها ، وبعد أَن أَطعمتنا ، أَدخلتني إلى غرفتي و قالت : " إِن حدث قصف في الليل ، لا تخافي ، فالسقف متين . "

و حاولت النوم ، وفجأة أَيقظتني ضجّة مريعة ، مذعورةً . و حدّقت في السقف و أَنا مستلقية على السرير . و تذكّرت : " لا تخافي ، إِنّه متين " و لكنّني خفت . ثمّ خيّم السكون من جديد . و في تلك الليلة أَدركت كم يلزم اللبنانيّين من بسالة كي يلازموا سريرهم ، و بيتهم ، وشارعهم ، و مدينتهم ، تحت هذا القصف،الذي كان يدكّ عاصمتهم الجميلة ، عدّة مرّات كلّ يوم .

أَثناء الإِفطار الذي تناولناه على عجل ، روت لي كريستيان : " لوالدي شقّة في باريس وقد أَعطاني مفتاحها . و لكنَّني آبى هجر بلدي و هو يعاني . فالبلد بوسعه أَن ينهض ، وستدركين ذلك عمّا قريب " . ثمّ مضت بي خارجاً . و ما إِن انتهينا إِلى مكتبها حتّى وافت امرأة متورّمة الوجه ، ارتسمت عليها مخايل البؤس ، و هي تجرّ بكلّ يدٍ ولداً ، و قالت :

– قيل لي أَنّكم ، هنا ، تساعدون الناس .

فأجابتها كريستيان برقّة :

– أَجل يا سيّدتي ، إِجلسي . قولي لي : هل تعرفين الحياكة ؟

و أَطلقت المرأة ضحكةً مفعمةً مرارة و قالت : " الحياكة ؟ أَنا كنت أُعنى بحيواناتي.... ! "

ثمّ أَضافت بنبرة مشوبة بالازدراء : " الحياكة تناسب سيّدات بيروت الجميلات اللواتي لاشيء يشغلهنّ " . و لكنّ كريستيان بكلّ هدوء ، جاءتها بكيس من البلاستيك يحتوي خيوطاً صوفيّة وصنانير شرع يتكوّن حولها قميص زهريّ اللون ، و قالت : " سترين كيف ستنجحين"، وشيئاً فشيئاً أَخذت تتشكل عُقد الحياكة ، و هتفت كريستيان : " أَترين ، لقد نجحت ، هيّا ستكملين العمل في بيتك . و ستجدين في قعر الكيس ورقة ماليّة هي أَوّل أَجر لك "

و نهضت المرأة ، و قد استعاد بعض شبابه محيّاها الذي اعترته شيخوخة مبكّرة ، إذ لا يبدو أَنّها تخطَّت الخامسة والعشرين ، و صرّحت : " أَخيراً سأستطيع كسب خبز أولادي بعملي " و قالت لصغيريها : " إِنّ السيّدة لطيفة ، فقولا لها شكراً "، فردّد صوتان ملائكيّان : "شكراً ، يا سيّدة " . و مضت الأُسرة الصغيرة ، و قد أَشعّ الفرح في عيونها . و هكذا انقضت فترة الصباح في ذلك المكان حيث يدخل القوم يائسين مطأطئي الرؤوس ، و يخرجون مطمئنّي النفوس ، رافعي الهامات .

و شرحت لي كريستيان : " الوضع في لبنان يتفاقم سوءاً . و بيروت ، مع ما يحيق بها من مخاطر، قد أَمست الملجأ الأَخير لجيمع من أُتلفت مزارعهم ، و دمّرت قراهم ، و قصفت مصانعهم ، و لجميع النساء و الأولاد الذين التحق أزواجهنّ وآباؤهم بالحرب . و كلّ يوم يوافينا قوم أُسقط في يدهم .

و سألت :

– ماذا تفعلون لإِيجاد المال اللازم لإِطعامهم جميعاً ؟

– حذارِ ، نحن لا نسعى لإِيجاد مال من أَجل إِطعامهم كما تقولين ، بل لكي نوفّر لهم الوسائل كي يكسبوا بأنفسهم المال الذي يمكّنهم من تأمين معيشتهم .

و قد أَكّدت بقوّة على عبارة " كي يكسبوا بأَنفسهم " ، ثمّ أَضافت : " لقد افتتحنا، أَصدقاء لي و أَنا ،مصرفاً يقدّم قروضاً بلا فائدة كي يساعد الناس على تدبّر أُمورهم . فالشبيبة اللبنانيّة تمقت الاعتماد على الغير في معيشتها ، و هي تؤثر القيام بأَيٍّ عمل . فثمّة صناعيّ شابّ دُمّر مصنعه ، و تطاير شظايا ، عاكفٌ على تعلّم صناعة الأَحذية لدى حذّاء ، و يطلب منّا قرضاً لافتتاح متجره الخاصّ . و آخر فقد وظيفته ، يعمل بنّاءً ، ويعيد بناء المنازل التي انهارت . و قد موّلنا شراءه جبّالة إِسمنت . إِنّنا نربأ بأَنفسنا أَن ندعهم في وضع المعالين . "

كنتُ أُنصت ، دهشة ، و ساورتني الشكوك حول قدرة أولئك المعدمين على تسديد القروض . فسأَلت :

– " كيف يعملون لردّ هذا المال ؟

– أَستطيع أَن أؤكّد لك أَنّ خمسة و تسعين بالمئة منهم يعيدون المال المقترض . و لكن يحدث أَحياناً أَن يلتمسوا مهلةً إِضافيّة . "

ثمّ حدّقت فيّ و أَعلنت بلهجة جادّة :

– " التسوّل يحطّ من قدر الإِنسان ، و العمل ينهض به . أَيّة كانت المهنة ، يدويّة أو سواها ، إِنّه من الأَهمــيّة بمكان للجميع ، شباباً و كهولاً ، مفكّرين أَو غير مفكّرين ، أَن يقبلوا الاضطلاع بعمل يدويّ يساعدهم على الاحتفاظ بحيويّتهم . "

و أرتني قمصان أَطفال جميلة ، و أَثواباً صغيرة من كلّ لون صنعتها فتيات أو نساء يائسات استعدنَ جأشهنّ بفضل أوّل أَجرٍ تلقّينه . غير أَنَّها أَضافت ، متنهّدة :

– " لسوء الطالع ليس لديّ ما يكفي من طلبات الشراء "

فقلت :

– " أصبري ، يا كريستيان . سننظّم الأَمر ؛ فسأعود إلى باريس و سأطلق نداءً : " يا نساء فرنسا الشابّات أَنجبنَ أَطفالاً ، و ابتعنَ أَلبسة لهم من نساء لبنان وفتياته "

فأجابت كريستيان و قد راقها الاقتراح :

– " يلّه ، إِلى الأَمام ، أَنت أَعيدي إِلى فرنسا تناسلها ، و أَنا سأساعد لبنان على النهوض "

و ضحكنا ، كلتانا ، بقلب منشرح .

الآن بتّ أَفهم كريستيان على نحوٍ أَفضل . إِنّها شابَّة مفعمة حماساً ، و لا تعبأ كثيراً بالقنابل القاتلة . فالجوهريّ في نظرها هو مساعدة الآخرين على العيش ، مع أَنّ لها ابناًو بنتاً يواجهان معها الأَخطار في بيروت . و قد سأَلتها :

– " أَفهم أَنّك ، أَنت ، لست خائفة . و لكن ماذا عن ولديك ؟

– إِنّهما يرفضان اللجوء إلى فرنسا في حين يمكث في لبنان أَترابهم الأقلّ منهم حظوة. إِنّ حياة مقوقعة دافئة هي كارثة للشباب . أَيّتها الأُخت إِيمّانويل ستتعيَّن غداً إِعادة بناء لبنان ، و سنحتاج إلى رجال و نساء لا يخيفهم شيء ، يعرفون تدبّر أُمورهم ، و التشمير عن سواعدهم .

وما لبث أَن وصل فتى ترافقه مراهقة عذبة : إِنّهما ولدا كريستيان . و تبادل الجميع القُبَل بحرارة . كانت الفتاة عائدة من درس رقص ، فطلبتُ منها دليلاً على مواهبها ، فكانت لحظةً لا تنسى ، إِذ اختارت الفتاة اسطوانة " الدانوب الأَزرق الجميل " ليوهان شتراوس ، وفي حين كان صدى قصف مدفعيّ يدوّي بعيداً ، بدت غير حافلة به ، و أَخذت تتلوّى رشيقة ، و قد افترّ ثغرها عن بسمة . فحدّثت نفسي : " يا له من درس ! " ، فعندما لا ترتعد فرائص الشبيبة أَمام الخطر ، بل ترقص على دويّ المدافع ، فهي تحمل في ذاتها إِمكانيّاتٍ هائلة .

إِنّ كريستيان لعلى حقّ ، فابنتها ستكون ، غداً، من أولئك الذين يسيرون غير حافلين بالعوائق ، و من الذين سيجدون في ذواتهم القدرة على إِعادة بناء وطنهم !

و لقد ابتغت ، أَيضاً ، تلك المرأة اللبنانيّة الصامدة أَن ترينا ، هيرفي و أَنا ، إِنجازات أُخرى تحقّقت في العاصمة . و بفضلها ما لبثتُ أَن تبيَّنت ، بنفسي ، صفتين جوهريَّتين تساعدان ، مع أُخرى ، على قهر أَعتى المصاعب ، أولاهما التضامن وثانيتهما العناد في النضال .

فعلى أرضٍ تعصف فيها الحرب ،حيث لا أحد يدري هل سيظلّ ، حتّى غدٍ ، على قيد الحياة ، و حيث المساعدات الحكوميّة لا وجود لها ، ينمو إِخاءٌ مذهل ، مقترناً بعناد لا يقلّ عنه إِدهاشاً . في بيروت زرت " قوس قزح " ، في بناءٍ قديم ينتصب في الأفق مثل واحة سلام وأَمل ، في جوّ عاصفةٍ وموت . و قد أُطلق عليه هذا الاسم شابّ ثريّ – و أَمثاله في لبنان كثيرون – يؤرّقه مصير مئات المعاقين ، الذين مازالوا شباباً مثله . كان يشهدهم دائماً قابعين على كراسيهم أَمام النافذة ، فارغي الأَبصار ، مثل أَموات أَحياء .

أَثناء القصف ، عندما كانت الجدران تنهار من حول القوم ، كانوا ينبطحون ، تلقائيّاً، على الأَرض ، ووجههم على الحضيض ، فتنشب شظايا القذائف بظهورهم ، و تحطّم عمودهم الفقري ، و تشلّ جسدهم إِلى الأَبد . إِنّ عدداً من أولئك الشبّان كانوا قد أُصيبوا بالقنابل . وكان " بيير عيسى " يفكّر فيهم ليل نهار ، قائلاً : " إِنّ لدى أَبي مال قارون . و لا يحقّ لي أَن أَحتفظ لنفسي بكلّ هذا المال . و لا بدّ من أَن ينعتق أَترابي الشبّان من مقاعد الموت و أَن يتدبّروا أَمورهم في الحياة . و لكن كيف ؟ كيف! .... "

كان الأمر يبدو محالاً ، و لكن لم يكن من شأن بيير أن يقف جامداً عندما كان مصير مئات الشبّان معرّضاً . كان يؤمن بقوّة التضامن ، و لكنّه كان يدرك أيضاً أنّ الثبات العنيد هو مفتاح النجاح .

و قد وافى والده يوماً ، و كلّه تصميم و قال : " أبتاه ، أعطني أحد مصانعك، فأحوّله مركزاً لإعادة تأهيل المعاقين الشباب الذين حُطِّم عمودهم الفقريّ " . و هكذا حوّل قسماً من البناء ، إلى قاعات نوم ، و طعام ، و استراحة ، فيما خصّص القسم الآخر للتدريب . و بفضل معارف أبيه استقدم من سكاندينافيا مقاعد متحرّكة ، وضع عليها 143 مصاباً قابعين ، يائسين في بيوتهم ، و أحاط نفسه بمعلّمين مهنّيين كي يلقّنوا كلاًّ من هؤلاء المهنة التي يؤثرها ، ويتيح له اكتساب عيشه بوسائله الخاصّة . فهنا مصنع نجارة ، و هناك مشغل رسم و نحت .

و قد التقيت فريقاً من المعاقين – على مقاعدهم المتحرّكة – يحيقون بالراهب الشابّ "إيف " الذي كان يريهم طريقة عمل آلة حياكة . و علمت أنّ " إيف " ذاك هو الذي أراد أن يُقذف به من فرنسا إلى جحيم بيروت ، جحيم نار وحديد . بصفته فنيّاً ، كان قد وافى كي يعيد الرجاء لشبّان في مثل عمره ، حكم عليهم بجمودٍ قاتل حكماً نهائيّاً ، و هو سعيد بأن يعيد لهم نشاطاً جديراً بالإنسان ... و بعد أن تأمّلنا ، بإعجاب، مصانع الفنون المختلفة ، و لا سيّما مصنع الرسم الفنّيّ ، دخلنا إلى مكتب "بيير" الذي شرح لنا باندفاعه المضطرم : " مثلما يدلّ عليه اسمه ، " قوس قزح " يعيد الأمل بعد العاصفة . غايته إنماء روح عائليّ من شأنه أن يعيد للجميع فرح الحياة . فهنا الجميع يعملون ، و يتناولون طعامهم ، و يلهون معاً . و أثناء تدريبهم يستعيد معاقونا الشباب حيويّتهم ، ويمضون في شعاب الحياة مزوّدين بمهنةٍ جيّدة "

و سأله هرفي عن تمويل هذا المشروع فأجاب : " معظمهم لا مورد لهم . ولحسن الطالع عثرنا على محسنين عبر العالم . و كثيرون ممّن تأهّلوا هنا يرسلون لنا جزءاً ، صغيراً أو كبيراً ، من كسب عملهم " . إلاّ أنّه باح لنا بأنّه مثقل بالديون ، فأوضح له هيرفي : " لقد جئنا إلى لبنان لكي نساعد هذا المشروع فهو يتمتّع بقيمة أساسيّة . فأرسل لنا ملفّاً إلى باريس" . و منذئذٍ ، حتّى عام 1990 ، ما انفككنا نساند نشاطاته .

و في " قوس قزح " شهدت عرساً فريداً ، زواجاً سرّيّاً باركه كاهن ، على غرار زواجات القرون الوسطى . و كنت المدعوّة الوحيدة إلى ذلك العرس المحاط بكتمان تامّ . كان الزوج أحد قدامى المركز ، واسمه " طوني " ، على مقعده المتحرّك. و ما كاد ينتهي الاحتفال حتّى أدارت العروس الشابّة الجميلة ، ليلى ، وهي ابنة تاجر ثريّ ، بيدٍ حازمة ، المقعد المتحرّك ، و خرجت منتصرة مع زوجها . ومضيا لقضاء شهر العسل ، و كأنّهما عائدان من

معركة حامية الوطيس . و أين سيقضيان شهر عسلهما ؟ في سهل البقاع ، و هو أكثر مناطق لبنان تعرّضاً للمخاطر. و لكنّهما بذلك يفرّان من غضب والد الفتاة الذي جنّ جنونه لزواجها من مقعد ، وأقسم على قتلها ... ، و لكنّهما ما كانا يخشيان شيئاً . فطوني مزوّد بسلاحٍ لمواجهة الحياة ، إذ إنّه نجّار جيّد ، في حين تمتلك زوجته ديبلوماً في السكريتاريا . كلاهما في ريعان الشباب ، و لايخشيان شيئاً ، سيتدبّران أُمورهما ، معتمدين أحدهما على الآخر. إنّ الحبّ أقوى من الموت .

و زرت بيت شفيق ، و هو أعمى منذ مولده ، كان يربّي طيور الفرّي في مزرعة ذويه ، ممّا يوفّر له أسباب عيش لائق . و في غمرة القصف المدفعيّ ، قتلت قنبلة ابنه ، وجرحت وجه زوجته التي فقدت البصر ، و حطّمت عمود ابنته الفقريّ ، فأبقتها مشلولة .

و كم كانت دهشتي بالغة عندما ولجت البيت ، فإذا بالزوج الأعمى يصنع أقفاصاً لطيوره ، و الزوجة التي فقدت بصرها قد وضعت لتوّها صبيّاً صغيراً ، والابنة البالغة من العمر ستّ عشرة سنة ، تمضي إلى المدرسة على كرسيّ متحرّك. وقد علّق والدها :

– إنّها تتطلّع إلى متابعة دروس في طبّ العيون ، و هكذا ، ربّما ، سيتضاءل عدد العميان في لبنان .

أثناء الحرب ، كانت كلّ طائفة متمترسة بعناد في حيّها و قطاعها ، و مع ذلك حرصتُ على زيارة المسلمين مثل حرصي على زيارة المسيحيّين ، كي أُحاول مساعدتهم جميعاً . و قد شاطرني هذا التطلّع هرفي و كريستيان ، و هذه أتاحت لي الاتّصال بالمطران حدّاد ، أسقف صور السابق . إنّه أُسقف مدهش ، يجتاز جميع الحواجز ، حواجز المسلمين و حواجز المسيحيّين ، و لا يحدّث هؤلاء و أولئك إلاّ عن السلام و المصالحة ، و يساعد الجميع، بفضل تعاونيّات الأغذية و الأدوية التي أوجدها . هاجسه الأكبر هو انهيار قيمة الليرة اللبنانيّة المتواصل الذي ينخر موارد مشروعه الخيريّ .

لقد حرص على أن يظلّ منفتحاً على الطائفتين ، حتّى عندما تكون الخلافات محتدمة بينهما ، لا بل خاصّة في غمرة احتدامها . و قد عرض عليّ اصطحابي إلى صيدا – صيدون قديماً – حيث كان المسيحيّون و المسلمون يعيشون في سلام نسبيّ، أي أنّهم كانوا أقلّ تقاتلاً من أماكن أخرى . غير أنّ الطريق إلى صيدا محفوف بالمهالك ، و مع ذلك ، بفضل الاحترام الشامل الذي كان ينعم به ، كان بوسع الأُسقف العبور ، و لكن كان من المخاطرة اصطحابه رجلاً معه في سيّارته ؛ أمّا اصطحاب امرأة فأقلّ خطراً ... و مضت بنا السيّارة بلا عوائق ، و هكذا في الأوّل من تشرين الثاني ، عيد جميع القدّيسين ، وجدت نفسي أمام كاتدرائيّة صيدا.

شابّان مسلمان شديدان ، بكامل سلاحهما ،كانا يحرسان المدخل ، للحؤول دون تسرّب الميليشيات و قيامها بجرائم قتل . و حيّيت " حارسي السلام " هذين ، فأعلنا :

- " يا أُختاه ، نحن اللبنانيّين الحقيقيّين ، الشبّان المسلمين و المسيحيّين ، نشعر أنّنا إخوة .

- لا يبدو ذلك واضحاً .

- أتعلمين السبب ؟ في كلا الفريقين نُخَدّرُ لكي نُحرَّض على الاقتتال . و لكن فلتدعنا السياسة القذرة و شأننا ، و سترون الشبيبة تعيد بناء لبنان في السلام .

ووصلت جماعة راغبة في دخول الكاتدرائيّة ، و تصافح الجميع ، وقال أحدهم :

- شكراً للاضطلاع بالحراسة ، يا محمّد .

- لا عليك يا جورج ، نحن هنا ، فصلِّ باطمئنان .

كانت الكاتدرائيّة غاصّة بالحضور ، و التراتيل السماويّة تتصاعد إلى قبابها ، و كنت أُفكّر بأولئك الشبّان الذين ، في حومة الحرب ، و متخطّين الجدران التي تفصل بينهم، يسهرون بعضهم على بعض . و إذن ، علامَ كلّ هذه الصراعات والأهوال بين مواطني البلد الواحد؟ و لمَ يُستخدَم الشبّان ألعوبةً بين أيدي قوى سياسيّة متطرّفة ؟ لأنّ رجالاً ، ازدادوا قسوة مع كرّ السنين ، يستغلّون الأوضاع الاقتصاديّة و الاجتماعيّة العصيبة في سبيل تغذية الخلافات ، ثمّ يفلحون ، باسم مُثُلٍ زائفة ، في دفع الشبّان إلى التعصّب ، باستفزازهم بعضهم على بعض .

و لحسن الطالع ، يحتفظ البعض منهم بقلبٍ منفتحٍ على الجميع .

فهذه " ما يلا " التي كانت على مشارف الثامنة عشرة ، و تتأهّب لدخول الجامعة في بيروت ، عندما اندلعت الحرب . لقد كان بوسعها ، مع آخرين ، اللجوء إلى الخارج ، بيد أنّها قرّرت ، على غرار كريستيان ، أن تمكث كي تخدم ، مخاطرة بحياتها . و كانت تفكّر : " أمام الموت ، لم يكن يحقّ لنا ارتكاب الخطأ . كان علينا أن نعمل لكي نحيا بأيّ ثمن ، و نتحدّى الموت و نتخطّاه ، و نساعد الإنسان أيّاً كان مشربه " . و تنامى إليها أنّ الصليب الأحمر اللبنانيّ كان يستدعي مغيثين لإنقاذ الجرحى ، في أعقاب المعارك ، أيّاً كان الحزب الذي ينتمون إليه . فتطوّعت . " كنّا منظَّمين فِرَقاً من خمسة مغيثين ، مستعدّين للنفير ، ليلَ نهار ، طوعاً . و عندما كانت تندلع الحرب ، كنّا نداوم في مراكز إغاثة ، و كانت نداءات الاستغاثة تقذف بنا ، فوراً ، على الطرقات . كان علينا أن ننطلق بالسرعة القصوى في سيّارات الإسعاف، لأنّنا كنّا نعلم أنّ بوسعنا إنقاذ حيوات ، و توفير الأمل و الغوث لمن أُصيبوا بقذائف ، و خبروا أهوال السيّارات المفخّخة ، و رصاص القنّاصين القاتل . لم نكن

نعرف هويّة المغاثين ، و لم يكن لذلك أيّ شأنٍ لدينا . إنّ الاندفاع ، و الإغاثة ، و المخاطرة في ميعة الشباب ، و عند عتبة الحياة ، قد أضفت على حياتي قيمة : إذ بتّ أعرف قدرتي على تحدّي الموت . و قد اختبرت ، باكراً ، قوّة العطاء والفرح و الغبطة الكامنين في البذل بلا حساب ، و التحرّر من الخوف . لقد كانت لنا أجنحة حقّاً ". ما أطيب سماع هذه الشبيبة ، التي تحتفظ بإخاء شامل ، في حين تعيث الكراهيةُ دماراً .

ما زالت " مايلا " تعمل اليوم ، فهي أمينة عامّة لحركة اجتماعيّة لبنانيّة ، وقناعتها أنّ الإنسان ، عندما يُترك لفطرته ، ليس ذئباً ، بل هو أخٌ للإنسان . تلك هي الروح التي تحدو كلّ من يعيدون بناء لبنان في التضامن .

و قد تبينّا هذا التطلّع إلى التلاقي في السلام ، حتّى لدى الصغار . كانت المدارس آنذاك تقتضي أجوراً باهظة ، في أمّة لا رأس لها و لا حكومة . و كان مئات من الفتيان ، مسلمين و مسيحيّين ، لا يتقاتلون ، و لكنّهم يتسكّعون ، حزانى ، في الطرقات . و قد اتّصلنا بمدراء مدارس ، ووعدناهم بإرسال ما يغطّي أجور تدريس ستّ مئة طالب جديد ، اندفعوا باعتزاز ، إلى صفوفهم ، يداً بيد ، لا يفرّقهم اختلاف دين .

هؤلاء الفتيان كانوا يشعرون أنّ المدرسة التي يلجونها هي السفينة التي ستخرج بهم من العاصفة ، فيساهمون معاً في إنهاض بلدهم .

" يلّه " إلى الأمام ، يا لبنان ، أيّتها الأمّة المحبوبة . قد يكون حاضرك ممعناً في القسوة ، و لكنّك ، غداً ، ستنبعثين .

و أزف موعد رحيلنا ، و فيما كنّا ننتظر ، في جونيه ، الباخرة التي ستقلّنا إلى قبرص ، لأنّ الشخوص إلى المطار لاستقلال الطائرة كان يعني الموت المؤكّد ، قلت :

– كريستيان ، عيد الميلاد يقترب .

– هنا ، هو عيد الأسى . ليلة الميلاد سنأكل بطاطا مسلوقة باردة ، و لن يكون للأولاد هدايا .

– إلى كم رزمة قد تحتاجون ؟

– آه ، مستحيل ، فقد نحتاج إلى نحو خمسين ألف رزمة .

– فلنعمل بقول نابوليون : ليس لمفردة " مستحيل " وجود . ما الذي يلزمكم على وجه التحديد لكلّ ولد ؟

– رزمة وزنها خمسة كيلوغرامات تحتوي على كيلوغرامين من الأرزّ ، وكيلوغرام من السكّر ، و بعض الملبّس ، و دمية صغيرة أو سيّارة صغيرة ... وجوارب صوفيّة ، ولكن أسرعوا ، ينبغي المبادرة إلى شحنها فوراً .

– أجل ، أَعطيني عنوان مركزكم . و هل ستستطيعون تولّي التوزيع في كلّ البلد ؟
– لا مشكل في ذلك ، فسنُعلم جميع المؤسّسات كي تنظّم التوزيع ، و في عيد الميلاد سنجود على المسلمين و المسيحيّين .
– بالطبع ، إِلى اللقاء يا كريستيان ، ستنالين الخمسين أَلف رزمة ، بالإِضافة إِلى طلبات ثياب الأَطفال "

من قبرص استقللنا الطائرة إِلى باريس ، فتنفّست الصعداء . و قلت : " ما أَطيب الشعور بالأَمان ، أَخيراً . أنا لست بطلة ، مثل أَصدقائنا اللبنانيّين ... "

و في باريس اندفعت إِلى الإِذاعة و التليفزيون ، و الصحافة ، و المدارس ، و الرعايا الكنسيّة ؛ و مرّة أخرى ، جأرت بأعلى صوتي : " لا يحقّ لكم أَن تملؤوا بطونكم حتّى التخمة و المرض ، بمناسبة عيد الميلاد . فالبشر يتقاسمون ، و ليسوا بهائم . " يلّه " إِلى الأَمام ، أَيّها الشباب . فليعدَّ كلٌّ منكم ، بماله الخاصّ ، رزمةً لرفيق لبنانيّ، بمناسبة عيد الميلاد . اقتسموا معه و لو تناقص ما تنفقونه على أَنفسكم". و كنت أُبيّن ما ينبغي أَن يكون محتوى رزمة الخمسة كيلورغامات ، وأُعطي عنوان صديق لي في باريس قدّم شقّته لهذا الغرض ، و لكنّه ما لبث أَن هتف لي ، مرتاعاً :" أَنجديني ، أَغيثيني ، قريباً لن أَتمكّن من تخطّي عتبة بابي لشدّة تراكم الرزم ! ... "

فأَعطيته عنوان شركة " فريش " التي ستتولّى الشحن إِلى مرسيليا ؛ و بدوره، اتّصل بي صاحب هذه الشركة قائلاً : " إِنّنا مُرهقون بالعمل ؛ غير أَنّ جميع عمّالي ، شبّاناً وكهولاً ، يعملون ليلاً حتّى الإِعياء ، و لا يطالبون بأيّ أجر إِضافيّ "

ذلكم هو الإِنسان : لا ينال منه أيّ تعب ، طالما استطاع أَن يغمر بالفرح أولاداً بؤساء. و قد استذكرت شتاء 1954 ، و ما واكبه من وفرةٍ مذهلة في العطايا، تلبيةً لنداء الأَبّ بيير .

و قد انطلقت الخمسون أَلف رزمة ، و معظمها من صغار إِلى صغار آخرين رقصوا فرحاً طيلة ليلة الميلاد : فقد التمعت في سمائهم نجمة ، و هبّوا في الرجاء. كتب باسكال : "للقلب أَسبابه التي يجهلها العقل ... " و قد كان نداءٌ كافياً كي يطلق في قلوب شبيبة فرنسا تضامناً رائعاً ، يتخطّى كلّ تفكير . أُنظروا إِليها ، هذه الشبيبة: إِنّها تقفز فوق الطبقات ، والديانات ، و القارّات ؛ إِنّها تمقت الظلم و النبذ اللذين يلهبان استنكارها . هي وحدها قادرة أَن تعيد للعالم القديم الأَمل و الحيويّة . حَسبُكم أَن تدعوها إِلى المشاركة في السلم و الإِخاء ، في فرنسا أو في لبنان أو في السودان، أو في أيّ مكان ، فتجيب : " ها أنذا ! "

الحياة مخاطرة

بلد غريب هو الفيليبين حيث يتراصّ أَكثر من سبعة آلاف جزيرة ملتصقة إِحداها بالأُخرى ، و حيث براكين ، مثل بركان " بينا توبو " تطفق ، بغتةً ، تبصق ناراً

بلد غريب ، و مثيرٌ للغضب ، حيث تتحصَّن حفنةٌ من مالكي الأَراضي في أَحياء باذخة ، يقوم رجال أمن على حراسة شوارعها الواسعة المحظور دخولها على غير المحظييّن . لم أَرَ قطّ مثل ذلك ، في أيّ مكان آخر .

بلد غريب و مثيرٌ للغضب ، حيث يضطر الوالدون ، لكيلا ينفقوا جوعاً مع أَبنائهم إِلى بيعهم في سوق البغاء .

بلد غريب و مثير للغضب ، حيث أولاد ، في بيئة مريعة ، ينبشون جبلاً من الأَقذار الملتهبة ، متعرّضين لألسنة النيران .

بلد غريب و مثير للغضب ، حيث الدين ، و هو هنا الكاثوليكيّة ، يدع البعض في خَدَر عذب يوفّر لهم ضرباً من الأفيون ، فيقولون . " على الأَرض الثروة عطيّة من الله ، فشكراً يا ربّ لأنّك وهبتنيها . و لينتظر الفقراء السماء بسلام ! " . و حمداً للّه أَنّ هذا الإِيمان يجعل آخرين يجيشون غضباً ، فيندفعون ، بلا وجل ، في صراع لا هوادة فيه ، من أَجل العدل .

بلد غريب و مثير للغضب أَطلع على خفاياه مؤسَّسَتنا في باريس ، الشابُّ المتدفّق حميَّةً " فرنسيس بليسييه " الذي كان إِسهامه في ورشة في " معادي تورا" قد دفعه للعمل بعيداً ، و حتّى الفيليبين .

و عام 1994 قرّرنا ، بينوا الذي كان الرئيس النشيط لمنظّمة أَصدقاء الأخت إِيمّانويل و أَنا، المضيّ للمشاركة في المعركة التي كانت ناشبة هناك .

و منذ وصولنا إِلى مانيلا ، علمت بفرح أَنّ الشبّان ،و بعضهم من أَصحاب الحظوة والسعة ، يشنّون على الفقر حرباً ، و أَنّ راهبات انتقال العذراء هنّ اللواتي يثقّفن فتيات الأحياء السكنيَّة الفاخرة ، و يفتحن عيون طالباتهنّ على الظلم الذي يعشنَ فيه ، غير هيّابات الآباء المفرطي الثراء . و هكذا التقيت ، يوماً ، في مانيلا، فتاة حادّة النظرات ، رشيقة المشية ، لم تتخطّ ، ظاهريّاً ،الثالثة و العشرين ، و قد صرّحت لي : " في المدرسة الثانويّة اطَّلعت على واقع مغاير لحياة أسرتي الباذخة . بعد البكالوريا و قبل الجامعة ، دعتنا الأخوات إِلى تكريس سنة لخدمة الفقراء . وعندما فاتحت بالأمر أبي ، انتابته سورة غضب ساخط و قال : " إِنّك لمجنونة ! فلدى هذه الحثالة من اللصوص و الكسالى ، ستتعرّضين للاعتداء ، و لالتقاط جميع أَمراض العالم . " و مع ذلك ، بما أَنّني كَلِفتُ دائماً بالمخاطرة ، صممت ، و مع فريق من الأَصدقاء توغَّلنا في الأكواخ حيث نجهد ، في المقام الأوّل ، لإِنقاذ الصغار من الدعارة ، ولإِرسالهم إِلى المدارس . و كانت حياتي من جرّاء ذلك ، قد غدت من الإِثارة بحيث قرَّرت ، في أَعقاب فراغي من دروسي الجامعيّة ، العناية بأولئك الصغار الفقراء .

– و ماذا عن والدك ؟

– ظننت أَنّه سيقتلني . و لكنّه عندما تبيَّن ما أَصبت من ازدهار شخصيّتي وسعادتي ، همدت ثائرته . ثمّ انفجرت ضاحكةً و قائلة : " قلتُ له : " يا بابا ، أَنا لست في حاجة إِلى ثروتك ، و لكن ابنِ لي مدرسة للأولاد " . و قد بناها فعلاً .

– و ماذا عن رفيقات دراستك ؟

– بعضهنّ آثرنَ " الحياة الرخيّة " ، و أُخريات عملنَ إلى جانبي في قرى الصفيح ، وحتّى بعد أَن تزوّجنَ ما انفككنَ يهتممنَ بنشاطي . إنّنا نلتقي للبحث عن وسيلة لتطوير بلدنا ، و لا بدّ من ثورة أُخرى . و لمَ لا ؟ فمن لا يملك شيئاً ، لا يخاطر بشيء . "

و دعتنا إِلى زيارة مدرسة " ما ليبي " ، حيث تعمل . و ولجنا ، في قلب الأزقّة البائسة ، إلى واحة من نظافة وضياء حيث قدّم لنا مئات من الفتيات والصبيان في لباسهم الموحّد البسيط ، النظيف ، احتفالاً صغيراً عذْباً ، باللغة الإنكليزيّة ، لشكرنا على تبنّي مؤسّساتنا لهم . و كان أُسلوبنا ذلك من أجدى الأَساليب ، إذ كنّا نجد عرّابين يؤمّنون للصغار نفقات التعليم ؛ وكانت غالباً صورة فوتوغرافيّة مرفقة بتقرير عن نشاط الطالب الدراسيّ توفّر للمحسنين علاقة أَكثر حسّيّة . و هكذا بات مئات من العرّابين و العرّابات يفتحون أبواب المستقبل لصغار يائسين .

و أيّ فرح و أيّ اعتزار يتجلّيان على وجوه أولئك الأولاد ، فيما هم يتحرّكون برشاقة، و يغنّون بابتهاج . إنّهم يعرفون أَنّهم أَمل قرية الصفيح ، ويتأهّبون لإنقاذها من أوصابها ، ولإيقاظ الرأي العامّ على قضاياهم .

و دُعينا، في اليوم التالي، إلى الاهتمام بمركز إنماء زراعيّ ؛و قد قابلنا شبّاناً في نحو العشرين من العمر ، تضجّ وجوههم بالصحّة ، و بشيءٍ يتعذّر وصفه يميّز عشّاق الطبيعة . وكانت ترافقهم راهبة طاعنة في السنّ ؛ و قد أَدهشني ما كانوا يحيطونها به من احترام و مودّة. إنّ منظر هذه الشبيبة النضرة التي تحيط بالاحترام امرأة عجوزاً يبعث الدفء في القلب. ترى ، ما هو سبب هذه العلاقة الرقيقة المفعمة بالاحترام التي تجمعهم ؟ لقد أوضح لي أحدهم: " الأخت ميلاغرو هي مؤسّسة المركز ؛ و كانت قد انتهت إلى هذه الجزيرة المدقعة الفقر لخمسين سنة خلت . كانت شابّة متّقدة حماساً ، متأهّبة للمخاطرة ، و مصمّمة على محاولة كلّ ما من شأنه مساعدة جدّيّ ، اللذين ، على غرار الآخرين ، كانا يعيشان عيشة بائسة في مزارع صغيرة . أترين هذه الشجيرات المغروسة في صفٍّ مستقيم ؟ إنّها من أَكثر ما غرسته الأخت ميلاغرو فائدة ، فهي تبعد الحيوانات التي كانت تلتهم الجذور و تلقي اليأس في قلوب الفلاّحين . اليوم بات لدى جميعنا منها ، و قد ازدهرت مزروعاتنا . "

و جرّني شابّ آخر شديد و مفعمٌ حماساً نحو الاصطبلات ، و رمق بإعجاب الراهبة التي كانت تداعب خطم عجلة جميلة ، و قال : " لقد جاءت بخبراء لاختيار أفضل أَجناس القطعان ! " و انبعثت ضحكة فرحة و قالت الراهبة : " تيقّظوا لمسؤوليّاتكم أيّها الشباب ! فبعد بضعة أَشهر سيعود كلّ منكم إلى مزرعته ، وسيتوجّب عليه أن يعرّف مزارعي الجوار بأَفضل الأساليب الزراعيَّة ... " فأجابتها أَصوات فرحة دوّت كالرعد :

- " وعد ، يا أختاه ، وعد ! "

و قد أوضح لي أَحد الفتيان : " إِنّهنّ لمدهشات راهبات الانتقال هؤلاء ! إِحداهنّ ، الأُخت " لوز " ، اشتركت مع الراهبات الأخريات في الثورة التي قضت على ديكتاتوريَّة ماركوس ، من غير سفك قطرة دم ! كنَّ في طليعة المتظاهرين الهاتفين : " فليسقط ماركوس ، فلتسقط إِيميلدا زوجته القاسية القلب! " . لم يرتعدنَ في مواجهة الجرّارات التي كانت تهمّ بسحقهنَّ ، و أَخيراً اضطرت الآلات الضخمة إِلى التراجع ! "

و ضحكت الأخت ميلاغرو بكلّ غضونها و هتفت: " تعلّموا المخاطرة ، أَيّها الشبّان . فالحياة مخاطرة " . و قد اندرج كلّ هذا الحوار في لغةٍ إِنكليزيَّة لا غبار عليها كان يتكلّم بها أؤلئك المزارعون الشبّان ، الذين يتحدّثون فيما بينهم بلهجةٍ "التاكالوز " . إِنّهم يتلقّون في هذا المركز ثقافة كاملة ستتيح لهم لعب دور خطير في إِنماء البلاد زراعيّاً .

ثمّ قرّرنا ، بينوا و أَنا ، المضيّ صوب شماليّ البلاد من أَجل دعم أَحد شركائنا ، أَنطون زينير . و هذا يقودني إِلى التحدّث عن أَكثر فتاة إِدهاشاً قابلتها قطّ .

كنت أَسير ، بحذر ، بمحاذاة حقول الأرزّ ، و ليس ذلك بالأمر الهيّن : : إِذ ينبغي وضع الأَقدام الولحدة أَمام الأخرى ، على طول درب ضيّق ، و المحافظة على التوازن إِتّقاءً من الوقوع في الماء الموحل . و فجأة على طرف الدرب الآخر ظهرت فتاة في نحو العشرين من العمر كانت تتقدّم برشاقة ، و لا يبدو عليها أَنّها فيليبينيّة . ترى ما الذي تفعله هذه الفتاة في هذه الجزيرة التائهة ؟ و لكأَنّ وجهها كان يقفز من إِحدى لوحات فرا أَنجيليكو . و هتفتْ ، بصوتٍ رنّان : " صباح الخير يا أُختاه ، وأَهلاً بك عندنا " . ثمّ شدّتني بقوّة من يدي واقتادتني إِلى منضدة طويلة كان نحو عشرين ولداً يتناولون طعامهم بشهيَّة عليها . و قد حطّت على كلّ منهم نظرة عطف لا متناهٍ . و قالت : " إِسمي ناتالي ، هذا هو أَنطوان الذي استدعاني " . إِنّه رجل في نحو الأَربعين من العمر ، تتجلّى عليه مخايل الطيبة ، و عيناه بنيَّتان ، دافئتان . و قد أَطلعاني على مغامراتهما . فأوضح أَنطوان : " كنت قادماً من عند الأمّ تيريزا في الهند ، قاصداً الفيليبين ، و عازماً على الإقامة حيث الأَكثر حرماناً في حاجةٍ إِليّ . ولمّا انتهيت إِلى هنا ، إِلى محلّة " باناو " هذه ، راقبت حياة الجماعة لكي أُحدّد احتياجاتها الأَكثر إِلحاحاً ، و حينئذٍ قرَّرتُ الاعتناء بالصغار الأَشدّ إِهمالاً ، لكي أُنقذهم من مصيرهم المرعب" .

- و بعثتَ إِلى جميع أَقاربك رسالة استغاثة جميلة ، فقرَّرتُ الإِسراع بالحضور

- أَجل ، وافت إِلى هذا البلد الذي كانت تجهله ، و الذي وصفتُ لها افتقاره إِلى الأَمان ، و إِلى أسس الرفاه الأَساسيَّة .

– بالطبع ، فالمخاطرة لا تخيفني . و ها أَنذا هنا مع هؤلاء الأَولاد الذي اجتذبوني ، وحملوني على المكوث . إِنّني ، اليوم ، أسعد فتاة في العالم " . و أرتني ناتالي الأكواخ المنتثرة هنا و هنالك . و زرت الكوخ الذي تقتسمه مع فتيات أخريات، فإذا به كسائر الأكواخ ، منتصب فوق أَوتاد ، يُصار إِليه عبر سلّم ، يسحب ليلاً اتّقاءً لغزوات شتّى البهائم . غير أَنّ هذه الحياة التي تقتسمها الفتاة مع فيليبينييّن صغار مشوبة بالمآسي . فقد اعتلّ أحد الأولاد و تعذّر علاجه ، و لم يوجد أَيّ دواء في المستوصف الفقير هناك ، فقضى الولد نحبه بين ذراعي أَنطوان .

في سبيل مواجهة هذا النمط من الأوضاع ، قدمنا ، بينوا و أَنا . و لا بدّ من أَن توفد منظّمتنا متطوّعين؛ وقد سبق لي أَن وصفت ملحمة شبّان بلجيكيّين ، كانوا روّاد تطوّع مُدوّ لم يتوقّف منذ انطلق . و هناك شبّان كثيرون على غرار ناتالي ، لا تثبّطهم المصاعب والمخاطر ، بل هي تجتذبهم . فدينماكيّتهم الغافية تجد ، أَخيراً ، حقلاً لانطلاقتها .

إِلى الأمام ، إِلى الفيليبين . سنجدّد العيادة الطبّيّة ، و سنزوّدها بطبيب وممرّض . وبعد أَشهر قليلة كان فريق قد افتتح ورشة ، فأعيد بناء الجدران ، و أُعيد بسط السقف ، وأُثبتت رفوف كي توضع فوقها الأَدوية ، بانتظام .

ذات يوم سمعني رجل في نحو الأَربعين من عمره أشيد بجرأة ناتالي وأَنطوان ، فاعترض :

– " إِنّ المغامرة هي التي تجتذبهم ، و تبدو لهم المخاطرة ممتعة ، ليس إِلاّ

– و أنت ، يا سيّدي العزيز ، هل تجرّأت ، يوماً ، على إِلقاء نفسك في الماء لإِنقاذ إِنسان يغرق ؟

– أَنا ، يا أختاه ، رجل حذر ، فقد يتشبّث بي الغريق ، فعلامَ أجازف بالغرق معه ؟ "

لو كان ذلك الرجل ما زال في العشرين لربّما ردّ عليّ ردّاً مختلفاً . أَوَ ليس من أَثمن ميزات الشباب هذا الاندفاع إِلى الأَمام متخطّياً العقبات ، حالما تبدو جدوى الاندفاع ؟

قد يفضي تعاقب المصاعب و الاخفاقات ، فضلاً عن تقدّم السنّ ، إِلى القضاء على الحميّا التي تزري بالخوف . أوّلا يتمثّل " مرض العصر " الذي ينتقل من جيل إِلى جيل ، في ذلك المناخ الذي يخنق الاندفاع ؟

إِنّ الدرس الذي أعطانيه الفيليبينيّون هو ، بالتحديد ، مفهوم الجسارة : جسارة الغوص وسط " الحثالة " (هل هي حقّاً كذلك ؟) ، و الصمود في وجه البيلدوزر المتقدّم ، و تعميم طرق زراعيّة جديدة ، و الإِقدام على المخاطرة في جزيرة نائية ...

للقلب الذي يفلح في الإِحتفاظ بشبابه ، **الحيـــاة هي المخاطرة** .

الحقّ أَم القانون ؟

كانت " نيلّي " التي تتمتّع بجرأة خارقة ، منفتحة على قضايا العالم ، عندما قدمت لتعمل في ورشة قرية صفيح في القاهرة . و سرعان ما أَخذت من نفسها بيئةُ جامعي النفايات كلّ مأخذ ، فأسهمت بفرح في بناء مساكن صحّيّة .

و عشيّة عودتها إِلى فرنسا هتفت :

– " يا أُختاه ، إِنّه لعملٌ جيّد مساعدة الصغار على تغيير نمط عيشهم ، وإِخراجهم من كوخ قذر لإِيوائهم في بيت صغير نظيف .و إِنّني لأودّ أَن استمرّ في توظيف ذاتي كي أُساعد الصغار على الانعتاق من الشقاء . "

– إِمضي ، إِذن ، إِلى تييس ، في السنيغال ، يا نيلّي ، فقد حدّثوني عن أولاد يعانون من أَوضاع مأساويّة ، محرومين من كلّ حقّ بالحريّة . "

و هكذا شخصت نيلّي ، يوماً ، إِلى السينيغال ، مع بعض أَصدقاء ، للنهوض بورشة إِنسانيّة ، و افتتحت مراكز لإِيواء أَبناء الشوارع ، و عُيِّن على رأس إِدارتها سينيغاليّون ، ضماناً لحسن سير المشروع . و لمّا أَنجزت المهمّة ، عاد فريق المتطوّعين إِلى بلاده . ولسوء الطالع ، سرعان ما تراكمت المصاعب ، و أُسقط في يد المسؤولين المحلّيّين الذين اعتمدت عليهم " نيلّي " ، فتواروا عن الأَنظار .

و انتاب القلق أسقف المكان ، و توجّس خشية من أَن يصبح أولئك الصغار الذين كانوا قد شرعوا يعهدون حياة جديدة ، ضحيّة من لن يتورّعوا عن استغلالهم . فبعث بنداء استغاثة إِلى" نيلّي " التي لم تتلكّأ عن العودة ، و طلبت من"مارك" أَن يواكبها، فهو صديق قد خبرت تفانيه، و قد تحرّر من ارتباطاته كي يمدّ لها يد العون. و انطلقا ، و لكن عندما انتهيا

إلى غايتهما تبيّنا أَنّ المهمّة ستكون شاقّة ، و أَنّهما ، مع افتقارهما إلى المال ، لن يتوقّفا إلى أَيّ عمل مجدٍ . و مع ذلك كان لا بدّ من فعل أَيّ شيء ، لإنقاذ أولئك الصغار من العبوديّة ، فأنشأ جمعيّة أسمياها : " من أَجل بسمة ولد " ، بغية البحث عن عونٍ ماليّ . و قد بادرت منظّمة " أَصدقاء الأخت إيمّانويل " إِلى دعمها ، حتّى قبل أَن تزورها .

مبدئيّاً الشباب مقدام . و " بينوا " الذي كان قد مضى بي إِلى الفيليبين ، دعاني إِلى المضيّ إِلى السينيغال للوقوف على العمل الجاري فيها ، عن كَثَب . و قد ارتضت شركة إِيرفرنس منحي مقعداً مجّانيّاً ، فيما حصل " بينوا " على بطاقة بسعر مخفّض ، فهو ضنينٌ بالنفقات و حريص على أَلاّ يمسّ المال الثمين الذي يغيث أَولاداً كُثُراً .

كانت" نيلّي" تنتظرنا في مطار داكار ، و قد اقتادتنا إِلى مقرّ إِقامتها في تييس. بيتها الصغير في منتهى البساطة ، و لكنّه مرتّب بذوق ، و الصناديق التي تستخدم بمثابة خزائن منسّقة خير نسق .

و مع هذه الفتاة لا مجال لهدر الوقت . فبعد تناولنا شراباً منعشاً ، اقترحت :

– " هل نبدأ من السجن يا أختاه ؟ أَموافق أَنت يا بينوا ؟ "

ووافقنا كلانا ، و " يلّه " إِلى السجن . و أعلنت نيلّي : " يجب أن نُخرج منه الصغار "

فاستحوذ عليّ الذهول و هتفت :

– " الصغار ؟ "

فأجابت نيلّي :

– " أجل ، إِنّ الحياة ، هنا ، قاسية . و لا يجد القوم ، بيُسر ، ما يقيم أَوَدهم ، فيعلّم الآباء صغارهم السرقة . و عندما تقبض عليهم الشرطة متلبّسين ، تزجّهم في السجن .

" و بما أَنّ القانون يحظر محاكمة القصَّر ، يدعونهم يتعفّنون طوال السنين ، محرومين من التعليم ، و النظافة الأساسيّة ، و الحريّة ، و من كلّ حقوق الولد . "

ثمّ أَضاف بنبرة ثائرة :

– " إِنّهم محشورون ، في قاعة واحدة ، مع المجرمين : القتلة ، واللصوص. و من السهل تخيّل ما يجري هناك ، و أَيّ مجرمين سيصبحون بدورهم.."

و استوضح " بينوا " :

– " ما يسعك أَن تفعلي في مثل هذه الحال ؟ إِنّ القانون ضدّك . "

فضحكت نيلّي و أَجابت :

- " الأَمر في غاية البساطة . إنّي أَتدبّر أَمري كي أخرجهم ، و في تلك الأَثناء أَقوم بعزلهم عن أولئك المجرمين و أَضعُهم في قاعة جعلتها تُبنى لأَجلهم . "

و ولجنا إِلى حرم السجن ، فقابَلنا سينيغاليٌّ فارع القامة اتّضح أَنّه مدير السجن ، وكان جليّاً إِعجابه بنيلّي التي كان ينصت إِليها باحترام . و أَعلنَ : " بأمرك، يا آنسة . بالطبع بوسع السيّد و الأخت أَن يرافقاك . "

كنّا قد جئنا بقدر كبير من الأرزّ و بشطائر ، و ما إِن دخلنا غرفةً مجرّدة ، ولكنّها نظيفة نسبيّاً ، حتّى استقبلنا رعدٌ من الأَصوات الفرحة . إِنّ نيلّي تعرف كلاًّ من أولئك الصغار باسمه ، و تعرف أَيضاً قصتّه . فكلّ اهتمامها محصور في دراسة ملفّاتهم و في العثور على أُسرهم . و هكذا تحدّد من سيكون من اليسير إِعتاقهم لأَنَّهم لم يرتكبوا سوى سرقاتٍ ضئيلة الشأن . في حين يتعيّن عليها الكفاح في سبيل الآخرين الذين اشتركوا في أَعمال سطو مسلّح . و لكن لا يبدو أَنّ ذلك يضايقها كثيراً.

و سرعان ما أُفرغت أَطباق الطعام ، و شرع مدرّب سينيغاليّ ، أوفدته نيلّي، بإلقاء الدروس . فنيلّي حريصة على توفير أُسس تعليم متينة لأولئك الأولاد ، في قلب السجن .

وخرجنا وسط صيحات مدويّة تهتف : " إِلى اللقاء " .

وولجنا إِلى القاعة المخصّصة لبالغين ، مشعّثي الشعور ، ينبعث من عيونهم بريق مريب ؛ و لكن، لحسن الطالع، سرعان ما أَفلح إِشعاع نيلّي و ابتسامها في إِحداث تغيير على معظم تلك الوجوه المتجّهمة ، التي و إِن لم تبارحها القسوة ، غشاها شيء من الرقّة التي جَعلت ملامحها القاسية تنبسط . و تراصّ بعضهم من حولنا ، وازدهى أَفرادٌ منهم بلفظ بعض مفردات باللغة الإِنكليزيّة : " هاوآريو ؟ ويلكوم " . و ساد بينهم مناخ من التعاطف .

غير أَنّ أَكبر الموقوفين سنّاً ظلّوا ملتصقين بالجدار ، و في أَنظارهم إِنذار رهيب .

بيد أَنّ توزيع الشطائر قد تمّ في هدوء ، و فسح للجميع فترة ارتياح .

في السيّارة التي كانت تعود بنا ، أَفضت إِليّ نيلّي : " في المرّة الأَولى التي جئت بها إِلى هنا استحوذ عليّ الرعب . فقد كانوا مكدّسين بعضهم فوق بعض . وكانت تلتمع في عيون الأولاد ومضات عكرة ، و نظرات من يعيشون في مناخٍ وبيل. و تساءلت عن وسيلة لتحرير هؤلاء الصغار الذين يحقّ لهم العيش في مناخٍ صحّيّ و أخلاقيّ سليم ، من الشرّ المحيق بهم ، في حين أَنّ قانوناً أَحمق يقيّدهم في هذا السجن التعِس ، فما السبيل إِلى إِنقاذهم ؟

و سألت :

- ألم يبدُ لك ذلك مستحيلاً ، يا نيلّي ؟ فالقانون هو القانون .

– ما من مستحيل ، أَيَّتها الأُخت إيمّانويل . أو لم تتغيّر القوانين التي كانت تستعبد الإنسان ، قرناً إثر قرن ، بعد أن كان العبيد معرَّضين للموت قانونيّاً ، ويعملون مقيّدين بالسلاسل ، ، عشر ساعات إلى اثنتي عشرة ساعة في اليوم ، و لا يستثنى من ذلك الأولاد القصّر ، و لا ينالون سوى أجر زريّ يكاد لا يقيهم من الموت جوعاً ؟

– صحيح . غير أنّ فرض احترام الحرّيّة ، و لا سيّما حرّيّة الأولاد ، هو شأن رجال القانون ، و أنت لست منهم ، أفلا تشعرين بالعجز ؟

– أنا ، أبداً ، إطلاقاً .

و انفجرت بالضحك ، و أردفت :

– إنّني أعرف كيف أكافح انتصاراً لحقّ الأولاد . إنّ القوانين الغاشمة موجودة لكي نلتفّ عليها تمهيداً لإلغائها . و كانت مهمّتي الأولى فرز الأولاد عن المجرمين ، كما أسلفت القول . ثمّ رحت أتدبّر أموري ، بلباقة ، مع مدير السجن ، ملحفةً في التوسّط من أجل هذا أو ذاك من الأولاد ، إلى أن أتمكّن ، ذات يوم من اصطحابه ، بلا ضجّة و لا تبويق ، إلى مأوى قائم في قلب الأدغال ، حيث سيتاح له أن يزدهر بحرّيّة . و لكن فلنمضِ الآن لزيارة العتّالين .

و أثناء الطريق أوضحت لنا نيلّي :

" عندما وصلت إلى هنا كانوا ، هم أيضاً ، ضحيّة نوعٍ آخر من القانون ، ويطالبون بالانعتاق منه . جوهريّاً العلّة هي عينها : الفقر ، الذي كان يستغلّه رجال دين كي يوهموا الآباء تولّي شؤون أبنائهم و تعليمهم مجّاناً . و في الواقع كانوا يدفعونهم إلى العمل كالحمير ، عملاً بشريعة استغلال الأقوياء للضعفاء ، فهنا رجال الدين يملكون جميع الحقوق ، و يقسرون هؤلاء الصغار على نقل أحمال ثقيلة على ظهورهم إلى السوق ، و كأنّهم دوابّ .

" و صدّقوني ، إنّ صناديق الفواكه ثقيلة . و عندما يبتاعها زبون ينبغي نقلها إلى شاحنته . فتصوّروا أولئك الصغار ، برؤوسهم المتهادية على صدورهم ، وأكتافهم المتمايلة ، رازحين تحت حمل قد لا يطيق الكهل حمله ، و يتلقّون عن ذلك أُجوراً مجزية .

و الويل للولد إن لم يوافِ سيّده بمالٍ وفير ، و إلاّ تعرّض للضرب المبرّح.... مع أنّه لا ينال سوى الزهيد من الطعام . إنّه لا يتمتّع بأيّ حقّ إطلاقاً ، إنّه عبد . "

و استوضح " بينوا " :

– " و لكن ، يا نيلّي ، كيف تصدّيت لشريعة الأقوى ، و أنت غير قادرة على تولّي أمر كلّ أولئك الأولاد ؟

– كان لا بدّ من الوصول إِلى صيغة مجدية . لقد زرت رجال الدين واحداً واحداً . واستخدمت أساليب الفتنة و الإِقناع : و قد تنجح الرقّة حيث يفشل العنف . وانتهيت إِلى عقد اتّفاقٍ يقضي بأَن يقدّم لهم الحمّالون الصغار كلّ يوم مبلغاً معقولاً ، و يحتفظوا بالباقي لأنفسهم"

و تجوّلنا في السوق ، فإِذا بفريق من الصغار ، في إِحدى الزوايا يطلقون صيحات ترحيب عندما شاهدونا . و أَرونا ، باعتزاز ، العربات الجديدة التي وفّرتها لهم نيلّي ، قائلين : " هكذا سنتخلص من أَلم الظهر . يا للحظّ ! "

و كانت نيلّي قد عثرت ، بعد بحث ،على شبّان سينيغاليّين أَنهوا دراستهم ، أَذكياء ونشطاء ؛ و لم يصعب عليها أَن تجعل منهم معلّمين ، و تنفث فيهم حبّ الأولاد ، و تنظّم منهم فريقاً يعمل معها . و قد وصل أَحدهم و صاح : " لقد فرَغَ السوق ، يا أولاد ، فهيّا إِلى الدرس. إِجلسو تحت النخلة و لا تنسوا دفاتركم وأَقلامكم."

و سأل " بينوا " نيلّي :

– هل أَنت المسؤولة عن التعليم ؟

– بالطبع . فبعد أَن انعتق الأولاد من نير رجال الدين ، باتوا يتمتّعون بأَوّل حقوق الشباب : إِنّهم أَحرار ، و لكن ينبغي أَن نوفّر لهم الآن حقّ التعليم و التدريب المهنيّ . مذ شاهدتهم ، أَشفقت عليهم ، فقد كانوا يتعرّضون لقضيَّة أُخرى عسيرة الحلّ . كانوا يعملون لدى مهنيّين يعاملونهم معاملة العبيد و لا يلقّنونهم من المهنة شيئاً . و كانت لي ساعات جدال طويلة مع كلٍّ من أولئك المعلّمين الذين كانوا يفرضون شرائعهم في قطاعهم ...

– هل حاولت استمالتهم كما فعلت مع رجال الدين ؟

– " الناس ليسوا أَشراراً ، أَيّتها الأُخت إيمّانويل . و هم متشابهون أينما وُجدوا . والمشكلة هي في إِفهامهم أَنّهم يرتقون بأَنفسهم قدراً ، إِن هم اهتمّوا بالآخرين . أَنت قد لقّنتني هذا البيت من قصيدة للشاعر الفارسيّ سيابيستاري : " إِفلق قلب الإِنسان ، تجد فيه شمساً . " ولقد حدّثتهم باحترام و مودّة ، ففتحت قلوبهم و ها إِنّ الشمس تغمرها الآن . تعالي وشاهدي "

و ها أَنذا في مواجهة سينيغاليّين محترمين ، يبدون راضين عن مهنتهم . وقد حيّوا نيلّي بنبرة مرحة ، و قال أَحدهم بلهجة منتصرة : " تعالي شاهدي متدرّبينا يعملون ". و كان هؤلاء دائبين على أَدواتهم ، فأضاف : " إِنّهم يكتسبون مهارة ، وفي السنة القادمة سيكونون عمّالاً مؤهَّلين جيّدين " . كان يسود ، ثمّة ، جوّ اعتزاز فرح، وكان من الواضح أَنّ المعلّمين و المتدرّبين راضون بعضهم عن بعض ،و قد اشتركوا في تناول كوكا كولا منعشة ، واتّضح أَنّ العلاقة الإِنسانيّة قد ظهرت على شريعة الأَقوى .

و علّقت نيلّي : " إِنّهم قوم طيّبون . و قد تبيَّنوا كم يشرّفهم إِشراع المستقبل للشبّان بتوريثهم علمهم ، فاندفعوا في هذا المضمار . "

و قد احتفظت نيلّي للختام بأَكثر المشاهد إِدهاشاً : مركز الفتيان الذين انتزعتهم من السجن ، حيث كانت تشيع جوّاً من الفرح المشبع بالحرِّيَّة . إِنّها لا تحاول الضغط على الإِرادة، حتّى من أَجل الخير ، بل تستهدف إِنارة العقل ، و إِنماء المسؤوليّة . و قد أقامت هذا "المنزل " في أَحضان الطبيعة ، بعيداً عن قيود المدينة الزائفة ، في فرجة وسط الأَدغال ، حيث انتظمت، في دائرة ، أكواخٌ سينيغاليّة النمط، و في كلّ منها سبعة أو ثمانية أسرَّة نظيفة ؛ ويتولّى فيها أَحد المراهقين ، بالتّوالي ، مهمّة النظافة و الترتيب .

في الصباح يهرعون ، مسرعين ، إِلى المدرسة ، فقد أدرك كلٌّ منهم أَنّ التعليم هو أَساس القيَم الشخصيّة . ثمّ ، بعد الفراغ من وظائفهم ، يتبع كلّ واحد التدريب المهنيّ الذي اختاره : في مشغل حذّاء ، أو خيّاط ، أو نجّار ، أو في زراعة الخضار و الفواكه . و قد أروني إِنجازاتهم بسرور معدٍ . فقد قبضوا على زمام مستقبلهم ، و شعروا أَنّهم شرعوا يصبحون رجالاً .

و التفت " بينوا " نحوي قائلاً : " يجدر بنا مساعدة فتاة كهذه ، تعتق أولاداً من العبوديّة، و تنشئهم في الفرح "

و مررنا بحذاء كوخ تربَّعتِ على عرشه امرأة سينيغاليّة باشَّة الأسارير ، في نحو الخمسين من عمرها ، و راحت تخاطب الفتيان المحيقين بنا ، و هي تدير مغرفتها في قِدْرٍ جسيمة فوق نار حطب ، و قالت : " يا أولاد عشاؤكم حساء بصل،وجزر من البستان ". فصفقِّوا " للماما " و دعوها إِلى الاحتفال .

و تعاقبت في البهجة ، الرقصات ، و مشاهد التمثيل القصيرة ، و الأَناشيد . و رمقتني نيلّي بنظرة ماكرة :

– " لقد سألتني ، أَيَّتها الأخت إِيمّانويل ، هل بدا لي مستحيلاً إِخراجهم من السجن ، إِذ إِنّ القانون هو القانون . و لكن أسوأ ما يتعرّض له شابّ في نظري ، هو العيش تحت حكم قانون ، محروماً من الحرّيّة . و الجوهريّ الذي يتعيّن تحقيقه هو تحطيم القيود التي تحول دون نموّ فكره في بحثه الخاصّ ، و تدعيم إِرادته في خياراته الخاصّة ، و ازدهار قلبه في صداقة تلقائيَّة "

و توقَّفت ، لحظة ، ثمّ استأنفت و هي تؤكّد على كلّ لفظة :

" عندما يحبّ المرء ، يعثر دائماً على حلّ ، يتخطّى القانون . إِنّكما تعرفان ذلك مثلما أَعرفه أَنا "

إِنّها بليغة هذه الفتاة ، عندما تتكلّم . و هي ماهرة ، خاصّة ، في الخروج من المآزق وإِخراج الآخرين منها . إِنَّها مخطوبة من شابّ يتابع مثلها دروساً في الأَبحاث ، و سيفلحان في الظفر بوظيفة في مؤسَّسة سينيغاليَّة .

و قد أَنهت خطابها عندما انحنت عليَّ ، و أَسرّت لي ، في اعتزاز الأمّ : "أُنظري إِلى عيونهم ؛ كم كانت عكرة عندما جاؤوا إِلى هنا ! و ها هي الآن تطفح بالنور ! "

هذه أَجمل ذكرى حملتها من السينيغال !

أَحببني كما أَنا

ما هو الحبّ ؟ لهذه اللفظة تأويلات شديدة التباين .

هناك طريقة حبّ تفرض آراءها الخاصّة على أَنّها الخير و الحقّ الأَسميان ، فتخنق كلّ شخصيّة تتباين آراؤها معها . و بوسعي التحدّث عن ذلك ، لأَنّني وقعت ، أَنا نفسي في هذا الفخّ . فقد كنت ممعنةً في تقدير طاقاتي بحيث لم أَعرف ، دائماً ، احترام طاقات المتعاونين معي ، و خنقت بلا ريب ، بعضها .

من جهة أُخرى ، ثمّة من ، في نظرتهم المادّيّة ، يحبّون شخصاً مثل حبّهم لحلوى ، من جرّاء المتعة التي يتذوّقونها و التي تقودهم إِلى تدمير ما يحبّون : فالحبّ عندهم استهلاك .

على نقيض ذلك ، هناك النظرة المروحنة ، حيث الحبّ احترام للآخر ، وسعي إِلى إِسعاده ، حتّى فقدان الذات ، أَحياناً ، في سبيل توفير هذه السعادة له . وهنا ، قد يصبح "المُستهلِك " ، " مستهلَكاً " .

في الواقع ، ليس القلب البشريّ بهذه البساطة ، و قد ينطوي على اعتبارات وتصرّفات متضاربة . و مع ذلك ، يطالب كلّ إِنسان ، و الشابّ بنحو خاصّ ، بأَن يُحَبّ في احترامٍ لهويّته ، أَيّة كانت .وليس من السهل أَن يحبّ المرء كائناً مؤلّفاً –حسب قول باسكال الصائب – من عظمة و هوان ، و لا سيّما عندما يكون الهوان بادياً للعيان .

فهل من وسيلة لحبّ الشابّ حبّاً يساعده على إِبراز مواطن عظمته ، و طيّ بُقع ضعفه ؟ سأعود إِلى ذكرياتي لكي أورد أَمثلة الذين نجحوا في هذا المضمار ، حيث غالباً ما يميل المرء إِلى التسليم بعجزه .

و قد أعطتني ، في هذا المجال ، درساً لا يمكن نسيانه ، امرأة ، في الفيليبين، ما عادت بعد شابّة ، و هي في الخامسة و الثلاثين من العمر ، تدعى لوريتا،كانت رئيسة جامعة في مانيلا . و كان قد تنامى إِلى علمها أَنّ شبّاناً فيليبينيّين يتعفّنون في السجون ، غالباً إِثر سرقات ضئيلة الشأن . غير أَنّ الوصف الذي قُدّم لها عن تلك السجون ، بل أوكار الجرذان الزريّة تلك ، كانت تجعلها تتوجّس خشية من الشخوص إِليها . و لكنّ نداءً حارقاً إِلى المساعدة كان يعتمل في نفسها ، و قد جعل منها زائرة سجون ، و لكأنّ قوّة سامية قد دفعتها إِلى تلك المهمّة دفعاً .

و عرضتْ عليّ مرافقتها إِلى السجن من غير أَن تخفي عنّي شيئاً من أَهواله. و لدى ولوجه إِنتابتني صدمة عمري : ففي قفص ذي قضبان حديديّة سُجِنَ كائنون بشريّون : رجال

، و نساء ، و شبّان مودعون في قفص مثل حيوانات مفترسة . بصعوبة كنت أمسك بأيديهم الممتدّة عبر القضبان ، أُسوة بلوريتا التي كانت تطيل وقوفها أمام الشباب ، و تشدّ على أيديهم بحرارة، باعثة شيئاً من السكينة على تلك الوجوه المذعورة ، مثل أُمّ تُعزّي أبناءها التعساء .

ولدى مرورها كانت ومضة حياة تتجلّى في عيون بدت منطفئة ، عيون أولئك الشبّان في العشرين من العمر الذين كانوا يتعفّنون في قفص ، قابعين على التراب و قد أُغلق ، في وجههم ، كلّ منفذ رجاء . و مع ذلك ، لدى وصول لوريتا ، كان يزورهم قلب ، و نفس ، وتسري عبر الأقفاص رعشة ... و حدهم المساجين المسنّون يلتزمون اللامبالاة ، فسنوات القفص الطويلة قد أعادتهم إلى حيوانيّتهم ، في حين أنّ الذين ما برحوا في العشرين أو الخامسة و العشرين ، ينصتون إليها بنَهم ، و هي تقول لهم : " لقد مررتم بمرحلة ضلال ، و كان ممكناً أن يحدث ذلك لي ، يوم كنت في مثل سنّكم . غير أنّني أتفحّص أحوالكم ، و سأساعدكم على الخروج منها ، فأنا أثق بكم و بإمكانيّاتكم . وسنجد معاً السبيل لإنهاضكم " . كانت تبعث فيهم إنتفاضة رجاء ، عندما يتبيّنون أنّ ثمَّة من يؤمن بهم ، و يحترمهم ، و يحبّهم ، كما هم . و يشعرون أنّهم يصبحون رجالاً من جديد .

عندما خرجنا من ذلك الجحر ، كان ثمَّة سؤال يحرق شفتيّ :

– " ألا تخشين من المجيء إلى هنا ، يا لوريتا ؟

– كلاّ ، فأنا أحبّهم "

كان الفرح يقطنها لأنّها خاضت مغامرة الحبّ ؛ و الفرح كان يعود ليسكن أُولئك الشباب ، لأنّ حبّ أُمّ كان يحيط بهم ، حبّ لا يحطّ من قدرهم ، بل يرفع من شأنهم .

و كانت لي ، أنا أيضاً ، تجربة مدهشة في أحد السجون التي كنت أزورها في فرنسا ، حيث انقلب جذريّاً مصير أحد الموقوفين لأنّني كنت أحدّثهم باحترام وصداقة ، و خاصّة ، لأنّني ، و أنا أغادرهم كنت أُقبّلهم واحداً واحداً . و قد كتب لي ذلك السجين مؤكّداً أنّ تحوّلاً كان يجري فيه ، فيستعيد ثقته ، و يأمل في الحياة مجدّداً. و كانت آخر رسالة له تقول : "أُريد أن أُصبح راهباً في السجن ، أحبّ اللّه ، و أحبّ البشر ، و أحاول أن أكون لكلّ إنسانٍ أخاً ".

هذا ما أحدثته قبلة أُمٍّ عجوز !

غير أنّني لم ألجأ إلى الوعظ ، و كنت دائماً أمقت هذا الأسلوب . ففي شبابي، كان حسبي أن يقال لي : " عليك أن تفعلي كذا " ، لكي يستفزّ لديّ ذلك القول رغبةً لا تقاوَم في فعل نقيض ما أومر به . و لكن حذارِ ، إيّاكم أن تتمثّلوا بي أيّها الشباب ! ولحسن الحظّ أنّ السنين تأتي بذرّة حكمة ... و لقد أدركت أنّ الذين يأمرونني ليسوا، عموماً ، حمقى ، و بتّ أبحث عن معنى الأوامر المعطاة . و لكن هل يقتضي بلوغ هذه المرحلة أن تشيب شعورنا ؟

فيما بعد ، و قد أَصبحت معلّمة مسؤولة عن مادّة معيّنة ، احتجت إِلى وقت لكي أعثر على وسيلة لثقافة حقّة لا تقوم على أَوامر ، و لو مبرّرة ، بل على محبّة كلّ فرد بعيوبه ومؤهّلاته . و حالما كنتُ أَتمكّن من أن أُفسّر ، بوضوح ، لتلامذتي غاية الجهد المطلوب، وهو مساعدتهم على استنباط قيمتهم الذاتيّة ، كانت تنهار كلّ السدود .

ما هي ، إِذن ، الوسيلة الأَكثر مباشرة لمساعدة الشبيبة على إِصلاح ذاتها ؟

تجربتي في قرى صفيح القاهرة كانت خير ما أَنارَ لي هذه المشكلة . ففي بيئة حيث الشجار كثير الحدوث ، و حيث المُدى سريعة الإِشهار ، يحظى الرجل القويّ بأرفع تقدير . تلك كانت حال المدعوّ " بسيط " ، الذي كان قد قتل اثنين من خصومه، في حين أَنقذ الثالث نفسه في اللحظة الأَخيرة . و لم أَكن ، أَنا ، من ملاك الشرطة ، بل كنت لهم " أَبلتي " ، أُخت جامعي النفايات الكبرى . و الأخت لا تخون أخاها ، ولم يكن ماضي " بسيط " يعنيني ، بل كنت أزوره مثلما أزور الجميع ، كصديقة . كنّا نحتسي معاً كوب شاي ، جالسين ببساطة جنباً إِلى جنب ، وسط الأَقذار ، و نتحدّث ، بالعربيّة ، عن جميع المواضيع التي كانت تهمّه : خنازيره ، و بيعها ، و صعوبة جمع الأَقذار ، و عن صحّته ، و أسرته إِلخ ... و كان " بسيط" مسروراً بوجودي إِلى جانبه . كنّا رفاقاً يجمعنا التقدير المتبادل و المودّة . و قد أَقلع عن العبث بمديته ، حرصاً منه على الحفاظ على صداقتي الواثقة به ، و ربّما أَيضاً لشعوره بازدهار قيمته الكمينة .

ذلك الرجل البادي القسوة ، كان ، معي ، مفعماً رقّة ، و مستعدّاً لتأدية ألف خدمة لي ، و كانت عربته دائماً بتصرُّفي كي تأتيني بكلّ ما أَحتاج إِليه من أَجل الصغار ، و من أَجل أَعمال البناء . و في الواقع كان كلّ ما يفتقر إِليه هو الشعور بأَنّه محاط بشيءٍ من التقدير والرقّة ، و كان مجرّد عثوره عليهما لدى " أخته الكبرى" قد فجّر لديه صفات مجهولة لديه .

في الحقيقة ، البشريّة هي ذاتها في كلّ مكان ، من مصر إِلى الفيليبين وسواها. و ما زال قول " سيابيستاري " الذي أَسلفنا ذكره صالحاً : " أَفلق قلب إِنسان، تجد فيه شمساً " . إِنّ الحبّ باحترام يساعد على إِظهار النار في كلّ وقت ، حتّى في أحلك الظلمات .

و كلّما هوى الإِنسان عميقاً ، كان أَكثر إِحساساً بكلمة التقدير . و اتّضح لي ذلك بجلاء ذات ليلة ، حيث كنت مع " كزافييه إِيمّانويلي " نجوب ، في سيّارة إِسعاف، شوارع باريس. بأَيّ احترام كانت المساعدة الاجتماعيّة و الممرّضة تنحنيان على المشرّد الذي لا مسكن له ، الراقد على الرصيف قائلتَيْن : " أَيّها السيّد ، هل تريد أَن تصعد معنا في سيّارتنا لكي تمضي فتتناول وجبة ساخنة ، و تستلقي على سرير مريح ؟ " و كنت أَشهده يستقيم ، إِلاّ في حالات نادرة ، و يتقبّل اليد الممتدّة إِليه. و في اليوم التالي ، بعد أَن يكون قد استحمّ ، و

حلق ذقنه ، وارتدى ثياباً جديدة أو مغسولة ، كان ينصرف بوجهٍ قشيب . و كان بعض الشبّان يرضون بالعودة إلى الاندماج في المجتمع ، بعد أن استعادوا ثقتهم بالحياة ، و دُعي كلٌّ منهم باسم "سيّد" وتلقّى بسمة ، و استعاد شباباً ، و حيويَّة . إنّ فقدان تقدير الآخرين الذي يحقّ لكل بشريّ هو، بلا ريب ، أسوأ من الموت الجسديّ ، فهو يعني موت النفس .

يذكّرني هذا بقول الجنرال ماك أرثر : " ليس الشباب مرحلة من الحياة ، بل هو وضعٌ فكريّ ، و عمل و إرادة ... هو انتصار الجرأة على الوَجَل ، و انتصار طعم المغامرة على حبّ الرفاه ... أنت شابّ بمقدار ثقتك بنفسك ، و بمقدار أملك ، وأنت هرِم بقدر خَوَر إرادتك"

ما السبيل إلى إعادة الرجاء لمن حطّمتهم الحياة منذ صباهم أو منذ مراهقتهم؟

إليكم هذا المشهد الذي جرى لدى عودتي من الفيليبين ، و كنت أنا و " بينوا " جنباً إلى جنب في الطائرة ، و كان هو غارقاً في عمله ، و الأوراق تتراكم فوق منضدته الصغيرة . فسألته :

-" ألا تستريح ، يا بينوا ، و لا سيّما وأنّ إقاماتنا في الفيليبين كانت مرهقة ؟

– كلاّ ، فعليّ أن أُعدّ دروس الإملاء لصفَّيْ الخامس و الرابع ، فبعض الذين يأتونني في مطلع السنة ضعفاء جدّاً ، و فاقدو العزيمة ، ووالدوهم أجانب لا يفقهون من الفرنسيَّة سوى القليل

– و لكن ما بوسعك أن تفعل ؟ فقد فات الأوان .

– ليس الوقت متأخّراً أبداً ، فأنا أُعنى ، على نحوٍ خاصّ ، بكلٍّ منهم ؛ وأضع نفسي بمتناولهم ، و أُحدّثهم ، في المساء ، في منأى عن الآخرين كي أُقنعهم بأنّ النجاح ممكن ، و أمعن في الإقناع حتّى ينقادوا

– و في آخر السنة ؟

– معظمهم يظفرون بالنجاح ، و سيكون بوسعهم أن يتابعوا حتّى البكلوريا ، و إلاّ ظلّوا أبداً مواطنين من الدرجة الثانية ، سحابة حياتهم .

– يتحدّثون عن استفحال العنف في مدارس الضاحية حيث تعلّم . ألاّ تخاف ؟

– و علامَ الخوف ؟ فالشباب عندما يعرفون أنّنا نحبّهم ، و نسعى في سبيل خيرهم بأيّ ثمن ، يتخلّون عن كلّ عنف . بوسعي أن أدع سيّارتي قرب المدرسة فلا يمسّونها ، أو أن أنسى قلمي على المكتب أثناء الفسحة ، فلا يسرق . في العطلة الصيفيّة الماضية مضيت بهم إلى بيت في الريف يخصّ والديّ ، فلم يعبثوا بشيء فيه؛ وليتك شاهدتهم و هم ينظّفون كلّ شيء تنظيفاً دقيقاً ، قبل رحيلهم .

فيما كنت أُصغي إِلى " بينوا " ، جالت بخاطري المشاكل التي تجابه الشبّان ، و تبدو مستعصية الحلّ ، و قفزت إِلى ذاكرتي صورة ذلك المراهق الذي التقيته في مركز استقبال الحالات الميؤوس منها . كان يحدّثني بضغينة عن أمّه التي هجرته ، والقوم الذين تعهّدوه لكي يعذّبوه . و شيئاً فشيئاً شاعت القسوة على محيّاه و صاح : "كفى الآن! فهناك عصابة بانتظاري؛ سأَمضي إِليهم ، و سنُعمل التحطيم ! " و لكن ، بغتةً ، حدث تحوُّلٌ مفاجئ ، إِذ سكن روعه ، وفي لحظة تغيّرت ملامحه ، و غدا صوته عذباً تقريباً، و قال : " ثمّة سيّدة تحبّني و تحترمني ، تأتي إِلى المركز بصفة متطوّعة ، و تعطيني دروساً . أو تعرفون ما تقوله لي هذه المرأة ؟ أَنّني ولد ذكيّ ، و لكنّني كسول بعض الشيء ... و هذا صحيح ، فأَنا لم أَبذل ، قطّ ، أَيّ جهد في المدرسة . و هي لا تريد أَن أكون عضواً في العصابة ، بل أن أَحصل على شهادة التأهيل المهنيّ ، و تقول أَنّني هكذا سأصبح رجلاً ، و أَنّها ستساعدني على الظفر بعمل " . و أَضاف بصوت خافت : " سأصبح رجلاً " . لقد كان كافياً أن تمرّ امرأة مجهولة تماماً ، و تهتمّ بهذا الفتى و باحتياجاته و بطاقاته الكمينة ، لكي ترتدي حياته حجماً جديداً ، و تتّجه في منحى آخر ، ذلك لأَنّ كلّ كائن بشريّ بحاجة إلى الشعور بأنّ آخرين يقدّرونه و يحبّونه ، كما هو ، كي يصبح ، أو يعود فيصبح ، رجلاً .

على جدار غرفتي الصغيرة علّقت لوحة رسمها و أهداها لي أَحد أُولئك "المحجور عليهم " ، الذين تطلق عليها المشافي النفسيّة تعريف " مريض عقليّ " ؛ وإِنّ تأمّلي لهذه الخطوط التي تشبه خيوط العنكبوت ، وهذه الألوان القاتمة ، والأَشكال الغريبة ، تساعدني على قبول الآخر ، مع اختلافه ، و على حبّه و إِليكم الحكاية :

دخلت أَحد تلك المشافي النفسيّة ، في يوم زيارة ؛ فإذا بفتى " مجنون " يقدم نحوي ، ويأَخذني من يدي ، و يريني رسمه ، و يحدّثني عنه ، من غير أَن يذكر كلمة عن نفسه ، و أَصغيت إِليه باهتمام و قلت : " ما أجمل لوحاتك ! " فأشرق محيّاه و قبّلني باندفاع ، هاتفاً : "تحبّينني و أُحبّك ، فخذي أَجمل لوحاتي هذه ! "

أوَ لم يكن ذلك الشابّ ، في عزلته الظاهرة ، و بنوعٍ ما ، أَغنى ، و أَوفر إنتاجيّة من كثيرين آخرين ، و منّي ؟ إِنّني كلّما حدّقت في لوحته ، جال في خاطري غنى الفقير . لقد كان حسبه أَن يشعر بتفهّمي و محبّتي كي يهبني أَفضل ما كان يمتلك .

إِنّنا ، هنا ، في أَعمق أَغوار السرّ : فلكي تنفسح البذرة عن الحياة الكامنة فيها ثمّة شروط عديدة ضروريّة : رطوبة الأَرض ، و حرارة المحيط ، و اعتدال الربيع. و من ذا الذي سيساعد الحياة على الولادة في نفس شابّ ؟

في مطلع هذا الفصل كنت أَتحدّث عن هذا " الفعل البسيط " المتعدّد التأويلات: الحبّ : فهل هو مجرّد شعور يفعم النفس برعشة متعة ؟ أو أَنّ هذه الرعشة تدفعنا إِلى العمل في سبيل خير من يجتذبنا ؟

كان " غجادي لاريغاندي " الذي توفّي في سنّ مبكّرة ، في مطلع هذا القرن ، قد قدّم هذا التعريف : " الحبّ المتبادل ، هو السير معاً نحو هدف واحد " . فضبط وقع الأَقدام على وقع أَقدام شخص آخر يفترض ، في البدء ، الثـــقة فيه ، و التأكّد من القدرة على المضيّ على الدرب معه . أوَ ليس الحبّ ، إِذن ، هو منح الآخر الثـــقة ، و الإِيمان بالقدرة على بناء حياةٍ معه ؟

ذلك هو سرّ " أندريا " و " نيلّي " ، و " بينوا " و آخرين كُثُر : لقد عرفوا كيف يحبّون و يثقون . لقد شعروا برعشة أَجسادهم ، و فكرهم ، و قلوبهم ، لدى سماعهم نداء الشبّان ، واحترموهم ، و آمنوا بقيمتهم ، حتّى عندما كانت خافية عن العيون اللامبالية ، آمنوا ببذرة الحياة الكامنة في كلٍّ منهم .

و كان الردّ سريعاً ، إِذ رأينا الأسحق انهياراً يهبّون واقفين و يسهمون في نهضة كانت تبدو لهم ، من قبل ، مستحيلة استحالة مطلقة . فقد عثروا ، أَخيراً ، على من أَجاب على صرختهم الأَشدّ أَلماً :

أَحببْــني كما أَنا ._

صر ما أَنت

لقد حاولت ، من خلال الصفحات السابقة ، تبليغ الشباب ما علّمني رجال هذا العالم ونساؤه الذين التقيتُهم في مناسبات غالباً أَليمة ، و قد علَّمني كلٌّ منهم بأسلوبه الدرس التالي :

الحياة هي عمل

الحياة ، هي كفاح .

لم أَرَ جامعي النفايات يقبعون على أَكوام الأَقذار لكي يرقبوا سيّارات المرسيدس المنطلقة على الجادّة الممتدّة تحت تلّتهم التي تعلوها سحب الدخان ؛ بل شاهدتهم ينطلقون بحميرهم ، منذ الساعة الثالثة صباحاً ، لجمع النفايات كي يعتاشوا بمحتوياتها ... و لكن مذ وصلت إِليهم ، كان صغارهم متأهّبين للجري نحو المدرسة كي يتثقّفوا و يغيّروا حياتهم .

و لم أَرَ اللبنانيّين الذين دمّرتهم الحرب ، يتسوّلون على الأَرصفة ، بل يبحثون عن أيّ عمل في سبيل إِنهاض بلدهم المتلاشي .

و لم أَرَ الفيليبينيّن مستعبدين للشقاء ، أو منهارين إِثر إِنفجار بركان بيناتوبو ، يندبون قدَرهم ، بل شاهدتهم يبحثون ، من الصباح إِلى المساء ، عن مركز يتثقّفون فيه ، و يسعون إِلى تحويل الرماد إلى سماد ، و إِلى نوع من الخزف الكفيل بصنع تماثيل .

و لم أَرَ الصغار الموقوفين ، أَو الحمّالين ، أَو المتدرّبين على شتّى المهن في السينيغال يثبّطهم عجزهم ، بل يمسكون باليد الممتدّة بغية تحسين أوضاعهم .

و لم أَرَ ، في مختلف القارّات ، الإِنسان لا يبالي بالإِنسان ، بل رأيت الشبّان خاصّة يخلقون أَعمالاً مدهشة في تعدّدها ، للتَّصدّي لكلّ بؤس

و تعلّمت ، في صباي ، أَنّ أَجدادنا كانوا يعيشون في كهوف ، و لا يملكون سوى سواعدهم للعمل ، غير أَنّهم ، من قرن إِلى قرن ، اكتشفوا أَسرار كوكبنا ، وبنوا حضارة لا تني تتقدّم أَكثر فأكثر .

يا شبّان العام 2000 ، إِنّ الأَرض لكم ، فماذا أَنتم فاعلون ؟ و إِنّني أَسمع جواباً يدوّي، جارحاً : أَجل ، و لكن ماذا ، و أَين ، و كيف ... من جرّاء البطالة ، تتردّد في كلّ مكان لازمة : ما من عمل .

إِنّ التساؤل مضنٍ و رهيب . فهل فرضنا على جماعات الشبّان و الفتيات الذين جمّدت مسيرتهم منافذ مسدودة ، أَن يظلّوا قابعين ، مكتوفي الأَيدي ، ينتظرون الفرج ؟

فيما أَنا جالسة أُعمل الفكر ، و قلمي في الهواء ، تحرّك جهاز الفاكس ، وانتزعت الأوراق و شرعت أَقرأ الشهادة التي بعثت بها صديقة ، و أَقتطف منها بضعة مقاطع :

"إِنّ " ماتّيو " متمرّد ، عاجز عن احتمال ضغط الأُسرة و المدرسة ، يرتكب حماقات ، و يلهو بسرقة السيّارات ، و قد انتهى إِلى أسوأ حال . غير أَنّه ، في ربيع عام 1996 ، طالع ريبورتاجاً عن مؤسّسة " فيلاني " التي أَنشأتها في الفيليبيين "دومينيك ليمي " ، و التي تُعنى ، بالتعاون مع " أَصدقاء الأُخت إِيمّانويل " ، بالأُمّهات اللواتي يواجهنَ محناً قاسية .

و قرّر " ماتيّو " التصدّي لتحدّ ، يمتحن به ذاته . فيمّم شطر الفيليبيين مع خمسة متطوّعين ، في نحو العشرين من عمرهم ، كي ينظّموا عيد ميلاد مع شبّان وفتيات تتروا ح أَعمارهم بين خمس سنوات و عشرين سنة ، بهدف دفعهم إِلى التحرّك ، و إِفهامهم أَنّهم قادرون على العمل و على تنظيم أمورهم ، و تقلّد دور في تمثيليّة ، و تولّي مسؤوليَّة .

و كان هؤلاء، و هم إِمّا من مدمني المخدّرات أو من الموقوفين بسبب جُنَح ، محشورين مئةً و خمسين نفراً في ردهة مساحتها خمسون متراً مربّعاً ، حيث يرقدون على

الحضيض . و في مثل هذا المناخ كان من العسير تنظيم تمثيليّة صغيرة معهم . و قال " ماتيّو" : " ينبغي أَن أَصمد كي أعطيهم ، على الأَقلّ ، شحنة سعادة . " و قفل عائداً إِلى فرنسا ، و قد تحوّل ، بعد أَن التقى ، لدى أولئك الأحداث الفيليبينييّن، الشقاء، و الاختلاف ، و الهجران ، و لكن أَيضاً الجاهزيّة الرائعة و إِرادة الخلاص ، و خلص إِلى هذا القول : " لقد عدت أكثر سكينة و حيويّة ، و قد شحنت بطاريّاتي شحناً كاملاً .. " و هو الآن يفكّر بالعمل في جواره .

في الواقع ، أَتاحت هذه المغامرة لماتيو أَن يصير ما كان : فمساعدته أَولاداً سحقهم الشقاء قد حمله على التقليل من شأن مشاكله ، و على تشغيل محرّكه الخاصّ، و على إِبراز أَفضل ما كان كامناً فيه .

أَيّها الشابّ الذي يقرأ هذه السطور ، أَدعوك إِلى التساؤل : هل تعرف جميع الثروات الثاوية في جسدك ، و عقلك ، و قلبك ، و إِرادتك ؟ أَلا تصبو ، في أَغوار ذاتك ، إِلى نشر السعادة ، و إِقرار السلام و العدل ، عوضاً عن البغض و العنف ؟

عمليّاً ، ماذا أنت فاعل بكنزك ؟ و هل تلعم أَنّك قادر تماماً على تحقيق ما حقّقهُ كلٌّ من أَندريا ، و ناتالي ، و نيلّي ، و ماتيو ، و آخرون كثيرون ؟ ما رويته لك ليس قصص جنّ ، بل أَمثلة عن قيمتك الخاصّة . لا تجبني : " أَنا لم أَستطع ، أَبداً ، إِنماء طاقاتي " . بل تذكّر تلك الجامعة المسائيّة في مانيلاّ التي كان يؤمّها فيليبينيّون لم يغشوا المدرسة يوماً ، و الذين ، من الصفر ، ارتقوا ، بفضل تصميمهم و ثباتهم ، إِلى منصب جامعيّ . إِنّ الناس متساوون ، و ما فعله أَحدهم بوسع الآخر فعله : القضيَّة قضيَّة إِرادة ، و أَسنان مشدودة ، و قبضات متأهّبة لمصارعة الجمود ، ولتفجير الخلايا الرماديَّة من الدماغ .

هل نمى إِليك خبر ذلك الشابّ الذي كان قرفاً من نفسه و من العالم ، و الذي أَجاب المرشد الذي خاطبه يوماً بالقول : " فلنبحث معاً عن خير ما لديك"، فأَجاب : "إِنّني أَسوأ المغفّلين ، و سأظلّ كذلك . " و لكن ، لحسن طالعه ، كان قد عثر على مربٍّ يؤمن بطاقات الشباب ، و بالقدرة على تحقيق الكثير ، حتّى وسط أدهى فاقة ، و الذي أَفلح في أَن يعيد لذلك "المغفّل " ثقته بذاته ، فاكتشف أَنّه جيّاش الديناميكيّة ، ومتعطّش إِلى العدل ، و الذي صار ما كان : أَي رجل عمل ، مفيداً لنفسه ولمجتمعه. كيف تمّ ذلك ؟ بمجرّد الجهد المثابر و اليوميّ الذي ينشد تثــقيفاً يبرز قدره .

العطش إِلى العدل تعرفه أَنت أَيضاً ، أَنا واثق من ذلك ... قد يتراءى لك أَنّ تغيير العالم مستحيل ، و لكن ما الذي تفعله أَنت في بيئتك ؟ هل تسهم في مثل هذا أَو ذاك من نشاطات طلاّب الدراسة الثانويّة الذين التقيتهم في معهد بلجيكي ، و الذين بيّنوا لي من

النشاطات أنماطاً عديدة جديرة بديناميكيّتك . فبعضهم يزورون بانتظام مرضى في جوارهم ، أوَ ليس في جوارك مرضى ؟ و بعضهم وثَّـقوا علاقات صداقة مع معاقين جسديّين أو عقليّين ، و تعني لهم الكثير نظرة أخويّة ، أو بسمةٌ تدفئ . وفي مثل هذه المناسبات ، أيّ استقبال حارّ بوسعك أن تقدّم ، أنت أيضاً ؟ و بعضهم يُعنون ، خاصّة ، بكائن مسنّ : أوَلا يوجد في البناء الذي تقطنه جدٌّ أو جدَّة يقاسيان من الوحدة ، من شأن نضارتك أن توفّر لهما نبع عزاء ؟ ليتك تطالع رسائل الاستغاثة التي أتلقّاها من هؤلاء ، والكفيلة بدفعك إليهم ! و بعض الطلاّب تولّوا أمر الأمّيّين والتلاميذ الذين يواجهون متاعب في دروسهم ، و الذين يكفي لكثيرين منهم شيء من المساعدة كي يستعيدوا عزيمتهم . لقد كان أولئك الطلاّب الذي يصفون لي العالم الذي وظّفوا أنفسهم لغوثه مفعمين هوىً ، و مثيرين للإعجاب ، و كانت الأحوال ، معهم ، تتغيّر . كانوا على نقيض ذلك الشابّ الذي، قبل أن يشنق ذاته ، ترك على منضدته هذه الكلمة : " لا أحد يحبّني ، و أنا لا أُحبُّ أحداً . وداعاً أيّتها الحياة القذرة " . هل الحياة هي ، حقّاً ، قذرة ؟ ومن المسؤول عنها ؟ عندما هتف ميكائيل : " آبى أن أكون إنساناً حقيراً لا يفكّر إلاّ في نفسه"، كان يعلم أنّه ، هو المسؤول عن قيمة وجوده ، و أنّه لا يسوغ له أن يلوم ، في ذلك ، العالمَ كلّه .

أَصغِ إليّ ، أنا المرأة العجوز ؛ ولدت عام 1908 ، و عهدت أكثر العصور إذهالاً : فمن جانبٍ إرهاف في القسوة شيطانيّ ، و قتل ملايين الأبرياء ، و من جانبٍ آخر روحٌ إنسانيّ " بلا حدود " لم يشهد له كوكبنا مثيلاً ، قطّ . و لكلٍّ ما يريد: الانضمام إلى عصابة إرهابيّين تزرع القنابل في عربات المترو و الأماكن العامّة ، وتسفك الدماء ، و تسيل الدموع... أو الانضواء إلى من يكافحون كي يشدّوا عزيمة الجرحى الذين ينتحبون . إنّك تلج العام 2000 ، و بمكنتك الإسهام في أن تكون خميرة لما سيجلبه هذا العام من موت أو حياة... إنّك ابن جيلك ، و غائص في كلّ ما يجيش من حولك . و صدّقني ، لم أعرف شابّاً واحداً لم يهتزّ كيانه حالما يحدّثونه عن البشريّة المتألّمة . أتريد على ذلك دليلاً ؟ في سويسرا ، و في الولايات المتّحدة ، خبرت تجربة متشابهة . فقد كان عليَّ أن أتحدَّث أمام طلاّبٍ ثانويّيين يطيب لهم العبث خارج الصفّ ، و قد تفاقم ضجيج هرجهم ، فضربت المنضدة بقبضتي وصحت : " أنا عائدة من بلاد الموت ، و ليس الأمر مضحكاً ، فإمّا أن تخرسوا ، أو أنصرف " . و عقِبَ ذلك صمتٌ يحاكي صمت الموت ، بحيث تأثّرت أنا نفسي . وعندما وصفتُ لهم مآسي أطفال السودان ، كانوا متعلّقين بشفاهي . و سألوا : " كيف نساعدك ؟ " فأجبت : " إحرموا أنفسكم ، أحياناً ، من الشوكولاته ، و الحلوى ، و من النافل ، و أرسلوا شيكّات لكي ينال هؤلاء الصغار مزيداً من الطعام " . و عندما كنت أدعوهم أن يأتوا ، أثناء

العطلة الصيفيّة ، للعمل في ورشة البناء ، بعيداً عن كلّ أَسباب الرفاه ، كانوا يهرعون للمجئ .

إِنّها لحقيقة راسخة : عندما يكون لدى الشباب دوافع ، يصنعون العجب ؛ أومن بذلك لأنّني رأيته بعينيّ ، و سمعته بأذنيّ ، و لمسته بيديّ .

و من ثمّ ، إِليك أنت الذي سيسهم في انبثاق قرن جديد أَطرح تحدّياً ، و ها هوذا : كن ما أَنت ، كن مفجّر نفسك ، و غناك ، و افتح عينيك على غنى الآخرين ، و لا تبقَ وحيداً ، فمن صدام الأَفكار ينبثق النور. شارك ، ارتبط برفاق مسيرتك ؛ أَشرك في السير مع آخرين رجليك ، و يديك ، و ذهنك ؛ تحرّك بعنف ، و اخلق الحياة ، و استفزّ أفعالاً من كلّ نوع: مسرحاً و موسيقى ، و رياضة ، و ثقافة ، وعملاً يدويّاً ، و مساعدة إِنسانيّة ، و سفراً على الأَقدام ، أو على درّاجة . " يلّه " ، إِلى الأمام ، فالعالم لك .

لا تخدعنّك وسائل الإِعلام التي تتخمنا بصور العنف المأساويّ التي تضخّمها ما استطاعت . لا ، فالعالم ملئ بشباب رائعين يدعونك للالتحاق بصفوفهم .

أودّ أن أعلن لكلٍّ منكم : كونوا ما أَنتم ، رجالاً و نساءً ، و إِن أوشك الوهن على إِلقائك أرضاً فاعلم أَنّ القوّة فيك ، في جسدك ، و في قلبك .

هذا العطش إِلى العدل القاطن فيك دعه يدفعك نحو من هم أَكثر تعاسة منك ، وادخل المعركة لكي ينتصر شعار الحريّة ، و المساواة و الإِخاء .

آمن بذاتك ، بهذا الهوى الكامن فيك في سبيل عالم حيث سيكون بوسع بشرٍ أحرار أن يعيشوا متساويين ، و إِخوة . آمن بديناميكيّتك ، و جسّد مُثلك حيث أَنت تعيش ، و حيث تشعر قلبك يخفق . و اعلم أَنّ مثابرتك ، رغم الإِخفاقات ، ستضمن لك النجاح .

آمن بالآخرين ، الذين تجعلهم نسمة العدل ذاتها يرتعشون ، و لا تخشَ الانضمام إِلى كفاحهم : فاتّحاد الشباب قوّة هائلة .

آمن بذاتك مثلما أومن أنا بك ،

آمن بالآخر مثلما تؤمن بذاتك ،

" يلّه " أَيّها الشباب ، إِلى الأمام

و النصر لكم معقود

القسم الخامس

من حصاد التجارب

موجز

في 14 أيّار 1988 ، كرّمت الحكومة الفرنسيَّة الأُخت إِيمّانويل بوسام الشرف ؛ و كُلّف الأَب بيير بتقليدها إِيّاه ، بحضور السيّدة ميتيران ، و مندوب عن جاك شيراك . و قد خاطبها الأب بيير قائلاً : " أنتِ و أَنا ، لا كبير شأنٍ لنا ، و لكنّنا محرّضون ، و نولي الأولويّة للمحرومين . إِزاء جميع المآسي التي تحيق بنا ، قد نُحمَل على الشكّ بأَن الحبّ هو شريعة العالم ؛ وبما أَنّ النبع ، مع ذلك ، لم يجِفّ ، فمردّ ذلك إِلى وجود احتياطيّ ماء لا ينضب ، في مكانٍ ما . و هذا الاحتياطيّ هو أَنتِ أَيّتها الأخت إِيمّانويل " .

و أجابت الأُخت : " أَنا لست شيئاً ، و لا وجود لي إِلاّ في اللّه ، و باللّه ، ومع اللّه . أَنت و أَنا قد جهدنا في أَن نكون مفيدين بمساعدتنا إِخوةً لنا على الوقوف ... إِنّني أَتلقّى هذا الوسام ، لا باسمي الشخصيّ ، بل باسم جميع جامعي نفايات القاهرة ، و باسم جميع المحتَقَرين عبر العالم ، و جميع فقراء قرى الصفيح في العالم الثالث " .

جامعو نفايات القاهرة ، و فقراء قرى الصفيح في كلّ مكان ، و المسحوقون أَينما وجدوا ، ما انفكّوا هاجسها الملازم . و في سبيلهم تقارع السلطات و القلوب ، وتناطح المستحيل ، و تجوب الدنيا ، علّها تخفّف من بلواهم ، و تبلسم جروحهم ، وتدفع مصائرهم نحو غدٍ أَفضل .

في مطلع التسعينات ، و كانت الأُخت قد تجاوزت الثمانين ، ارتأت رئيساتها أنّها لم تعد في عمر يسمح لها بمواصلة العيش الشاقّ ، و السفر المتواتر ، و دعونَها إلى الاستراحة في أَحد مراكز الجمعيّة في فرنسا . و لكنّها كانت تستأذن بمهلة تتيح لها إنهاء ما بدأته من مشاريع هامّة ، و تجدّد المهلة سنة إثر سنة ، إلى أن أمرت أخيراً بالتقاعد عام 1993 .

لقد شقّ عليها التقاعد فديناميكيّتها ما انفكّت فوّارة لا تستكين إلى الراحة ، وشقّ عليها أكثر من ذلك أن تطمئنّ إلى عيشٍ ساكن هادئ مضمون ، في حين أنّ العالم يعجّ بالمشرّدين و الذين يعانون من السكن الضنك ، و أن يُنفق على سكنها وطعامها و العناية بها في شهر واحد ، أكثر ممّا ينفقه جامع نفايات على أسرته طيلة سنة ، فضلاً عن تمنّيها الموت بين ظهراني إخوتها جامعي النفايات .

في العاشر من أيّار 1991 ، كانت الأُخت إيمّانويل قد طوت ستّين عاماً من الحياة المكرّسة ؛ عشرون من تلك السنوات الستّين ، كان الأخت قد قضتها في أكواخ القاهرة ، و لا بدْع إن هبّ جامعو النفايات لتكريم " أبلتهم " ، التي غدت لبعضهم أُمّاً و لآخرين جدّة ، و التي امتزجت حياتها بحياتهم ، و بفضلها تغيّرت مصائرهم .

استُهلّ الاحتفال بقدّاس اشترك فيه بطريرك الأقباط الكاثوليك ، و أُسقف الأقباط الأورثوذكس ، و القاصد الرسوليّ ، و الرئيسة الإقليميّة لجمعيّة الأُخت إيمّانويل التي سبق لها أن كانت ، مدى أحد عشر عاماً ، رئيسة عامّة على الجمعيّة . و قد تلا القاصد الرسوليّ رسالة تهنئة من الفاتيكان ، و ذكّر بأنّ الأخت إيمّانويل قد دأبت على " إزعاج " الكنيسة المقدّسة ، و حسناً فعلت . و كرّرت الأخت نذورها الرهبانيّة بين يديّ رئيستها .

بين حشد الضيوف وقفت السيّدة مبارك زوجة الرئيس المصريّ ، والسيّدة دانيل ميتيران مع أنّ ذلك اليوم كان يوافق الذكرى السنويّة العاشرة لرئاسة فرانسوا ميتيران ، و قد حرصت سيّدة فرنسا الأولى على قضائه مع الأخت إيمّانويل و"إخوتها" ، و في المساء طارت عائدة للاحتفال مع زوجها .

وسط الأهازيج اقتادت الأخت إيمّانويل ذلك الموكب من الشخصيّات الرفيعة إلى قرى الصفيح الثلاث التي زيّنها جامعو النفايات بحبّ ، و اشترك أكثر من أربعين ألفاً منهم في الاحتفاء بها و هم يهتفون : " شكراً أيّتهاالأُخت إيمّانويل ، فقد غيّرت مجرى حياتنا " . و قدّموا ، إكراماً لها ، مشاهد تمثيل و أغاني خاصّة .

و كانت سعادة الأخت عارمة إذ استطاعت المجيء بأرفع الشخصيّات الدينيّة والمدنيّة إِلى حيث كان القوم محتَقَرين ومنبوذين ، أَبداً . و تعاظمت سعادتها و هي ترى جامعي النفايات نظيفين ، في ثياب لائقة ؛ و ذكرت كيف انتزعتهم من الأَقذار والهلاك ، و قد أمسى بعض من دفعتهم دفعاً إِلى رياض الأَطفال ، ثمّ إِلى المدارس ، أَرباب أُسر مرفوعي الهامات ، واعين لكرامتهم . لقد انتصر ، حقّاً ، الحبّ على الموت .

في مساء ذلك اليوم ، كتبت الأخت إِيمّانويل :

" ستّون سنة انقضت ، و قد انطوت ، مثل كلّ حياة ، على أَيّام فرح و أَيّام حزن ، أَيّام عيد ، و أَيّام تقشّف ، ولكنّها خلت أَبداً ، أَجل أَبداً ، من أَيّ ندم على النهج المختار . لا بل ، في أَغوار النفس السرّيّة، ما انفكّ ينبوع السلام و الحبّ يتدفّق ، غزيراً و فرحاً ، و قد ازداد تدفّقه توثّباً خلال السنوات العشرين التي قضيتها مع إِخوتي جامعي النفايات "

عام 1992 قامت بآخر جولة لها عبر العالم ، و انتهت بفرنسا حيث اشتركت، يوم الثالث من حزيران ، في البرنامج التليفزيونيّ " مسيرة القرن " ، الذي لقي من الإِقبال ما حمل مخرجه " جان ماري كافادا " على إِعادة بثّه في 15 تمّوز التالي . وتوَّجت جولتها الفرنسيَّة بلقاءٍ أُسطوريّ ضمّ عشرات أُلوف أَصدقاء الأخت إِيمّانويل الذين هتفوا طيلة الليل ، مشيدين بما فعلته لجامعي النفايات المصريّين ، ولشتّى محرومي العالم ، و ما فعلته ، أَيضاً ، للمحظيّين في الغرب الذين علّمتهم حبّ الآخرين . و في صباح ذلك اليوم عينه كان رئيس أَساقفة باريس ، الكردينال لوستيجيه ، قد احتفل بقدّاس عن نيّة الأُخت إِيمّانويل .

و يوم الثلاثاء ، في 30 حزيران أَقام لها حفنة من أَصدقائها و أعوانها الأَوائل و الدائمين عشاء وداع ، و عند حلول منتصف الليل ، بعد كثير من الضحكات و الدموع ، أَنشد الجميع نشيد الأُخت إِيمّانويل :

و في الحياة حقبة ينتهي فيها كلّ حلم ،
و تظلّ ، وحدها ، روح اللّه مغتبطة ، ساعية إِلى الخشوع .
عندما ستعجز قواي المنهارة عن حمل جسدي البالي ،
سأصلّي متّحدةً بكلّ من أَحببتهم ،
فالصلاة هي حياة تجمعنا بالإِنسان و باللّه ،
إِنّها منبع طاقة يرقى بنا صوب السماء . "

أَجل ، لقد أَزفَ الوقت التي ستصبح فيه الراهبة العاملة النشيطة ، كائن صلاة يحمل آلام العالم و همومه في يديه و قلبه ، و يرفعها إِلى الربّ ، ملتمساً رأفته وعطفه .

قُبيْل ذلك ، خاطبت الأُخت أَصدقاءها قائلة :

" إنّني على وشك الموت ، فقد أعود إلى بيتٍ للتقاعد ، أو إلى منزل الآب ؛ و لكن قبل وفاتي ، أودّ تحقيق إنجاز آخر ... أودّ بناء معهد تقنيّ يضمّ قسماً للفتيات اللواتي سيعكفنَ على تعلّم المحاسبة ، و قسماً آخر للشبّان الذين سيتابعون دروساً في الميكانيك و الكهرباء ... هذا ممكن تماماً ، و سيكون مجدياً لمصر ... لعشرين عاماً خلت ، استهللت مشاريعي وسط تناقضات لا حصر لها . و إن استطعت الآن المضيّ بجامعي النفايات الشباب هؤلاء نحو البكالوريا فسيُمهّد طريق مستقبلهم ، وسيخلصون،و أنا سأكون قد فرغت من رسم دائرتي . يلّه ، إلى الأمام ، الحياة جميلة ...

" أعرف أنّ بوسعي الاعتماد على كلٍّ منكم . " نشكر ربّنا " . إنّ سنواتي الأربع و الثمانين لا تمنعني من الرغبة في الرقص على الطريق ، و أنا أشدو نشيد العذراء : " يتوثّب قلبي فرحاً في الربّ مخلّصي " .

و أخيراً في مطلع آب 1993 أزفَ موعد طيّ شراع النضال ، والتأهّب،بالصلاة و التأمّل ، لمواجهة وجه الربّ .

و مع نفورها من التقاعد إلاّ أنّها ، التزاماً بنذر الطاعة ، غادرت إخوتها المحبوبين في مصر ، و في صدرها غصّة ، و اعتكفت في مأوى للمسنّين في الريف الفرنسيّ . و لكنّها لم تنقطع عن العالم بل ظلّت تتصل بأصدقائها ، و تحاضر ، وتكتب ، و ربّما تضع اللمسات الأخيرة على كتابها " اعترافات راهبة " التي حرصت ألاّ ينشر إلاّ بعد وفاتها .

و بات معظم وقتها ينساب في الصلاة ، و مناجاة الربّ ، و التشفّع لديه من أجل تخفيف معاناة المتألّمين . و في هدأة الصمت و التأمّل ، راحت تستذكر بعض أحداث حياتها الجوهريّة ، و تتأمّلها بنور النفس الخاشعة التي تحرّرت من صخب العالم ، وأمست ترى كلّ شيء بنظر اللّه .

من هذه التأمّلات التي اختزلت خلاصة عمر طويل من الكفاح و الصلاة ، اخترنا الصفحات التالية .

دعوة إلى العدل

ثمّة أمرٌ يضايقني ، أثناء مداخلاتي العامّة ، فقد اتّضح لي أنّني كثيراً ما أثرت استنكار الكثيرين أثناء زياراتي المختلفة ؛ فأن يكون المرء غنيّاً و أنانيّاً ، هذا شأنه . و لكنّني لا أطيق تجاسره على ادّعاء كونه مسيحيّاً . و غالباً ما اتّفق لي أن خاطبت قوماً بلهجة فظّة ، و أذكر ، على سبيل الشاهد ، أنّني تناولت ، مرّة ، العشاء مع صاحب مصنع كبير للأسلحة ، فاستوضحته كيف يستطيع الإخلاد إلى النوم ليلاً . و ساءلت كهنة كانوا يبدون مستسلمين حيال واقع أنّ الكنيسة باتت شبه عاجزة عن اجتذاب الفقراء ؛ و صببت جام غضبي على حجّاج سائحين مسيحيّين كانوا ، في نظري ، يمرّون بجانب وقائع العالم الثالث باقتصارهم على زيارة المباني الأثريّة . ولكنّني دائماً أندم ، فيما بعد ، على عنفي ، و أُقدّم اعتذاري . غير أنَّ الغريب في الأمر هو أنّني بقدر ما كنت أعنّف الناس ، كانوا أكثر سخاء .

و لكنّني صُدمتُ ، أنا نفسي ، ذات يوم ، إثر محاضرة ألقيتها في بلجيكا عندما جاءني كاهن يقول :

"إنّك تطلبين من الأغنياء مالاً تعطينه للفقراء ، و لا ريب أنّ ذلك سيريح ضمير الأغنياء . و لكن هل تلحظين أنّ ذلك لا يبدّل في شيءٍ من وضع الظلم السائد في العالم ، و أنّك ، أنت ، بعملك ، قد تصبحين وسيلة لراحة ضمير الخزائن الحديديّة . "

تلك الملاحظة أثارت تفكيري ، فما كان عليَّ أن أطلب إحساناً بل أن أطلب العدل . و كنت كلّما قدمت إلى أوروبا و شاهدت مخازنها الغاصَّة بالأغذية ، بما فيها أغذية الكلاب و الهررة ، تنتابني الرغبة في إضرام النار فيها ، و اتّفق لي أن أعربت عن تلك الرغبة جهاراً ، فقد ضقت ذرعاً بمشاهدة البون بين الشمال و الجنوب ، وشرعت أقول في محاضراتي ، على غرار دون هيلدر كامارا : " قبل أن تحاولوا مساعدتي ، ارقبوا ، أوّلاً ، ما يجري في البناء الذي تقطنونه ، و في المؤسّسة التي تعملون فيها ، و في حيّكم ، و اقتسموا ، اقتسموا !

" و كنت أُضيف : " عندنا، في قرية الصفيح ، حتّى الولد الصغير يقتسم لوح الشوكولاته "، و للأولاد كنت أَقول : "هل أَنتم حقّاً في حاجةٍ إِلى كلّ المصروف الذي تنالونه ، و كلّ هذه الدمى التي تمتلكونها ؟ ألا تستطيعون أَن تعطوا ولداً لم يظفر قطّ بدميةٍ مثل دماكم ، لا دمية عتيقة مللتم منها ، بل دمية جديدة تحرمون أَنفسكم بعض الحرمان بإِعطائها ؟ " و لا أُخفي أَنّ الأولاد يستجيبون استجابة رائعة .

لقد قلت دائماً في محاضراتي و ما زلت أَقول للشباب : " امتلكوا الكفاءات،تلقّنوا دروساً عليا في التجارة ، و اعملوا في الشركات المتعدّدة الجنسيّات لكي تستطيعوا الدفاع عن وجهة نظر غير وجهة نظر الدول المحظيّة . أَنا لم أَفلح إلاّ في تحويل العالم الصغير المحيط بي . أَمّا أَنتم فعليكم أَن تحوّلوا العالم كلّه ! " و لكي أساعدهم على تفهّم خطر شأن العدل ، أَنصحهم بقضاء بضعة أَشهر في أَحد بلدان العالم الثالث قبل انخراطهم في الحياة العمليّة . و قد شهدتهم يعودون و قد تحوّلوا تحوّلاً كاملاً ، و قد باتت نظرتهم إِلى العالم و إِلى محيطهم ، بما لا يُقاس ، أَكثر انفتاحاً .

معركتي مع الفقر

إِنّ الاهتمام بالفقراء يحاكي محاولة ملء برميلٍ لا قعر له . فما إِن بدأ الوضع يتبلور في عزبة النخيل ، بعد عشر سنوات من الجهد ، حتّى اصطحبني أَصدقاء لزيارة قرية صفيح مترامية الأَطراف في جنوبيّ القاهرة ، تتوسّط مدينة الأَموات ، و جبل المقطّم الذي يُرَجّح أَنّ الحجار المستخرجة منه هي التي استُخدمت في بناء الأهرام . و من ثمّ ، عام 1982 ، استقررت أَنا و الأُخت ساره ، في المقطّم، كي نطلق هناك نفس النشاطات التي أَطلقناها في عزبة النخيل . و في أَعقاب ثلاث سنوات رحلنا مرَّة أُخرى ، كي نعكف على العناية بقرية صفيح " معادي تورة"، الواقعة على حاشية الصحراء ، والتي تفوق سابقتيها بؤساً .

أَسفاري إِلى أوروبا و أَميركا و كندا أَثبتت لي أَنّ العالم منجم سخاء لا ينضب، و قد جاءتني بالكثير من المال ، وهذا المال أَتاح لي ، فيما بعد ، أن أَخفّ لنجدة أطفالٍ يواجهون أَزمات في بقاعٍ من العالم : مثل السودان ، و السينيغال ، ولبنان ، والفيليبين ، و هاييتي . غير أَنّ النتيجة الأَكثر دواماً لهذه الجولات – التي كانت تكلّفني الكثير ، و لا سيّما من جرّاء نفوري من هجرِ كوخي في قرى الصفيح – تمثّلت في ولادة مؤسّسات " أَصدقاء الأُخت إِيمّانويل " – في بلدان كثيرة ، ناسجة شبكة تضامن رائعة مع أَطفال العالم الثالث . إنّ منظّمة " أسماي ASMAE " ، و التي تعني " مساعدة اجتماعيّة و طبيّة لمصر " و تحوّلت فيما بعد ، إِلى " مساعدة اجتماعيَّة و طبيّة للطفولة " ، و تولّت ، إِثر تقاعدي ، تأمين استمرار مشاريعي وإِنماءها ؛ هنا أَيضاً لم يقتصر الأَمر على مساعدة ماليّة ، فمنذ عام 1982 وافى أَعضاء في تلك المنظّمة من بلجيكا إِلى مركز المقطّم من أَجل بناء نحو ستّين منزلاً لجامعي النفايات ؛ و قد بنى آخرون ، و خاصّة فرنسيّون ، مدرسة في معادي تورة ، و في بلدان عديدة ، ثمّة ، اليوم ، ورشات ، يتدافع شبّان ، بل فتيان أَحياناً للعمل فيها.

وقد كان للإِعلام دور بارز في الدعوة إِلى مساعدة هذه المشاريع و في إِطلاق شهرتي أَيضاً . فعام 1977 أَصدرت كتابي الأوّل " جامعة نفايات مع جامعي نفايات " الذي لقي شيئاً من الرواج ، و كنت في تلك الأَثناء قد قمت بجولتين في أَرجاء فرنسا .

أَمّا الإِنفجار الكبير فحدث ليلة رأس السنة ، عندما عرض " فيليب جيلداس " على شاشة اوروبا واحد ، برنامجاً كان قد سجّله في قرى الصفيح . و تدفّقت الشيكات بالآلاف . ثم في عام 1987 كان لي مداخلة أَثناء نشرة الأَخبار المصوّرة ، رويت فيها الأَهوال التي شهدتها في السودان .

ثمّ ، في صيف عام 1992 ، كنت المدعوّة الرئيسيّة في برنامج " جان ماري كافادا " : مسيرة القرن " الذي خصّصت حلقته تلك لأَطفال العالم الثالث . و قد أُعيد بثّ تلك الحلقة في شهر تمّوز من العالم نفسه و جلبت لمنظّمة " أسماي " مبلغاً قياسيّاً قدره مليون فرنك ، ووفّرت لشخصي المتواضع بعض شهرة .

الجلجلة

(عام 1984 زارت القدس و قبر المسيح ، و مكان الجلجلة ، و كتبت) :

" الجلجلة هي المكان حيث ، جميعنا ، في بيتنا ، نحن المعمّدين ، مع يسوع . إنّها قلب المسيحيَّة ، و مركز الأَرض ، لأَنّها مركز الأَلم البشريّ ، مركز الإِنسانيَّة . عندما نمضي إِلى القبر ، نمضي أَيضاً نحو القيامة ، فهو ، إِذن ، مكان النصر ؛ الآن ما زالت أَرضنا أرض الأَلم ، و الشرّ ، و الموت .

" إِنّني أُصلّي كثيراً مع لصّ الإِنجيل ، فذلك المسكين قد دُفع إِلى ارتكاب شتّى صنوف الأَفعال المريعة ؛ و كفاه ، كي يخلص ، أَن يقول عبارة وجيزة ليسوع المصلوب إِلى جانبه : " أذكرني عندما تصير في ملكوتك " . و أَجابه يسوع : " الحقّ أَقول لك ، اليوم ستكون معي في الفردوس " .

ما من صوفيّ سمع مثل هذا الجواب ، و لكنّه ، هو اللصّ ، سمعه ، و كان في ذلك وحيداً . و إِنّني أُصلّي كثيراً معه .

.... إِنّني وسط الجمع مع كتابي المقدّس ، و أَحمل ، في قلبي جميع الذين أَحبّهم ، جميع المتأَلّمين ، كلّ البؤساء ، جميع الذين ضاقوا بالدنيا ذرعاً ، جميع الذين يمرّون بالقرب منّي ...

مع العذراء أَضمّهم إِلى آلام المسيح ... "

" يا أورشليم ، عاصمة الديانات التوحيديّة الثلاث ، يا مدينة البشر المتعطّشين إِلى اللـــّه الواحد ، المدينة التي كلّ حجرٍ فيها صلاة ، أَيَّتها القلعة التي هي عرش الكلّي القدرة المنقطع النظير ؛

علامَ يقيم الحقد حيث لا يسوغ أَن يقيم سوى الحبّ ؟ .. "

أَخواتي ، أُسرتي : حياتي الرهبانيَّة

إِنَّ كلّ ما فعلته ، إِنّما استطعت فعله لأنّني راهبة ، أَوّلاً ، لأَنَّني باختياري الرهبنة اخترت المطلقَ عبر محبّة الآخرين – أو بعبارة أُخرى – اخترت محبّة الآخرين لكي أولي المطلق الأولويَّة .

و أَظنّ أَن امرأة مسيحيّة علمانيَّة من شأنها أَن تعيش ذلك على نحوٍ مختلف ، و ربّما بمقدار أَدنى من الكثافة . لقد فكّرت طويلاً عندما قال لي صديق أورثوذكسيّ في عزبة النخيل : " تبدين و كأنّك مساعدة اجتماعيّة ، إِذ لا نراك أَبداً تصلّين ! " ومنذئذٍ ، بتُّ أُصلّي أكثر ، و فتراتٍ أطول ، و كان ذلك لخيري .

مذ باشرت الابتداء كانت مشاركتي اليوميّة في الإِفخارستيّا ضرورة لا غنَىً عنها ، و كان ذلك يؤرّقني أَحياناً ، و لا سيّما عندما أَكون على سفر ، و لا توجد دائماً كنيسة كاثوليكيّة قريبة ؛ أَمّا في قرية الصفيح فكنت أَضطر إِلى الاستيقاظ في الخامسة صباحاً لهذه الغاية ، و أَظنُّ أَنّني سحابة حياتي الرهبانيَّة التي استمرّت حتّى اليوم (1995) ستّةً و ستّين عاماً ، حُرِمتُ من حضور القدّاس ثلاث أو أربع مرّات لا غير .

ثانياً ، لقد وفّرت لي الحياة الرهبانيَّة قاعدة و جماعة . إِنّني ، بالتأكيد ، أَقلُّ منعة من الأُمّ تيريزا الكلكتّاويّة التي هجرت جمعيَّتها و أُلجئت ، غالباً ، إِلى الكفاح وحيدة . و أنا في حاجة إِلى نظام ، و إِلى أُسرة لكي أَستطيع السير ضمنَ فريقٍ أَعضاؤه متضامنون مشدودون بعضهم إِلى بعض ، ليقيني من أَنّني إِن سرت وحيدة تعرَّضت للانزلاق . منذ أَيّامي الأولى في جمعيَّتي عثرت على أسرة ، على فريق مترابط ، لا بل إِنّني وجدت أُمّاً . و أتبيّن ، اليوم ، أَنّني حيال الأمّ إِلفيرا تصرَّفت ، إِلى حدٍّ ما ، مثل ابنة مطيعة ، مثل ولد صغير ، مع أَنَّها لم تكن تدفعني إِلى هذا النهج . و قد أَسلفت القول أَنّ وفاتها كانت لي صدمة قاسية ، و مفيدة معاً ، إِلى حدٍّ ما ، على نحو ما قال يسوع " إِنّه خير لكم أَن أَمضي " .

و قد شعرت بالحاجة إِلى الفريق المترابط ، طيلة السنوات التي سلختها في قرى الصفيح . إِذ كنت ، في كلّ يوم سبت أَعود إِلى جماعتنا في " المطريّة " ، حيث كانت ثلاث أَخوات من جمعيَّتي يُقمنَ و يعملنَ . و في كلّ أُسبوع كنت أعود صباح يوم الإِثنين إِلى جامعي النفايات . و لم يكن الأَمر سهلاً ، و لا سيّما و أَنّني لم أَكن على جانبٍ كبير من

الكياسة . فقد كانت سائر الأخوات يعنينَ بأطفال فقراء ، ولكن لا بأشخاص مقمّلين مثلي . و ما كنّ مضطّرات إلى احتمال الوحل العالق بأحذيتي .

و أنا لم أكن أحرص دائماً على مسح أحذيتي مسحاً كاملاً ، بحيث كنت أترك على الحضيض بقعاً . و كانت إحدى الأخوات ، تتناول مكنسة و مجرفة لتزيلها في صمت . أو إنّها كانت تشرع تحكّ جسمها ، فأنفجر في الحال قائلة : " قد أكون حاملة عشرة أو عشرين برغوثاً ، و لكنّ ذلك ليس بالأمر الخطير . "

و أحياناً ، إثر تناولي الشاي ، كنت أوقع فنجاني ؛ و ليس لمثل هذا الطارئ في أكواخ جامعي النفايات من شأن ، حيث كانت أوراق الشاي تتبعثر في التراب ، ولا يحفل بها أحد . أمّا هنا ، فكانت إحدى الراهبات تعكف على جمع أوراق الشاي ، و هي تنظر إليّ شزراً ، و كأنّها تقول : كان عليك ، أنت ، أن تقومي بهذه المهمّة ؛ و كنّا في جدال دائماً .

لم يكن منزل الراهبات فسيحاً ، و من ثمّ كنت أرقد في قاعة الطعام ؛ و بما أنا عليه من قذارة ، و ما التصق بي من براغيث ، و بألبستي الداخليّة التي كنت أحاول غسلها كما يتيسّر لي ، كنت أملأ المكان بروائح عالم وحشيّ . من المؤكّد أنّني لم أكن شديدة التقيّد بأصول النظافة ، و لكنّ الرئيسة ، الأخت غيسلين ، التي ساندتني دائماً، كانت تخلص إلى القول : " هيّا ، لن نتشاجر بسبب قليل من الشاي والوحل" . وفي نهاية المطاف كنّا نغرق جميعنا في الضحك ؛ و كانت الأمّ إلفيرا قد علّمتني ألاّ أرى سوى الجانب الإيجابيّ من الأمور ، و ألاّ أحمل الهنات الصغيرة على محمل الجدّ .

خلافاً للاعتقاد السائد ، أومن أنّ نسوة تربطهنّ مودّة سليمة يقدرنَ على التعايش . صحيحٌ أنّه إن لم يحببنَ بعضهنّ بعضاً ، فقول سارتر : " الجحيم هو الآخرون " مُحِقٌّ . أمّا بشأن علاقتي بجمعيَّتي ، فقد كانت فردوساً ، لا فردوساً خياليّاً حيث كلّ شيء على خير نسق في أفضل عالم ؛ فأنا لي عيوبٌ جسيمة و للأخريات عيوبهنّ ؛ أنا سريعة الغضب ، و ميّالة إلى الشجار، و مثلما كنت أفعل مع أختي وأخي . ولطالما ردّدت : " إغفر لي ، هل كدّرتك ؟ " و كان الآخر يجيبني : " أجل كدّرتني ... " و كنّا نتفاهم .

إحدى رئيساتنا ألِفَت أن تقول : " صارحنَ بعضكنَّ بعضاً بما يُثقل صدوركنَّ، إبصقنَهُ إحداكنّ في وجه الأُخرى ، تخاصمنَ مرّة و لكلّ مرَّة ، و لتكن في ذلك النهاية . لا داعي إلى إطلاع الآخرين على مشاكلكنّ ". و كانت رئيسة أُخرى تؤكّد : " إن كنتِ على خلاف مع الأخت س فائتيني بها ، فأنا أُريد أن أسمعكما معاً ، في آنٍ واحد " . نصائح حافلة بالحكم السليم . و كنت أشهد أحياناً أخوات كنّ في الساعة التاسعة صباحاً قد تبادلن أعنف الاتّهامات ، يغسلنَ الأطباق معاً وهنَّ يغنّينَ ، بعد وجبة الظهر . غالباً ما تجول في خلدي عبارة القدّيس

أوغوسطينوس : " نحن البشر نحاكي آنية من خزف ، تتصادم أثناء سيرها " . الصدامات لا مفرّ منها ، و قد تكون الجماعات الصغيرة المؤلّفة من أربعة أو خمسة أفراد ، أكثر عرضة للصدام من الأديرة الكبيرة التي كانت شائعة قديماً .

و إنّني لأرى هذه الصدامات مثل أمواجٍ تعكّر صفو السطح ، و لكن ، في الأعماق ، يظلّ بحر الصداقة الذي يجمعنا ساجياً . إنّنا نحمل بعضنا بعضاً . عندما ابتُليت بالتيفوئيد ، هبّت جميع الأخوات للتبرّع بدمهنّ ، مع أنّ ذلك لم يكن شائعاً في تلك الحقبة ، و قد تلقّيت منهنّ المساندة دائماً في حالات مثل وفاة والدتي ، أو أزمتي في تونس .

لقد علّمتني جمعيّتي ألاّ أجعل من الأحداث العاديّة مآسي ، و إنّني حريصة على التأكيد بأنّني سعدت فيها ، مع أنّني سبّبت لها مشاكل أحياناً .

يوم قرّرت الإقامة في قرى الصفيح ، حيث أجمع الناس على أنّني أعرّض حياتي للهلاك لم تكن جمعيّتي مقتنعة بجدوى عملي ، و لكن عندما طلب منّي أسقف القاهرة أن استقرّ هناك ، تركت لي جمعيّتي حريّتي . و أوضحت لي الرئيسة الإقليميّة : " إنّك مصمّمة على الإقامة هناك ، و لن أمنعك . و لكن بما أنّك لن تقومي بمهامّ الجمعيّة ، و أنّ عملك هذا لا يتطابق تماماً مع رؤيتنا للغوث الاجتماعيّ ، فلن نستطيع مساعدتك " . و بالتالي فالأسقف هو الذي أدّى لي ، كلّ شهر ، الدولارين اللّذين كنتُ أحتاج إليهما لمعيشتي .

لم تعطني جمعيَّتي شيئاً و لم تطلب منّي شيئاً . رسميّاً ، عندما تتوفّى راهبة ، يعود كلّ ما تملك لجمعيَّتها التي باتت لها بمثابة أُسرتها . و لذلك عندما أخذت جولاتي تدرّ عليّ مالاً ، قالت لي رئيساتي : " إحذري يا إيمّانويل ؛ فالمال الذي جبيته، و الذي أودعت قسماً منه في المصارف كي تستخدم فوائده في تمويل تشغيل المدارس ، لم يُجبَ من أجلنا . و لذلك ، تدبّري أمرك ، بحيث لا نجد أنفسنا ، عند وفاتك ، إزاء مبالغ من المال لا ندري ما نفعل بها "

و قد نهضت مشكلة باتت الآن محلولة : مشكلة تقاعدي . ففي الواقع ، مذ بلغت الثمانين ، أخذت جمعيَّتي تطلب منّي العودة إلى فرنسا و الإخلاد إلى الراحة . و لكنَّني ، حتّى عام 1992 ، كنت أُمنح مهلةً أُخرى سنة ، فسنة ؛ و كانت منيتي أن أقضي أيّامي الأخيرة بين ظهراني جامعي النفايات . و لكن ، شيئاً فشيئاً ، استطاعت رئيساتي إقناعي أنّه خير لي و لجامعي النفايات و لمن تولّوا خلافتي ، على السّواء ، أن أُغادر ، بحيث يتحمّل آخرون كامل المسؤوليّة . و من ثمّ قفزت القفزة الكبرى في آب 1993 . و ما زلت أجابه بعض عواقبها ، إذ إنّني ما زلت مندفعة ، ميّالة إلى العمل . إنّ تغيير نمط العيش هذا يمثّل لي قبولاً

بمشيئة الله ، و تضحية . و لكنّ السعي لجعل هذه التضحية كاملة و عذبة في آنٍ واحد ، مهمّة مثيرة أَيضاً . و إِنّني أعلم أَنّ تحقيقها ممكن إِن لم أَستند على ذاتي ، بل على الربّ .

قد لا تفهم فتيات اليوم معنى الحياة الرهبانيّة المكرّسة ؛ و لست أَعني الراهبات المتأملات اللواتي ، بقدر ما يعرضن نمط حياة يتناقض تماماً و الحياة الحديثة ، ما زلنَ يجتذبنَ العديد من الفتيات ، أَمّا الراهبات المدعوّات " رسوليّات " أَو" عاملات " أَي النساء المكرّسات اللواتي يعملنَ بصفة ممرّضات ، أو مدرّسات ، أو مساعدات اجتماعيّات ، و لا يختلفنَ في لباسهنَّ عن الأُخريات ، و يُقمْنَ في شققٍ خاصّة ، فإِنّ فهمهنّ أَعسر منالاً . و قد صارحتني فتيات كثيرات : " ما الفرق بيني و بين راهبة تضطلع بمثل العمل الذي أَضطلع به . ربّما هي تحضر القدّاس كلّ يوم، فيما أَحضره غالباً ؛ و هي تصلّي ، و أَنا أُصلّي ؛ لها شقَّة و سيّارة ، و كذلك لي ، ومن ثمّ لست أَرى لترهُّبي من جدوى ، فأَنا ، هكذا ، على خير حال . "

قد تكون أولئك الفتيات ، ظاهريّاً ، على حقّ ؛ فالأَعمال متشابهة . و لكنّهنّ يجهلنَ أو يُغفلنَ أَنّ الكائن البشريّ لا تحدّده أَعماله فحسب ؛ بل ما يصنع كيان الإِنسان هو نمط تفكيره ، و تطلّعاته ، و تنفّسه ، و الوقوف على معنى لحياته . وأَعتقد أَنّ الفرق بين الراهبة و المرأة العلمانيّة يتمثّل في نظرتهما إِلى الحياة الخاصّة. فقد يحدو المرأة العلمانيَّة نفس المحبّة و التفاني اللذين يحدوان الراهبة في العمل ؛ و لكنّها إِن ازداد ربحها فبوسعها أَن تمتلك و تقوم بأَسفارٍ ممتعة ، و إِن هي صادفت رجلاً أَنست إِليه تزوّجت ، و هي ، في ذلك ، على صواب . أَمّا الراهبة ، فبكونها مكرّسة ، قد قرّرت تقديس حياتها كلّها ، أي إِعطاءها للّه و للآخرين ، بلا رجوع . إِنّ النذور التي أبرزتْها قد أَلزمتها أَبديّاً بحياةٍ موهوبة تقتضي منها أَلاّ تتّخذ لنفسها زوجاً ، و ألاّ تكسب من المال أَكثر ممّا يلزمها للعيش . و إِذ أُمرت لن تحجم عن المثول إِلى أَقصى الدنيا ، لأَنّها تنشد بلوغ الخير الأسمى ، تنشد المطلق . قد تعيش الراهبة نفس حياة الآخرين الرتيبة ، ولكنّها في نفس الآن ، تحيا شيئاً آخر .

لديّ انطباعٌ بأنّ البلدان غير المسيحيّة و بلدان العالم الثالث أَكثر فهماً لهويّة الرهبان و الراهبات من فرنسا . فهنا يقتضون من الراهبة أو من الكاهن قداسة تامّة . مؤخّراً قال لي أَحدهم : " يا أختاه ، لقد فقدت الإِيمان ، لأنّ الراهبة التي كانت ترافق نزهاتنا ، في السنة الدراسيَّة النهائيّة ، كانت تحتفظ لنفسها بأحسن السندويشات " . إِنّني أستغرب هذا المفهوم للإِيمان : فربّما كانت تلك الراهبة تتحلّى بصفاتٍ تفتدي شراهتها .

وما ما يدهشني هو مدى الاحترام الذي يحظى به الرهبان و الراهبات في البلدان التي زرتها رغم الملابسات التي ما زالت عالقة منذ عهد الانتداب . حيثما حللتُ قوبلتُ بالترحاب

لأَنّ القوم ، تلقائيّاً يثقون بالرهبان . إِنّ جميع الحكومات ، حتّى تلك التي تناصب الدين أَلدّ عداء ، تسعى إِلى توظيف الراهبات في مشافيها . وعندما تتجنّد الراهبات للذّود عن الفقراء ، يصبحنَ قوّة مرعبة ، كما شهد العالم عام 1968 أَثناء المظاهرة الكبرى ضدّ الرئيس الفيليبيني ماركوس ، حين جعلت راهباتٌ عاكفات على تلاوة المسبحة ، دبّابات الطاغي تتقهقر .

<u>عاشت الشيخوخة</u>

قد يستغرب البعض إِقدامي على الإِقامة في قرى الصفيح ، بعد أَن بلغت سنّ الثانية و الستّين . و الواقع أَنّني لم أَكن قادرة على فعل ذلك لو كنت ما زلت في الثانية و الأَربعين أو الثانية و الخمسين . و الأَمر يتعلّق بالمظهر الخارجيّ الذي يرتدي شأناً عظيماً ، و لا سيَّما في مصر . فالمرأة التي بلغت الثانية و الستّين تحمل ملامح امرأة عجوز ، ممّا يضفي عليها وضعاً جديداً ، و لكأنّها باتت تنتمي إِلى جنسٍ محايد . إِنّ الأُخت سارة التي خلفتني ، و التي لم تبلغ بعد الخمسين من عمرها ، يتعذّر عليها أَن تفعل كلّ ما فعلته أَنا ، عام 1971 . فهي لا تستطيع أَن تجلس وحيدةً في مقهى ، و لا تستطيع المجازفة بولوج الأَزقّة بلا حراسة ، في حين أَنّني لم أَتعرّض ، أَنا نفسي ، لأَيّة مشكلة . و منذ عام 1971 ، تمكَّنت من الاختلاف إِلى أَماكن لا يغشاها سوى الرجال . و قد أَلفو أَن يتحلّقوا من حولي ، فنحتسي الشاي ، ونتجادل ، ونضحك ، ولا بدعَ في ذلك ، فأَنا بقميصي الخارجيّ الفضفاض ، وبوشاحي ، وجواربي القصيرة ، لا أُنافس أَحداً .

حيثما شخصت ، حتّى في أوروبا و أَميركا ، حالفتني سنّي . و إِنّني لأَعتقد أَنّ المرأة المسنّة ، سواءً كانت راهبة أم لا ، و بكونها باتت خارج نطاق علاقات الغواية المأَلوفة بين الرجال و النساء ، يمكنها التصرّف بمزيدٍ من الحرّيّة . إِنّني ، بفطرتي ، أُحبُّ الضحك و العبث ، و بما أَنّني عجوز فبوسعي أَن أَقول لرجل ما أَقوله لامرأة ... و بما أَنّني تكلّمت ، فترة طويلة ، اللغة العربيّة التي ينادي فيها المخاطب بصيغة المفرد لا بصيغة الجمع ، فقد بتّ أَميل إِلى استخدام صيغة المفرد لمخاطبة شخصيّات قابلتها مرَّة أو مرَّتين فقط ، مثل جاك ديلور أو جاك شيراك ، فأَتناول الهاتف و أَقول : " كيف حالك ، جاك ؟ " و بما أَنَّني عجوز ، يبدو الأمر طبيعيّاً .

في واقع الأَمر ، أَنا سعيدة بما بلغته من عمر ، فقد اخترت الحياة الرهبانيَّة هرباً من علاقات الغواية ، التي كانت تجتذبني ، من جرّاء طبعي المندفع . و الآن ، و قد تحرَّرت ، غدا بوسعي أَن أَعقد مع الرجال علاقات ذات غنىً لا يُصدَّق . فالشيخوخة تضفي على العلاقة بين الرجال و النساء لوناً مختلفاً ، فكونها غير مرتكزة على الغواية ، تتيح بلوغ مستوى يتخطّى المادّة و الجسد و ينفذ إِلى مستوى الذهن . و إِنّ كلّ صداقة على شيءٍ من العمق ، مع رجل أو امرأة ، هي نبع إِثراء متبادل ، غير أَنّني لم أَستطع عقد مثل هذه الصداقات مع الرجال ، إِلاّ بعد أَن طعنت في السنّ .

إِنَّني أَصف نفسي بالعجوز ، بيد أَنّني لا أَشعر أَنّني هرمت ، فما زلت أَشعر أَنّني ما زلت مثلما كنت في الأَربعين أو الخمسين أو الستّين أو السبعين . صحيح أَنّ مشيتي أَمست أَبطأ ممّا كانت سابقاً ، و لكنّ الشيخوخة ليست عائقاً . بل ، على نقيض ذلك ، أَشعر أَنّها قد

أَغنتني ، إِذ إِنّني اليوم ، و أَنا في السادسة و الثمانين – قد اكتسبت ما كان ينقصني و أَنا في الخامسة و السبعين ، أو في الثمانين . لقد أغتنيت بكلّ خبرة خبرتُها ، و بكلّ مكان مررت به ، فاستنبول وفّرت لي النضوج ، و تونس وفّرت لي القدرة على مواجهة المصاعب ، و جامعو النفايات أَتاحوا لي اكتشاف الإِنسان المجرّد من كلّ قناع . أو بعبارة أَدقّ ، من تجربة إِلى أُخرى ، و من علاقة إِلى أُخرى ، و من جوهر إِلى آخر ، كنت أَشعر أَنّني ، في آنٍ واحد ، أَشدّ فقراً وأوفر غنىً . أَشدّ فقراً لأَنّني كنت أَستخلص أَنّ معارفي ، و فكري ، و رؤيتي للعالم، كانت ترتدي طابعاً سطحيّاً ، و مصطنعاً لا بدّ من سقوطه ، و لقد سقط ، على نحو ما تتجرّد الحيّة من جلدها .

و لقد أمسى كلّ شيءٍ أَبسط ، و أَنقى ، فبقدر ما يقترب الإِنسان من اللّه ، يقترب من البشر ، و من ثمّ يصبح أَبسط . من قبل كان كلّ شيء يفتتنني : الأَفكار والنقاشات و النظريّات . و كنت أَلتهم الكتب التي أدوّن ملخّصات عنها في دفاتر مختلفة الأَلوان : فدفتر أَخضر للقضايا اللاهوتيَّة ، و دفتر أَحمر للمواضيع الأَدبيَّة ، وهكذا . و لكنَّني عندما مضيت كي أَستقرّ عند جامعي النفايات ، قذفت بكلّ ذلك في موقد ديرنا في الإِسكندريَّة بلا أَدنى ندم ، من غير أَن يمنع ذلك فكري من متابعة العمل طويلاً ، كما في السابق .

و الآن و قد ولجت نهائيّاً في رحاب الشيخوخة ، لم أَحتفظ من كلّ ما عهدته من نقاش فكريّ ، و من كلّ ما انتابني من قلق سوى هاتين العبارتين الموجزتين : "أَصبح اللّه بشراً " ، و " الإِنسان أَخي " . أَعتقد أَنّه على المرء أَن يبلغ الثمانين من العمر كي ينعم بهذا التجرّد . و على أَيَّة حال ، أَنا شخصيّاً لم أَتمكَّن منه قبل ذلك .

إِنّ الشيخوخة مثيرة لأَنّها اكتسبت خبرة عن الإِنسان ، عن قلبه ، و حدوده ، و مواطن عجزه ، و منجزاتنا ، و الاستحالات الجسديّة ، و الفكريّة ، و الروحيّة الخفيّة التي يحملها كلّ فرد في ثنايا ذاته . تلك هي خبرات الشيخوخة .

إِنّني أَجد في حياة كلّ إِنسان قسطاً من الفشل ، فشل في كلّ ما رغب في تحقيقه و أَخفق فيه . كما أَنّ هناك قسطاً من الانتصارات المدهشة التي تجعل الفشل يتوارى تحت ستار الإِنجازات ، يتوارى و لكنّه يظلّ كميناً . و يتبيَّن المرء أَنّه عجز عن التغلّب على جميع عوائق طباعه الخاصّة ، و بيئته ، و سائر البشر ... و هذا يُكسبه نظرة على الآخر مفعمة بالتسامح . و هذا ما يتيح لي زيارة الموقوفين في السجون ، فهم يُدركون فوراً نظرتي لأَنّها نظرة من يفهمهم . هؤلاء القوم ، في اعتبار جميع الظروف ، هم فشل ؛ إِنّهم يمثّلون جزءاً منّي : كلّ ما لم أَستطع تحقيقه في حياتي ... و يعتريني الانطباع بأَنّنا متشابهون ، و بمثابة إِخوة . أَظنّ أَنّ الشيخوخة ضروريّة لبلوغ هذا الوضع .

مع شعوري بحيويّة الشباب لم يكن من السهل عليّ أن أتقاعد في مأوى تائه في الريف لم أكن ، قطّ ، لأغشاه من تلقاء نفسي . فقد كنت أُحسّ أنّني ما زلت مفيدة، فضلاً عن كوني أَتألّم من تنعّمي بالرفاه ، و الماء و الكهرباء ، و بطبيب بمتناول يدي، في حين أَنّ إِخوتي و أَخواتي في قرى الصفيح ما برحوا يعانون من الحرمان .

أَمّا الآن و قد قفزت إِلى الجانب الآخر من الحاجز ، فقد بات بوسعي أَن أَعيش شيخوختي و لكأنّها تجلٍّ ، و اكتمال . من قبل كان يجتذبني العمل ، أَمّا الآن فأدع الصمت و السكينة يجتذباني .

سحابة حياتي ناضلت و قد شدّني إِلى الحياة هوى لا يقاوم . حتّى مشيتي كانت حثيثة ، بحيث أَنّ الشبّان الذين كانوا يسيرون في إِثري كانوا يقولون : " إِنّك تركضين ، يا أُختاه ! و من الصعب علينا أَن نلحق بك " . و كنت أُجيب : " علينا الإِسراع ، يا أَصدقائي ، فكثيرة هي المهامّ التي يتعيَّن علينا إِنجازها " . أَمّا الآن ، فما عدت بحاجةٍ إِلى الركض ، مع أَنّ المعركة مستمرّة و إِنّما هي انتقلت، فحسب ، من المجال الماديّ إِلى المجال الروحيّ . ذلكم هو تجلّي الشيخوخة ، و إِنّي لأَجده رائعاً .

فضلاً عن أَنّ العيش مع أَخوات مسنّات قد غمرني دائماً بالغبطة . عندما كنّا ما زلنا نسكن ، خمسين أو ستّين نفراً ، في أَديرتنا الكبيرة ، كان ثمَّة جناح يؤي الأخوات المسنّات و العليلات . و كان كلّ الدير يعبق بعذوبة ورقّة أولئك النسوة ، اللواتي بعد أَن كافَحنَ ، وبعد أَن كنّ ربَّما، أَحياناً، مزعجات ، قد انتهينَ إِلى سلام كامل . و كنّ يقلنَ لنا : " إِنّنا نصلّي لأَجلكنَّ . ليست الحياة سهلة ، و قد خبرناها " . و قد أَسدت لي بعض أولئك الراهبات المسنّات مساعدة جليلة .

أَمّا اليوم فراهبات جمعيَّتي اللواتي توقّفن عن النشاط ، موزّعات في بيوت تقاعد مثل هذا الذي أُقيم فيه منذ عام 1993 حيث ، بسرورٍ بالغ ، التقيت عدَّة أَخوات كنت قد عرفتهنَّ في تركيّا أو في مصر أَو في تونس ، و لا سيَّما أولئك اللواتي أَلِفتُ التشاجر معنّ ، فنستذكر معاً فصول رعونتنا ، و نُغرق في الضحك . ثمّة اللواتي لا يقويْنَ على السير ، و اللتين فقدن البصر ، فنسعى إِلى مساعدة بعضنا بعضاً ؛ فجميعهنَ ، على سبيل الشاهد ، يحرصنَ على أَن يأتينني بجوارب ، كما لو أَنّني أَنا القادمة من مصر ، أَموت برداً .

و قد لاحظت أَنّ الأَخوات اللواتي كان عليهنّ، أَثناء حياتهنّ، مصارعة طبعٍ عسير يعرفنَ ، بنحوٍ خاصّ، شيخوخة تحاكي غياب شمس جميلاً ، ممّا يدهش الممرّضات ، فاللواتي كنّ ،سابقاً، يجعلنَ من أَمرٍ تافه مأساة ، قد بتنَ الأَيسر معالجة. يقال : " تقع الشجرة في

الجانب الذي تميل إِليه " ، فالإنسان يعدّ ، عمره كلّه ، لشيخوخته ، و فيما يخصّني أَنا ، الأُخت إِيمّانويل ، الشيخوخة هي العمر الأَجمل .

و لكن ليس الأَمر كذلك لجميع النساء المسنّات ، فإِنّي أَتلقّى أَحياناً رسائل تهزّني ، مثل هذه الرسالة من جدّة في الخامسة و الستّين ، تصغرني بسنوات عديدة ، والتي خلّفت فيّ أَثراً بليغاً ، فقد جاء في تلك الرسالة : " أُختاه ، لقد ربيّت خمسة أَبناء، و أَنا اليوم وحيدة ، فما عاد أَبنائي يعيروني أَيّ اهتمام ، و أَنا أَموت من الوحدة" . " أَموت من الوحدة " . يا لها من عبارة مريعة ! رسائل كثيرة تقول نفس الشيء ، و لكن ببلاغة أَقلّ . إِنّه الموت الاجتماعيّ ، الموت العاطفيّ . فأَولاد الأُسر يتناقصون ، و النساء يعملنَ ، و الشقَق من الصغر بحيث لا تتّسع للجدّين ... و حينئذٍ يلجأ بعض المسنّين إِلى دور خاصّة بهم ، و قد زرت بعضها فوجدتها محزنة حزناً مريعاً ، و رأيت قوماً منهم يستسلمون استسلاماً تامّاً لأَنّه لم يبقَ لهم أَيّ قريب يوفّر لهم سبباً للتغلّب على بؤسهم .

أَمّا هنا ، فالحال تختلف ؛ فالراهبات ، و هنَّ يمثّلن أَكثريّة النزيلات ، يلتقين وكأَنّهنّ أَعضاء أُسرة واحدة . و حتّى " السيّدات " غير الراهبات يؤكّدن سعادتهنّ بالجوّ الدافئ الذي يسود في هذا المكان .

إِنّني أَظنُّ أَنّ الكثيرين من المسنّين ، اليوم ، يعانون من موت بطيء ، وتسهم حضارتنا في هذا الانحطاط ، لأَنّه لم يعد بالإِمكان الاحتفاظ بالجدّين في المنزل . إِنّ وجود جدّة في مقعدها ، و في حضنها طفل ، و لو كان ذهنها مصاباً ببعض ذبول ، تطلق من عينيها شعاعاً يدفئ جوّ الأسرة و يدفئها هي نفسها . إِنّني ما زلت أَذكر كيف كانت جدّتنا تحنو علينا ، و كم كنّا نحنو عليها ، و لو هي قضت سنواتها الأَخيرة في ملجأ للمسنّين ، لافتقدنا جميعنا الكثير .

و لكن ليس هناك مآسٍ فحسب . فإِنّني أَتلقّى رسائل مدهشة من أُناس التقوا اللّه من جديد في شيخوختهم ، و استهلّوا معه علاقةً في منتهى البساطة تغمرهم بالرضى . و هناك رسائل أُخرى تقول : " لو تدرين ، يا أُختاه ، كم أَنا محاطة بالعناية " . و أَعتقد أَنهنَّ نساء لم يُراهنّ فقط على جمالهنّ ، و جاذبهنّ الماديّ ، بل راهنّ على ذكائهنّ ، و إِحساسهنّ ؛ و من لم يعرف هذا النمط من الجدّات ، و النساء المسنّات اللواتي يتمتّعنَ بإِشعاع عظيم ؟ و من لم يعرف شبّاناً يجدون من التفاهم لدى جدّيهم أَكثر ممّا يجدون لدى والديهم ؟ إِنّ للشيخوخة غنى حكمة يجتذب الشباب .

في صغري ، كنت أَذهب ، باطّراد ، كي أُقدّم باقات بنفسج لامرأة روسيّة بيضاء مسنّة ، كانت تسكن على خطوات من منزلنا في بروكسيل . و قد قام بيننا تيّار تواطؤ و فرح

وفّر لي الكثير من الخير . و لذلك غالباً ما أَقول ، في محاضراتي، للشباب : " هل تودّون المضيّ إِلى أَقاصي الدنيا ؟ حسن . و لكن ، بانتظار ذلك ، ابدؤوا بزيارة جدّتكم ، أَو صديقة أمّكم العجوز ، و سترون أَنّ في ذلك خيراً لكليكما."

أَنا لا أَخشى شيئاً ، لا عجز الشيخوخة و لا الموت ، لأَنّني محبوبة ... والحبّ أَقوى من الموت ، و أَقوى من الشيخوخة ، و الخطيئة ، و من جهنّم ، و من البؤس . الحبّ يقتل جميع المشاكل في برعمها . و الحبّ متحرّر من المشاكل . قد أَخرف ، يوماً ، و لكن أَعلم أَنّ الحبّ سيستمرّ . هو ، اللّه ، بأَيَّة حال سيحبّني دائماً ، و حبّه يغمرنا .

الصلاة في مواجهة اليأس : " الأخت الجامعة "

إِنّ في الرجوع إِلى قارّة بعد ستّين سنة من مغادرتها خبرة فريدة . كنت قد هجرت أوروبا عام 1931 ، و لم أَعد إِليها إلاّ نادراً . حينئذٍ ، كان لكلّ فرد مكانه في المجتمع الأوروبي .

لا ريب أَنّ حياة العمّال كانت شاقّة ، و لكنّهم ما كانوا ينفقون جوعاً . و كان كلّ رجل راغب في العمل يجد عملاً ... كنت هجرت أوروبا " طبيعيّة " ، و في حين كنت أَناضل في سبيل العدل في العالم الثالث كنت أَتخيّل أَنّ أوروبا قارّة غنيّة .

و إذا بي ، بعد ستّين سنة ، أَفتح عينيّ على مجتمع منهار انهياراً تامّاً، مجتمع تاه دليله ، و بات العثور على عمل فيه مشكلة تثبّط عزائم الشباب الذين أمست فئة منهم لا ترى جدوى من الدراسة التي لا تضمن فتح أَبواب العمل .

و قد صُدِمت لرؤية " عالم رابع " في فرنسا ، أُسراً تعيش في مقطورات وسط الحقول بلا ماء و لا كهرباء . كم كنت بعيدة عن الشكّ بأَنّ في بلد غنيّ ثمَّة كلّ هذا القدر من المشاكل الإِجتماعيّة التي لم تلقَ حلاً . و في كلّ مناسبة كنت أَسأل المسؤولين المحلّيّين عمّا يفعلون حيال ذلك ، فأحصل ، أَحياناً ، على أَجوبة إِيجابيّة تسفر عن محاولات إِيجاد حلول ملموسة ، و أَحياناً لم أَظفر إلاّ بكلام منمّق ، و ما أَكثره ، و ما أَقلّ جدواه !

الأمر الآخر الذي صدمني – و الذي طالما أَشرت إِليه في محاضراتي – هو الكآبة المهيمنة على الفرنسيّين . كنت قادمة من قرية الصفيح حيث رغم القذارة والمشاكل المتراكمة ، يسود فرح العيش ، وولجت باريس ، فلم أُصدّق ما رأيت : كلّ راكبٍ في المترو منزوٍ في زاويته لا يجرؤ على التطلّع إِلى وجه جاره ، و قد غشى الوجوهَ الوجوم . و تساءلت ما الذي يجعل جامع القمامة المعدم الذي يعيش في كوخ بلا ماء، و لا كهرباء ، و لا أَدنى رفاه ، يبدو أَوفر سعادة من أوروبيّ يملك كلّ شيء؟

أَلأنّه لا يشاهد كلّ يوم بذخ الآخرين ؟ أ لكونه في مأمن من غوايات واجهات المحلاّت ، و دعاوات التيليفزيون ، و اللافتات ، و متع المجتمع الإِستهلاكيّ ؟ ما الذي يحتاج إِليه المرء ، في الواقع ، لكي يكون سعيداً ؟ لست أَدري ، و لكنَّني أَتبيَّن أَنّ المرء بقدر ما تتضاءل ممتلكاته تغتني حياته . و إِنّني راسخة الإِيمان بهذا الواقع.

المفاجأة الثالثة التي صدمتني ، لدى وصولي إِلى أوروبا تكمن في استشراء البؤس النفسيّ .

عقب كلّ محاضراتي في فرنسا ، و بلجيكا ، و سويسرا ، و أَلمانيا ، والنمسا، كانت لي أَحاديث متستفيضة مع مختلف أَنماط القوم ، و لكم دهشت من مواجهتي عالماً غير راضٍ ، غارقاً في بلبالٍ تامّ .

فهؤلاء الناس الذين يمتلكون ، ظاهريّاً ، " كلّ ما يلزمهم ليكونوا سعداء" يتحدّثون عن محاولات انتحار ؛ و آخرون لم يواجهوا مشكلةً قطّ ، في حياتهم ، يلتهمهم القلق لأنَّ أَبناءهم يتعاطون المخدّرات . و شهدت قوماً محبطين ، و قوماً يائسين ما عادوا يجدون لحياتهم معنى ، و إِنّني أَتلقّى العديد من الرسائل بهذا المعنى.

و غالباً ما يضيف مراسليّ : " إنّني أخجل من التأكيد على محنتي في حين تنتشر المآسي في البوسنة ، و السودان ، و الصومال " . إنّهم يعون مدى الهوّة بينهم و بين أولئك البؤساء ؛ و لكن ، في تلك الأثناء ، تعاستهم قائمة ، حقيقيّة .

غير أنّ ، ثمَّة ، بقعة ضوء مشرقة ؛ هناك الشبيبة التي أُحبُّها ، فمعظم الشبّان الذين قابلتهم هم ، بما لا يقاس ، أكثر انفتاحاً ، و إخاءً ، و تضامناً مع الفقراء ممّا كنّا في عهدنا . ففي الثلاثينات لم يكن أحد من أبناء الطبقات البورجوازيّة يهتمّ لا بالفقراء و لا بالعالم الثالث ... أمّا اليوم ، فيحمل الشبّان أمتعتهم على ظهورهم وينطلقون إلى زوايا العالم الأربع ، لا يخشون شيئاً ، ولا يتحرّجون من مصادقة أوّل شخص يلتقونه . و لقد شهدتهم في ورشات منظّمتنا ، و مليسة الإسمنت في أيديهم ، يعملون طيلة أسابيع ثلاثة ، تحت شمس من رصاص ، و يعبثون مع أطفال قذرين يجهلون لغتهم ؛ إنّهم لرائعون . و الفتيات أكثر انفتاحاً من الشبّان ! لقد أدرك هؤلاء الشباب أمراً يبدو لي جوهريّاً ، و هو أنّ المرء كي يصبح إنساناً حقّاً ، يتعيّن عليه أن يخرج من عشيرته و طبقته الاجتماعيَّة . ليس عليه بالضرورة أن يمضي خارج حدود بلاده – فعليه أوّلاً أن يكنّس أمام باب بيته – و لكن لا بدّ له من الخروج من بيئته الثقافيّة . فمعظم الناس مسجونون ضمن إطار مجتمعهم يطالعون الصحف عينها، و يشاهدون قناة التيليفزيون عينها ، و يعاشرون نفس الرفاق ، بحيث يضعون على عيونهم كمّامات – إنّني عليمةٌ بما أتحدَّث عنه ، فأنا نفسي كانت تعميني كمّامات كثيفة من مختلف الأنواع ، و قد حطّمتها ، الواحدة تلو الأُخرى، الحياة التي خضتها – . و لكن لزمتني سنوات كي أنتهي إلى انفتاح الذهن هذا ، ، في حين أنّ شبّان اليوم يؤمّون ورشاتنا مزوّدين بفهم لقيمة الإنسان الحقيقيّة أفضل من تلك التي كانت لديّ و أنا في مثل سنّهم .

إنَّ المشكلة الحقيقيّة ، في نظري ، هي استمرار الامتيازات ... و إنّني أرى أنّ على جميع الشبّان و لا سيّما على الإكليريكيّين منهم ، أن يعيشوا لا أقلّ من ستّة أشهر في أدغال العالم الثالث ، أو في مقطورة تقيم فيها أُسرة ممَّن لا مسكن ثابت لهم. عندما أُخاطب إنساناً ما ، أتبيّن هل سبق له مغادرة موطنه الصغير . و على أيَّة حال ، أتبيَّن أنَّ الامتيازات لا تؤتي السعادة . و غالباً ما يبدو لي أنّ الذين يشرحون لي ، عبر رسائلهم ، ما يعانونه من محن ، هم سجينو قوقعتهم ، منكمشون على أنفسهم ، و تتولاّني الرغبة في أن أجأر ، في وجوههم : " أوَلم تدركوا أنّ سعادتكم منوطة بكم ؟ لا بزوجتكم ، و لا بظروف حياتكم ، و لا براتبكم ، بل بأنفسكم ، بنظرتكم ، بطريقة إنصاتكم إلى الآخرين ، و إلى قلبكم . "

و لطالما وقفت عاجزة حيال هذا النمط من القلق النفسيّ . فقد اكتشفت أنّه ، بفضل كرم البشر ، أهون إطعام سبعة آلاف طفل سودانيّ ، من الحؤول دون انتحار شابّ يائس . و

أظنّ أَنَّ أكثر الأمّهات حبّاً ، و أَكثر الزوجات هياماً عاجزات حيال ابن أو زوج فقدا مبرّرات العيش . إِنّه لأمر مريع . إِنّ عالمنا من الجيشان بحيث يعلق الكثيرون في ما يشبه الرمال المتحرّكة . و غالباً ما يفتقر الناس إِلى الاهتمام بالآخرين ، و التطلّع إِليهم ، و الإنصات إِليهم ، ممّا يجعل المشاكل التي علقوا بها تبدو جسيمة ....

إِنّ من يسكنه الحبّ لا يعرف التعاسة . إِنّني أَدعو عادة الناس إِلى رصد ما حولهم ، فلعلّ ، ثمّة ، من يستطيعون غوثه . و قد شهدت انقلابات مذهلة . فقد عرفت امرأة كانت ، ستَّة أَشهر بعد وفاة أَحد أَبنائها ، غارقة في انهيار نفسيّ مريع . و قد اتّصلت بي ، بعد بضعة أَشهر و قالت : " لقد تحوّلت حياتي تحوّلاً كاملاً . فقد دأبت على زيارة المشافي ، و بتّ أَتبيَّن الآن كم كنت أَعيش فقط لنفسي ، و أَبنائي ، وزوجي ، و سعادتي الصغيرة " . و ثمّة رجل آخر ، بعد أَن تغلّب على فكرة إِنهاء حياته ، استعاد طعم الحياة بفضل إِكبابه على خدمة أَقربائه .

كلّ الرسائل التي ترد لي ، و لقاآتي مع الأوروبيّين ، بعد أَن فتحت عينيّ على بؤس أَبناء جيلنا الروحيّ و الأَخلاقيّ ، جعلتني أُدرك أَنّ حياتي في قرية الصفيح حيث كنت أَكتفي بتوفير الخبز و التعليم ، كانت تفتقر إِلى أُفق . و ذات يوم ، بعد أَن تلقّيت واحدة من الرسائل التي لا تحصى ، حيث يقول صاحبها : " يا أُختاه ، إِنّني أَتناول الآن الجرعة المفرطة الرابعة ، و سأَموت ، صلّي من أَجلي" . اتّضح لي أَن لا قِبَل لي ، حيال ذلك ، على فعل أَيَّ شيء سوى الصلاة . و لذلك وافقت على الاعتكاف في دار التقاعد التي أَعيش فيها اليوم ، كي أصبح " أختاً جامعة " ، وأَنقطع للصلاة ...

إِنّ النضال الذي أَخوضه الآن لا يتطلّب منّي السعي و الحركة ، بل نقيض ذلك . ففي المصلّى حيث أمكث مستغرقة في الصمت ، أَدع مآسي العالم ، و آلام مراسليّ تتسلّل إِلى قلبي مع علمي أَنّ صلاتي قد لا تعيد الزوج العابث إِلى رشده؛ وأَتوجّه غالباً إِلى السيّدة العذراء التي لا تعرف اليأس . فقد تساعد صلاتي مراسلتي على مواجهة الواقع و إِيجاد معنى لحياتها . فحتّى أَدهى المحن قادرة على تعليمنا أَن نصبح رجالاً و نساء على نحوٍ أَمثل . وإِنّني لأَعتقد أَنّني مذ بارحت القاهرة ، بتّ أَعيش أوثق قرباً من الإِنسانيَّة .

غضب و فرح

منذ طراوة عودي عشت في فرح . و حتّى أَثناء أَقسى سنواتي ، عندما أوشكت على هجر جمعيَّتي احتفظت بتفاؤلي . و الآن و أَنا في بيت التقاعد ، يمرّ هذا الفرح ، ربّما أَكثر من السابق ، عبر دقائق الحياة الصغيرة : مثل كتاب أُعاره ، أَوباقة ورد تقدّم لراهبة مريضة ، أو كلمة رقيقة . و إِنّها لرائعة القدرة على تنقية الأَفراح اليوميَّة الصغيرة .

فضلاً عن ذلك ، أُحبُّ المعارضة ، و تمثّل المعركة لي معين فرح ؛ و العمل هو الذي يساعدني على العيش .

ثمَّة قولٌ لمارك أوريليوس يحتلّ من نفسي مكاناً أَثيراً ، و قد حوّلته إِلى صلاة : " أَعطني ، يا ربّ ، الجرأة على تغيير ما ينبغي تغييره ، و السكينة لقبول ما لا يمكن تغييره ، و الحكمة للتمييز بين هذا و ذاك .. " . إِنّها صلاة أَحتاج إِليها حقّاً ، إِذ إِنّني غالباً أَستبق

الأمور ، و أفتقر إلى قدرٍ كافٍ من الصبر . طيلة حياتي أعلنت سُخطي على الظلم و لكنَّني أعلم أنّني ، بسبب سورات غضبي ، كنت أحياناً أحصل على نقيض ما أستهدفته .

و إنّني أذكر ، على نحوٍ خاصّ ، حدثاً ما زلت أُنحي على نفسي باللائمة بسببه . كان ذلك صباح أحد ، في مكانٍ ما من فرنسا . و كان قد طُلب منّي إلقاء عظة ، و الشهادة لخبرتي مع جامعي النفايات . و بغتةً ، عندما رأيت أمامي كلّ أولئك القوم الأنيقي الهندام ، قفزت إلى ذاكرتي عبارة لجوستاف فلوبير في معرض حديثه عن خادمة كانت قد عنيت خير عناية بمستخدمها طيلة خمسين عاماً ، إذ قال : " إزاء هؤلاء البورجوازيّين المزدهرين،هذا نصف القرن من العبوديّة " . و قد أخذت منّي تلك الفكرة كلّ مأخذ فشرعت أجأر . و قلت : " حسن جدّاً . أنتم مسيحيّون جيّدون ، تحضرون القدّاس ، وتصلّون، و تتأهّبون للتبرّع ببضعة فلوس ، أو ربَّما أكثر قليلاً ، لجامعي النفايات . ثمّ تعودون إلى بيوتكم حيث تملكون كلّ ما يلزمكم ، – و بعضكم يعيشون في بذخ فاضح – وسيكون ضميركم مرتاحاً . أمسيحيّون أنتم أم لا ؟ و ماذا عن كلّ الذين يعانون ، وجميع الذين يموتون ؟ والأولاد الذين ينفقون جوعاً في السودان ؟ هل يعنيكم أمرهم؟ كلاّ ، إنّهم لا يجولون أبداً ببالكم ... إنَّ كلاًّ منكم ، بلا ريب ، رجل مستقيم لا يخدع زوجته ، أو امرأة شريفة لا تخدع زوجها ، و هكذا تستحقّون،جميعكم ، الفردوس ، في نهاية أيّامكم ، ألستم كاثوليكيّين جيّدين ؟ وماذ بعد ؟ " و اتّضح لي أنّ أولئك الناس ذُهِلوا تماماً . أولئك القوم الطيّبون كانوا قد جاؤوا كي يستمعوا إلى الأُخت إيمّانويل تحدّثهم عن صغار جامعي النفايات ، و كانوا متأهّبين للتبرّع ، أقلّه بورقة مئة فرنك ، و إذا بها تطفق تشتمهم و تمعن في الشتيمة. وبقدر ما كنت أقول لنفسي : " كفى ، يا إيمّانويل ، تحدّثي في أمرٍ آخر ؛ و بأيّ حقّ تلصقين بهم كلّ هذه الإتّهامات ؟ " كنت أمضي قدماً في الزعيق . و في أعقاب الغداء في الرعيّة ، قلت : " إغفروا لي ، فقد تماديت كثيراً " . إلاّ أنّ خوري الرعيَّة اكتفى بالإجابة : " ليس هذا بالأمر الخطير ، بل قد يفيدهم ! "

و غالباً ما صببت جام غضبي على الرحلات المنظّمة إلى العالم الثالث ، وبخاصّة على رحلات الحجّ التي كانت ، في رأيي ، تمرّ أحياناً بجانب وقائع البلاد ولا تراها . مثال ذلك رحلة نظّمتها مجلّة " المعلومات الكاثوليكيَّة العالميَّة " إلى مصر، في الثمانينات . و قد زاروني في قرية الصفيح ، و في نهاية إقامتهم قلت لهم: " هل فهمتم شيئاً من واقع هذا البلد ؟ و هل دفعكم ذلك إلى إعادة النظر في شأن حياتكم ؟ لقد شهدتم قوماً يعيشون في فاقة قصوى . هذا إن تيسّر لكم أن تشاهدوهم، ففي الفنادق الفاخرة التي تحلّون فيها ، لا يوجد الكثيرون منهم . و هل تبيَّنتم أنَّه يوجد ملايين الناس ، على غرارهم ، طعامهم اليوميّ قوامه الفول و لا شيء سواه ؟

"إنّني أقول لكم أنّه لا يحقّ لكم إنفاق كلّ هذا المال في سبيل رحلة جميلة ، ثمّ تعودون كما جئتم . لا يحق لأحد اليوم أن يعيش و هو جاثم بسكينة فوق ثروته ، وهو يتبرّع بورقة ماليَّة هنا ، و بأخرى هناك . بل واجب كلّ فرد أن يسائل نفسه : "ما يسعني أن أفعل ، أنا ، هنا ، حيث أنا ، من أجل العالم الثالث و العالم الرابع ، ومن أجل تخفيف هذا البؤس المريع ؟ قولوا كلمتكم ، بما أنّكم تعيشون في ديمقراطيّة.

"إنّ حجّاجاً يغشون بلداً ثلاثة أرباع سكّانه لا يشبعون ، لا يقومون بحجٍّ حقّ إن هم لم يسعوا إلى ابتكار وسيلة لمساعدتهم . من شاء التقرّب من الفقراء عليه أن يرتضي بالرقاد في سرير قد تكون أغطيته لم تغيَّر حتماً قبل قدومه .

"تقولون أنّ الكنيسة بعيدة جدّاً عن الفقراء أي أولئك الذين يؤثرهم يسوع ؛ ولكن أنتم ماذا تفعلون لكي تغيّروا هذا الوضع ؟ أنتم أيّها الصغار ، كيف تنفقون مصروفكم الخاصّ ؟ أتنفقونه بأجمعه على ذواتكم ؟ هذا لا يحقّ لكم ؛ فالحيوانات المفترسة هي التي تلتهم وحدها كلّ فريستها ، لا البشر . في قرية الصفيح التي أسكنها ، حتّى طفل في الثالثة يقتسم لوح الشوكولاته الذي يمتلكه . إنّني أريد أن أجأر، فما عدت أطيق هذا التفاوت . أودّ أن أكون صوت العدل ، علامَ تبخس الدول المحظيَّة أثمان الموادّ الأوليّة التي تنتجها دول العالم الثالث ؟ إنّ ذلك عارٌ . تسألونني ما يسعكم فعله كي تساعدوني ؟ ساعدوا أوّلاً الأقربين منكم ، في بيتكم ، في مبناكم ، في حيّكم ، في مدينتكم . ثمّ علّقوا فوق سريركم ، إلى جانب رسوم النجوم التي تؤثرونها ، صورة ولد يتألّم ، فقد يدفعكم ذلك إلى إعمال الفكر . "

عن هذه الثورة ، أيضاً ، قدّمت اعتذاري العلنيّ ، و لم أكن نادمة على جوهر ما قلت ، بل على الأسلوب الذي قلته به . فقد كان بوسعي أن أقول الشيء عينه ، بمزيد من الرقّة .

و لطالما انتقدت بعض مظاهر حياة الكنيسة التي كان تبدو لي وضيعة . مثال ذلك يوم عاقب الفاتيكان الأب هنري دي لوباك عام 1950 ، فقد أثار ذلك سخطي ، لأنّ ذلك الكاهن كان رجلاً منفتحاً و ذكيّاً و قد جاء بنسمة هواء منعش . و فيما بعد ، كتب هذا اللاهوتي اليسوعيّ نفسه كتاباً كان لي ذا فائدة جليلة ، إذ أتاح لي المصالحة مع الكنيسة . ففي هذا الكتاب ، و عنوانه " تأمّلات حول الكنيسة " يحلّل الأب دي لوباك كلّ علم الكنيسة منذ المسيحيّين الأوائل ، حتّى الحقبة الراهنة ، و هو يُظهر ، من جهة أن الكنيسة مؤلّفة من بشر لهم حدودهم و أوهانهم ، و من جهة أُخرى يبيّن كيف يستمرّ الروح القدس في تحقيق المعجزات عبرنا نحن البشر المساكين . في رؤيته يتغلّب الإيجابيّ تغلّباً واضحاً على السلبيّ . وقد بتّ ، اليوم ، أُدرك أنّ الكنيسة، على غرار سفينة ، تتقدّم بفضل كبواتها .

و كما كانت الحال في ما يتعلّق بالكنيسة ، كذلك في ما يتعلّق بالبورجوازيّين الذين طالما هاجمت ضيق أُفقهم ؛ و قد احتجت إلى سنوات كي أرى لهم جانباً آخر . ففي طبقة البورجوازيّين فئة ممن يحقّقون إنجازات رائعة ، و إنّني أعرف بعضاً منهم.

أمّا الكنيسة فمنذ أمدٍ طويل كان كاهن قد قال لي : " إنّ الممارسة الدينيّة تضاءلت في أيّامنا و أعداد الكهنة و الراهبات و الرهبان تتناقص ؛ و مع كلّ ذلك ، يا أُختاه ، أعتقد أنّ القرن العشرين هو أكثر إنجيليّة من جميع القرون التي سبقت."هذا الرأي يبدو لي صحيحياً .

إنّنا نعيش في حقبة أوفر تضامناً ، بما لا يُقاس ، من تلك التي عهدتها . و قد تلاشت ظواهر كثيرة كانت تثير غضبي ، في إطار جمعيّتي ، مثل أسلوب بعض الرئيسات السلطويّ ، و التأكيد المفرط على النظام ، و حظر مطالعة الصحف ، والتمييز الذي كان قد استفزّ سخطي ، بين " أخوات الجوقة " ، المضطلعات بأعمال فكريّة ، و " الأخوات العاملات " المكلّفات بالأعمال اليدويّة . إنّ الانفتاح الذي نعيشه، والذي بدأ في الخمسينات ، و أحياناً قبل ذلك ، و الذي ترسّخ و ارتدى طابعاً قانونيّاً بفضل المجمع الفاتيكاني الثاني ، يتيح لي حكماً أوفر هدوءاً . مع تقدّم العمر ، أصبحت أكثر تسامحاً . و كوني لم أفلح ، أنا نفسي ، في تحقيق حلم صباي في أن أصبح قدّيسة تُرسَم صورتها على زجاج كنيسة ، جعلني أُدرك أنّه لا يحقّ لي مطالبة إخوتي و أخواتي بالقداسة . و قد غدت الرؤية الإجماليَّة أكثر إنسانيَّة من قبل ... كلّ شيء قد تغيّر إلى الأفضل .

و مع أنّني لم أختر بنفسي الاختلاء ، و مع استعدادي ، حتّى اليوم ، إن ما أُمرت ، لاستقلال الطائرة إلى القاهرة بفرح ، غير أنّني أعتقد أنّه من الخير لي أن أُنهي أيّامي في الصمت... و ليست خلوتي لبضعة أيّام ، بل هي في سبيل عيشي ، بعد الآن ، في عالم آخر ، لا يقلّ إثارة عن ذاك الذي كنت فيه أجري و أسعى .

نفس حميّا الحياة ما انفكّت تحدوني ، و لكنّها حميّا هادئة ، نوعاً ما ، وغايتها المضيّ إلى الأعماق . و أظنّ أنّ بلوغ جوهر الكائن – سواء كان الله أو البشر ، الحياة أو الموت – يقتضي السكون و الصمت . إنّني ، منذ عودتي إلى فرنسا ، أُنفق ثلاث ساعات كلّ يوم في الصلاة . و أعرف أنّ صلاتي ، إن هي إلاّ صلاة مسكينة ، و قد يتّفق لي أن أغفو أثناءَها .

و مع ذلك أعلم أنّ للصلاة ثماراً مدهشة . فعندما يعمّق الإنسان صلته باللّه يتغيَّر شيء فيه . و أنا لم أشرع أدرك معنى اللامحدود إلاّ ساعة تحقّقت إلى أيّ مدى أنا محدودة . فما أنا ؟ لا أكثر من بضعة سنتيمترات إلى اليمين ، و إلى اليسار ، في المدى ، سراج صغير خافت ، يشعر أكثر فأكثر ، مع كرّ السنين ، على نحوٍ متعاظم، عجزه الجسديّ . من قبل ، كنت كَلِفةً بالجري ، و العمل ، و بالمعرفة ، على نحو خاصّ ، فقد كنت أَلتهم مكتبات بكاملها

. أمّا الآن فلم تعد لديّ رغبة في المعرفة ، فالعلم الذي تحتويه الكتب يبدو لي زائلاً ، نسبيّاً ، ضئيلاً أمام مطلق اللّه . و بعزوفي عن معرفة الزائل ، أغوص في اللّه ، الذي هو المعرفة اللانهائيّة ، و على حدّ قول باسكال : " من يخسر يربح " .

و لكن حذارِ ، فخلوتي لا تعني أنّني نأيت بنفسي عن البشريّة . بل على نقيض ذلك ، أومن بعمق أنّ النفوس قادرة على التواصل بوسائل أُخرى غير الاتّصال الحسّيّ ، أو الحضور المرئيّ . و بقدر ما تشتدّ علاقتي باللّه ، بنفس القدر تترسّخ علاقتي بالبشر ، و عندما ، في المصلّى ، أتناول رسالة من إنسانٍ يشكو يأسه، أرى أُلوف الوجوه من خلال هذه الشكوى ، و أسمع آلاف الصيحات ، ويصبح أَلمهم أَلمي ، على حدّ قول الأَب بيير .

لقد أُحبِبْتُ طيلة حياتي ، ليس فقط من قبل أُمّي ، بل من قبل مرشدة الابتداء، و الأُمّ إلفيرا ، و أَخواتي ، و طالباتي ، و جامعي النفايات الأَعزّاء بنوع خاصّ ، وكثيرين سواهم . و إنّ هذا اللّه – الحبّ الذي عرفته منذ طفولتي ، و الذي اجتذبني، ما انفكّ يجتذبني أكثر فأكثر .

إنّه ، في نظري، قمّة الحبّ ،و العطاء ، هو الذي قرّر ، يوماً ، أن يندرج في مغامرتنا ، مغامرة الحياة و الموت ، و الفرح و الأَلم ، و الانشراح و الدموع ، حتّى النهاية ، و حتّى في الشرّ الذي يحيّرنا ، الذي طالما جعلني أَصرخ : " يا ربّ أين أَنت ؟ " . و مع ما يبدو عليه الأمر من غرابة أَظنّ أن الشرّ جزء من الحياة . فحبّ اللّه للإنسان كان من العظمة بحيث أراده حرّاً ، حرّاً في أن يحبّ أو يكره ؛ و إذن ، فهل يمكن للرياح الموسميّة القاتلة ، و الحروب المدمّرة ، و الأولاد الذين ينفقون جوعاً ، أَن تفضي إلى خير ؟ أنا أَجرؤ على الإِجابة بنعم . فهذه كلّها هي المسيح الذي ما برح يُجلد و يُسام العذاب . و لكنَّ المسيح نهض من الموت في اليوم الثالث ، و لم تكن الكلمة الأَخيرة للقتل . و كانت العذراء تعرف ذلك ، و هي التي لم تقنط ، قطّ ، قد جعلتني أعرف من هو اللّه الحبّ.

في نظري ، ليس على الأَرض وضعٌ ، مهما بدا باعثاً على اليأس ، لا يجلب سوى الموت ، و ما من واقع لا يحمل في طيّاته بذور القيامة ، مثل أَقذار مصنع السماد التي ستخصب الصحراء . ما كان بوسعي ، أَبداً ، أَن أَحتمل الحياة التي عشتها ، و كلّ ما شاهدته من مآسٍ في السودان ، و لبنان ، و من صغار في مصر يقضون نحبهم من جرّاء إصابتهم بالكزار ، ما لم أومن بقيامة الجسد ، و بالحياة في أرحب معنى لها .

إنّ الحبّ أَقوى من الموت ، فالموت لا يعني أَنّك ما عدت تُحبّ و ما عدت محبوباً . إذ أَنّ الأسلوب الذي عشتَ به مستمرّ ، فإن أنت أَحببت ، و شاركت ، وابتغيت سعادة الآخرين ، فقد حقّقت أَعمال حبّ لن تموت أَبداً . و ما فعلته ، و لو لم تُعلنه صراحة ، كان

طريقة لتمجيد اللّه . و لكن ، إِن أَنت سحقت الآخرين لكي لا تحبّ سوى ذاتك ، فلم تعش سوى عيشة حيوان ، و فتحت لذاتك أَبواب الجحيم .

ليس اللّه هو الذي سيزجّك في الجحيم بل أَعمالك المناقضة للحبّ . لا ليس الجحيم هو الآخرين ، بل هو الإِنسان المنغلق على ذاته .

لقد وهبنا اللّه العالم ، بأسماكه و طيوره ، و أَرضه لكي ننعم بها معاً ، متشاركين .

و في رأيي إِنّ أَخطر واجب علينا في هذه الدنيا يتمثّل في بذلنا كلّ ما تلقَّيناه من موارد عقلنا ، و إِرادتنا ، و صحّتنا ، طالما ظلّت جيّدة ، لكي نعيش إِلى أَقصى مدى ، بخلقنا السعادة .

الحياة حبّ و فرح ، و السعادة مشاركة

إِنّ الحياة لرائعة ، و ما أكثر ما توفّره من أَفراح و من لقاآت ! حتّى المصاعب قد تكون لنا مجدية ، فهي تشـقّقنا ، و بعدها يسير كلّ شيءٍ على نحوٍ أَفضل. إِنّني أُحبّ الحياة .

أُعطينا الحياة لكي نحياها . و الأَيّام التي وُهبناها ذات غنًى فريد ، فهي تتيح لنا أَن نستثمر كلّ الطاقات الكامنة فينا ، و أَن نجمعها ، مثل أَغصان ميتة ، ونركمها، و نضرم فيها النار كي ينبعث لهيب الحبّ . و النار تتغذّى بما نضع فيها ، و أَيضاً بما يضعه الآخرون .

كان " سارتر " قد قال : " الجحيم هو الآخرون " . و في الواقع، حيث لا يوجد حبّ ، تنوء الحياة بعبءٍ لا يطاق ، و أنا لا أَفتأ أُكرّر أَنّ الحياة هي علاقة مزدوجة ، علاقة شاقوليّة باللّه ، و علاقة أُفقيّة بالبشر ، إِخوتنا . و عندما تتحقّق هذه العلاقة الحيويّة ، يغتني الكائن البشريّ اغتناءً مدهشاً . و هو لا يغتني بمفرده ، بل يُغني الآخرين أَيضاً . ليست الحياة مسيرة فرديّة ، بل هي التقدّم ضمن جماعة مرتبطة بحبل ينتظم جميع أَفرادها .

قد يساعدني الآخر على استئناف مسيرتي إِلى الأَمام ، و لكنّني أَعلم أَنّني ، بدوري سيتّفق لي أَن أَمدّ له يد العون في ممرّ وعر ، أو في فترة عصيبة .

و الحياة ، في نظري ، هي الحركة المطّردة لهذه الأَيدي التي تمتدّ ، وتتشابك، و تتماسك بقوّة . الحياة تبادل نظرات ، و كلمات ، وبسمات ، و نداءات ، وصيحات ، تصوغ بين البشر علاقات فريدة المتانة . الحياة هي هذا التنفّس الجماعيّ، هذه النسمة التي تنتقل من فمٍ إِلى فمٍ آخر ، و هذه القوّة التي تسري من قلبٍ إِلى قلبٍ آخر .

و غالباً ما نعبر ، لا شعوريّاً ، من العلاقة الأُفقيّة بالبشر إِلى العلاقة الشاقوليّة باللّه ...

تمسي الحياة مثيرة بقدر ما نقضيها في الحبّ بكلّ قلبنا ، و كلّ نفسنا ، وكلّ قوانا ؛ و بقدر ما نعيش من أَجل الآخرين ، وتحدونا الرغبة في تبادل المحبّة ، ومساعدة الآخر .

و أَنا أوفر سعادة في كوخي ، وسط جامعي النفايات ، من الملكة اليزابيت في قصر باكنغهام ، أو في قصر وندسور .

كلّ حياتي كنت سعيدة ، فالحياة جميلة . غير أَنّ السنوات العشرين التي قضيتها مع إِخوتي جامعي النفايات كانت أَسعد سنوات حياتي ، فقد أَكسبتني معرفة اللّه و الإِنسان ، أو معرفة اللّه عبر الإِنسان . يستحيل عقد علاقة مباشرة مع الربّ ، و لكنّ المسيح تجسّد ، و يمكن العثور عليه في كلّ إِنسان ، بقدر ما نقيم علاقة حقيقيّة مع الآخرين ، رجالاً ، و نساءً ، و أولاداً ، و بقدر ما تغدو هذه العلاقة حبّاً كاملاً . إِنّ جامعي النفايات يعلمون أَنّني أُخصّهم ، و بالتالي تتوثّق و تتعمّق علاقتي باللّه .

إِنّ الطريق الأَقصر للعثور على اللّه يمرّ عبر الإِنسان ، أَي عبر إِتاحتنا لحبّ اللّه للبشر أَن يمتلكنا بالكامل ، و عبر محاولتنا استشعار نفس الحبّ الجمّ الذي يكنّه اللّه للبشر . و هكذا نقترب من اللّه .

صحيح أَنّني ، في قرى الصفيح ، كنت أَعيش بين الأَقذار ، و الجرذان ، والبراغيث ، و مع ذالك كانت حياتي رائعة لأَنّها كانت حافلة بالحبّ . لقد أَحببت أولئك الأولاد و الرجال و النساء الذين ازدراهم الجميع و رذلوهم ، و الذين لم يكن لهم، في الواقع ، من مطلب سوى أَن يُحَبّوا و يُحتَرموا . و عندما هم يؤنسون أَنّك تحبّهم ، يحبّونك حبّاً لا يسعك تخيّله . إِنّ بسمة طفل ، ردّاً على ابتسامتك ، لشيءٌ رائع ، بل أَثمن الهدايا ؛ و مثل هذا كنت أَظفر به كلّ يوم . يا للروعة !

وسط بؤس جامعي النفايات نسيت مشاكلي الخاصّة ، بل نسيت نفسي . وبعيشي على الحضيض معهم و مثلهم ، تعلّمت المشاركة الحقّة .

إِنّ البيت الذي يُنشد فيه مجد اللّه ، يشبه السماء بعض الشبه

و قد حظيت بحظٍّ فريد ، و إِيمان سعيد . إِنّني أُحبّ اللّه ، و أَعرف أَنّه يحبّني و أَعرف أَنّه يرغب في أَن يحبّ بعضنا بعضاً . و بما أَنّني أُحبّه ، أُريد إِرضاءه ، و في سبيل إِرضائه ، أُحبّ الآخرين ، و لا أَقسر نفسي على حبّهم ، فهم رائعون ، جميعهم . و اللّه و الآخروين يقابلوني بحبٍّ يغمرني فرحاً .

هب الآخرين ذاتك ، و ابتسم للعالم ، يبتسم لك العالم .

بعد أَن شهدت فاقة حيّ باكوس في الإِسكندريّة ترسّخ لديّ اليقين بأَنَّ الحبّ ليس المشاهدة ، و المساعدة ، و المساندة ، بل " العيش مع "، عيشاً كاملاً . هو المشاركة ، مشاركة أَخويّة ، و اقتسام السعادة و التعاسة ، و الأَمل ، و الحياة اليوميّة، لا مدى بضع ساعات ، و بعدها الفزع إِلى دير دافئ و ثير ، و الأكل حتّى الشبع ؛ لا ، فالمشاركة هي "

العيش مع " ، ليلَ نهار ، و للأَبد ، على غرار يسوع ابن اللّه ، الذي لم يأتِ أَرضنا زئراً ، بل تجسّد كلّيّة في الإِنسان ، و تألّم كإِنسان ، بلا مهربٍ ممكن ، و حتّى الموت الذي ارتضاه .

لا تستأهل الحياة أَن تُعاش ، إِن لم تكن حياة حبٍّ و مشاركة

و السعادة هي الحبّ ، و هي المشاركة الدائمة ، في الفرح و في الأَلم ، في الضحك و الدموع ؛ فقد خُلِق الكائن البشريّ لكي يحبّ . و ازدهاره الأَكمل والأَعمق يعتمد على الحبّ ، و هذا الحبّ يبلغ ذروته في المشاركة مع الآخرين ، في الإِخاء . و العالم مرآة ، فعندما تهب آخر حبّك ، يهبك هو أَيضاً حبّه .

<u>الأَلم المنقذ</u>

عندما يعاني المرء في جسده ، و في نفسه ، أَقصى الوهن البشريّ ، والعجز، و عندما يتردّى إِلى قعر الهوّة ، يتبدّل فهمه لإِخوته و أَخواته ، الذين ما انفكّوا هاوين ...

لقد كان لي الأَلم ***تطهيراً*** : فأزال ثمالة الزهو التي يخلّفها النجاح

و كان لي الأَلم ***فداءً*** : " إِذ أَتاح لي الاتّحاد بالمسيح الحامل في جسده و في روحه ، أَلَم البشريّة ، كي يجعل منه معين حياة . و لئن كان نبعي زهيداً ، غير أَنّني أوقن أَنّه باتّحاده بالمسيح يندمج في نهر الحياة ؛ و إِنّي أَجهد كي أوتي إِخوتي وأَخواتي جامعي النفايات ، في قرية الصفيح ، شيئاً من الحياة .

و كان الأَلم لي ***قيامة*** ، بل أَعظم نعمة في حياتي . فإِثر انعتاقي من محنتي التونسيّة ، آنستُ ، في ذاتي ، ولادة جديدة مدهشة لكلّ كياني ، و بدا لي أَنّني أولد من جديد . و لربّما كان ذلك الاختبار هو الذي صاغ فيّ هذا التفاؤل الذي يصمد في وجه كلّ المحن . فعندما يعبر الجسد و الروح ، يوماً ، من الموت إِلى الحياة ، يتأكّد أَنّ الموت و الحياة هما وجهان لواقع واحد .

و أَخيراً كان الأَلم لي ***بركةً*** : فعندما تتفجّر من القلب علاقة باللّه و بإخوتنا أَشدّ حميميّة ، أَلا تكون حياتنا قد بوركت ؟

أَرجو أَن تصبح خبرة الحياة المدهشة هذه ، المتفجّرة من خبرة موت ، واقع كل كائن بشريّ .

الأَلم شيء و اليأس شيٌ آخر . و لكن مع عذراء الآلام لا وجود لليأس ، فهي الأَمل ، و هي النجم .

العذراء في حياتي

إِنّها نبع حياتي الروحيّة المنعش أَبداً و الدائم التدفّق . سحابة النهار ، و آناء الليل ، أَنظاري مشدودة إِليها . في الأُلهيّة الإِلهية تجيب بياتريس دانتي الذي يودّ رفع ناظريه صوب الربّ :

" أُسكبْ نظرك في نظر العذراء ، فتتوفّر لديك القوّة على غرسه في الربّ ".

أَثناء حياتي الرهبانيّة كانت العذراء هي فرحي الدائم . غير أَنّها كانت ، أَيضاً، عوني ، عندما كنت استشعر مدى البون بيني و بين المثال الأَعلى الذي كنت أَصبو إِليه . في ظلال تعثّراتي ، تأَمّلت دائماً وجه العذراء . لقد كانت لي بمثابة منصّة قفز ، أَتّطلع إِليها ثمّ أَطير "

(كانت الأُخت إِيمّانويل تزيّن كوخها في مركز سلام بإيقونة صغيرة لعذراء فلاديمير ، و بتمثال صغير من الصلصال يمثّل فلاّحة مصريّة ترضع طفلها ، و قد فسَّرت ذلك بقولها) :

" دعوتي قائمة بين هاتين المرأتين . فالعذارء هي منبع حبّي ، و منه أَغترف، كلّ يوم ، لكي أَسكب ماءه المنعش على الأُمّهات المنهكات ، و على الأَطفال الذين يترعرعون مثل التين البرّيّ ، و على الشبّان و الشيوخ . أودّ أَن أَكون مجرّد بئر حبّ حيث يأتي الجميع فيرتوون ، فالناس يحتاجون ، خاصّة ، إِلى الحبّ .

" إِنّني كائن مسكين . و لكن عندما يدفع الروح كائناً مسكيناً يتغيّر كلّ شيء،فهو محمول على أَجنحة الاندفاع ، و الاندفاع يعني أَن يمتلك المرء اللّه في ذاته ، وهذا يقتضي الصلاة . "

اللّه أب الجميع

عندما أُسأل عن مذهبي أُجيب : " إِنّني مسيحيّة قبل كوني كاثوليكيّة ؛ و إِنّني كائن بشريّ قبل كوني مسيحيّة . "

لا بدّ من الحبّ ، أوّلاً ، أي احترام الآخرين ، جميع الآخرين ، و لا سيّما المنبوذين ، ثمّ لا بدّ من قسطٍ من " السقراطيّة " ، أي إِتاحة الفرصة لمن لا يعرفون ، من لا يعرفون شيئاً ، لكي ينمّوا ذكاءهم ، و مواهبهم ، و يكتشفوا خصالهم بأنفسهم . كلٌّ من أبناء الله ينطوي على مواهب ، وعلى ملَكات سرّيّة ، خفيَّة ، و المعلّم هو من يعرف إِماطة اللثام عن الموهبة الكمينة ، و يتيح للآخر أن يكتشف ذاته .

أُومن أنّ لكلّ إِنسان حَرَماً سرّيّاً لا يحقّ لي اقتحامه ، هو مجال قناعته الدينيّة و السياسيّة . إِنّ لي أصدقاء كاثوليكيّين ، و بروتستانتيّين و أورثوذكسيّين و أقباطاً ، ويهوداً ، و مسلمين ، و ملحدين ، و بوذيّين ، و من كلّ مشرب . و أؤكد ، صادقةً ، أنّ ذلك ، من الصديق ، ليس بذي بال ، بل ما يعنيني ، حقّاً ، هو قلبه . هل هو أخٌ لسائر البشر ؟

الحقيقة هي أنّ الإِيمان هو منبع عملنا ، و هو الذي يهبنا الاندفاع ، و القوّة على تخطّي الصعاب

لا ريب أنّ إِيماني بالمسيح هو كنزي الأكثر روعة ، و لكن أليس الإِيمان بالانسان ، أيضاً ، كنزاً رائعاً ؟

إِنّ القوم يحتاجون ، قبل كلّ شيء ، أن يُحَبّوا ، كما هم : سواء اتّسموا بالجمال أو البشاعة ، سواء كانوا أغنياء أو فقراء ، مستقيمين أو لصوصاً ، صالحين أو أشراراً ، مع أنّه لا يوجد إِنسانٌ شرّير تماماً ... و هل فعل المسيح شيئاً آخر سوى الحبّ ، هو الذي شاء أن يقتسم معنا ضعفنا البشريّ ؟ إِنّني أجهد في احتذاء مثله ، وفي الواقع هذا ما ينتظره القوم منّي . مسلمون أو مسيحيّون ، جميعهم إِخوتي ، وأنا لا أُفرّق بينهم .

و بتعليمي إِيّاهم أن يتحابّوا ، أضعهم في صميم المسيحيّة

تكفي عظة يوم أَحد في الكنيسة ، أو عظة يوم جمعة في جامع لتفريق القوم . و كم هو أَفضل تحريض الناس على تبادل المحبّة و المودّة . رسالة المسيحيّة هي الحبّ ، حبّ الآخر على نحو ما أَحبّه المسيح ، حتّى الموت عند المقتضى . ليس الحبّ محاولة اجتذاب الآخر إِلى اعتناق ديانتك . بل الحبّ شهادة ، و من خلال هذه الشهادة الصغيرة التي نحاول أَداءها يعمل المسيح . بوسع المسلم و المسيحيّ ، على السواء ، الظفر بالخلاص .

المسلم الطيّب الذي يحبّ الآخرين و يهبهم من ماله ووقته و قلبه ، ينال معموديّة اللّه ، معموديّة مشيئة اللّه . إِنّ لغة الحبّ سهلة الإِدراك . ينبغي أَن نحبّ بعضنا بعضاً لأَنّنا جميعنا إِخوة .

شذرات من أَقوال الأُخت إِيمّانويل

- حقيقة الحبّ تكمن في الحضور ، و بذل الذات ، و انتصار هذه الحقيقة لا يتحقّق إِلاّ في التواضع و الكتمان
- كَلَف اللّه بالحريّة من الشدّة ، بحيث كلّفه ابنه .
- إِنّ قلب الإِنسان مثقوب ، و كلّ ملذّات الأَرض و ثرواتها تنساب فيه وتضمحلّ ، و لا شيء يرويه إِن لم يقطنه الحبّ .

وصيّة الأُخت إِيمّانويل

في 12 تشرين الثاني 1989 ، أَثناء خلوة لها في أَحد الأَديرة الفرنسيَّة ، دبّجت الأُخت إِيمانويل وصيّتها الروحيّة التالية :

" أَصدقائي الغالين

أَكتب لكم هذه الأَسطر لكي أَشارككم تدفّق الحبّ الذي وهبنيه الربّ ، على نحوٍ خاصّ ، أَثناء سنوات النعمة التي شاطرتها مع إِخوتي و أَخواتي جامعي النفايات في القاهرة ، الذين علّموني الإِنجيل ، و لقّنوني أَنّ الحبّ مشاركة و عطاء ، واستقبال، وإِنصات ، و تبادل .... و أَنّ كلّ شيء ، في الواقع ، هو قضيّة حبّ : فكلّ ما يولد من الحبّ عبر الأَفراح و الآلام ، يصيب هدفه ، لا محالة .

لقد جعلني إِخوتي و أَخواتي جامعو النفايات ، أُدرك على نحوٍ أَفضل أَنّ الحبّ هو الاحترام ، و المشاركة ، و التفاعل مع الآخرين ، هو أَن نحطّ على الآخر نظرةً متميّزة ، تجعله يرتعش فرحاً .

بفضل عيشي بين ظهرانيهم ، ليلَ نهار ، نضجت فيّ ، شيئاً فشيئاً ، البذرة الصغيرة التي أودعها اللّه في قلب كلّ إِنسان .

و هذه البذرة الصغيرة استحوذت ، أَكثر فأَكثر ، على كلّ ما هو ، فيّ ، صغير ، و ضيّق ، لكي تفسح مكاناً للمسيح الذي يعيش حبّه في قلبي المسكين .

آه ! يا أَصدقائي ، فلنعش بالحبّ ،

و لندع هذه النفحة تستولي علينا ، و تجتذبنا ، بلا مقاومة ، جسداً و روحاً ، نحو لقاء عميق الغور بكلّ من يحيط بنا : من أُسرة ، و أَصدقاء ، و معارف ، مؤثرين كلّ فقير ، و مرذول ، و مزدرى .

و إِنّني أُوكل إلى قلوب جميعكم ، الأولاد ، و النساء ، و الامّهات الذين يتخبّطون من أَجل الانعتاق من مِحَنهم

و لا يتوقّفنّ أبداً كفاحكم من أَجل العدل !

و لا يغربنّ عن بالكم ، أَيّها الأَصدقاء ، كم ما يزال جامعو نفايات القاهرة والسودانيّون الصغار في حاجة إِلى دعم حبّكم .

و لا تخشوا أَن تُشرعوا ، أَيضاً ، قلبكم لمن يدعونكم في كلّ أَرجاء العالم . و حتّى على مقربة منكم . إِبحثوا عن وسيلة تمكّن منظّماتكم ، و ربّما بالتعاون مع منظّمات أُخرى ، من توفير الطعام ، و التثـــقيف ، و الشفاء ، و التأهيل المهنيّ ، والاندماج في المجتمع ، و الخلاص لهذا الولد ، لهذا الأخ ، و لهذه الأُخت ، المسحوقين . ساعدوهم على أَن يصبحوا رجالاً و نساءً " واقفين "

أَصدقائي الغالين ، قبل مضيّي إِلى بيت الآب حيث سنلتقي ، يوماً ، جميعنا ، معاً ، في الحبّ ، أَترك لكم وصيّتي هذه .

أَجل ، أَعلم أَنّ بوسعي المضيّ مطمئنّة النفس ، فأَنتم هنا ، و كلٌّ منكم متأهّب لتناول الشعلة .

تعلمون أَنّني عندما سأنتهي إِلى الموطن الذي لا يسود فيه سوى الحبّ ، سأَظلّ تلك التي ، عارفةً بالجميل ، ستستمرّ في إِحاطة كلٍّ منكم بقلبها أَكثر من أَيّ وقت مضى ، و كلّ من معاونيكم الجدد ، بكلّ صلاتي ، و بكلّ حبّي ، إِذ مثلما طالما قلت على هذه الأَرض : الحبّ أَقوى من الموت !

أختكم العارفة دائماً بالجميل

ماري إِيمّانويل .

القسم السادس

يسوع كما أَعرفه

موجز

في غروب عُمرها ، و قد بلغت الثامنة و الثمانين ، و في هدأة خلوتها ، استذكرت الأُخت إِيمّانويل مراحل مسيرتها مع يسوع ، تحدوها قصّة حبّ مذهلة ، خصبة ، متجسّدة في حبّ المحرومين ، الأَثيرين لدى اللّه .

فمذ تفتّحت عيناها على الحياة ، و هي في العاشرة ، و أَثناء تأهّبها للمناولة الأولى افتُتنت بذلك الإِله الذي بلغ حبّه للبشر أَن لبس جسداً مثل جسدهم ، و اختار أَن يعيش عيشة أَسحقهم فقراً ، و احتمل أَعتى الآلام ، و بذل حياته في سبيل افتدائهم.

و حده حبٌّ من هذا النمط كان خليقاً بملء قلبها ، فاندفعت إِليه بكلّ كيانها ، وجهدت في الإِلمام بأسراره كي تنظّم حياتها على وقع مقتضياته .

لقد أَدركت أَنّه هو " أَحبّنا ، أوّلاً " . أَي كان المبادر إِلى حبّنا ، مع كلّ ما نحن عليه من هوانٍ ، و صغارة و خطيئة ، لأنّه ، في كلٍّ منّا ، استشفّ ، من وراء المظاهر المنفّرة ، صورة أَبيه المتألّقة ؛ و على غراره لم تزدرِ ، يوماً ، إِنساناً ، بل آثرت العيش مع من شوّههم البؤس و الحرمان و النبذ ، و تردّوا إِلى الانحراف والانحطاط ، لكي تعيد لهم كرامة أَبناء اللّه ، و تحسر اللثام عن قَبَس الألوهة الكامن في أَعماقهم .

و قد علّمتها التجربة أَنّ هذا الحبّ الذي لا يثنيه عائق ، و يمضي في مضامير البذل حتّى نهاية الشوط ، هو القوّة العظمى لأَنّها نابعة من اللّه مباشرة ، وتمتلك القدرة على تحويل البشاعة إِلى جمال ، و نزعة الشرّ إِلى نزعة خير .

و هزّتها ، منذ طرواة عودها ، رغبة يسوع في العيش فقيراً بين ظهراني فقراء ، و دعوته أولياءه إِلى التخلّي عن كلّ شيء في سبيل اللحاق به ، فلبّت دعوته، و مضت ، هي التي كانت في صباها كَلِفةً بالأناقة و المتعة و العيش الرغيد ، في سُبل التجرّد ، حتّى ارتضت بالعيش بين الأَكواخ و أكوام الأَقذار ، محاطة بكلّ منفّر مقزّز ، متخطّية تخوم

الاحتمال البشريّ . و يا للمفارقة ! ففي هوّة الحرمان هذه التقت السعادة العظمى ، و الفرح الكامل .

المناولة اليوميّة ، مذ كانت في الثانية عشرة ، جعلتها تسبح في الحبّ ، وتوفّر لها الازدهار و المنعة لمواجهة المغامرة المدهشة التي كانت تُعدُّها لها العناية الإلهيّة ، و بها ، كان كلّ جوهر كيانها يلتحم بيسوع ، كلّ يوم أكثر فأكثر . و يوماً إثر يوم كان يتوثّق تعلّقها بذاك الذي وُلد ، و ترعرع ، و كان يعمل ، و يأكل ، وينام، مثل أيّ إنسان ، و لكنّه كان ، في نفس الآن ، ابن الله ، و معلّم الحبّ – العطاء ، الحبّ الذي يقاوم العنف بالوداعة ، و يعالج البغض بالعطف و المودّة ، ويدعو من خانه و باعه " صديقاً " ، و يحوّل الموت إلى حياة .

في ميعان شبابها كان ، كلّما اجتذبتها مُتع الحياة ، يشدّها إليه ، فقد اختارها لخدمته و خدمة إخوته ، و هي استسلمت لفتنته ، فزوّدتها علاقتها به بكلّ السعادة التي كانت تصبو إليها ، و بالحبّ الحقّ الذي لا يفتر و لا يزول ، الحبّ العطاء الذي يتوخّى ، أوّلاً ، إسعاد الآخرين .

و عندما داهمتها الشكوك و التجارب ، ظلّ يهمس لها بوجوده إلى جانبها ، فخرجت من التجربة أعمق و أرسخ إيماناً ، و أوضح تبيُّناً للدرب الذي كان عليها انتهاجه .

و قد علّمتها التجربة أنّ العُجْب بالذات و الغرور و الكبرياء هي ألدّ أعداء الإيمان ، إذ يُخيِّل ، معها ، للمرء أنّه بلغ من العلم و الحكمة ما يجعله ندّاً للّه ، وحكَماً وحيداً على الخير و الشرّ ، و الحقّ و الضلال ؛ و قد ساءها ألاّ يصيب الشبّان من علم الإيمان سوى الضحل و الغثّ ، في حين هم يتوغّلون في الدراسات العلميّة ، و عندما يقارنون منعة ما حصّلوه منها بضآلة ما لُقّنوه عن الدين ، يزورّون عن الممارسات الدينيّة و يتلاشى إيمانهم . فالإنسان لا يؤمن ، حقّاً ، إلاّ عندما يعترف بصغره أمام اللّه ، و يعود طفلاً بالروح .

و عندما عكفت على خدمة الصغار و الفقراء ، واكبها شعور ملازم بأنّها تعمل مع يسوع يداً بيد ، و تمثّلاً بذاك الذي لم يتحرّج من مجالسة المصنّفين ، في قاموس الفرّيسيّين ، خطأة ، اختارت العيش مع منبوذي المجتمع ، فاتّضح لها أنّ الذين يلعنهم المجتمع هم الذين يباركهم الربّ .

لقد كان يسوع هو سرّ حيويّتها و ديناميكيّتها ، وشبابها الدائم ؛ و قد اعترفت: " هو تنفّس كياني ، و سند وهني ، و فرح قلبي . هو الذي يبقيني شابّة جيّاشة بالحياة، متأهّبة للجري إلى أقاصي العالم ، من أجل نجدة بائس ... لقد تجسّد في شخصي لكي يواصل مغامرة الفقر و المحبّة . "

هذه الخبرة الفذّة ، الثرَّة ، فصّلتها الأُخت إِيمّانويل في كتابها الأَخير :
" يسوع كما أعرفه " الذي نقتطف منه الفصول الممتعة التالية .

يسوع كما أَعرفه

كلّ حقيقة على الأَرض معقّدة ، و ترتدي مظاهر متضاربة : ففي كلّ إِنسان و في كلّ شيءٍ يتشابك الصالح و السيّء مثل خيوط اللُّحمة . و أَيّ إِنسان أو أيّ شيءٍ أَو أَيّ حدث لا ينطوي على وجوه متناقضة ؟

طبعي يحملني على انتباذ كلّ سلبيّ : فلا أَرى الحياة مجلّلة بالسواد ، بل أَراها مطليَّةً بلون زهريّ ، سابحة في النور . و هذا ما أَتاح لي ، و سط بشريّة تئنّ من الوهن ، و مسؤولة ، أَحياناً ، عن أعمال مريعة ، أَن أَستكشف في سماء قاتمة ، زاويةً نيّرة ، و أستشفّ الأمل . و تسحرني ، أَبداً ، النار الكامنة تحت الرماد ؛ وبذلك، أَحتفظ بحيويّتي كي أَشترك في النضال مع جميع مولّدي الحياة ... و هم كُثُر.

هدف هذا الكتاب : " يسوع كما أعرفه " ، هو مجرّد إبلاغ قسطي من التجربة ، و ما استطعت إدراكه عن ذلك الرفيق ، الذي اجْتزت معه ، سحابة ثمانين عاماً ، مسيرة خصبة متجسّدة في حبّ الآخرين ، و التي استثارت ، حتّى في دمي ، اضطرام هوى مزدوج : هوى الذي ولد في بيت لحم ، و تألّم و أذيق الموت في الجلجلة ، و هوى الذين يولدون ، و يتألّمون ، و يموتون ، على غراره ، على هذه الأرض .

هذه الانتفاضة المزدوجة تتجدّد كلّما حدَّقت في الصليب حيث أراه معلَّقاً: لقد أَحببتني يا يسوع ، لقد أَحببتنا جميعاً ، حتّى الصليب . لقد دفعتني إلى وجود عاصف، استولى عليّ في بعض أَيّامه حماسٌ مجنون ، و في أَيّام أخرى انهيار ساخط وتناوبتني تارةً ثقة مطلقة ، و تارة أخرى رِيَب حافلة بالقلق .

و لكنّك ، سواء في حالات اندفاعي أو إحباطي ، سحرتَني دائماً .

يا يسوع الحبّ ، لقد كنت لي المنتصر و علّمتني الحياة ؛ أَنت الذي لا يُسبَر له سرّ ، أودّ أَن أَصفك ، ببساطة ، " كما أعرفك "

فقيرٌ و عارٍ

حدث ذلك في كانون الأوّل 1914 ، و كنت قد بلغت ، لتوّي ، السادسة من العمر .
آنذاك كنّا لاجئين في إِنكلترا ، بعد أَن أَجبرنا زحف الأَلمان على مسقط رأس بروكسيل ، على استقلال الباخرة الأَخيرة التي تجرّأت على الإبحار .

يومها ، كنّا نتجوّل : أمّي ، و أختي ماري لويز و أَخي الأصغر جول في شوارع الضاحية اللندنيّة ، حيث كنّا قد استأجرنا شقّة ، و تلقائيّاً ، بما أَنّ والدتي كانت شديدة الإيمان ، و لجنا كنيسة . و ما زلت أَذكر ، و كأَنّ الأمر حدث أَمس ، الصدمة التي انتابتني ، لأَكثر من ثمانين سنة خلت ، عندما أَخذتني أُمّي من يدي ، ومضت بي إلى مغارة الميلاد ، حيث كان طفل راقداً على القشّ ، تحت نور مصباح خافت . و سألت أُمّي ، حائرة : " ما الذي فعله هذا الطفل ؟ " فأجابت : " ألا تذكرين أنّك رأيته في السنة الفائتة ؟ لقد صنعوا المغارة لأَنّ عيد الميلاد يقترب "

– " آه ، أَجل ، عيد الميلاد ، ما هي الهديّة التي سأنالها ، يا أمّاه ؟ "

– " ليس هذا هو المهمّ ، يا عزيزتي . بل حدّقي ، بالحريّ ، في هذا الطفل . إنّه يسوع الذي هبط من السماء ،

– و لمَ هبط من السماء ؟ لقد سبق أَن قلتِ لي أَنّ والدي في السماء . أَوَ ليسوا مسرورين هناك ؟

– بلى ، و لكنّ يسوع ، بما أَنّه اللّه ، جاء إلى الأرض لكي يشارك البشر حياتهم ، لأَنّه يحبّنا .

– إن هو جاء لهذا الغرض فعلامَ لا يكون له مهد موشّى مثل مهد أَخي جولو؟

– لأنّ والديه ما كانا يملكان من المال ما يتيح لهما أَن يحلاّ في فندق ، فاضطرّا إلى اللجوء إلى مغارة حيث أَضجعا وليدهما على القشّ ، و نفخ عليه حمار و ثور كي يبعثا في جسمه الدفء . لقد شاء يسوع مشاركة حياة القوم الفقراء . هل فهمتِ ؟ "

مشاركة حياة القوم الفقراء ، هذه العبارة هزّت قلبي هزّاً . و أُدرك الآن ، بعد مرور الزمن ، سبب تلك الهزّة العنيفة ، فقد كنت أنا نفسي فقيرة ، إذ لم يكن قد مضى أكثر من أربعة أشهر على اليوم الذي كنت فيه قرب ضفّة " أوستاند " و شهدت والدي يتوارى وسط الأمواج ، بلا عودة . لم أكن آتي على ذكره ، و لكنّني غالباً ما كنت أبكي في سرّي ، و عندما كانت أمّي تؤنّبني ، كنت أقول ، في نفسي : " لو كان أبي ما زال موجوداً ، لكان ضمّني بين ذراعيه وواساني " . كنت أشعر بافتقار – ولا ريب أنّ كلاًّ منّا يشعر بنوع من الافتقار– . لا بل لن أتحرّج من القول أنّه كان، ثمّة، لديّ ثغرة ، و أنّ هذا الطفل يسوع ، بكلِّ ما يحيق به من رائع مدهش ، قد جاء ليردم هذه الثغرة .

كنت أرمقه ، راقداً على القشّ ، مادّاً لي ذراعه ، و كنت أقول له : " إنّني أُحبّك من كلّ قلبي ، مثل حبّي لأبي " . ما أكثر ما يحتاج الولد إلى حبّ يتدفّق إلى قلبه ، عندما يكون جريحاً .

أذكر أيضاً أنّ أُمّي كانت تحملنا كلّ مساء على الصلاة ، فكنّا نركع أُختي ، وأخي و أنا ، و نضمّ أيدينا ، و نخاطب أُمّ يسوع ، الشديدة القرب منّا ، البالغة الإنسانيَّة ، و نتمتم : " السلام عليك يا مريم ، يا ممتلئة نعمة " ، و يلي الصلاة ، بركة، و قبلة ، ثمّ نهرع إلى سريرنا . و كنت أحياناً ، قبل أن أستسلم للكرى أتحدّث إلى طفل المغارة قائلة :

" يا يسوع الصغير ، كم لسعك البرد و أنت عارٍ فوق القشّ . لو كنتُ ، هناك، في بيت لحم ، لكنت اقتسمت معك غطائي الصوفيّ و لكنتَ استشعرت بدفءٍ أكبر ممّا وفّره لك الحمار و الثور ! "

من المحقّق أنّني ، و أنا تلك الفتاة الصغيرة ، لم أكن، أفقه ، بعدُ ، شيئاً من سرّ التجسّد ، و لكنّني استشففت ، على نحوٍ مبهم ، أمرين سيَدمغانني لما تبقّى من حياتي : فالسعادة و الطمأنينة اللتين شهدتهما تتلاشيان ، في لحظة ، من جرّاء وفاة أبي، قد استعضت عنهما بسعادة أكبر ، و طمأنينة أرسخ وفّرهما لي اللّه الحبّ . وثانياً – لكون اللّه أراد أن يكون هذا الطفل العاري و الفقير ، بات الأعمق فقراً ، والأكثر عرياً و تجرّداً هو الأكبر ، و الأسمى قيمة في عينيّ الربّ . و الدليل على ذلك كلّ أولئك الذين ، من حولنا ، كانوا يغشون الكنيسة كي يدعوا ذلك الطفل ويعبدوه .

أعتقد أنّ دعوات الطفولة هي الأبلغ أثراًعلى مجرى الحياة . " فالقشّ " الذي توسمت فيه رمزاً ، إثر تجربتي عند مغارة الميلاد في لندن ، قد غدا لي مثلاً أعلى .

ما أدركه لا وعيُ الفتاة التي كنتها ، و ما ألمّ به حدْسي – و هو أنّ اللّه يُكتشف في التجرّد – عثرت على مصداقٍ له ، بعد أمدٍ طويل ، في إحدى عبارات الإنجيل . فثمّة عبارة

وردت في إنجيل متّى لا تنفكّ تراود ذهني : " لم يكن لابن البشر حجر يسند إليه رأسه " ، أي أنّه كان يرقد على الحضيض ، كما لا يزالون يرقدون في أماكن من فلسطين . و من ثمّ فإنّ إدراكي أنّ هناك ، في العالم ، أُناساً ، و لا سيّما أطفالاً ، يركضون على الحضيض أو على القشّ ، و بذلك هم يجسّدون اللّه على الأرض ، قد مسّني في الصميم ، أنا ابنة الأسرة البورجوازيّة الصغيرة ؛ وكان ذلك التأثير بليغ الأثر بحيث دفعني هذا الحدْس إلى اعتزامي ، منذ بلغت الرشد، في الثامنة عشرة من عمري ، هجر كلّ شيء لكي أُصبح راهبة . و أصبحت راهبة، حقّاً . و لكن بما أنّه كان محظوراً على الراهبات ، قبل المجمع الفاتيكاني الثاني ، مغادرة أديرتهنّ ، اضطررت إلى الانتظار ، حتّى بلغت الثانية و الستّين ، كي أستطيع ممارسة حياة الفقر بين ظهراني الفقراء . و عبثاً كنت ، من قبل ، كرَّة إثر كرّة ، قد أعربت عن رغبتي في مثل تلك الحياة ، و كانوا يجيبونني ، أبداً ، أنَّ النظام يفرض العودة إلى حصن الدير قبل غروب الشمس ، و كم قد كلّفني ذلك من تمزّقات مريعة ! طويلة كانت سنوات الانتظار الأربعون ! إلى أن أوعز المجمع أخيراً إلى المكرّسات العاملات أن يمضين قدماً في حمل حبّ الربّ إلى العالم الخارجيّ .

ثمّة عبارة في الإنجيل طالما طرحت عليَّ تساؤلات كثيرة ، و هي التي يقول فيها يسوع لتلاميذه : " لا تحملوا للطريق شيئاً ، لا عصا ، و لا مزوداً ، و لا خبزاً ، و لا فضّة ، و لا يكن لكم ثوبان " ، و الحال أنّنا ، نحن المرسلين ، نتجوّل مصطحبين حقائب ممتلئة ألبسة دافئة ، و ألبسة خفيفة ، و أمتعة من كلّ نوع . فما عسى أن يقول لنا المسيح اليوم ؟ لم يستطع أحدٌ أن يعطيني ، في هذا الشأن ، جواباً. غير أنّني أودّ الإيضاح أنّ الفقر ، في ذاته ، لا يجتذبني إطلاقاً . فأنا ، بسليقتي وطبعي ، أوثر الرفاه و الحياة الطيّبة . و ليس الفقر هو الذي يستدعيني ، بل يسوع الفقير الذي أمسى القشّ الذي رقد عليه رمزاً يعني لي أنّ يسوع قد شاء العيش مع الفقراء ، لا مع الأغنياء . و هو غالباً ما يقول في الإنجيل : " الويل للأغنياء " و"طوبى للفقراء " و تتردّد هذه التوصيات ، على مدى العهد الجديد ، تردّد لازمة : "أتركوا كلّ شيء ، بيعوا كلّ ما تملكون " . فلا مفرّ لكلّ من ابتغى اتّباع المسيح من أن ينهج هذا النهج .

أعرف أنّ ذلك ليس دائماً سهل التحقيق ، ما لم يكن المرء مقيماً في قرية صفيح ، حيث يضطّر تلقائيّاً إلى العيش كالآخرين ، مقتسماً معهم كسرة الخبز ، والمسكن البائس ، و كم كنت أتمنّى أن أُنهي أيّامي وسط إخوتي و أخواتي جامعي النفايات . غير أنّ رئيساتي قد أصررنَ على أن أمضي فارتاح ، بعد أن بلغت الخامسة و الثمانين (و لم يكن لديّ في تلك الراحة أيّة رغبة) في بيت المتقاعدين في فرنسا ، و فيما يدير الذين خلفوني ، على أحسن

وجه ، المشاريع المختلفة ، أستغرق في دعوتي الجديدة التأمليّة ، و أُصلّي الساعات الطوال من أَجل العالم . ذلكم هو جوهر الحياة التي أمارسها منذ ثلاث سنوات ، ناعمة بغذاء جيّد ، و بالدفء ، وبحجرة كاملة التجهيز ، عائشة ، إلى حدٍّ ما ، عيشة الباشوات ، حياة تبدو لي مفرطة الغنى ، و الحظوة ، و حالما تسنح لي فرصة ، أَتنازل ، بفرح ، عن تلك الحجرة إلى صديقاتي الزائرات . لقد زرت ، في أَسيزي ، الكوخ الزريّ الذي انطفأ فيه القدّيس فرنسيس على غراره أودّ أَن أَموت و رأسي على اليابسة ، و سط الذين رحّبوا بي طيلة اثنتي عشرة سنة .

إنَّ " الافتقار " الذي يمثّله الفقراء ، يجتذبني دائماً ، فلو اتّفق و أَمرتني رئيساتي بالعودة إلى العيش عند جامعي النفايات ، لاستقللت أوّل طائرة في غضون الأربع و العشرين ساعة التالية . فقد غدا مثلي الأعلى ، رمز القشّ ، جزءاً منّي .

يحبّني ، أنا

الحدث الثاني الذي أطلقني في إِثر يسوع المسيح ، كان تأهّبي لمناولتي الأولى عام 1918.

كنّا ، آنذاك ، نقطن في باريس ، حيث التجأنا إِلى جدّتي ، لأَبي ، ريثما نتمكّن من العودة إلى بروكسيل .

و ذات يوم خاطبتني أُمّي ، على انفراد ، قائلة : " يا مادلين ، أَنت تقتربين من سنواتك العشر و سيحين قريباً موعد مناولتك الأولى" . فوثبت فرحاً : " آه ، أُمّاه ، سأرتدي رداءً أَبيض جميلاً ، ووشاحاً أَبيض كبيراً ، مثل عروس ، و سيُقدّم لي قرصٌ كبير من الحلوى ، و الكثير من الهدايا . "

و ما زلت أَسمع ردّ أُمّي التي أَحسنت تربيتي : " يا مادلين ، الأَمر الأَهمّ ، في ذلك اليوم ، هو أَن تعي أَنّ يسوع يحبّك ، و أَن تظهري استعدادك لاستقباله الاستقبال الحسن . و سيكون رداؤك و وشاحك الأَبيضان الجميلان التعبير عن رغبتك في استقباله بنفس ناصعة البياض ، و بقلبٍ طاهر . "

ما أَجمل أَن يكون يسوع أَحبَّني ، و انحدر من السماء من أَجلي . كنت فتاة صغيرة ملتهبة المشاعر و الخيال ، وفي مساء ذلك اليوم ، رأيت الصُّور تتراقص أَمام ناظريّ ، و أَبي يبتسم لي من وراء غيمة بيضاء ؛ و على غيمة أُخرى رأيت يسوع ، و وجهه يفيض حناناً ، كان ينحدر نحوي و هو يمدّ لي يديه . و كان الهواء ينفخ في ثوبي الأَبيض الموشّى ، ووشاحي الكبير ؛ و على قرص حلوى ضخم كتب بالكريما البيضاء " يسوع – مادلين " . كلّ شيء بدا رائعاً .

و كان الكاهن قد أَعار كلاًّ منّا نسخة من الإِنجيل ، و كانت نسختي متّسخة ومهترئة ، غير أَنّني لم أَكن أَملّ من مطالعة قصّة الطفل المضجع على القشّ ، كرَّة إِثر كرّة ، و الذي فيما بعد ، اكتفى بممارسة مهنة النجارة البسيطة على غرار أَبيه . إِيثار الفقر هذا كان يسحرني دائماً . غير أَنّ ما أَخذ ، حقّاً ، بمجامع قلبي – بمقدار ما يستطيع حدثٌ الأَخذ بمجامع قلب فتاة في العاشرة من العمر – هو فصل الجتسمانيّة ، بحيث حفظت عن ظهر قلب ، ذلك المقطع من إِنجيل متّى ، الذي يروي دخول يسوع، ليلاً ، بستاناً يدعى الجتسمانيّة ، و هو عالم بموته القريب ، و أَعلن : "نفسي حزينة حتّى الموت " . و كان الكاهن قد أَوضح لنا أَنّ يسوع كان حزيناً لأَنّه كان يحمل في نفسه ، و في قلبه ، كلّ شرّ البسيطة – الناس المتباغضين ، والمتحاربين ، و كلّ الخطايا التي تنتقص من الحبّ ، مثل سورات غضبي ،

واللكمات التي كنت أَلحقها بأخي جول – و في ثناي إِنجيلي الصغير ، أَثارت مخيّلتي، إِثارة خاصّة ، العبارة القائلة : " و أَخذه الجهد فلجّ في الصلاة ، و صار عرقه كقطرات دم تتساقط على الأَرض ."

قطرات الدم هذه انهمرت على قلب الفتاة الصغيرة التي كنتها ، و ما زالت ماثلة في قلب المرأة الناضجة التي أَصبحتها . و ما برحت ، اليوم أَيضا ، أُصلّي غالباً، مثلما كنت أَفعل لنحو ثمانين سنة خلت : " يا يسوعي أُحبّك ، و لا رغبة لي سوى البقاء على مقربة منك . "

و قد حدَّثنا الكاهن ، أَيضاً ، عن الاعتراف ، مبيِّناً أَنّ يسوع ، الذي توخّى أَن تظلّ نفوسنا ناصعة البياض ، أولى تلاميذه سلطةً مدهشة بقوله لهم : " من غفرتم لهم خطاياهم ، غفرت " . و من ثمّ يكفي الاعتراف بخطايانا لمن خلفوا الرسل في ممارسة هذه السلطة الرائعة : الكهنة ، و لكن ، طبعاً ، شرط أَن نسأل صفح اللّه ، وأَن نجهد كي لا نقع في الخطأ من جديد .

و كان الكاهن الطيّب يضيف مبتسماً : " إِيّاكم و الحفر عميقاً في رؤوسكم بحثاً عن خطايا ، بل تذكّروا بهدوء و بساطة أَخطاءكم ؛ و إِن نسيتم بعضاً منها ، لا تقلقوا كثيراً ، فالأمر الجوهريّ هو أَن تحبّوا يسوع ، و أَن تعلموا أَنّه ، هو أَيضاً، يحبّكم " .

كنت أَزاداد افتتاناً ، و أَستعظم أَن يحبّ المرء و يكون محبوباً على هذا النحو.

و كان لمربيّتنا ، الآنسة لوسي ، التي لحقت بنا إِلى إِنكلترا ، خطيب شرطيّ، تعلّق صورته فوق سريرها ، و ترى فيه أَجمل البشر و أَروعهم ؛ في حين كنت أَراه بشعاً بشواربه . على أَيّة حال ، كنت أَتساءل هل هو سيُقدم ، يوماً ، على بذل حياته في سبيل الآنسة لوسي ، و على غرار يسوع ، حتّى الموت ؟ لم يكن يبدو عليه ذلك. و أَنا ، لم أَكن أُريد أَن أَحبّ سوى يسوع ، فهو ، وحده ، كان يبدو لي قادراً على المضيّ في شوط الحبّ حتّى نهايته .

و لكن العلاقة بيسوع لم تكن محصورة به و بي . و لم يكن الكاهن يني يردّد على مسامعنا : " لم يعطنا يسوع سوى وصيّة واحدة . أَحبّوا بعضكم بعضاً مثلما أَنا أَحببتكم . " و هذا يعني ، يا أولادي ، كونوا طيّبين بعضكم مع بعض ، و اجهدوا في أَن يسعد أحدكم الآخر و اقتسموا أَشياءكم و حلواكم . "

و أَتبيّن ، اليوم ، كم حالفني الحظّ بأَن تفتّحت عيناي ، منذ طراوة عودي ، بفضل أُمّي و الكاهن ، على دينٍ لا يوحي بعقدة الذنب ، بل على دين منفتح على الآخرين ، و على

الفرح ، و متمحور على اللّه – الحبّ . و يقال لي اليوم أنّ مثل هذا الموقف كان نادراً آنذاك .

و سرعان ما أَدركت أَن كوني طيّبة ، و أَن أصبح أختاً رقيقة لأَخي الأَصغر لم يكن كافياً ، بل عليّ المضيّ إِلى أَبعد من ذلك ، مثل تقبّل رفيقة صفٍّ لي ، كانت تثير أَعصابي بتصنّعها القداسة . فالكاهن كان يردّد قول القدّيس يوحنّا : " إِن قال أَحد: " أحبّ اللّه " ، وهو يبغض أَخاه ، فهو كاذب . و كان ذلك يعني ، أَيضاً ، أَنّنا عندما نهب دُمانا للأولاد الفقراء ، عليّ أَلاّ أُعطي الدمية القديمة التي كنت أودّ التخلّص منها منذ زمان ، بل دمية جديدة ما زلت متعلّقة بها . و إِلاّ أَلا أكون كاذبة ، أَنا أَيضاً ؟ و سرعان ما أدركت أَنّ الحبّ ليس أَمراً هيّناً .

ثمّة شيء آخر . فعلى مدى حقبة متمادية واكبني الشعور الذي انتابني يوم مناولتي الأولى أي : أَنّ يسوع سيحبّني ، و سأستطيع تقبّله ، إِن أَنا اجتهدت في أَن أَكون طيّبة ، و أَقبلت على الاعتراف المتواتر . غير أَنّني ، منذ فترة قصيرة نسبيّاً ، فهمت فهماً كاملاً قول القدّيس يوحنّا : " أَمّا نحن فنحبّ لأَنّه ، هو ، أَحبّنا أَوّلاً . " فقد جهدت، طيلة معظم أَيّام حياتي ، جهداً مستميتاً ، لكي أَبلغ نصاعة النفس التي حدّثنا عنها الكاهن . و كان مثالي الأعلى القدّيسة تريزا الطفل يسوع . و إِرضاءً لحبيبي يسوع ، ناضلت كي أَكون في مثل طهر و طيبة قدّيسة ليزيو ، و صارعت كبريائي ، و عُجبْي ، و أَنانيّتي ، و كنت أُغالي ، أَحياناً ، في الصراع فأمتنع ، مثلاً ، عن الكلام لكيلا أَتلفّظ بحماقات . و منيت بالفشل ، و كان ذلك طبيعيّاً ، و اتّضح لي إِخفاقي في بلوغ القداسة ، ممّا جعلني أَنقم على ذاتي و على محيطي ، إِذ كنت منيعة الإِرادة ، وحريصة على الظفر بما أَبتغي .

و في السنوات الأَخيرة ، أَدركت معنى قول أَنّ يسوع أَحبّنا أَوّلاً ، و هو أَنّه يحبّنا كما نحن ، سواء اتّسمنا بالطيبة و الدماثة أَو لم نتّسم بهما ؛ و مذّاك بتّ أَكثر رفقاً بنفسي . و الآن ، عندما يتّفق أَن تساورني أَفكار عجب و كبرياء ، أَعود إِلى يسوع مبتسمة ، و أَنا عالمة أَنّه ، بأَيَّة حال ، يحبّني كما أَنا .

أَمرٌ لا يُصدَّق أَن يحبّ المسيح الناس كما هم ؛ لا بل أَظنّ أَنّه أَشدّ ميلاً نحو الأَكثر معاناةً من البؤس و النبذ . و أَنا ، إِذ يقطنني اليقين بأَنّه يحبّني حبّاً يدفعه إِلى بذل دمه و حياته من أَجلي ، أَلحظ أَنّني أَنهج مثل نهجه . فبقدر ما يكون الكائن بائساً، منبوذاً ، بشعاً ، دنيئاً ، فقيراً ، معدماً ، بنفس القدر يجتذبني ، بالمعنى الحرفيّ للكلمة ، حتّى لو هو حاول الإِساءة إِليَّ . و قد اتّفق لي ، أَثناء إِقامتي مع جامعي النفايات ، أَن تعاملت مع أُناس سحقهم البؤس بحيث كانوا عاجزين عن تصديق أَنّني قادرة على التفكير بمساعدتهم ، و قالوا فيّ

سوءاً ، في حين لم أَكن أَرى فيهم سوى معاناتهم السحيقة . إِنّني أومن أَنّ كلّ إِنسان ينطوي على نواة : روحه ، جوهره ، وكلّ ما يجعل منه إِنساناً ، و حول هذه النواة تتشكّل خصاله و عيوبه ، و كلّ منتجات تربيته ، و ثقافته ، و خبرة حياته ، و بيئته . هذه جميعها " أعراض " هبطت عليه من علُ ، و تشكّل ، حول قلبه ، نوعاً من الخَبَث الذي يخالط المعدن . و ما أَصدق قول الشاعر الفارسيّ : " أفلق قلب إِنسان تجد فيه شمساً " . و أَنا ، على مدى حياتي، التقيت قوماً قساة ، و قوماً أَشراراً ، و مع ذلك يسعني القول أَنّ ليس فيهم من لم أَجد فيه ثغرةً تتسرَّب منها أَشعّةَ شمس ...

و لكن في حديثنا عن الحبّ ، فلنحذر من خطر الانزلاق إلى السذاجة والحساسيّة المفرطة الزائفة . و أَظنّ أَنّني قد حُصِّنت في مواجهة هذا الخطر أَثناء فترة الابتداء . فقد كانت مرشدتنا محيطة بما نتعرَّض له ، نحن الفتيات ، من تجربة الوقوع في تقوى قائمة على الحساسيّة ، و لا تكفّ تردّد على مسامعنا : " الشعور ليس موافقة . فلا تقضينَ وقتكنّ في التساؤل هل تحببنَ أَم لا . بل اعملنَ ، و كنَّ نساءً قويّات " . كانت تدفعنا إِلى المضيّ دائماً أَبعد فأبعد ، إلى ما يتخطّى تعبنا ، ومزاجنا ، بغية تخطّي ما يدعوه باسكال " صغاراتنا " ، و اقترابنا من مواقع "عظمتنا".

و ما قيمة أَوهاننا مقابل الحبّ الجمّ الذي خصّنا به من مات من أجلنا ؟ ولطالما تأكّد لي أَنّنا عندما نبادر نحن بالحبّ ، على غرار المسيح ، فإِنّنا نحقّق المعجزات . فعلى سبيل الشاهد ، أَذكر أَنّني أَثناء زيارة مركز للأَحداث في لبنان ، لحظت صبيّاً في نحو الثانية عشرة من عمره ، يضرب و يهاجم ، بعنفٍ منقطع النظير ، كلّ من يدنون منه . و قد أَوضحت لي المرشدة : " لقد شهد هذا الصبيّ أمّه تُغتصَب و تُقتَل تحت ناظريه . و لم أَجد وسيلة لمساعدته سوى حبّه أَكثر من الآخرين " . و رأيتها تُجلسه إِلى جانبها و تقول له برقَّة : " لمَ تفعل هذا ؟ و أَنت تعلم أَنّ الجميع هنا يحبّونك ، و أَنّني ، أَنا أَيضاً ، أُحبّك " . و فيما كانت تحدّثه رأيت السكون يغطّي ملامحه . و عندما التحقت بي ، قالت : " من المحقّق ، أَنّه ينبغي إِعادة هذا القول كلّ يوم . غير أَنّ سورات غضبه اليائس آخذة في التضاؤل ..."

و قد طبّقتُ هذا الأُسلوب في قرى الصفيح ، و أَكّد لي أَحد جيراني أَنّه ما انقضى بضعة أَشهر على إِقامتي هناك حتّى تقلّصت أَحداث الشجار ، و أَخذ الرجال يقلعون عن ارتياد المقهى ، مع أَنّني لم أُلق ، قطّ ، عليهم مواعظ في الأَخلاق ، بل اقتصرت على حبّهم و احترامهم كما هم ، على نحو ما تلقَّــنت بمناسبة مناولتي الأولى.

و لكن لا يظنّ أَحدٌ أَنّني ملاك ، بل اتّفق أنّ ما طبعتُ عليه من عناد وسلطويّة قد أَفقدني بعضاً من معاونيّ ؛ و لكن عندما نلتقي ، بعد كلّ هذه السنوات ، نتعانق بلهفة ، فكوننا أَحببنا نفس الأَشخاص يوحّدنا .

و قد دفعتني في العمق تجربة أُخرى غالباً ما تجول في ذاكرتي ، وهي تعني لي أنّه يمكن تحرير الحبّ من جانبه الجسديّ ، لا بل من طابعه العاطفيّ . و كان ذلك في مركز لمصابين بإعاقات متعدّدة ، لم أعد أذكر في أيّ بلد . و بغتةً ، استحوذ عليّ الرعب حيال تلك الكائنات المشوّهة التي فقدت كلّ مظهر بشريّ ، و استولى عليّ دافع لا يُقاوم إلى مغادرة المكان . و لكنّ حَدَثاً استبقاني ، عندما انحنت المديرة على سرير كان يحتلّه شابّ مقعد ، متشنّج ، مشوّه الأَعضاء ، و أَخذته بين ذراعيها بحنانٍ جمّ . و كما حدث للصبيّ اللبنانيّ ، رأيت أسارير محيّاه الذي تنيره عينان بالغتا الاتّساع ، تنفرج شيئاً فشيئاً ؛ و لا ريب أَنّ شعوراً عذباً كان يجتازه . و قالت لي المديرة : " أُنظري ، يا أُختاه ، إنّه يصبح جميلاً . "

هذا ، في نظري ، هو الحبّ . الحبّ الحقّ يحوّل البشع جميلاً ، و الخبيث طيّباً .

الحبّ هو أعظم قوَّة في العالم ، لأنّها نابعة مباشرةً من اللّه الذي يرى ، في كلّ كائن بشريّ ، ما خلقه على صورته . في نظر أَب يسوع المسيح ، كلّ إنسان ، حتّى المتردّي إلى أَقصى دركات الانحطاط ، يرتدي جانباً محبّباً . و ليس هذا نظريّاً، فأَنا التي تتمتّع بإرادة صلبة ، و تظنّ نفسها ذكيَّة ، لو لم أَكن أَسبح في الحبّ الذي علّمناه يسوع ، لكنت ملت إلى الاعتقاد أَنّني متفوّقة على الآخرين . و لكن ، والأمور على ماهي عليه ، يستحيل ذلك . فمن يدع اللّه يعيش في قلبه لا يعود قادراً على ازدراء أيٍّ كان .

" من يأكل جسدي " – أَنا و الإفخارستيّا

عام 1920 ، كانت الحرب قد انتهت ، و عادت أُسرتنا الصغيرة إلى شقّتنا في بروكسيل . و قد شرعت أَدرس الإنسانيّات اليونانيّة – اللاتينيّة لدى " سيّدات مريم " . و كان صوت يسوع ، الذي سمعته لسنتين خلتا ، أَثناء مناولتي الأُولى ، والقائل " نفسي حزينة حتّى الموت " ما زال صداه يترجّع في قلبي . و ذات مساء ، عاد أَخي جول من مدرسته ، مدرسة القدّيس لويس ، متأثّراً شديد التأثّر ، و أَعلن : "لقد أَبلغنا الكاهن أَنّه بات بإمكاننا ، الآن ، أَن نتناول كلّ يوم " . و دفعني طبعي المشاكس الذي كان قد شرع يتأكّد : " هذا خطأ ، فالمناولة غير متاحة إلاّ يوم الأَحد". غير أنّ موقفي الحادّ لم ينل من ثبات أَخي جول الذي اعترض : " أَتزعمين ، يا مادلين ، أَنّك أكثر علماً من البابا نفسه ؟ "

– " أيّ بابا ؟ "

– " بيوس العاشر ، بالتأكيد ، فقد صرّح أَنّ كلّ مسيحيّ في حالة استعداد حسنة يسعه التناول يوميّاً "

يوميّاً ؟ ياله من حلم ! و خيّل إليّ سماع صوت يسوع يخاطبني : " أَتودّين المجيء إليّ كلّ يوم ؟ – " أَجل ، يا يسوع ، إنّني موافقة . و منذغذ ، سأنهض من النوم قبل الجميع ، حالما يقرع جرس كنيسة القدّيس نيقولاوس – في الساعة السابعة إلاّ ربعاً – و سأرتدي ثيابي بسرعة ، كي أجري إلى لقائك في قدّاس الساعة السابعة، قبل مثولي إلى المدرسة .

و لكن لم يصدّقني أحد حينئذٍ ، بسبب ما كنت عليه من طيش و مزاج متقلّب. و المدهش أَنّني ، منذ تلك السنوات البعيدة ، قد صمدت ، حتّى أَثناء فترة مراهقتي ؛ فحتّى عندما كنت في المساء أَنساق للّهو العابث ، كنت ، دائماً ، أَتدبّر أموري بحيث لا أُفوّت فرصة القدّاس . كيف لا ، و كان يستحوذ عليّ كلّ صباح انطباع بأَنّني أَجري نحو موعد حبّ ؟ و كنت أَهتف مع عروس نشيد الأَناشيد : " إجتذبني في إثرك ، فنجري "

مذ كنت في الثانية عشرة أدركت أَنّ الإفخارستيّا هي معين كلّ حياة روحيّة .

بالطبع ، بين سنّ الحادية و العشرين و الثانية و الستّين ، لم أواجه مشكلة ، ففي الدير كان يُحتفل كلّ يوم بالقدّاس . و لكن مذ استقررت في القاهرة ، باتت الممارسة شبه بهلوانيّة ، و لا سيّما في مجمّع الأَكواخ الثاني الذي أَقمت فيه ، مجمّع المقطّم القائم على مقربة من المقالع التي يقال أَنّها استخدمت لبناء الأَهرام . فمنذ الساعة الخامسة ، و فيما جامعو النفايات يكدنون حميرهم بعرباتهم ، و الليل ما زال صقيعيّاً ، لكي يشخصوا إلى وسط المدينة للمّ أَقذارها ، كنت أتدحرج على التلّة كي أَلتحق بحافلة مهلهلة تقودني إلى الحيّ الذي تقوم فيه كنيسة اليسوعيّين . و كانت تحيّيني أَصوات عواء ، و نهيق ، و قُباع من حيوانات تستيقظ ، و كنت أَحياناً أَلوي قدمي بدسّها في ثغرات وسط الأَقذار . غير أَنّ قلبي ، قلب العجوز ، كان

ما زال يخفق بمثل وتيرة خفقانه يوم كنت مراهقة . لم يتبدّل شيء . و حتّى اليوم يعلم جميع أَصدقائي أَنّني لا أُلبّي أَيّة دعوة إلى خارج مُعتكفي ، ما لم يواكبها ، في فترةٍ من النهار ، موعد إِفخارستيّ في كنيسة غير بعيدة .

و لطالما تساءلت : من أَين لي هذا الافتتان بالإفخارستيّا ؟ و بحثت فعثرت على الجواب في إنجيل يوحنّا . فبعد أَن حقّق يسوع معجزة تكثير الخبز ، قال للجمع الذي كان يتبعه : " أَنا الخبز الحيّ الهابط من السماء .... جسدي طعام حقيقيّ ، ودمي شراب حقيقيّ ، من يأكل جسدي و يشرب دمي يقيم فيّ و أَنا أُقيم فيه "

و يروي الإنجيليّ أَنّ كثيرين من الحاضرين استنكروا هذا القول اللامعقول . هل سيقطّع هذا الرجل جسده أجزاءً صغيرة ، و هل سيفتح شراينه ؟ و أَظنّ أَنّني لو كنتُ هناك ، على مقربة من بحيرة طبريّا ، لكنت انصرفت عنه مرتابةً ، غير مبالية. و لكن ظلّ هناك بطرس و التلاميذ الآخرون ، لم يشكّوا و لم يزورّوا عنه ؛ وعندما سألهم المسيح ، الذي يأبى أَن يُكره أَحداً : " هل تودّون الانصراف ، أَنتم أَيضاً ؟ " أَجاب بطرس الذي أوكل يسوع إليه الكنيسة : " ربّ ، إلى من نذهب ، وعندك كلام الحياة الأَبديّة ؟ "

الحياة الأَبديّة ، أو بعبارة أَكثر حداثة ، تنامي الحياة و الازدهار ، هذا ، بالتحديد ما توفّره لي ، منذ أَمدٍ بعيد ، المناولة اليوميّة . و لكن بوسعي التأكيد أَنّ الجاذب كامن فيه ، هو ، يسوع المسيح . و إلاّ فما الذي كان يدفع فتاة في الثانية عشرة ، متدفّقة اندفاعاً و عبثاً ، إلى المضيّ و الجثوّ في الصباح الباكر البارد ، برفقة كاهن عجوز ، و ثلاثة أو أَربعة أَشخاص مغفلين ؟ إنّه هو ، العارف بأَسرار الإِنسان، الذي كان يعرف ضرورة تهيئة تلك الفتاة ، التي ما برحت هشّة ، و طائشة، للتصدّي للمخاطرة الفريدة التي يعدّها لها ، مخاطرة سيتعيّن عليّ فيها بذل كلّ طاقتي و كل قابليّتي للحياة ، في سبيل غوث الآخرين ، و لا سيّما الصغار منهم ، على الوجود .

" يقيم فيّ و أَنا أُقيم فيه " ، لست أَجد خيراً من أَلفاظ الكتاب المقدّس هذه لمحاولة وصف العلاقة الحميمة التي ترسّخت بيني و بينه من خلال ذلك الجسد الذي أَتناوله كلّ يوم . لقد غدا لي الكلّ المطلق ... الفكرة الأولى التي تراودني عند استيقاظي هي : " فلأَنهض ، سريعاً ، من أَجل يوم جديد معك ، يا يسوع ! " و في المساء ، و أَنا أُخلد للنوم ، أدعوه : " شكراً ، يا يسوع . أَظنّ أَنّنا أَحسنّاالعمل معاً". وعندما أدرك كلّ تلك المعاناة البشريّة المحيقة بي ، أخاطبه بصراحة : " بادر إلى غوثي . تكلّم ، أَنت ، عبر شفتيّ . و هبني حنانك لكي أواسي الآخرين ". يستوضحونني ، أَحياناً ، عن سرّ حيويّتي . أَلا فاعلموا أَنّه ، هو ، يسوع المسيح ، إنّه نفس كياني ، و قوّة وهني ، و فرح قلبي . هو الذي يبقيني فتيَّة جيّاشة بالحياة ،

متأهّبة للانطلاق إلى أَقاصي الدنيا من أَجل إغاثة بائس . تقول عروس نشيد الأناشيد: " أَنا لحبيبي ، و حبيبي لي " . و تخاطبه مباشرة فتتوسّله : " ضعني مثل ختم على قلبك ، و مثل وشم على ذراعك . و لن يستطيع الغمر إطفاء الحبّ ".

أُسأل أَحياناً : "ما الذي يحدث أثناء المناولة ؟ " و الجواب ليس سهلاً . أَنا لستُ ، بالسليقة ، متهوّرة ، و أتحاشى عن كلّ حساسيّة زائفة . فلا أَرى يسوع ، و لا أَلمسه ، و لا أُحسّ بوجوده إلى جانبي ، بل أَعلم أنّه هنا ، حاضر، هذا كلّ ما في الأمر . و ما أَعيشه معه هو علاقة حبّ حقيقيّة ، تتجدّد و تترسّخ كلّ صباح ، و لم يستحوذ عليّ قطّ ، على الإطلاق ، أَيّ شعور بالرتابة ، في المناولة .

و إذن ، فما الذي يحدث ؟ إنّه شيء من عالَم آخر ، و لكنّني واثقة من أَنّه جزء من العالم الأرضيّ . إنّه يحاكي ، إلى حدّ ما ، الشمس الموجودة في كلّ مكان ، و غير المحصورة في مكانٍ معيّن . و عندما أرى الشمس في أَيّ مطرح ، سواء في مُعتَكفي ، أو على الدرب الذي أسلكه صوب المصلّى ، أمضي إليها تلقائيّاً ، التماساً لنورها و حرارتها . و يمكن مقارنة ما يجري ، عندما أتناول ، بهذا السعي نحو الشمس .

و عندما أَتناول أَصمت (و صمتي ، لدى من يعرفونني ، أمرٌ نادر) . إنّ العلاقة التي تزوّدني بالحياة علاقة صامتة ، و ليس في ذلك ما يدهش . فقد لحظت أَنّ أَخطر الفترات ، أَثناء اللقاآت ، هي التي يخيّم عليها الصمت ، و التي تتيح للكلمات التي قيلت أَن تتسلّل إلى القلب . و أنا ، أَثناء المناولة ، أَدع حبّ المسيح ينساب إلى ما سمّاه القدّيس فرنسيس الأسّيزي " حبّة النفس " . و حبّة النفس هذه لا تُرى ، و لا تُلمَس ، و لكنَّها جزء من أعماق الكيان ، و هي ما يجعلك " أَنت " ، و ما يجعلني " أَنا " إلى أَقصى مدى . و هكذا يلتحم به كلّ يوم ، التحاماً أكبر ، صميم كياني، و يزداد تفاهمنا ، لأنّه هو و لأنّي أنا على حدّ قول " مونتيني" . إنّ ما يعوق لقاء اللّه اليوم هو الافتقار إلى فسحات صمت ، فكثيرون ، عبر العالم ، ينهضون وهم يصغون إلى المذياع ، و يظلّ رأسهم ، سحابة النهار ، حافلاً بالضجيج ، و الصوَر السطحيّة ، و يعسر عليهم الإنكفاء على ذواتهم ، و الظفر ببضع دقائق صمت . ومن ثمّ تلزم قوّة مراس خارقة لكي يجرؤ المرء على التوقّف ، و إحلال الصمت ، والإنصات إلى اللّه الذي يتكلّم إلى قلبه .

إنّني أَتذوّق أَقوال الكتاب و أدعها تنساب إلى أَعماقي ، مثل هذا القول الوارد في الفصل السادس من إنجيل يوحنّا و الذي أوردته آنفاً : " من يأكل جسدي يقيم فيّ". إنّني أُحبّ جدّاً لفظة " يقيم " فأنا أومن بعمق أنّ روح اللّه يقطن الإنسان و يحرّكه ، من غير أَن يغيّر ، بالضرورة ، مزاجه أو طباعه . و لكنّني أَعلم أَنّ هذه العلاقة التي أَعيشها مع اللّه ، في

المناولة ، تمسّ أَعماق كياني ، علاقة تجعلنا ، في آنٍ واحد ، أَكثر إنسانيّة ، و أكثر إلهيّة . و قد تبيّنت ، بدهشة ، مع كرّ السنين ، أَنّني أَصبحت أَشدّ أنوثة و أوثق قرباً من اللّه .

و يمكن إيراد مثل آخر ، أَورده المسيح نفسه ، و هو مثل الطعام . فوجبة الطعام ، مثل القدّاس ، تكاد لا تدوم أَكثر من نصف ساعة ، و لكنّ المرء يخرج منها متحوّلاً تحوّلاً تامّاً . فأنا ، على سبيل الشاهد ، قد أَلِفت ، عندما يعتريني التعب ، تناول قطعة من الشوكولاته السوداء ، و إذا بي ، بعد بضع دقائق ، على أهبة لاستعادة العمل . على هذا النحو – و لكن مع فارق كبير – تفعل المناولة . فعلاقة حبّي بيسوع تجدّد قواي الروحيّة . و مثلما يتحوّل الخبز – تحوّلاً لا ندرك كهنه جيّداً– إلى لحم و دم ، يتحوّل جسد المسيح ، فيّ ، إلى طاقة تدفعني إلى الكفاح من أَجل مجد اللّه ، الذي هو، وفقاً لقول القديس إيريناوس الرائع ، " الإنسان الحي " .

و مثلما أَحتاج إلى طعام ، كذلك أَحتاج إلى تجديد قواي كلّ يوم ؛ و في الحالات النادرة ، حالات قوى قاهرة كالمرض ، التي لم تتعدّ عشر مرّات منذ كنت في الثانية عشرة ، و التي تعذّر عليّ فيها التناول ، افتقرت ، في كلّ مرّة ، إلى شيءٍ جوهريّ .

هذه هي تجربتي الشخصيّة ، و لست أَزعم جعلها قاعدة مطلقة ... و في رأيي، أَنّه ليس من الضروريّ أَن يكون المرء مسيحيّاً لكي يعيش السرّ ؛ فما هو السرّ ؟ إنّه علامة مادّيّة تصبح رمزاً لحبّ اللّه للبشر . و أَنا ، شخصيّاً ، أرى إحدى قمم الإنجيل في مقطع إِنجيل متّى الذي يصف الدينونة الأَخيرة : " تعالوا ، يا مباركي أَبي، ورثوا الملكوت المُعدّ لكم منذ إنشاء العالم ، إذ إنّكم عندما جعت أطعمتموني ، وعندما عطشت سقيتموني ، و عندما كنت غريباً استقبلتموني ، و عندما كنت عارياً كسوتموني ، و في مرضي عدتموني ، و عندما سجنت زرتموني " . و لمّا استوضح الأَبرار المسيح ، دهشين : " و لكن ، يا ربّ متى وجدناك عرياناً و جائعاً ؟ " أَجابهم: " إنّ ما فعلتموه لأَصغر إِخوتي ، فلي فعلتموه " . و لقد أَكّد جميع كبار القدّيسين أَنّ من يقسم ما لديه مع المحتاجين ، و من ينحني على مريض أو بائس ، فهو إنّما يلمس جسد المسيح .

و إنّني أعرف قوماً ليسوا ميسحيّين ، يبذلون ذواتهم بالكامل في سبيل قضايا عصيبة ، و يبدون لي ، على نحوٍ ما ، " مسيحيّين " أَكثر منّي . من الواضح أَنّ الإِفخارستيّا ، و حدها ، لا تكفي . فإن أَنا اقتصرت على التناول ، في الصباح ، و لم أُعمّق ، أَثناء النهار ، السرّ الآخر المتمثّل في علاقتي بالآخرين ، لانتهيت إلى هلاك.

كلّ ما يسعني قوله أَنّني ، أنا التي تشعر أَكثر فأكثر بوهنها ، قد احتجت ، وما زلت أَحتاج ، إلى هذا الغذاء الذي توفّره لي الإِفخارستيّا ، التي عرفتها ، لكوني كاثوليكيّة ، و لكنّ

للربّ الكليّ القدرة وسائل و طرقاً أُخرى كي يعلن للبشر عن الحبّ الذي يجسّده يسوع المسيح .

" نحو سعادة كبرى " – ولادة دعوة

كنت ما زلت حديثة السنّ عندما أَسرني كتاب للأَطفال عن المرسلين ، فأعلنت جهاراً لأسرتي التي استقبلت إعلاني بالشكّ ، أنّني ، فيما بعد ، سأصبح مرسلة و شهيدة . و لكنّني ، في الواقع ، عشت كلّ سنوات مراهقتي في ضربٍ من الأَرجحة بين صباح و مساء – ففي الصباح ، كنت أتَذوّق فرحاً ساجياً عميق الغور ، في صلاة الإفخارستيّا الصامتة ؛ و لكن ، وا أَسفاه ، كان فرحاً قصير الأَمد .

و بعد المدرسة ، كنت أَنجرف إلى دوّامة من أَلعاب التينس ، و النزهات ، والسهرات الراقصة ، و اللقاآت مع شبّان وسيمين ، و كنت أَنا محرّك الجماعة . كنّا نلهو لهواً مجنوناً ،

و كنت شديدة العناية بأناقتي . و لكن عندما كنت أعود إلى البيت، في المساء ، كانت تعاودني صورة أبي الذي اضمحلّ سريعاً ، و يجتاحني،من جديد، شعور بفراغ مريع ، فأُخاطب نفسي : " ما نفع كلّ كنوز الأرض هذه ؟ و ما قيمة كلّ هذه الملذّات التي تأخذ بلبّي ؟ إنّها كالزبد الذي لا يبقى منه في اليد سوى بعض ماء مالح " . و حينئذٍ كان يترجّع في نفسي صدى قول يسوع للشابّ الغنيّ : " إن شئت أن تكون كاملاً ، فامضِ ، و بع كلّ ما تملك ، و أعطه للفقراء ، فيكون لك كنزاً في السماوات ، ثمّ تعال و اتبعني " . غير أنّني ، في الغداة ، كن أنخرط في دوّار ملذّات عمري ، و الألبسة الأنيقة ، و القبّعات الجميلة .

و كان النداء يصبح ، أحياناً ، أشدّ إلحاحاً ، و أكثر وضوحاً ، و لا سيّما عندما أسترجع مقاطع من الإنجيل ، مثل هذا المقطع من إنجيل متّى: " قُدّم ليسوع صغار ليضع يده عليهم و يصلّي ، فزجرهم التلاميذ ، أمّا يسوع فقال : " دعوا الأولاد الصغار و لا تمنعوهم من المجيء إليّ ، فإن لمثل هؤلاء ملكوت السموات " . إيثار يسوع هذا للأكثر وهناً كان يجعلني أحلم . فما أجمل المضيّ معه في سبيل خدمة الأصاغر ، و إطعام الجياع ! في ذلك كنت أتوسَّم مُطلقاً يستهويني ، و كنت حينئذٍ أُجيب يسوع : " أجل ، يا ربّ ، سأكرّس نفسي ، جسداً و روحاً ، للصغار . فكم منهم ، في العالم ، يحتاجون إلى من ينقذهم من البؤس ! " نوايا طيّبة ، أزاهير صباح سرعان ما تجفّفها شمس الظهيرة ، حالما كنت أعود فأغوص في مباذلي

غير أنّها كانت متعات بريئة ، فالبيئة المحيقة بي كانت طيّبة ، متناغمة ، لا تنطوي إلاّ على القليل من الغوايات ، فأسرتي بقيادة أُمّي ، تلك المرأة الحازمة ، كانت تنعم بتوازن تامّ . و من ثمّ لم يكن يتعيّن عليّ خيار ، من نمطٍ مانويّ ، بين "العالم " ، و ملكوت السماوات ، بين الخطيئة والسعي نحو الكمال . بل كانت المشكلة تنبع منّي ، من هشاشتي الشخصيّة ، من مزاجي النّهِم الذي كان يجعلني " أدبق " بالملذّات . و كنت أُدرك بوضوح أنّني ، باستمراري على هذا النهج ، كنت أنتقل من خيبة أمل إلى خيبة أمل ، و أنّني "أحرق " حياتي . ثمّ كان هناك ذلك النداء الذي يتنامى إليّ كلّ صباح أثناء الإفخارستيّا .

و أذكر أنّني ، ذات يوم ، و قد ضقت ذرعاً بذلك التمزّق المستمرّ ، انتهيت إلى مناشدة الربّ بصراحة : " قل لي ، أخيراً ، أتحبّني أم لا ؟ أتريدني أن أتبعك بتكريس ذاتي لخدمة الأطفال ؟ إذن أخرجني من هذا المأزق ، أعتقني ! " بعد بضعة أسابيع ، أذنت لي أمّي بالشخوص إلى مركز ابتداء جمعيّة راهبات سيّدة صهيون التي كنت قد زرت ، في لندن ، فروعاً لها تؤوي أولاداً فقراء ، و تركتْ فيّ أثراً بالغاً . وإنّما فعلت أمّي ذلك لثقتها بأنّني لن أصمد أكثر من أسبوع واحد . و هكذا ، في أحد أيّام ربيع 1929 – و كنت آنذاك في

الحادية و العشرين – قرعت باب دير تلك الجمعيّة في باريس ، و قد استحوذ عليّ شعور رائع بالانشراح ، و ما زلت أذكر فرحي عندما ارتديت ، في اليوم الأوّل ، الثوب المتقشّف و غطاء الرأس المضحك الذي كانت ترتديه المبتدئات في حينه . فقد أشرفت على الانعتاق من شياطيني ، وعلى الاندفاع بكليّتي في البحث عن المطلق .

و عندما أتطلّع اليوم إلى الوراء ، أظنّ أنّني ، مع ما فطرت عليه من طبع جيّاش و نزعتي ، في كلّ شيء ، إلى الأقصى ، كان بوسعي انتهاج درب آخر . ولا يغربنّ عن البال أنّه ، في الثلاثينات ، لم يكن لفتيات الأُسر الكريمة من خيار سوى الزواج أو الحياة الرهبانيّة . و كانت أُختي ماري لويز قد تزوّجت ، في كثيرٍ من الأبَّهة ، غير أنّني لم أكن أَحسدها على الإِطلاق ، فكلّ الفتيان ، و كلّ الرجال الذين كنت أَلقاهم ، كانوا يبدون لي أقزاماً و باهتين بالقياس إلى " حبيبي "

أَمّا النشاط المهنيّ فكان مرفوضاً في مثل بيئتي ، و كانت الجامعة ما برحت حكراً على الرجال . و كان قد استهواني العمل الاجتماعيّ ، و حاولت التقرّب من الشبيبة المسيحيّة العاملة ؛ و لكن عندما انبريت للعمل و قلبي شعلة نار ، كُلّفت بنسخ عناوين ! و قمت ، أَحياناً ، بزيارة فقراء ، و لكن ذلك أَيضاً لم يكن يلبّي حاجتي إلى العمل الفعليّ و العلاقات الحقيقيّة . بوسع فتاة اليوم تحدوها مثل تطلّعاتي الانخراط في أيّ نشاطٍ إنسانيّ ، و المضيّ إلى العالم الثالث ، ممتهنة أو متطوّعة ، أو بصفة مساعدة إجتماعيّة . أَمّا أنا ، فلا ؛ أَنا مادلين سانكان ، مع ما كنت عليه – و ما زلت عليه – من طباع ، كان لا بدّ لي من دخول الدير كي أُصبح الأُخت إيمّانويل . فلو أَنّني انصرفت إلى نشاطٍ اجتماعيّ ، باقية في العالم ، لأَظنّ أَنّه عسُر عليّ الصمود في وجه مغرياتٍ من كلّ نمط: الرفاه ، و الشراهة ، و المُتَع السهلة المنال ، بل حتّى العلاقات مع الرجال . و أعرف ، يقيناً ، أَنّني كنت أَصبحت تعيسة !

و لا مفرّ لي من التأكيد أَنّني ، باختياري هذا ، قد آثرت نشدان سعادة كبرى. و كلّ ذلك عائد ، دائماً ، ليسوع و لما يمارسه عليّ من فتنة . فعندما أحدّق فيه أَشعر أَنّني مدفوعة إلى تجاوز ذاتي ، و تستولي عليّ السعادة ، و أونس ، على حدّ قول المزمور أَنّ " لا شيء ينقصني " . لثلاث سنوات خلت عندما خضعت لأوامر رئيساتي ، و غادرت القاهرة كي استقرّ هنا ، تلقّيت رسائل عديدة تقول : " أَيَّتها الأخت إيمّانويل المسكينة ، ما أتعسك ! و أَيّة تضحيّة ستحتملين ! " غير أَنّني لا أعرف للفظة التضحية معنى ، فبمجرّد أَن أكون على علاقة دائمة و مباشرة بيسوع المسيح – كما هو حالي – لا أَفتقر إلى أَيِّ شيءٍ آخر لكي أكون سعيدة . إنّني سعيدة بعيشي هذه العلاقة .

و تسوغ المقارنة بالحبّ البشريّ . فعندما نحبّ أَحداً ، نبذل كلّ ذاتنا ، بيد أَنّ ما يقلقني هو ملاحظتي ، و لا سيّما بعد إيابي إلى فرنسا ، أَنّ بشر اليوم يفقدون ، شيئاً فشيئاً ، معنى الحبّ ، أَعني الحبّ الحقيقيّ . فما أكثر أَصداء الطلاقات التي تأتيني من أَصدقائي و مراسليّ . فحتّى بعد سنوات زواج طويلة ، يلتقي أحد الفريقين – الرجل في الغالب – شخصاً أوفر فتوّة و جاذبيّة ، ولا يلبث أن يتّخذ شريكاً جديداً لحياته . و غالباً ما يعود إلى حبّه الأوّل عندما ينثلم الجاذب ، و يلوح طيف أَيّام الشيخوخة . و تقلقني أَيضاً رؤية شبّان اليوم ، الذين يمتلكون غالباً كلّ ما يلزمهم لضمان "حريّتهم " من سكن ، و مال ، و سيّارات ، ووسائل منع الحمل ، يستسهلون الاستغراق في تجارب الحبّ ، الواحدة تلو الأخرى ؛ مع أَنّهم في الغالب ، يشعرون ، و لو بشيء من الإبهام ، أَنّ ثمّة شيئاً آخر . ولكن أَين القدوة التي يتأسّونها ، و من يعلّمهم تعميق علاقاتهم ؟

العلاقة ، هذه ، في رأي ، هي الكلمة الجوهريّة . فما يسعد الانسان لا يكمن، كما تحاول الدعاوة إِيهامنا ، في المستحدثات الرائجة ، و لا في الثروة ، و لا في السلطة ، بل في نوع العلاقات التي تربطه بالآخرين .

علامَ يدهش غالباً الغربيّون المتبصّرون الذين يسافرون إلى بلدان العالم الثالث بمظاهر البهجة المتبدّية على سكّان تلك البلاد ، حتّى أَشدّهم فقراً ؟ و لمَ ، أَنا نفسي ، تمكّنت من عيش أَسعد سنوات حياتي في أَكواخ القاهرة الزريّة ؟

السبب يكمن في نوعيّة العلاقات القائمة بين أَعضاء تلك الجماعات – فالرجل – و المرأة أَيضاً – يحتاج حاجةً حارقة إلى أَن يُحَبّ ، لذاته ، لا لشكل أذنيه أو لون عينيه . و هو أَيضاً يحتاج أن يُحِبّ كائناً يبدو له جديراً بالحبّ . نحن لسنا مثل الحيوانات التي تكتفي بالأَكل و الشرب و التكاثر . فالإِنسان ، على نحو ما براه الله ، عاجزٌ عن إِرضاء كيانه الصَّميم بمفرده . إنّني لا أَكفّ أُقلّب في خلَدي هذه المفارقة : في أفريقيا و في آسيا يموت جوعاً أولاد و كهول . أَمّا في أوروبا – كما أَعلم ممّا يردني من رسائل – هناك بالغون يقضون نحبهم افتقاراً إِلى علاقاتٍ حيّة و بنّاءة مع بشر آخرين . ثمّة الفراغ و هو أَسوأ من الوحدة ، و هذا ما يفسّر ، بلا ريب ، الإقبال الشديد على تربية الحيوانات الأَهليَّة ، عندنا . ففرنسيّون كثيرون ، على نحوٍ خاصّ ، يحوّلون إلى كلب أَو هرّ حاجتهم إلى أن يُحِبّوا و يُحَبّوا . و إنّني لأَفهمهم : فالحيوان، و إِن عجز عن تلبية تلك الحاجة تلبية كاملة ، يخفّف من وطأة الشعور بالافتقار إليها.

لقد أَحسن القدّيس أوغوسطينوس القول : " لن يستكين قلبنا ، يا ربّ ، حتّى يستكين فيك " إن كلّ إنسان ، أَيّاً كان ، و حيثما ولد ، يعاني من فراغ ، من " فقدان " مثل ذاك الذي مزّق نفسي إثر وفاة والدي . فعليه أَن يتطلّع إلى ما هو أسمى من الأرضيّ .
من خلال الآلام و الأفراح التي نعهدها على هذه الأرض ، و من خلال الحبّ البشريّ الكفيل بردم شيء من الفراغ ، نصبو إلى من يتخطّانا ، إلى اللّه .

يسوع قوّتي

في نحو العشرين من عمري ، عندما فاتحت مرشدي الروحيّ بعَزْمي انتهاج الحياة الرهبانيّة ، إِعترض قائلاً : تحدِّثيني عن دعوة رهبانيّة ، و لكن ليس لديك ما يعدّك لها ، فأنتِ كَلِفة باللّهو " . غير أَنّني كنت قد قرأت هذه العبارة للقدّيس بولس ، و قد انحفرت بعمقٍ وقوَّة في ذاكرتي : " أستطيع كلّ شيء مع من يقوّيني " . " كلّ شيء " : عبارة قويّة . و إِن أَنا استطعت كلّ شيء ، مع المسيح ، فسأقوى على التآلف مع الحياة الرهبانيّة . و قد خَبَرتُ هذا القول يوميّاً ، و قويت على كلّ شيء ، لا بمفردي ، بل مع المسيح . ليست الحياة

الرهبانيّة سهلة ، فنحن نقتسم آلام وتجارب الرجال و النساء المحيقين بنا ، غير أَنّني ، مع يسوع ، و ممسكة بيد أُمّي العذراء ، تغلّبتُ على كلّ محنة .

و مررت بمرحلة شكٍّ مضنٍ ؛ و ألممت بمختلف الديانات ، فعثرت ، في كلٍّ منها ، على ومضات و أَشعّة نور ، و لكن في المسيح لم أَجد مجرّد أشعّة ، بل الشمس في كلّ بهائها تنير قلب الإِنسان . و في حومة شكّي ، تردّد في ثنايا نفسي قول القدّيس بطرس ، بعد أَن أَعلن يسوع : " من يأكل جسدي و يشرب دمي ، تكون له الحياة " ، فازورّ عنه كثيرون ، و حينئذٍ التفت يسوع نحو تلاميذه ، و قال : " هل تودّون أَن تنصرفوا ، أَنتم أَيضاً ؟ " فهتف بطرس : " إِلى من نذهب ، يا ربّ ، فلديك كلام الحياة ! " و قد خلصت إِلى إِدراك أَنّ اللّه لا يتجلّى إلاّ لمن يمتلك قلب طفل . أَمّا من ينهج نهج " فيلسوف "، زاعماً بلوغ اليقين ، عبر الحجج و البراهين ، فالمسالك، أَمامه ، مسدودة . و في حين قال يسوع : " إِن لم تعودوا فتصيروا مثل الأَطفال ، لن تدخلوا ملكوت السماوات " ، كنت أَزعم القدرة على اقتحام الباب بعقلي. و بالتالي أَحرقت كتبي و دفاتري و احتفظت بالإِنجيل ؛ فعلى حدّ قول باسكال ، ليس اللّه إله الفلاسفة و العلماء ، بل هو يتجلّى لقلب البشر ، و يكلّم قلب الإِنسان المتواضع .

إِنَّ السعي نحو اللّه يقتضي تأَهُّباً قائماً على صوغ أَسلوب وجود يدعم العلاقة باللّه . و أسلوب الوجود هذا الذي يمكّن من لقاء اللّه ، نعثر عليه في اقتدائنا بالعذراء.

و فيما بعد ، عندما شهدت هوّة البؤس المريعة التي يثوي فيها جامعو النفايات، اجتاحني شعور بأَنّ كياني كلّه يهتزّ ، و بأَنّ حياتي تميل في منحى جديد . كان ، ثمّة ، ما يجتذبني بعنف و خيّل إِليّ أَنّ المسيح نفسه كان يكلّمني قائلاً : " تعالي إِلى هنا ، و امكثي هنا ؛ أَعطيني عينيك لكي أرمقهم بحبّ ، أَعطيني رجليك لكي أَمضي إِليهم ، إِلى كلٍّ منهم ، بحبّ ، و لكن أَعطيني ، خاصّة ، قلبك ، قلب امرأة ضيّقاً ، أَنانيّاً ، مغروراً ، بكلّ حدوده ، أَعطينيه كي أَسكب فيه سيل حبّ . دعيني أُحبّهم " . و هتفت : نَعَم ، يا ربّ .

يسوع المسيح ، معلّم الحبّ

مرشدتنا ، في فترة الابتداء ، الأمّ ماري ألفونس ، كانت امرأةً تقرن إلى الذكاء الحادّ الواقعيَّة و روحاً مسيحيّة راسخة ، و كانت قد استهدفت تحويلنا ، نحن الفتيات الهشّات اللواتي تتروح أَعمارهنّ بين سبع عشرة و عشرين سنة، إلى "راهبات صدمة " أَي إلى نساء متمكّنات من تجاوز هشاشتهنّ ، و حساسيّاتهنّ النسائيّة، و كفيلات ببذل ذواتهنّ ليلَ نهار للآخرين . و قد أَلِفت أَن تقول لنا : " يا بناتي ، عليكنّ تلقّن المعرفة التي طالما تجاهلها العالم ، معرفة الحبّ " . و من المحقّق أَنّها لم تكن تعني الحبّ الذي يميل إِليه الإنسان تلقائيّاً ، الحبّ الذي يسعى ، في المقام الأوّل ، إلى ملذّته الخاصّة ، بل ، على حدّ تعبيرها " الحبّ العطاء الذي يلتمس في المقام الأوّل سعادة الآخرين "

لقد دمغتني تلك المرأة القويّة في الصميم ، و سحابة سنتي الابتداء اللّتين تابعتهما في باريس ، تمكّنت من تثبيت و ترسيخ الحدْس الذي راودني منذ طراوة عودي ، و الذي ما انفكّ

هو صميم كياني اليوم : أَنّ حبّي النابض للمسيح ، و حبّ كلّ كائن بشريّ ، إِنْ هما إلاّ توثّب واحد .

... من خلال مطالعتي للإِنجيل ، و تعليقي عليه ، و تأمّله ، اكتسبت معرفة سرٍّ مذهل يحيط بكائن فريد ، سرّ رجل ولد ، و نما ، و عمل ، و أكل و نام مثل جميع البشر و لكنّه ، في آنٍ واحد ، كان ابن اللّه ، و مرسل الآب ، و المعلن : " أَنا الطريق و الحقّ و الحياة . "

و شيئاً فشيئاً شرعت أَكتشف ، من خلال أَعماله و تعاليمه ، على نحو ما بلّغتنا إيّاها الأَناجيل ، معنى الحبّ ، أَو ، بدقّةٍ أكبر ، ما يمثّل الحبّ – العطاء .

فقد جاءه ، ذات يوم ، الكتبة و الفرّيسيّون – أَيّ أولئك الذين كانوا ، حتّئذٍ ، يصنعون الشرائع – بامرأة قُبض عليها متلبّسة بحالة زنى ، و كانت غايتهم الجليّة إيقاعه في شرك ، فقالوا له : " لقد فرض علينا موسى ، في شريعته ، رجم مثل هذه المرأة ، فما قولك ؟ " ، فجاء جواب يسوع لاسعاً ، كالسهم : " من كان منكم بلا خطيئة فليبدأ و يرجمها " . و يلحظ الإنجيليّ ، في إشارة أَستعذبها ، على نحوٍ خاصّ: " فانسلّوا الواحد تلو الآخر ، بدءاً بالشيوخ " . أَمّا يسوع الذي ظلّ وحيداً مع المرأة ، التي كانت ، لا ريب ، ترتعد خشية، فقال لها : " أَنا أَيضاً لا أَدينك . فامضي و لا تعودي إلى خطيئتك بعد "

لطالما تأمّلنا هذا الحادث ، في صمت الابتداء . يا له من رجل ، يسوع هذا ! و يا لأسلوبه في تخطّي الشرائع ، لأنّ أَباه ، حسب روايته لنيقوديموس ، أَرسله إلى الأَرض ، لا لكي يدين العالم ، بل لكي يخلص به العالم . و هو ، مع علمه بكلّ ما في الإنسان ، و إحاطته بكلّ خصالنا و أوهاننا ، يلقي على تلك المرأة نظرة من فوق، نظرة عطف . و هو يطالبنا بأَن نرمق القريبين منّا بنفس النظرة ، و هذا ما قاله لكاترين السييناّويّة : " لا تديني بل تعاطفي " . و أنا كنت أُصلّي: " يا ربّ ، إنّك عالم بأَنّني لو كنت هناك ، يومها ، لوقفت إلى جانب الفرّيسيّين ، فإنّني أَظنّ بنفسي خيراً جزيلاً ، و أطالب الآخرين بالكثير ، و أَقضي وقتي في الإِدانة ، فهبني نظرة حنانك و عطفك ! "

فهل أَفلحت في امتلاك هذه النظرة ؟ الله وحده يعلم ، مع أَنّني ، مع كرّ السنين ، قد اكتسبت مزيداً من التسامح . بيد أَنّ ما أعرفه حقّاً ، هو أَنّني ، مرّات عديدة ، دفعت إلى تحدّي القانون ، و التغاضي عن أَحكام البشر ، و لا سيّما عندما كان يتعيّن عليّ الدفاع عن أَصدقائي جامعي النفايات إزاء السلطات ....

التعاطف ، و التسامح ، و الرأفة ، و الغفران بنحوٍ خاصّ ، كلّ هذه المشاعر و كلّ هذه الأَفعال التي يصعب علينا ممارستها ، نحن البشر الضعفاء ، تربطنا مباشرة بحبّ يسوع المسيح ...

و كان عمل الصفح الذي ترك فيّ أَبلغ أَثر ذاك الذي قام به رجل مسلم فقير في القاهرة ، اسمه محمّد ، وجده ، يوماً ، جيرانه مطروحاً أَرضاً أَمام بيته ، لا يقوى على الحركة ، مثخناً بالجراح . و عندما زرته في الغداة، قلت له : " تعالَ معي إلى مركز الشرطة ، فينبغي أن تقدّم شكوى " . و لكنّ محمّداً أجاب بجرسٍ خافت سمعته بمشقّة : " لا ، لا أريد أَن أَشتكي ، فمن فعل بي ذلك ، لم يكن يعرف ما يفعل " . يا للغرابة ! فهذا الرجل ، الذي من المؤكّد أَنّه لم يسمع قطّ بالإنجيل ، تلفّظ بنفس كلمات يسوع على الصليب .

أَثناء الابتداء ، كان أسبوع الآلام يرتدي جلالاً خاصّاً ، و كانت جسامة سرّ الحبّ المعاش حتّى النهاية تغمرنا ، رغماً عنّا ، بالصمت . و ما زلت أَذكر تأثّري البالغ عندما سمعت ، للمرّة الأولى ، الأُمّ ماري أَلفونس تقرأ على مسامعنا مطلع الفصل الثالث عشر من إِنجيل يوحنّا : " قبل عيد الفصح ، و كان يسوع يعلم أنّ ساعة انتقاله من العالم إلى الآب قد أَزفت ، و قد أحبّ خاصّته الذين في العالم ، أَحبّهم حتّى النهاية " و كيف أَحبّهم حتّى النهاية ؟ بوضع ذاته في خدمتهم . و يتابع الفصل : " أَثناء الطعام ، و فيما كان إِبليس قد أوحى ليهوذا الإسخريوطي ، ابن سمعان ، بتسليمه ، و كان يسوع عالماً بأَنّ الآب أودع كلّ شيء بين يديه ، و أَنّه من الآب أتى ، و إِليه سيعود ، نهض عن المائدة ، و خلع معطفه ، و ائتزر ، و سكب ماء في إِناء ، و أَخذ يغسل أَرجل تلاميذه ،و يمسحها بمئزره ". يومها كنت ما برحت مبتدئة في " علم الحبّ " الذي علّمه المسيح ، و كدت أَهتف علىغرار سمعان بطرس: " أَ أنت تغسل رجلّي ، يا ربّ ؟ أَبداً ! " . هو ، اللّه المولود من اللّه ، النور المولود من نور ، جثا أَمام تلك الجماعة من الأَشخاص المساكين ، و هو عالم أَنّ أَحد أَفرادها قد سبق له أَن " باعه " بثلاثين درهماً فضيّاً . لماذا ، يا ربّ ؟ بقيّة النصّ تعطي الجواب : " بعد أَن غسل أَرجلهم ، و عاد فارتدى ثوبه ، و جلس إلى المائدة ، قال لهم : " هل أَدركتم ما فعلت ؟ إنّكم تدعونني معلّماً و ربّاً ، و حسن تفعلون ، فأنا كذلك . فإن كنت قد غسلت أَرجلكم ، أَنا الربّ و المعلّم ، عليكم ، أَنتم أَيضاً ، أَن تغسلوا بعضكم أَرجل البعض . و قد كنت لكم قدوة ، لكي تفعلوا ما فعلته لكم " . في هذا القول أَتعرّفك جيّداً ، يا يسوع . إنّك ، أَبداً ، تعود إلى هذه الدعوة التي أَطلقتها لمن يرغبون في اتّباعك و الذين يتعيّن عليهم الشروع بتعلّم خدمة أصاغر القوم .

لطالما ترجّع في ثنايا كياني صدى هذا المقطع الرائع ! فأَنا أَيضاً ، عندما كان الصغار ، في قرى الصفيح ، ووالدوهم، أَحياناً ، يهرعون إلى كوخي ، لأَنّهم ، و هم سائرون حفاة بلا

حذاء يحميهم ، كانوا قد جرحوا أرجلهم في الأقذار المليئة بالزجاج و الأَشياء الحادّة ، كان عليّ دائماً أَن أَغسل تلك الأَرجل بفيضٍ من الماء قبل أَن أَعكف على معالجة جروحهم ، و لكن ، أَقلّه ، لم يكن بينهم أَيّ يهوذا !

ثمّة فصل آخر من الإِنجيل يبدو لي جوهريّاً ، و هو الذي يروي موقف يسوع من تجّار الهيكل . و هو ، لي ، الدليل على أَنّ الحبّ قد ينطوي على مقدار من الغضب . لقد جهد الكاتب إِرنست رينان ، عبر كتابه " حياة يسوع " ، في نشر صورة ليسوع " الوديع " ، و هي صورة خاطئة .

فيسوع المسيح ، لكونه إِنساناً كاملاً ، كان يعرف الغضب أَيضاً ، و ليس ألذع من عبارات التأنيب و الإدانات التي صبّها على رؤوس الفرّيسيّين " المرائين " ، " القبور المكلّسة " ، " آكلي أَموال الأرامل " . و عندما دخل إلى الهيكل ، و رأى ، مرّة أُخرى ، الباعة و الصرّافين الموجودين لكي يغتنوا على حساب الذين جاؤوا بتقادمهم ، ثارت ثائرته ، فأخذ سوطاً و صاح : " لا تجعلوا من بيت أَبي مغارة للّصوص " ، وقلب موائد الصيرفة .

ما هو الجوهريّ في هذا المشهد ؟ اعتبار يسوع أَنّ الهيكل قد وجد من أَجل الصلاة ، و أَنّ على من يغشاه أَن يكون بكامله ملتــفتاً نحو اللّه . و قد يسوغ التساؤل لمَ لم يبرهن يسوع حيال تجّار الهيكل عن مثل ما أَظهره من رأفة حيال المرأة الزانية. أَظنّ أَنّ ثمّة أَجوبة كثيرة على هذا السؤال ... غير أَنّ ما لا يطيقه يسوع هو إدّعاء باعة الهيكل أولئك أَنّهم خيرة اليهود ، في حين أَنّ القبر المكلّس ، الفرّيسيّ ، والذي يزعم أَنّه مسيحيّ جيّد ، و الذي تتباين حياته المعلنة تبايناً كبيراً عن حياته الخفيّة ، كلّ هؤلاء كذبة ، و يسوع يتغاضى عن وهننا ، وهن المرأة الزانية التي غفر لها ، و زكّا السارق الذي حلّ في بيته ، و اللصّ الذي انتصب إلى جانبه على الصليب و الذي وعده بالفردوس . إنّه يتغاضى عن كلّ ضعفٍ بشريّ ، خلا الرياء . فالمرائيّ هو من يبتغي الظهور بما ليس عليه ، و هذا هو الكذب بكلّ بشاعته .

و أَخيراً أَدركت أَنّ ذلك الرجل الذي كان يتلفّظ بأَقوال غير مقبولة في نظر العالم ، قد قضى على ذاته بالهلاك ؛ ففي نظر السلطات ، و في نظر اليهود و في نظرنا جميعاً ، قد تمادى إلى أبعد مدى .

و كان لا بدّ من موت ذلك الصدّيق .

سرّ الأَلم

بعد أَن فسَّر يسوع لتلاميذه دافعه إلى غسل أَرجلهم ، قال لهم : " الحقّ الحقّ أَقول لكم أَنّ واحداً منكم سيسلّمني " . و كان يهوذا إِلى جانبه يتناول طعامه بهدوء ، وفي جيبه مال الخيانة الذي قبضه كي يسلّم معلّمه قبل منتصف الليل . و التفت إِليه يسوع و قال له : " ما عليك أَن تفعله ، إفعله في الحال " . و ما كاد يخرج حتّى أَعلن يسوع لسائر التلاميذ " الآن قد مُجّد ابن البشر ، و مُجّد اللّه فيه " .

كم قد جهدت في سبر غور هذا السرّ ! فيسوع كان عالماً بموته الوشيك ، وأَنذر بذلك تلاميذه ثلاثاً ... و مع ذلك يتحدَّث عن التمجيد ! كان يسير صوب أَكثر أَنماط العذاب مهانةً و بشاعةً ، في ذلك العهد ، و الذي كان موقوفاً على العبيد : الصلب!

أَنا الذي حملت بين ذراعيها أَطفالاً يقضون نحبهم من جرّاء إِصبابتهم بالكزاز وسط آلام شنيعة ، أَعرف كنه الأَلم . لمَ عانى ذاك العدد الغفير من الأَبرياء ، عبر الزمان و المكان ، منذ هابيل البارّ الذي قتله أَخوه قائين ، حتّى الأَسقف اوسكار روميرو الذي اغتيل لأنّه انبرى للدفاع عن مسحوقي أَميركا الجنوبيّة ؟ ...

أَيّ جواب على صيحة البشريّة المفعمة قلقاً ؟ أَنا لا أَعرف جواباً سوى أَنّ يسوع قد ارتضى أَن يُدان ، و يُسام العذاب ، و يُصلَب ؛ و آثر الوقوف إلى جانب الضعفاء و المسحوقين . و كلّما وقف امرؤ إلى جانب هؤلاء ، كان صورة للّه ، الذي اختار أَن يصبح إنساناً فقيراً .

أَمّا الأَلم و الموت فأومن باستحالة مجيئهما من اللّه ، إذ إنّهما سحقا يسوع ، ابنه الحبيب ، في جسده و في نفسه ، بحيث هتف : " نفسي حزينة حتّى الموت . " لقد عاش آلام البشريّة العاجزة حيال شدائدها ، و أَحبّنا بحيث ارتضى أَن يسري في عروقه " فيروس " الأَلم ، و غايته الوحدية أَن يوفّر لنا ، نحن البشر ، المصل الكفيل بشفاء أَلمنا ، و شفاء القروح التي نلحقها أَحدنا بالآخر .

لم يبتغِ اللّه خلق آلات يقودها عن بعد ، بل كائنات حرّة قادرة على الاختيار بين الحبّ أو البغض . يسوع الذي قتله البغض أَعطانا " دواءه " ، الحبّ : " أَحبّوا بعضكم بعضاً كما أَحببتكم " ؛ و دعا يهوذا ، الذي خانه بقبلة ، " صديقاً " ؛ و أَبعد سيف بطرس ؛ و أَبى الانتصار بالعنف الذي يسحق الخصم ؛ العنف الذي نراه فاعلاً، على وجوه مختلفة ، في أولاد يُضرَبون ، و يُغتصَبون ، و يُقسرون على عمل يحطّمهم ؛ و نساء يعاملنَ معاملة العبيد ، فريسة سهلة بين يديّ الذكر " القويّ " ؛ ورجال يحوّلون طعماً للمدافع ؛ و شعوب العالم الثالث العاملة بأَجرٍ زريّ ، تُنْهَب موادّها الأوّليّة بأَسعار بخسة مفروضة فرضاً ظالماً .

ما من مكان في العالم لا يتعالى فيه أَنين الفقير إلى اللّه ... و أَيّ إله ؟ أَهو إِله أعمى و أَصمّ ، غير مبالٍ و أَبكم ؟ أو هو إله رأفة ينساب في آلام البشريّة ليقاسمها جسدها الخاضع للوجع و الموت ؟ ذلكم هو حبّ اللّه المجنون الذي أَعلنه لنا يسوع المسيح ، حبّ يمضي " حتّى النهاية " ، حبّ افتداء يحرّر الإِنسان المستعبد للشرّ.

الأَلم ينبغي عيشه مع ابن اللّه ، الفقير بين الفقراء ، المتأَلّم مع المتأَلّمين ، الذي يعاني " نزاعاً حتّى آخر الأَزمنة " ... و المشاركة في رأفة اللّه ، هي أَيضاً المشاركة في النضال من أَجل الإِنسان ، و من أَجل العدل . أَلم يقل المسيح : " الويل لكم ، أَيّها الفرّيسيّون المراؤون الذين يسدّدون العُشْر عن النعنع و يهملون العدل ..."؟

إِنّني أعلم أَنّ وصيّة الحبّ مقرونة بحرّيّة الإنسان ليست سهلة الإدراك .

و لطالما سمعت مثل هذا القول : " لو كان الله موجوداً ، لانتفى الأَلم ، و لما كانت حروب " ...

و إنّني أُحسن فهم أولئك الذين حيال ما يخبرونه بأنفسهم ، و ما يشهدونه في العالم ، ينبذون فكرة اللّه . و يسوغ التساؤل : " هل بُلّغ هؤلاء ، حقّاً ، ببشرى الإِنجيل" ؟ إنّني أَلحظ

أنّ الكثيرين من القوم الذين التقيتهم لا يمتلكون عن المسيحيّة سوى فكرة سطحيّة ، و لكأنّهم لم يسمعوا قطّ ، باللّه الحبّ . و إنّني ، في نواحٍ كثيرة، أماثلهم إلحاداً . فأنا أيضاً أرفض الإيمان بإله متسلّط ، يلوّح بوصايا يطالب باتّباعها تحت طائلة عقاب أبديّ . و أنا أيضاً ، أحياناً ، عندما ألمح كلّ آلام البشر عبر العالم، تنتابني موجات شكّ ، لا بل موجات ثورة ، و أتمرّد على اللّه ، و أُخاطبه بحدّة . ولكن ، في نهاية المطاف ، تتغلّب دائماً الثـقة و الحبّ ، و لا أعود أذكر سوى وصيّة يسوع : " يا أبنائي الصغار ، أحبّوا بعضكم بعضاً كما أحببتكم "

إنّ كلّ خطيئة ، في الواقع ، هي انتقاصٌ من الحبّ . فالمسيح أعطانا وصيّة واحدة : " أحبّوا بعضكم بعضاً " . و لكن لا بدّ من التذكير بأنّ الإنسان حرّ في أن يقبل هذه الشريعة أو في أن يرفضها ؛ فهي لم تُفرَض عليه فرضاً .

و بوسع المرء ، إن هو شاء ، أن يحصر اهتمامه في مصالحه و اغتنائه ، ولو أدّى به ذلك إلى سحق الآخرين ، و استغلالهم ، و قتلهم . و لكنّه إذ يرفض ، هكذا ، حبّ الآخرين ، يرفض أيضاً ، العلاقة باللّه .

إنّ الثورة على الظلم و مكافحته إنّما هما ولوجٌ إلى قلب اللّه ، و إلى حبّ اللّه، الذي لا يضيف إلى العنف عنفاً ، بل يدع الإنسان حرّاً ، و يدعوه إلى الكفاح لكي ينحسر الشرّ و الألم ، لأنّ اللّه معنيّ مباشرة بما يخالط البشريّة من آلام و حبّ . اللّه يعلن عن حضوره في شدائدنا و في صراعنا ضدّ الظلم . و يسوع المنبعث من القبر يأتينا بأمل عظيم : " سأكون موتك ، أيّها الموت ! "

اختيار الحبّ هو انفتاح على الحياة ، فالحبّ أقوى من الموت ، و يحمل في ذاته ، مع المسيح ، بذور القيامة .

هذا هو جوابي الوحيد .

في ما يتخطّى العقل

في العاشر من شهر أيّار عام 1931 ، في نهاية سنتين من التـــثـــقّف في " علم الحبّ " ، أبرزتُ نذوري الرهبانيّة ، و قد استحوذ عليّ فرح جمّ ، ليقيني بأنّني عثرت على دربي .

فهدف الجمعيّة الرهبانيّة التي انتميت إِليها كان تثـــقيف الفتيات ، و من ثمّ كنت مهيّأة للتدريس في عدّة معاهد قائمة حول المتوسّط ، بل ربّما في أيّة قارّة نائية ، و قد اختار رؤسائي إيفادي إلى استنبول .

في تلك الحقبة كانت تُلحق بكلّ معهد من معاهدنا يستقبل فتيات الطبقة الراقية " مدرسة صغيرة " موقوفة على أبناء الحيّ الفقراء . و استجابة لطلبي عُيِّنتُ في إِحدى تلك المدارس ، حيث أنفقت عدّة سنوات مستغرقة في السعادة . كنت متولّهة بأولئك الأطفال الذين أجهد في إِعدادهم لمستقبل أفضل . و في رفقتهم كنت أُغنّي وأرقص فرحاً ، مثيرة ، أحياناً ، دهشة أخواتي الأكبر سنّاً .

و من نافذة قاعة درسي كنت أرى ، في الجانب الآخر من الشارع ، مصلّى المعهد حيث ، كنت كلّ ، يوم أتناول القربان . و غالباً ما كان نظري يحطّ عليه ، وكان يخيّل لي أنّنا ، يسوع و أنا ، كنّا نعمل معاً في خدمة الأصاغر .

غير أَنّ نُذُر الحرب كانت تقترب ، مهدّدة المعهد بالافتقار إلى المدرّسات إذا ما تمّت القطيعة مع فرنسا . و توسّمتْ فيّ الرئيسة المحلّيّة مؤهّلات للتدريس فأوعزت إليّ بماشرة دروس في جامعة استنبول ، و استقــرّ اختياري على الفلسفة . وكنت ، منذ فترة ، قد شرعت أتساءل : كيف يمكن أن يكون يسوع ابن اللّه ؟ و هل هو، حقّاً ، وُلِد من عذراء ؟ و ترى هل المعجزات ، و القبر الخالي ، و القيامة ، كلّها وقائع ثابتة ؟ كنت ما زلت في ريعان الشباب ، و ولهة بالعقل المحلّل ، و أودّ ، قبل أن أخوض معترك اللاهوت ، إرساء الأسس الفلسفيّة الكفيلة بتوفير الأجوبة المقنعة على تلك الأسئلة .

و قد هويت من علُ . و كانت مرشدة المبتدئات ، قبل ترهّبنا ، قد أنذرتنا ، في شيءٍ من القسوة : " هل ستقوينَ على الصمود في المحَن ؟ حينئذٍ فقط ستدركنَ مصاعب الحياة ، و سيكون بقدرتكنّ أن تكنّ أخوات عالميّات بوسع كلّ فرد الاعتماد عليهنّ " . و كادت " مصاعب الحياة " تطيح بي .

ففي الجامعة اندفعت ، بكلّ طاقاتي ، في دراسة كبار الفلاسفة ، كالإغريقيّين، و كنط ، و هيغل و آخرين ، و نظريّات فرويد التي كانت في زهو جدّتها . واكتشفت، أيضاً ، المفسّرين البروتستانت الذين يقرّون بواقع يسوع التاريخيّ ، ولكنّهم ينكرون أُلوهيّته ، و قد أهّلتني دراسة الديانات لمعرفة بوذا ، و كونفوشيوس ، ولاوتسي و محمّد ، الذين تبيّنت لي مساهمتهم في بيان الحقيقة . و شيئاً فشيئاً أدركت أَن ليس ثمّة حقيقة مطلقة ، و كنت ، كلّما أوغلت في البحث ترسّخ انطباعي بأنّني أغوص في الظلمات . و فضلاً عن ذلك كانت تنتظرني صدمة أشدّ عنفاً على مقاعد الكليّة .

فأنا التي ترعرت في جوّ إيمان كاثوليكيّ صارم ، يخيّم عليه القول المأثور : "لا خلاص خارج الكنيسة " ، اكتشفت بدهشة – و قد أمسى هذا الاكتشاف ، اليوم، بداهة – و لا سيَّما من خلال أساتذتي ، أنّ بإمكان المرء التحلّي بقيَم أخلاقيّة و فكريّة و روحيّة سامية مع كونه مسلماً أو يهوديّاً ، بل ملحداً ، و حينذاك تذكّرت عمّي أندريه ، ذلك الرجل الذي ظفر بأكبر قسط من إعجابي ؛ فقد تميَّز باستقامة مطلقة ، وكان يولي كلّ نقاش من الدقّة مثل ما يوليه من رحابة الفكر ، و إلى كونه ملحداً مقتنعاً كان يحترم بعمق إيمان عمَّتي المضطرم .

و اجتزت محنة شديدة القسوة ، فيسوع ، ابن اللّه ، الذي كان ، حتّئذٍ ، كلّ معنى حياتي ، بدا و كأنّه يتــفتّت بين يديّ بقدر ما كنت أتوغّل في مطالعاتي . و راح وجهه يتوارى خلف رؤوس واقعيّة ، رؤوس الكتّاب المشحونة بالعلم . و باتت علاقتي به تغدو أكثر فأكثر إبهاماً . أ أكون قد أحببت شبحاً ؟ أو لم يكن حواري معه سوى دخان ؟ و بدا لي أنّ إيماني العاجز عن مقارعة الحجج التي تهاجمه من كلّ صوب كان محشوراً في مأزق حرج .

و اتّضح لي أَنّ افتتاني المزدوج بالمسيح وبالعقل المحلّل كان تناقضاً مفضوحاً ، و أُسقط في يدي .

و ذات يوم استعادت ذاكرتي وصيّة كانت قد أَسدتها لنا إِحدى رئيساتنا إذ قالت : " عندما تصطدمنَ بعقبة ، افتحنَ الإِنجيل ، و اقرأنه بتؤدة ، ودعنَ صدى كلماته يتردّد في حنايا نفوسكنّ " . و حينئذٍ أَطبقت كلّ كتبي الزاخرة بالعلم ، و في شبه عتمة المصلّى ، فتحت العهد الجديد ، و طالعني مقطع إِنجيل لوقا القائل : "أَحمدك ، يا أبتِ ، ربّ السّماء و الأرض ، لأنّك أَخفيت ذلك عن الحكماء و الأذكياء و أَعلنته للصغار " . إنّ يسوع واضح ، و عليّ أَن أَقبل بقوله أو أَرفضه . و عليّ إِمّا أَن أَنتظم في سلك الحكماء و الفقهاء ، و لا أومن إلاّ بما يسلّم به عقلي المحلّل ، ممّا يعني الإِعراض عن الإيمان بالمعجزات ، و بعذراء تضع طفلاً ، و برجل انبعث من الموت ، أو أومن بالوحي المباح للمساكين .

أَين موقعك ، إِذن ، يا إِيمّانوئيل ؟ هل بوسعك أَن تصبحي " صغيرة " ؟ وكيف لا يصبح المرء صغيراً عندما يسمع تحريض يسوع الآخر الذي يذكره الإِنجيلي مرقس : " الحقّ أَقول لكم ، من لا يقبل ملكوت اللّه مثل طفل ، لن يدخله "؟ و أَحدّق في بيت القربان . أَوَ تكون هذه القربانة التي بها أَتغذّى كلّ صباح ، مجرّد كسرة خبز فطير عاديّ ؟ و مع ذلك ، يا إِيمّانويل ، ما برحتِ ، منذ سنوات عديدة، تعيشين ، و تشعرين في داخلك بقوّة الإِفخارستيّا و عذوبتها ! و حينئذٍ هتفت : " يا يسوع كن نور حياتي ، و منعة مسيرتي ، و فرح نفسي!"

لقد أوشكت أن أَفقد الطريدة في سبيل خيال ، و أفتقد " السراط و الحقّ والحياة " في سبيل حجج لا تقوى على مقارعتها سوى دراسات مستفيضة . تشجّعي ، يا إِيمّانويل ، و دعي عنك النزعة إلى " نزع القشرة " عن كلّ شيء ، و احتفظي بقلب طفل .

لقد اخترت الإِيمان و الحياة . و لكنّني واثقة أَنّ هذه النهاية السعيدة التي أَزاحت حقبة ريبي مدينة ، في المقام الأوّل ، إلى كوني غارقة في وسطٍ ملائم للصلاة و الإِيمان . فلو لم أَكن راهبة ، أَما كان من شأني أَن أَنهج نهج كثيرين من الذين يمسون نهباً بين منطقين متنابذين متصارعين : منطق اللّه و منطق العقل ؟ أَما كان من شأني أَن انسلّ خلسة و أولي الإِدبار ؟ إِنّني أَقابل ، اليوم ، شبّاناً كُثُراً ، يعيشون في محيط أَقلّ تمتّعاً بالحماية من محيطي ، و يواجهون هذا النمط من " الأزمة الوجوديّة " ، وفي سنٍّ مبكّرة أَكثر من سنّي ، و قبل أَن يتخطّوا الثانية عشرة أو الثالثة عشرة ، وليس لهم الكثيرون ممّن يساندونهم أو يصغون إِليهم ...

و قد قُيّض لي حظٌّ آخر . فبعد انتهاء الحرب كنت قد تسجّلت للدراسة بالمراسلة في السوربون ، كي أعدّ إِجازة ، و سعدت بالعثور ، في البرنامج ، على "بليز باسكال " الذي وفّر

لي ، ببصيرته الثاقبة ، عوناً جمّاً . فقد كتب في " خواطره " الشهيرة : " ما شأن الإنسان في الطبيعة ؟ إنّنا عاجزون عن المعرفة معرفة أكيدة ، وعن الجهل جهلاً مطلقاً " . و بالتالي ، يتابع القول : " البشر في الظلمة ، و في منأى عن اللّه " و انطلاقاً من هذا الواقع ، يقترح رهانه الشهير : " اللّه موجود ، أو غير موجود ... و ليس للعقل أيّة قدرة على إقرار ذلك ... و أنت مُبحْر ، و لا بدّ لك من خيار "

و لقد حذوت حذو باسكال ، و أبحرت مراهنة على الإيمان ، و ما انفكّ هذا الخيار ، لي ، منبع فرح عميق . و في الحقيقة ، أنا سعيدة لعيشي أزمة الشكّ هذه ، إذ يبدو لي أنّها قد رسَّخت إيماني ، الذي لولا تساؤلات الشباب تلك ، لظلّ متّسماً بشيءٍ من التزمّت و افتقر إلى البصيرة ، فقد جعلت علاقتي بالمسيح تنتقل من افتتان الطفولة إلى حبٍّ أوفر نضجاً و مَن ، في مثل سنّي ، يشكو من مثل هذا التطوّر ؟

يقول باسكال ، أيضاً : " للقلب دوافعه التي يجهلها العقل " . فعندما يحبّ المرء لا يناقش ، بل يثق بالآخر . و قد لا يتضارب الإيمان و العقل بقدر ما يُظنّ عامّة . و إنّني لأشهد ، اليوم ، أنّ أهل العلم ينزعون إلى الاعتراف بأنّ هناك " شيئاً" يتجاوز ما تحيط به المعرفة ، و يتخطّى العقل . ما هو ؟ إنّه سرّ ، إنّه اللّه .

و على حدّ ما كتب المؤرّخ جان ديلومو في كتابه " ما أومن به : " يدعو العلم إلى الالتفات نحو اللّه ، و لكنّه لن يفصح أبداً عن كنهه " . و لقد عثرت في هذا الكتاب، على عبارة أُخرى نفذت مباشرة إلى قلبي : " لقد اتّضح ، تاريخيّاً ، أنّ اللّه والإنسان مرتبطان . و لئن قُتِل الأوّل للقي الآخر نفس المصير ، لافتقاره إلى من يذود عنه " .

اللّه و الإنسان مرتبطان ، هذا ما تثبته حيويّة الديانات و تعدّدها ؛ و لقد حدّدت كلّ ثقافة سبيلها الخاصّ إلى البحث عن اللّه . لديّ أصدقاء كثيرون مسلمون وغير مسيحيّين ، لم أسعَ ، قطّ ، و لن أسعى ، أبداً ، إلى ردّهم عن إيمانهم . أنا التي ولدت كاثوليكيّة ، و التي ، في وهنها ، استطاعت امتحان علاقتها بيسوع المسيح ، أوقن أنّه هو الذي يمتلك الحقيقة المطلقة . بيد أنّ خبرتي في استنبول قد علّمتني أنّني لست أنا أمتلكها ، تلك الحقيقة المطلقة .

قد أمتلك بضعة أشعّة من المطلق ، غير أنّ سائر الديانات تمتلك مثلها . وكانت قد راودتني الرغبة في دراسة البوذيّة ، التي ، بوسعها ، حسب ظنّي ، أن تدنينا من الحقيقة ، بفضل التجرّد من " الأنا " الذي قد يعود علينا ، جميعاً ، بالخير .

لقد عرّف بوذا و محمّد نفسيهما على أنّهما مرسلان من اللّه ، و لكن لم يكن أيّ منهما إبناً له .

و من ثمّ يسعني أَن أكرّر القول أَنّ المسيحيّة تعرض سبيلاً هو ، في نظري ، الأَكثر مباشرة للتصعيد نحو اللّه . السُبل الأخرى ، بلا شكّ ، أَقلّ مباشرة ، غير أَنّني أَحترمها . هشاشتي الشخصيّة تحتاج إلى الاتّكاء على المسيح ، و لكنّني أَعرف غير مؤمنين أَقوى و أَفضل منّي . و أَعتقد أَنّ كلّ إِنسان حسن النيّة هو ابن اللّه .

ما الذي أرمي إليه من وراء ذلك ؟ أَمرٌ جوهريّ في رأيي : أَنّ الإنسان ليس بعقيدته ، بل بأَعماله . و عندما أَلتقي إِنساناً لا أَعرفه ، لا أَسأل عن دينه ، وممارسته و طقوسه ، بل أحاول استبيان علاقاته بإخوته . و أعتقد أَنّ قمّة الفكر ، بليز باسكال، قد عبّر خير تعبير عن هذا الواقع عندما قال : " جميع الأَجساد مجتمعة ، و جميع العقول مجتمعة ، لا تساوي أدنى بادرة محبّة ؛ فهي من مرتبة أَسمى بما لا يقاس "

في ما يتخطّى الخيرات المادّيّة ، و ما يتخطّى الفكر ، ما يدعوه باسكال المرتبة الثالثة هو مرتبة العطف ، مرتبة الحبّ، " أسمى ما في الحكمة "، حيث الحبّ ودوافعه ، و حيث المعيار على جانب من البساطة : " هل نحن متأهّبون للمشاركة أم لا ؟ المسيح نفسه لم يتكلّم قطّ عن الممارسة الدينيّة ، بل تكلّم عن محبّة " أَصغر إِخوته " .

و أَودّ العودة إلى دعوة يسوع التي أَخرجتني من أَزمتي ، و التي يكرّرها المسيح في الإِنجيل لا أَقلّ من ثلاث مرّات : دخول ملكوت اللّه يستلزم الصيرورة كالأطفال .

و قد حملتني تلك الدعوة على إِعمال الفكر طويلاً ، فهي لا تتماشى و نزعتي الطبيعيّة . فأَنا شخصيّاً أميل إلى عدم الإِيمان بما لا يحيط به فكري ، و لكن بما أَنّني أَرغب ، حقّاً ، في دخول ملكوت من أُحبّ ، و أَنّ عليّ القبول أو الرفض ، ارتضيت أَن أُصبح كالطفل ، و أَن أُسكت عقلي المحلّل ، الحريص على تعرية كلّ شيء . ومذّاك لحظت ، من حولي ، أنّ الأَشخاص الذين لهم بيسوع المسيح علاقة وثيقة هم الذين يتميّزون ببساطة في السلوك تجعلهم قريبين من الأطفال .

ما هو الفرق الجوهريّ بين الراشد و الطفل ؟ الطفل يثق ، " يستسلم " لمن هو أَكبر منه و أَقدم سنّاً . في حين يزعم الراشد أَنّه يعرف كلّ شيء بنفسه ؛ و من يبتغي أَن يقرّ بمفرده معايير الخير و الشرّ يجعل نفسه ، على نحوٍ ما ، مساوياً اللّه . أَلا ننزع جميعنا ، بالفطرة إلى الرغبة في أَن نكون لأنفسنا الحَكَم و السيّد ، و تتفاقم هذه الرغبة عندما توهمنا دراسات عليا بتفوّقنا .

و لقد لحظت ، في ذاتي ولدى الآخرين ، أَنّ المرض أو أَيّة محنة أُخرى تفقدنا بعضاً من مركّب تفوّقنا . أذكر أَنّني تعرّفت ، يوماً ، على فتاة مجازة في الفلسفة ، تتمتّع بذكاء خارق ، فوليتريّة النزعة ، لاذعة ، لا يسلم من انتقادها لا الكنيسة ، و لا البابويّة ، و لا الدين

و لا الأخلاق و لا المجتمع ، و لا بدّ من الاعتراف أَنّ انتقادها لا يخلو من حجّة . و بعد بضعة أَشهر فقدت تلك الفتاة إِنساناً كان غالياً عليها جدّاً ، و طلبت مقابلتي . فإذا هي امرأة أُخرى . و قد أوغلت حواراتنا إِلى أَبعاد شديدة العمق : معنى الحياة و الموت . الفرق بين الإنسان والحيوان ، الوقت و الأَبديّة ... لقد كان مثيراً ذلك البحث عن مطلق لا قِبَل لنا على الإِحاطة به .

إِنّني أومن إيماناً راسخاً بأَنّ المرء يقترب من اللّه ، لا عندما يصاب عقله بالوهن ، بل ، على نقيض ذلك ، عندما يتحرّر عقله من السطحيّات ، و يسعى إِلى بلوغ جوهر الأَشياء الذي تمكّن الطفلَ بساطتُه أَن يلمسه ، و عندما لا يثير الأَلم ثورتنا – و كم شهدت حالات أَلم أَفضت إِلى ثورة ! – فهو قد يساعدنا على الانعتاق من قشور ادّعائنا لكي نقف على أَصدق و أَعمق ما في شخصيَّتنا .

إِنّني ما زلت أَعيش بالنِّعم التي أُغدقت عليّ أَثناء نقاهتين ، في أَعقاب إِصابتي بالتيفوئيد ثمّ بالتهاب رئويّ حادّ ، و كذلك أَثناء عبور الصحراء من جرّاء إِقامتي الفاشلة في تونس . تلك النعم مكّنتني من اكتشاف حقيقة نفسي ، و حقيقة القيمة النسبيّة للأَشياء و الأَحداث التي أَنزع إِلى تضخيمها . إثر ذلك غدت علاقتي باللّه والبشر أَكثر يسراً .

في ما يخصّني لم تتسنَّ لي إِقامة علاقة مباشرة مع يسوع المسيح إلاّ بقدر ما ارتضيت أَن أُصبح صغيرة . فما عادت كتب الفلسفة و التفسير الكتابي التي كَلِفتُ بها في شبابي تهمّني في شيء ، فأَحرقت بعضها ، و تبرّعت بالكثير منها ، و من الكتب القليلة التي بقيت دائماً في متناول يدي ، ثمّة ، بالطبع ، باسكال و حياة القدّيسة برناديت ، تلك الراعية الصغيرة التي لم تغشَ حتّى دروس التعليم المسيحيّ ، و التي مع ذلك كانت أَقرب إِلى اللّه منّي ، و حتّى آخر حياتها عاشت ، طفلة ، بين يدي اللّه، و أَنا التي لا ينفكّ فكرها يدور مثل الطاحونة التي تصدّى لها دون كيشوت ، أودّ أَن أَبلغ مثل هذه البساطة . هذا هو الهدف الأسمى الذي أَتطلّع إِليه .

اكواخ الصفيح ، يا حبّي

إِستنبول ، تونس ، إِستنبول من جديد ، و أَخيراً الاسكندريَّة ؛ طوال الأَربعين عاماً التي قضيتها عاملة في مدارس رهبانيّتي اضطررت إِلى لجْمَ رغبتي في العيش فقيرة بين ظهراني فقراء . و هذا لا يعني أَنَّني كنت تعيسة طيلة كلّ تلك السنوات . فقد كنت أُحبّ مهنة التعليم ، و أَحببت الطلاّب و الأَطفال حبّاً جمّاً ، وكان بوسعي أن أَعيش علاقتي اليوميَّة مع المسيح . و لكنّني كنتُ أُدرك، أَيضاً ، أَنّ كَلَفي الحقيقيّ بالسير في إِثر يسوع الذي وُلِد على القشّ كان يمثّل جزءاً من التزامي بالحقيقة . غير أَنّ جميع التماساتي من أَجل نهج هذا المنهج كانت قد ارتطمت برفض رئيساتي ، فلم يكن معقولاً ، في تلك الحقبة ، أَن تخرج راهبة من حصن ديرها .

و بما أَنّني كنت حريصة على أَن أَبقى راهبة ، كان عليّ أَن انتظر حتّى عام 1971 ، عندما أُغلق معهدنا في الإِسكندريّة ، و أُحِلْتُ ، نظريّاً ، على التقاعد ، كي أَظفر بإِذن العيش مع الفقراء ، شرط أَن أَلتحق ، كلّ يوم سبت و يوم أَحد ، بجماعة الأَخوات . و ممّا جعل هذا الترخيص ممكناً انعقاد المجمع الفاتيكاني الثاني بين 1962 و 1965 . اجتماع القمّة هذا الذي ارتدى طابعاً شبه ثوريّ ، كان قد أَشرع على مصاريعها أَبواب الكنيسة الكاثوليكيّة ، و بالتالي أَبواب الجمعيّات .

بعد مرور الزمن تبيّن لي أَنّ سنوات الإعداد و الإنضاج تلك لم تكن نافلة . وأَثناء بحثي عن الأَشدّ بؤساً بين البؤساء ، استرشدت بالمدبّر الرسوليّ في القاهرة ، مونسينور " برونو هيم " ، و عثرت على فقراء لم تكن التقوى و القداسة من صفاتهم البارزة . ففي القاهرة لا تتوفّر خدمة حكوميّة لجمع القمامة ، و لكن بموافقة البلديّة ، و بمساعدة المافيا المحلّيّة ، تولّى الفقراء النازحون من صعيد مصر الذين استقرّوا في أَراضٍ مهجورة تحيط بالمدينة مهمّة جمع القمامة . و قد أَلِف سكّان القاهرة عدم التفريق بينهم و بين المادّة التي يتعاملون بها ، و أَطلقوا عليهم تسمية " الزبّالين " . وقد أَنذرني الجميع أَنّهم جماعة من السكارى و اللصوص و القتلة ، بحيث أَنّ رجال الشرطة أَنفسهم لا يجازفون بدخول قرى الصفيح البائسة التي يقطنونها . و قدّمني كاهن قبطيّ لاثنين من أَبناء رعيّته ، لبيب و امرأته

ملكة ، اللّذين يقطنان في واحدة من قرى الصفيح تلك تحمل اسماً يثير السخرية ، فهي تدعى " عزبة النخيل " مع أنّ لانبتة فيها ، و لا شيء سوى الغبار و الوحل . و قد ارتضى لبيب أن يخلي لي ، أنا الأجنبيّة الغريبة الأطوار ، زريبة ماعزه ، و مساحتها ستّة أمتار مربّعة .

وما زلت أذكر ما اعتراني من فرح غامر عندما جاء كي يصطحبني بحماره و عربته التي وضعتُ عليها ، حينذاك ، سريراً ، و منضدة صغرة ، و بضعة كتب ، و مصباحاً . و قد دخلت قرية الصفيح تحت هتاف الصغار ، كما يهتفون للمتزوّجة حديثاً : " العروسة ، العروسة " . ففي مثل هذا الموكب تغشى المرأة منزل زوجها . و أدركت ، في الحال أنّني عثرت على الامتلاء الذي طالما نشدته في سرّ التجسّد ، في المسيح الذي صار بشراً .

جميع قرى الصفيح في العالم هي ملخّص للبؤس و الأسى ، أمّا في القاهرة فهي تتميّز بشيءٍ آخر : جبال الأقذار التي تخفي الأكواخ أحياناً ، و ترتمي في الأزقّة، مالئة الجوّ بروائحها و سحب دخانها . و كلّ يوم ، عند منتصف النهار ، عندما يعود الأب من جولته في المدينة ، و يفرغ عربته أمام كوخه ، تتهافت النساء و الأولاد لانتزاع ما تنطوي عليه من غنائم . و تُفرَز بعناية قطع البلاستيك و الحديد و الكرتون ، و الخروق ، و الزجاج ، لكي يعاد بيعها ، أو يعاد صنعها و استخدامها. و تجمع الموادّ الغذائيّة ، جزئيّاً ، من أجل الاستهلاك المنزليّ . و في الأُسَر القبطيّة – و هي الأغلبيّة في قرى الصفيح الثلاث التي عشت فيها – يُستخدم الباقي علفاً للخنازير . و كان كوخي يطلّ على باحة خنازير لبيب ، و كنت أحياناً ، في الليل الدامس ، أدوس على أقدامها ، و لكنّها بهائم مسالمة لم تعضّني قطّ . و كذلك ، سرعان ما أَلِفت العيش مع الجرذان .

و مع ذلك كانت تعتريني الدهشة ، إذ إنّني وجدت نفسي ، و أنا في الثانية والستّين من عمري ، في محيطٍ غريب كلّ الغرابة عنّي ، أُلمّ بالقليل من لغته ، محرومة من أيٍّ من أسباب الرفاه ، و مع ذلك كان يغمرني شعور بفرحٍ لم أعهد له ، قطّ ، مثيلاً من قبل ، و قد أدركت السبب ، و هو أنّ حياتي الجديدة ستصبح ، أخيراً، تحقيقاً فعليّاً و تكريساً لرغبتي في اتّباع المسيح ، الفقير الأمثل الذي جاء ليدعو لا الأبرار بل الخطأة ، و كان يصدم الفرّيسيّين بإيثاره الجلوس مع الفقراء ، والمرضى، و الخطأة ، و مقاسمتهم الطعام . لقد تحقّقتْ ، أخيراً ، رغبةٌ ما انفكّت تراودني منذ أربعين ، بل منذ خمسين سنة .

في الساعة الخامسة من كلّ صباح كنت أجري نحو القطار الذي يمضي بي إلى الكنيسة من أجل لقاء يسوع في الإفخارستيّا ، و أنا موقنة بأنّ الطاقة القصوى التي ستزوّدني بها المناولة ستكون محرّكاً لكلّ قرية الصفيح . و حالما أعود كنت أرى المسيح في الأزقّة و الأكواخ ، و عندما أجلس أرضاً ، مقتسمة طبق " الفول " اليوميّ مع لبيب و ملكة و أبنائهما ،

أو عندما كنت ، عند المضخّة ، أغسل بكثافة رأس فطمة العاجّ بالقمل ، أو عندما كنت أَقتلع مسماراً من قدم جرجس ، لم أَكن أُفكّر بيسوع ، لأنّه كان حاضراً ، ماثلاً ، مثل كائن نكنّ له من الحبّ ما يجعلنا في غير حاجة إلى مكالمته . و عندما كنت آخذ بين ذراعيّ ليلى الصغيرة لكي أَمضي بها إلى المستوصف ، و انتزعها من براثن الموت ، كان إله الحياة ، هنا ، حاضراً كي يساعدني على بعث نسمة الحياة فيها . إنّ اللّه يحتاج إلى البشر ، و من يعيش كفاحه، يوماً إثر يوم ، يمتلئ طاقة و ديناميكيّة .

و قد اكتشفت في قرية الصفيح واقعاً آخر ، صدَمني ، أوّل الأمر ، ففي البساطة التي تميّز الفقراء ، بدا لي هؤلاء السارقون ، متعاطو الحشيش ، النزّاعون إلى الشجار أَقرب إلى اللّه من أَغلبية " الأَبرار " و القوم الشرفاء الذي عاشرتهم حتّئذٍ. كنت أَعرف ذلك نظريّاً ، فمنذ سفر التكوين حتّى سفر الرؤيا ما انفكّ الكتاب المقدّس يسرد ، عبر كبار أَنبيائه ، إيثار الله للصغار و البؤساء ، مروراً بتسبيحة العذراء مريم التي تشكر الربّ لأَنّه " حطّ العظماء عن عروشهم ورفع المتواضعين "

في عزبة النخيل أَمسى إخوتي و أَخواتي جامعو القمامة معلّميّ في شؤون الدين ، خيراً من باسكال ؛ و بفضل ضرب من التنافذ و التأثير المتبادل نفذ إلى أعماقي شيء من إيمانهم العميق البسيط . فعندما كانت جارتي فوزيّة ترتّل بضع آياتٍ من الإنجيل كان محيّاها يبدو متجلّياً بنور المسيح ، مع أَنّ فوزيّة كانت أمّيّة ، ومنها تعلّمت أَنّ المعرفة الحقّة تنبع من القلب لا من الكتب . و ذات مساء ، أَثناء سهرة صلوات في الهواء الطلق – إذ لم يكن لجامعي القمامة كنيسة – ركع جاري الآخر ، تقي ، و هو يهتف : " ياربّ أَنا خاطئ " . و فجأة استقام ، و التفت نحو الشرق – الذي منه سيأتي المسيح ، حسب التقليد – و صاح : " يا ربّ ارحم " . كان محيّاه يشعّ نوراً ، و كان هو واثقاً من أَنّ اللّه سيغفر له . " يا ربّ " ! لطالما سمعت هذا النداء المفعم حرارة ينطلق من حولي . و قد ساعدني جامعو القمامة على تبسيط صلاتي ؛ عندما أجيل الفكر بجميع إخوتي و أخواتي المنزلقين نحو الشرّ – و أَنا أَعلم أَنّني، مع ما أَنا عليه من هشاشة ، لولا إزر المسيح ، لكنت في عدادهم – أَهتف ، أَنا أَيضاً : " يا ربّ أَنا خاطئة ، يا ربّ ارحم " موقنة أَنّ الأَب السماويّ يصغي إِليّ .

و لم أَتعلّم منهم الصلاة فحسب ، بل أَيضاً تعلّمت العمل ، و التطبيق المباشر للفصل الخامس و العشرين من إِنجيل متّى : " كنت جائعاً ، عطشاناً ، عارياً ، مريضاً ... فجئتموني . أَنتم يا مباركي أَبي ."

و المُثل على ذلك وفيرة . فهذه أمّ شعبان التي كانت ، يوماً ، تسرق لي مقصّي ، و في اليوم التالي تقدّم لي جرّة مائها و آخر رغيف عندها . و هذا أبو فارس الذي تفاقم مرضه

فتبرّع له جيرانه بالمبلغ اللازم لإجراء عمليّة جراحيّة . أو الفتى صابر الذي اجتذب نزاعُه حشداً ممنّ تحلّقوا حول كوخه باكين و مصلّين من أَجل شفائه . و إذا ما توفيّ آباء ، كان يهرع ذووهم و جيرانهم إلى تولّي أمور أبنائهم الأيتام تولّياً جادّاً .

على هذا النحو قضيت مدّة خمس سنوات في عزبة النخيل ، مُنفقةً ما يعادل دولاين بالشهر ، من أَجل شراء الفول ، و كانت تلك أَسعد سنوات حياتي ، في فرحٍ عميق الغور ، لأنّها كانت منسجمةً انسجاماً تامّاً مع دعوتي . و مع احتفاظي بوضعٍ نفسيّ ساكن لا إثارة مفرطة فيه و لا انخطافات ، كنت أَعيش سعادة ساجية ، مثل السهم التي تحدّث عنها القدّيس توما الأَكويني التي " عندما تصيب هدفها ينقطع رنينها" . و ما زلت أرى نفسي ، أَتلو مسبحتي ، تحت سماء توشّيها النجوم ، في فناء خنازير لبيب ، في تناغم مع الكون كلّه . و أظنّ أَنّه كان ، ثمّة ، سبب آخر يفسّر سعادتي هناك و في قريتَيْ الصفيح الأُخرييَن حيث عشت حتّى عام 1993 . فعندنا – و ما زلت أَقول " عندنا " – يسود العدل ، و الجميع متساوون ، يكدّون لكسب عيشهم، و يأكلون و يلبسون بنفس الطريقة . و بفضل تضامنهم لم يكن بينهم جائع ، و على غرار الجماعات المسيحيّة الأولى لم يكن أَحد في حاجة ....

و أنا ، كنت قد أَصبحت واحدة منهم ، لا تتمتّع بأيّ امتياز ، و لا بأَيّة ثروة أكثر منهم .

و لمّا عدت إلى أوروبا ، اكتشفت أَنّ تلك حقيقة لا يسهل إفهامها للقوم الشرفاء . و قد يتّفق ، في نهاية محاضرة نظّمتها مؤسَّستي ، أَن تقدّم لي سيّدة حسنة النيّة هديّة ، ، قائلة : " من أَجل فقرائك ، يا أُختاه " ، فأعترض :

– " سيّدتي ، إنّهم ليسوا " فقرائي " ، بل إخوتي و أَخواتي الذين أَسعد باقتسام حياة الفقر معهم "

لقد رفضت دائماً عبارة " الاهتمام بالفقراء " . و لئن أنا شغلت وقتي ، منذ الأسابيع الأولى ، بافتتاح مدرسة صغيرة للصغار ، في زريبة لبيب ، و بتنظيم دروس ليليّة لمحو أُمّــيّة البالغين ، فإنّما كان ذلك من أَجل مساعدتهم على الانعتاق من القذارة و البؤس . و قد شرع الكثيرون منهم يجنون اليوم الثمار . و لكنّني لم أقدّم لهم ، قطّ ، أدنى هديّة . ربّما قدّمتُ مكافآت لمن اجتهدوا ، و لكن لم أُقدّم ، قطّ ، هديّة .

هناك سوء تفاهم آخر طالما صادفته على دربي : فقد أُخذ على كلامي عن الفقراء سذاجته ، فمن جرّاء رغبتي في إظهار جامعي القمامة خير مظهر ، أَميل إلى نسيان أَنّهم ، قبل كلّ شيء ، سارقون ، و سكارى ، و قتلة . و لكن لا يسعني الردّ على من يتّهموني بذلك سوى بهذا : أَعلم أَنّهم سارقون ، و سكارى ، و قتلة ، بل فوق ذلك كاذبون ، و قد يتّصفون

بكلّ الرذائل ، و لكنّهم ليسوا مرائين ، و هذه ، في نظري ، صفة جوهريّة . و أعتقد ، أَيضاً ، أَنّ جرائمهم و عيوبهم ناجمة عن قلّة ثقافتهم ، و خصوصاً عمّا يتعرّضون له من نبذ ، و ما يحيق بهم من ازدراء . في نظر يسوع المسيح ، جامعو القمامة هم ، مثل جميعنا ، رجال و نساء جديرون بالحبّ، وبوسع الحبّ أن يغيّرهم . و قد شهدت ذلك . و رأيت " قشرة " قسوتهم تشرع تتفتّت بعد أَمدٍ قصير .

حادثة قتل هي التي دفعتني ، بعد خمس سنوات ، إلى الخروج من تحفّظي،والتقاط عصا الترحال . فذات ليلة قُتل " بعزق " ، و هو جامع قمامة في الثامنة عشرة ، إِثر لعبة ورق ؛ قتله أَحد رفاقه كان مثله قد أَفرط في شرب " الكحول الحمراء " ، و هي مزيج من كحول الإِشعال و الكوكاكولا .

و حينئذٍ أَدركت أَنّه لو تيسّر للشبّان تسلية أُخرى غير الكحول و الورق ، في أَعقاب جمع القمامة ، لما لقوا مثل هذا المصير ... و انطلقت أَزور أصدقائي ومعارفي في أوروبا و الولايات المتّحدة ، و أختلف إِلى الأَبرشيّات لكي أَتحدّث عن جامعي القمامة ، و أقدّم أَحاديث و محاورات في الإِذاعة و التليفزيون . و لا بدّ من الاعتراف بأَنّني إثر هذه الإتّصالات – التي آسف أَنّها كانت تبعدني عن أصدقائي جامعي القمامة – قد فقدت شيئاً من عدوانيّتي تجاه الأغنياء . فقد برهن هؤلاء المسيحيّون الطيّبون ، " البورجوازيّون " – و ما عاد غيرهم يغشى كنائس الرعايا اليوم – عن سخاء جمّ مكّنني من أن أباشر في قرى الصفيح الثلاث ، بناء ملاعب فضلاً عن بناء مدارس و مستوصفات أدّت إلى تغيير حياة الناس .

إذن ، بعد أَن قضيت خمس سنوات غائصة، حقّاً، في حياة الفقراء ، اضطررت، خلال السنوات السبع عشرة التي تلت ، أَن أَهجر كوخي ، مرَّة كلّ سنة، و في قلبي غصّة ، و استقلّ الطائرات ، في سبيل جمع المبالغ الكفيلة بإخراج أَصدقائي من الشقاء ، و أَيضاً لكي أَشهد ، أَشهد بهذا الواقع الذي لا يُصدّق: أَنّ ملعوني المجتمع هم مباركو اللّه ، و بأَنّ يسوع قد تجسّد ليقاسم الفقراء أَوضاعهم ، وبأَنّه ، في سبيل معركة العدل بذل دمه . و بوسعي القول أَنّ بعض الأَغنياء ، إزاء امرأة مثلي تعيش في الفقر و يثقون بها ، قد يبرهنون عن سخاءٍ مذهل. في نوبات ثلاث تلقّيت شيكّات ، كلّ منها بقيمة مليون .

.... في لندن ، و أَنا صغيرة ، بُهرتُ بالطفل يسوع راقداً على القشّ . أَمّا في عزبة النخيل ، و المقطّم و معادي تورا ، فقد رأيت لدى جاراتي أَطفالاً حديثي الولادة يرقدون على خروق ، و بفضلهم و بفضل والديهم تجسّد المسيح في شخصي لكي يواصل مغامرة فقره و حبّه . و لم يعد لي الفقراء بناء نظريّاً ، أو مثالاً روحيّاً أَعلى ؛ بل إنّ جامعي القمامة قد سمحوا لي أَن أَعيش " علم الحبّ " في جسدي .

بطرس ، فرنسيس ، برناديت و أنا

لقد حباني اللّه بنعم سنيّة ؛ و لكنّ ذلك لا يغيّر شيئاً من واقع أنّني ، مع إكبابي على الصلاة ، قد احتفظت بقسوة طباعي . غالباً ما شعرت بالكبرياء والعُجْب، و بنوعٍ من الشهوة التي تودّ تذوّق كلّ شيء ، تنبجس من أَعمق أَعماق كياني. وحينئذٍ لكي أَستطيع اتّباع يسوع ، و التشبّث به ، أَحتاج إلى مساندة رجالٍ و نساء أَحبّوه ، عبر الأَجيال ، قبلي ، إلى قدّيسين

أدعوهم " كبار العشّاق " . أوَ لم تنصحنا الأمّ ماري ألفونس : " اتّخذوا لأنفسكم أَصدقاء في السماء " ؟

أظنّ أَنّ كلّ مسيحيّ يختار قدّيسين يؤثرهم وفقاً لخبرته و طباعه و تطلّعاته أَيضاً ؛ و أَنا لديّ تطلّعان : تمجيد اللّه ، و مساعدة البشر على العيش ، و هما ، في الواقع ، أَمرٌ واحدٌ ، على حدّ قول القدّيس إيريناوس : " مجد اللّه هو الإنسان الحيّ ."

إنّ أكثر " الأصدقاء السماويّين " إلهاماً لي ، سواء لأَنّ بيني و بينهم شبهاً ، أو لأنّهم يمثّلون الهدف الذي أَصبو إليه ، هم رجلان و امرأة : بطرس ، و فرنسيس، و بيرناديت .

هؤلاء يجسّدون الاندفاع و النَفَس اللّذين أودّ أَن يحدوا مسيرتي في إِثر يسوع .

أَوّلهم بطرس ، صيّاد بحيرة الجليل ، الذي عندما كان يسوع على الأَرض ، اتّبعه باندفاع رائع . ولكنّه في مثل هشاشتي . بسرعة يتحمّس ، وبسرعة يتلاشى حماسه . لمّا رأى ، يوماً ، معلّمه يسيرعلى الماء ، انقضّ نحوه ... و غرق ، فصاح: " يا ربّ ، أَنقذني " ، فأَخذه يسوع من يده ، و عنّفه : " يا قليل الإيمان ! " ومعاً تابعا مسيرتهما فوق الأَمواج .

أَثناء تدريسي في تونس ، خضت تجربة جعلتني أُفكّر كثيراً بهذا الحادث . فقد كانت الحرارة الرطبة الأكثر إرهاقاً من حرارة استنبول الممزوجة بالرطوبة تضنيني ، فأعجز عن فرض حدٍّ أدنى من النظام ، على طالباتٍ شابّات نزّاعات بفطرتهنّ إلى الصخب .

صباحاً ، بعد الإفخارستيّا ، كنت أَندفع، و أَنا في أوج الحيويّة فوق غمار الصفّ المتموّجة ؛ و لكن سرعان ما كان يستحوذ عليّ الانحطاط و خَوَر العزيمة ، فأَدعو : " أَنجدني ، يا ربّ ، من الانهيار " . و كنت أَنتصب واقفة – بل أَجرؤ على القول أَنّه هو كان ينهضني – فأقوى إلى حدٍّ ما ، على تهدئة الاضطراب الذي يكاد يودي بي .

في تلك الأَوقات العصيبة ، كنت أُطالع بلا انقطاع و أعيدُ مطالعة رسالة القدّيس بطرس الأولى ، بطرس الذي كان قد " شاهد " المسيح و هو يبلّغ المسيحيّين الأَوّلين توصياته : " تحبّونه و إن لم تروه ، و تؤمنون به و إن لم تشاهدوه بعد ، وتبتهجون بفرح ممجّد يفوق الوصف " ثمّ يضيف : " و إِله كلّ نعمة الذي دعاكم في المسيح إلى مجده الخالد ، بعد أَن تتألّموا وقتاً يسيراً ، هو نفسه يكلّمكم و يثبّتكم ويقوّيكم، و يجعلكم غير متزعزعين " . تلك السنة التونسيّة المضنية قد علّمتني ، مع بطرس ، أَن أَتشبَّث بالمسيح .

و إنّني ألتقي نفسي بالكامل في واحدة من خصائص بطرس الأُخرى ، أَلا وهي ثورته . فحسب رواية الإنجيليّ متّى ، عندما أَعلن المعلّم أَنّ عليه أَن يشخص إلى أورشليم ، و يعاني جمّاً من الآلام بسبب الشيوخ و الكتبة ، و يقوم في اليوم الثالث ، انتفض بطرس قائلاً : " أَأَنت ، يا مسيحي ، تعاني مثل ذلك ؟ " و انفرد بيسوع و أَضاف : " و قاك اللّه ، ياربّ ، لا

، لن يحدث لك ذلك ! " فردّ عليه يسوع بهذه العبارة الرهيبة : " ابتعد ورائي يا إِبليس ! أَنت تقف في وجهي عائقاً ، فأفكارك غير أَفكار اللّه ، بل هي أَفكار البشر " .

و كان من شأني أَن أَتصرَّف مثل بطرس ، و أَن أَسعى إلى إقناع يسوع بألاّ يدع نفسه يُقتل ؛ و إِذن لما كان بحاجة إلى أَن يقوم ، فيما بعد ، من الموت ، و لوفّر على نفسه الآلام !

و لكنّ أَفكاري ليست أَفكاره . هو يعلم أَنّ إنقاذنا من كلّ الشرور و كلّ الآلام التي يلحقها بعضنا ببعض ، يقتضي منه أَن يقاسيها في صميم جسده و روحه . إِرحمنا يا ربّ ، نحن الأرضيّين المساكين الذين يحاولون أَن يؤمنوا من غير أَن يروا، و لا يرون دائماً أَنّ كلّ ما تقوله آتٍ من عالم آخر .

أَسلفت القول أَنّني لم أَعهد انخطافاً ، و لكن هذا غير صحيح تماماً ، و لذلك يؤثّر فيّ تأثيراً بالغاً حادث التجلّي على جبل طابور ، حيث تذوّق بطرس ، و يعقوب و يوحنّا ، طعماً خارقاً ، و كانوا ، مدى لحظات ، أَقرب إلى السماء من الأَرض . ولا ريب أَنّ بطرس نفسه قد عرف التجلّي ، فهو في رسالته الثانية يتحدّث عنه باندفاع.

و ذات ليلة ، في قرية الصفيح ، عهدتُ ، أَنا أَيضاً ،ضرباً من " جبل طابور". كان الحرّ قائظاً ، و لم أَكن أَمتلك قطرة ماء ، فكدت أَختنق ، و تململت : "لقد ضقت ذرعاً . و أَنت ، يا ربّ ، غير مبالٍ " . و بغتةً غمرني شعور عذب لا يُصدَّق، استحوذ على كلّ جسمي من رأسي إلى أَخمص قدميّ ، و خيّل إليّ أَنّني مفعمة غبطة، بل مشبعة بها ... يسوع و أَنا ، كنّا قد أَصبحنا واحداً .

و حتّى اليوم ، ما انفكّت هذه التجربة – التي لم تتكرّر أَبداً – تملؤني ذهولاً، ففي غمرة تمرّدي ، التقيت اللّه !

و ممّا يزيد من حبّي لبطرس أَنّه إِنسان واهن ، مثلي أَنا ، التي رغم سنّها ، تجتذبها أَشياء تافهة ؛ فمنذ فترة قريبة ، تلبّثت خمس دقائق ، في مطار ، مسحورة أَمام معطف فرو ، و لكأنّني ما زلت في العشرين من عمري ، ممّا أَدهشني أَنا نفسي

بطرس أنكر يسوع ثلاثاً ؛ كان لتوّه قد أَكّد استعداده للموت في سبيل المسيح، ثمّ بعد أَن أَصبح الاعتراف بالانتماء إلى ذلك الرجل خطراً ، أَعلن ، ثلاث نوبات متتالية ، و يده على قلبه ، أَنّه لا يعرفه . و على غراره إِنّني أَضطرم اندفاعاً لنسيان ذاتي و خدمة الآخرين ، ثمّ ، فجأة ، تبرز طبيعتي من مكمنها بموكبها من رغبة في إِبراز ذاتي ، و الإزدهاء بما حقّقته ، و " كبرياء الحياة " على حدّ قول القدّيس يوحنّا. و حينئذٍ أَقول لنفسي : " هيّا ، هيّا ،

يا صغيرتي العزيزة ، بمَ تفخرين ؟ فلستِ أَنتِ من حقّق كلّ ذلك ، بل المسيح حقّقه بواسطتك "

و أَخيراً أَدرك بطرس ، و أَقلع عن الخُيلاء . و في غروب حياته كان قد بلغ من التواضع أنّه طلب أَن يُصلب و رأسه لا إلى فوق مثل المسيح ، فقد كان يعدّ نفسه غير جدير بذلك ، بل رأسه إلى تحت . إنّ حقيقة الكائن تتجلّى ساعة موته . و إِنّي أعترف أَنّني لطالما حلمت بالموت شهيدة مثل بطرس .

أَمّا " العاشق الكبير " الثاني الذي يلهمني ، فهو من استطاع رينان أن يدعوه "تلميذ المسيح الحقيقيّ الوحيد " ، القدّيس فرنسيس . لمَ ؟ لأنّه أَدرك أَنّ معنى التجسّد، بل و جوهره ، هو الانتقال من القدرة الكلّـيّة و الغنى إلى الفقر . لقد ولد فرنسيس اثني عشر قرناً بعد بطرس ، و كان على نقيض التلميذ ، ابن تاجر أَجواخ غنيّ في أسّيزي، شابّاً من عليّة القوم ، ينتظره مستقبل الأسياد ، و لكنّه استسلم ، ذات يوم ، لسحر يسوع المسيح عينه ، الذي اعتلن له على أَنّه ابن اللّه المجرّد من كلّ قدرته ، الباحث عن تلاميذ ، يكونون مثله ، متعطّشين إلى اللّه وحده . و على غرار يسوع ، أَصبح فرنسيس فقيراً معدماً لا يملك شيئاً ، لا سقفاً و لا كتاباً ، و لا أَحذية ، لا شيء سوى الثوب الذي يرتديه . و انطلق على الطرقات كي يعلّم البشر أَن يتحابّوا ، و لا كنز له سوى يسوع ، الذي كان اسمه أَبداً على شفتيه و في قلبه .

و عندما كنت أَعيش في قرية الصفيح كنت أَعلم أَنّ " السيّدة الفقر " ، قرينة القدّيس فرنسيس قد استقبلتني في منزلها . و على غراره كنت أَقول : " إِنّني أَعرف المسيح فقيراً و مصلوباً ، و لست أَحتاج إلى شيء سواه " . أَجل إنّ القدّيس فرنسيس الأَسّيزي يسحرني حقّاً ، هو الذي ، ذات ليلة على قمّة ألفيرا ، استغرق في تأمّل يسوع مصلوباً ، بحيث طبعت سمات المسامير على يديه و قدميه . و قبيل موته ، في تجرّد مطلق ، و بعد أَن تبع يسوع سحابة عشرين سنة ، طلب أَن تتلى على مسمعه رواية الآلام كما جاءت في إِنجيل يوحنّا ، ثمّ في مثل بساطة الأطفال ، التمس تناول قليل من الحلوى باللوز ، و أسلم الروح . و كانت كلماته الأَخيرة : " أهلاً بك ، أَخي الموت . "

موت بطرس البطوليّ و أبّهة فرنسيس المدهشة يُثيراني . و لكنّني أَعرف أَنّ ثمّة احتمالات كبيرة بأنّني ، رغم صلوات شبابي الحارّة ، قد أَموت في مقعد أو فوق سرير ، على غرار بيرناديت سوبيرو . و ربّما ينبع حبّي الجمّ لها من كونها تمثّل الفضائل التي تتناقض و طباعي . إنّ حياة تلك الفتاة المغرقة في البساطة تسحرني بشفافيّتها . إنّ الكنيسة التي جعلتْها تُبنى في لورد تجتذب اليوم بين أربعة ملايين وخمسة ملايين حاجّ كلّ سنة . و ليس في حياتها سوى حدث وحيد بارز : ظهور العذراء ، ذلك " الشيء الأبيض الذي له هيئة فتاة " ،

الذي شاهدته في فرجة مغارة ، في أحد أيّام شتاء 1858، فيما هي ماضية لتحتطب . و عندما عادت إلى نفس المكان، بعد بضعة أيَّام ، طلب منها " ذلك الشيء " : " أتريدين أن تتفضّلي و تأتي إلى هذا المكان طيلة خمسة عشر يوماً ؟ " ممّا أصاب برناديت بالذهول ، لا سيّما وأنّه لم يسبق لأَحد أن كلّمها بمثل هذه اللهجة المفرطة في اللطف . أَهذه هي اللهجة التي أستخدمها ، أنا ، إيمّانويل ، عندما أَلتمس من أحدٍ خدمة ؟ كلاّ ، مع أنّها تتوجّب عليّ ، فهي التعبير عن الاحترام الذي تكنّه السماء لصغار الأَرض .

و استنكرت السلطات رواية تلك الفتاة البالغة الرابعةعشرة من عمرها . فهدّدتها بسجنها إِن هي استمرّت في المثول إلى المغارة ، و في التحدّث . و لكنّ الفتاة لم تهتزّ ، بل قالت ببساطة : " لقد وعدتُ ، و سأمضي إِلى المغارة . فقد رأَيتها، و لن أُنكر أَنّني رأيتها " . لقد جعلتني برناديت أَفهم أَنّ السلاح الأَمضى في معركة اللّه ليست لا الفصاحة و لا الذكاء ، بل البساطة ؛ و قد لحظت من المحاضرات التي أَلقيتها ، أَنّ تلك التي تركتُ فيها قلبي يتحدّث ببساطة كانت أَفضل من تلك التي كنت أُكبُّ على إِعدادها بأدقّ تفاصيلها .

و عندما باحت العذراء لبرناديت بسرّها : " أَنا التي حُبل بها بلا دنس " بدت لها تلك الكلمات من التعقيد بحيث راحت تكرّرها كي تحفظها و هي تجري على الطريق . ملكة السماء كشفت النقاب عن هويّتها لفتاة قرويّة فقيرة : في هذا يكمن كلّ سرّ العهد بين اللّه و البشر !

بعد ثماني سنوات ، أَصبحت برناديت راهبة ، و دافعها الرئيسيّ التواري عن جميع الشخصيّات الهامّة الراغبة في سماع قصّة الظهورات ، فأضحت أَكثر الأَخوات تواضعاً و بهجةً ، و غدت تعنى بالمرضى عندما لا تكون هي نفسها مريضة . لا بل إِنّها ، أَثناء فترة الابتداء ، تعرَّضت للمهانة بسبب الظهورات .

لم تصعد برناديت إلى جبل طابور لكي تتأمّل يسوع في مجده ، مثل بطرس، و لا إلى قمّة أَلفيرنا لكي تتلقى سمات الدم ، على غرار فرنسيس . و أَظنّ أَنّها كانت ستأنس إلى محيط جامعي القمامة .

لم تقضِ برناديت نحبها لا على صليب ، و لا على الحضيض ، بل ماتت من السقم على مقعد في مستوصف الدير . و كانت كلماتها الأَخيرة : " أَبسط ما سيُقال فيّ سيكون الأَفضل . "

طيلة سنوات ، بل عشرات السنوات ، حلمت بأَن أكون شهيدة ، و أَن أصبح قدّيسة بطلة مثل بطرس و فرنسيس . أَمّا الآن ، فبفضل برناديت ، قد أَدركت أَنّ اللّه يطالبني بإنهاء

أَيّامي في البساطة ، و من غير أَن أسأل نفسي عن القداسة و الكمال ، و أن أعيش بلا قناع ، على نحو ما عشت سحابة السنوات الخمس الأولى في قرية الصفيح .

عندما أشعر أَنّ طبعي الجيّاش يفور ، أقول لنفسي " يلّه ! يا إيمّانويل . أَصبحي صغيرة ، و اكتفي بالمكان الأخير . أَصبحي بسيطة ، و انبذي كلّ ما يجعلك تحلمين . أَصبحي فقيرة ، فقيرة القلب على نحوٍ خاصّ ، بتجرّدك التامّ من ذاتك . دعي يسوع يغزوك بأكملك . و على حدٍّ قول القدّيس بولس : " لن أكون أَنا من يحيا بل هو يحيا فيّ " . و هكذا سواء لفظتِ نفسك الأَخير على الخشب ، أو على الأرض أو تحت لحاف ، سيكون موتك موت كبار العشّاق "

عند أَقدام الصليب : " يلّه " ! إلى الأمام

ما أَعذب الترتيل الجماعيّ في الصباح الباكر! في صلاة السحر قبل الإِفطار، و أَثناء صلاة الغروب مساءً قبل العشاء ، عندما أصغي إلى أَصوات أخواتي تتجاوب، و بعضها ما زال صافياً قويّاً ، أَتساءل كيف استطعت أَن أحرم نفسي منها طيلة اثنتين و عشرين سنة .

" يا اللّه ، أَنت إِلهي ، و إِنّي أبحث عنك منذ الفجر " هكذا يقول أَحد أجمل مزامير داود .

لديّ انطباع أَنّ صوتي الخافت ، مثل حجر بين أَحجار الجدار الأُخرى ، يتّخذ مكانه في تصوُّر مسبق لجوقة سماويّة تشدو تسابيح الربّ . " أَيّتها الجبال والتلال ، و الينابيع و الأَنهر ، سبّحي الربّ . أَيَّتها الطيور في السماء ، و النباتات على الأَرض ، باركي الربّ " . نحن زهاء ثلاثين راهبة متقاعدات ، نمثّل البشريَّة كلّها المشيدة بجمال الخليقة و عظمتها .

منذ ثلاث سنوات أَعيش لقاآت ، لقاآت مع الكثيرات من أَخوات جمعيَّتي اللواتي وسمْنَ بطابعهنّ مسيرتي الطويلة حول المتوسّط ؛ و لقاآت خاصّة مع إِيمانٍ أَكثر سجوّاً ، و

حياة أَكثر تأمّلاً . و في سبيل ذلك لا غنى لي عن العذراء مريم . فلست أملك من القوّة ما يمكّنني من اتّباع يسوع بوسائلي الخاصّة . و لكي أَنعتق من كبريائي و أنانيّتي ، أَحتاج إِلى الاندماج في نظر أمّ يسوع و حياتها .

عندما كنت ، في قرية الصفيح ، أَجوب الأكواخ واحداً واحداً لكي أقاسم جامعي القمامة أَفراحهم و أَحزانهم ، غالباً ما جالت بخاطري مريم و هي تزور نسيبتها العجوز ، أليصابات ، التي كانت حُبلى . كانت هذه تقيم بعيداً عن الناصرة ، و قد اضطرت مريم أَن تشخص إليها سيراً على الأَقدام ، مع أَنّها كانت هي نفسها حاملاً بيسوع . و فيما أَنا كنت أتوثّب في الأَزقّة المحفّرة ، كنت أَتخيّل نفسي أَسير إِلى جانب تلك التي أَعلنت عن نفسها أَنّها " أَمة الربّ " . و فيما كنت أَتلو مسبحتي كت أَتساءل : " إِلى من يسعني أَن أَمضي اليوم حاملةً شيئاً من السعادة ؟ " . و عندما اعترفت أليصابات ، و قد امتلأت بالروح القدس ، بكون نسيبتها أُمّاً للّه ، تفوّهت مريم بهذه الكلمات الرائعة التي تظهر إِيمانها بأنّ اللّه إلى جانب الصغار : " تمجّد نفسي الربّ ... لقد شتّت المتكبّرين ، و حطّ المتجبّرين عن عروشهم و رفع المتواضعين " . لكم سعدت باكتشاف العذراء ثائرة !

اليوم ، و قد أَصبحت إنسان صلاة – أي راهبة مهمّتها الرئيسيّة الصلاة – بتّ أَلتفت إلى مرحلة أُخرى من حياة مريم ، عندما كانت عند أَقدام الصليب الذي سمّر عليه ابنها ، فقال لها يسوع ، و هو ينازع ، مشيراً إلى التلميذ يوحنّا : " هذا هو ابنك " ، ثمّ قال ليوحنّا : " هذه أمّك " . و أَدركت العذراء أَنّ الولد الفقير العاري الذي ربّته و أحبّته كان يوكل إليها ، يومها ، البشريّة بأَجمعها . البشريّة الفقيرة العريانة ... عندما أَسير – بخطى أَبطأ من خطواتي عندما كنت أَعيش في قرى الصفيح – على الدرب القصير المؤدّي من غرفتي الصغيرة إلى المصلّى ، غالباً ما أُفكّر بهذه البشريّة ، و قد يبدو مفارقة أَن أَشعر اليوم أَنّني أقرب إلى الأَلم البشريّ و أكثر تضامناً معه ، ممّا كنت أَثناء إِقامتي بين ظهراني الفقراء . في القاهرة ، عندما كنت ، مساءً ، أَتلو مسبحتي و رأسي يتطلّع إلى النجوم فيما أقدامي بين الأقذار ، كان يستحوذ عليّ إِحساس بأَنّني محاطة بعالم شبه متناغم . صحيح أَنّه كان ، هناك ، البؤس الماديّ ، و أَنّ بين الراقدين في الأكواخ المجاورة كان ، ثمّة ، لصوص وكذّابون . ولكن لم يكن أَحدٌ من جامعي القمامة ليتخلّى عن جارٍ له . و لمّا عدت إلى الغرب ، اكتشفت الوحدة ، و اليأس ، و البؤس الروحيّ لدى العديدين من الفرنسيّين ، بحيث تساءلت أَليسوا هم الأَشدّ فقراً و عرياً .

في المساء ، عندما أَنتحي ، وحيدة ، سحابة ساعة أو ساعتين في المصلّى أَستعيد رسائل الاستغاثة التي تتهافت عليّ كثيرة ، و أَستذكر الزيارات و الاتّصالات الهاتفيّة التي

وردتني ، فتلك أمٌّ تعبّر عن يأسها بعد أن نما إليها أنّ ابنها مصاب بالسيدا ، و فيما أُصلّي من أجلها و من أجل ابنها ، يجول بخاطري آلاف الذين يعانون من حالة مماثلة .

و هذه امرأة عجوز تبوح لي بأنّها تكاد تموت من الوحدة في دار مسنّين تحتوي خمسين سريراً . و فيما أردّ عليها – و قد باتت مهمّتي الرئيسيّة في فترة بعد الظهر ، الردّ على الرسائل و الكتابة – و فيما أنا أُصلّي مساءً ، أُحاول أن أنفث فيها نفحة اللّه التي ستؤهّلها لقرع باب جارةٍ لها أو جار . فأنا مؤمنة بتواصل النفوس .

" إلهي ، إلهي ، لماذا تخلّيت عنّي ؟ " إنّني أرى نفسي ، عند أقدام الصليب ، و أسمع صيحة يسوع الأليمة هذه . أو لم يصرخ كلّ كائنٍ بشريّ ، في فترة من حياته ، مثل هذه الصرخة ؟ إنّني أُحبّك ، يا يسوع ، لأنّك ارتضيت أن تغوص في الظلمات ، و مثلنا شعرت أنّك ضحيّة الألم و الموت . ثمّة أيّام تبدو فيها الحياة مغرقة في القسوة و الظلم . لمَ كلّ بحار البؤس هذه التي تتدفّق على الأرض و لا ترحم حتّى الأطفال ؟ و لمَ اللّه ، الذي تدعوه " أباً " و الذي علّمتنا أن نسمّيه " أبانا " يتخلّى عنّا ؟

حيالَ كلّ المجازر التي تطال الأبرياء ، يتبلبل فكري ، أحياناً ، و تبدو لي حتّى فكرة إله الحبّ مزاحاً سمجاً . و لكنّني في تلك اللحظات أحدّق في يسوع المصلوب . إنّه لا يزال حاضراً في جميع المتألّمين و الحزانى .

و لكنّني أعلم ، و أومن ، و أريد أن أومن أنّه قام ! و قد أعلن الملاك قيامته للنسوة اللواتي قصدنَ القبر لأداء واجبات إكرام الميت : " لمَ تبحثنَ بين الأموات عمّن هو حيّ ؟ إنّه ليس ههنا ، بل قد قام " . و إذن ، يا إيمّانويل ، لا بأس من أن تستمرّي بوضع الزهورعلى القبور ، فعلى الإنسان أن يبكي موتاه . و لكن لا تغربنّ عن بالك تجربة القيامة التي خضتها . أذكري بيروت التي وصلتِ إليها في معمعان الحرب : أبنية متداعية ، و حوانيت محطّمة ، و شوارع ملأى بحطام سيّارات محروقة ، ممّا جعلك تستذكرين كلمة دانتي : " أيّها الداخل إلى هنا ، إنسَ كلّ رجاء " . و تذكّري ما رأيت ، بعد بضعة أشهر ، وسط مؤسّسات لبنانيّة جديدة ، ألوف الرجال ، و النساء والأولاد ، الذين كانوا يتعلّمون النهوض ، في الفرح : لقد كان لبنان ينبعث من جديد. و المدارس و المستوصفات ، و النوادي ، و المصانع التي ، عند جامعي النفايات، انبعثت من الأرض ، أليست ، هذه أيضاً ، تذكيراً بأنّ القيامة ممكنة ؟

" يلّه " ، يا إيمّانويل ، استمرّي في النضال حتّى النفس الأخير . صلّي من أجل ولادة عالم آخر ، و تكلّمي ، واكتبي ، و لقّحي الرجال و النساء المتألّمين بالمصل الذي وهبه ذاك الذي مات من أجلنا .

وقوفاً يا قاطني الأرض ! و لنناضل معاً من أجل قيامة العدل و الحبّ !

وقوفاً أَيّها الأَموات ! اهتزّوا في قبوركم . لقد أَحببتم و كافحتم على الأرض؛ فانهضوا : فالسماء مشرعة لاستقبالكم .

و يا يسوع ، إنّك ، كما أعرفك ، حيّ . إنّك حاكيتنا في حياتك .

إلى الأمام ، أَيّتها البشريّة الفقيرة العارية . سيري في دروب الرجاء .

إِذ إنّ لك مخلّصاً .

" يلّه " إلى الأمام ، و لنبتهج أَيّها الأَصدقاء !

الموت ،معك ، جميل

يا ربّ ، إِنّني أُوكل جميعنا إِليك ،
فأنا واثقة بك
واثقة بخلاصك لنا ،
وواثقة أَنّك ستقول لكلٍّ منّا ، نحن المساكين ، يوم موتنا :
" ستكون معي هذا المساء في الفردوس " .
فسيأتي مساء تلبسنا فيه ذاتك ،
أَنت اللّه الذي أَصبح إِنساناً مسكيناً
مثلنا عطشت و جعت ،
مثلنا ، خفت و بكيت ،
مثلنا متّ ،
ووضع جسدك المسكين في قبر ،
كما سيوضع جسدنا ،
و خرجت من القبر متجلّياً
كما سنخرج ذات يوم .
يا حبيبي ، الموت ، معك ، جميل ،
و القيامة تنتظرنا . فشكراً .

عبادة

يا ربّ ، هبني اليوم هذه النعمة : أَلاّ يُفلح شيء في تعكير سلامي العميق الغور، و أَن أَستطيع التحدّث إلى كلّ من سأقابله عن الصحّة ، و الفرح ، والازدهار، فأساعده على اكتشاف الثروات الكامنة فيه .

و ساعدني ، خاصّة ، يا ربّ ، على رؤية الوجه المشرق لكلٍّ ممّن أَعيش معه ، فقد يعسر عليّ أَحياناً ، يا ربّ ، أَن أَتجاوز عيوبهم التي تستفزّني ، كي أَتوقّف عند صفاتهم الحيّة التي أَنعم بها من غير أَن أَلحظ .

و ساعدني ، أَيضاً ، يا ربّ ، على التحديق في وجهك المشرق ، حتّى عندما أواجه أَسوأ الأحداث : فما من حدث لا يمكنه أَن يكون منبع خير، و إِن خفي ذلك عنّي الآن ، و لا سيّما عندما أَعتمد على مريم .

هبني ، يا ربّ ، نعمة أَلاّ أَعمل إلاّ في سبيل الخير و الجمال و الحقّ ، و أَن أَبحث ، بلا كلَل ، لدى كلّ إِنسان ، عن الشرارة التي أودعتها فيه عندما خلقته على صورتك .

و هبني ، أَيضاً ، نعمة أَن يكون لديّ من الغبطة لنجاح الآخرين بقدر ما أَغتبط لنجاحي الخاصّ ، و أَن أَدأب على إِصلاح نفسي بحيث لا يعود يتّسع لي وقت لنقد الآخرين .

و أودّ ، يا إلهي ، أن تهبني الحكمة كي لا أَذكر أَخطاء الماضي ، إلاّ لكي أُسارع نحو مستقبل أَفضل .

أَعطِني ، في كلّ ساعة من هذا النهار ، أن أُظهر وجهاً بشوشاً و بسمة صداقة لكلّ إِنسان ، فكلّ إِنسان هو ابنك و أَخي . أَعطني قلباً أوسع من أن يجترّ أَحزانه ، و أَنبل من أن يُضمر حقداً ، و أقوى من أن يرتعد ، و أكثر انفتاحاً من أن ينغلق دون أيٍّ كان .

أَسألك ، يا ربّ ، هذه النِّعم من أَجل جميع البشر الذين يكافحون اليوم مثلي ، لكي يتضاءل الحقد و ينمو الحبّ ، فمنذ قيامتك انتصر الحبّ و الحياة على البغض والموت .

إِفتح عيوننا على اللامرئيّ لكيلا يقوى شيء على هزّ تفاؤل من يؤمنون بك، و يؤمنون بالإِنسان ، و يضعون رجاءهم فيك و في الإنسان ، آمين .

ظهر للمؤلّف

- قدّيسة من بلادنا – الطوباويّة مريم يسوع المصلوب (سلسلة دراسات كرمليَّة) ، منشورات المكتبة البولسيّة ، جونية ، 1990
- السياسيّ القدّيس – المهاتما غاندي – (سلسلة النوابع) ، منشورات المكتبة البولسيّة ، جونية ، 1992
- فرنسيس ... أَصلح كنيستي (سلسلة النوابغ) ، منشورات المكتبة البولسيّة ، جونية ، 1994
- صوت من لا صوت لهم – الأَب بيير (سلسلة النوابغ) ، منشورات المكتبة البولسيّة ، جونية ، 1997
- حتّى يوجع العطاء – الأُمّ تيريزا الكلكتّاويّة – (سلسلة النوابغ) ، جونية ، 1998

كتب مُعرَّبة

- على درب الحياة مع الكسي كاريل ، دمشق ، 1984 .
- يد اللّه (سلسلة الشهود) ، منشورات المكتبة البولسيّة ، جونية ، 1998
- ثلاث عشرة قصّة (سلسلة الوداع) ، منشورات المكتبة البولسيّة ، جونية ، 1990
- أَيدٍ ملطَّخة بالدَّم (سلسلة الوداع) ، منشورات المكتبة البولسيّة ، جونية ، 1995
- أُذكروا الله – تأَمُّلات من وحي رسائل الصّوفانيَّة ، منشورات المكتبة البولسيّة ، جونية ، 1995
- حدّثني عن الحبّ ، دمشق ، 1999